

مكتبة الطالب

راكيتوف أسس الفلسفة



دار الإقـدم

موسكو

ترجمة موفق الدليمي

БИБЛИОТЕКА СТУДЕНТА

هيئة تحرير السلسلة : فولكوف (رئيسا) ، غوبسكي
(نائبا للرئيس) ، افاناسييف ، زوتوف ، توفيق ابراهيم ،
ظفار امام ، كـون ، كريفوغوز ، بيتروفسكي ، بوبوف ،
مؤنس رضا ، رومانوفسكي ، تومانوف .

А. Ракитов

ОСНОВЫ ФИЛОСОФИИ

На арабском языке

© Политиздат, 1986 г.

© الترجمة الى اللغة العربية مع التعديلات ، دار التقدم ،
١٩٨٩ طبع في الاتحاد السوفييتي

P $\frac{0301000000-100}{014(01)-90}$ 182-90

ISBN 5-01-002-141-2

طريقة الافادة من هذا الكتاب

بُنية الكتاب الذى بين يدى القارىء تراعى تيسير مطالعة المادة التى يتضمنها ومعالجة هذه المادة بتسلسل يختلف تبعا للاهداف والمهمات الماثلة امام القراء . فالمدخل الموسوم «ما هى الفلسفة ؟» يقدم معلومات اساسية عن الفلسفة وموضوعها ومنهجها ومسائلها الاساسية ، وما يميزها عن العلوم الاخرى ، ومكانتها فى منظومة الماركسية اللينينية . ويتضمن المدخل كذلك معلومات عن ظهور الفلسفة ومراحل تطورها الرئيسية ، كما يجرى فيه تعيين المشكلات الاساسية التى سيجرى بحثها لاحقا . وفى الفصول التالية يجرى بحث هذه المشكلات بمزيد من التفصيل ، علما بان مادة البحث موزعة حسب مستوى تنامى صعوبتها . وكل فصل من الفصول التالية يعتمد على ما قبله . ولجل تمكين القراء على افضل وجه من استيعاب الادلة والبراهين التى يمكن بواسطتها اثبات تفوق المادية على المثالية ، والجدلية (الديالكتيك) على الميتافيزيقا ، والفلسفة الماركسية اللينينية على سائر المدارس والتيارات الفلسفية ، جرى تضمين نص الكتاب محاورات او مداخلات تجرى بين اشخاص رمزيين يعبرون عن وجهات نظر مختلفة . وينبغى ان يولى لدراسة هذه المحاورات نفس الاهتمام الذى يولى للنص الاساسى . على مدى فصول الكتاب كافة يجرى مرارا تدقيق الاحكام والتعاريف والمسائل الاساسية واخضاعها للمناقشة ، فى سبيل تأمين استيعاب افضل لمادة الكتاب . علاوة على ذلك ،

ان العديد من هذه الاحكام والمسائل يرتبط بمواضيع مختلفة ، ولا يمكن من خلال مناقشة واحدة استيعابها بشكل عميق وصائب . على سبيل المثال تجرى مناقشة قضية الايديولوجيا والصراع الايديولوجي في مدخل الكتاب ، وفي الفصول الثاني والثالث والرابع والسادس ، ويجرى بحث ومناقشة مبادئ التحزب في الفلسفة ، والصفة المادية للعالم وامكانية معرفته ، والتطور ، والتحويل الثوري للمجتمع في جميع الفصول ، رغم اختلاف حجم ما يخصص لهذه المبادئ من اهتمام في مختلف الفصول : مثلا ، يعتبر مبدأ التطور محورا للفصل الرابع ، ومبدأ امكانية معرفة العالم محورا للفصل الخامس ، وهلم جرا .

لا يحتوى هذا الكتاب على فصل ينفرد خصيصا بمقولات الجدلية المادية . بيد ان هذا لا يعنى بتاتا ان المقولات لا تحظى بالاهتمام المطلوب . على العكس ، ان اهم وابرز المقولات الفلسفية ، ومنها - مثلا - «المادة» ، «الوعي» ، «السبب» ، «الضرورة» ، «الوجود الاجتماعي» ، «الوعي الاجتماعي» ، «الحرية» ، «القانون» ، وغيرها ، يجرى بحثها باستفاضة في الفصول ذات العلاقة ، تبعا لمناقشة هذه او تلك من المشكلات الفلسفية .

لقد زودت فصول الكتاب كافة برمز رقمية تبتدى بصفر (٠) (المدخل) وتنتهى ب٦ (الفصل الختامي) . وجرى تقسيم كل فصل الى فقرات صغيرة لكل منها رقم ثلاثي ، مثلا : ٠٠١ و ٣١١ و ٥٠٦ وهلم جرا . فمرتبة المئات تعنى رقم الفصل ، والمرتبتان الاخريان (الاحاد والعشرات) ترمزان لرقم الفقرة التسلسلي داخل الفصل . على سبيل المثال ، ان الرقم ٠٠١ يعنى الفقرة ١ من المدخل ، والرقم ٣١١ يعنى الفقرة ١١ من الفصل الثالث ، والرقم ٥٠٦ يعنى الفقرة ٦ من الفصل الخامس . وتفرد مجموعة الفقرات المتعلقة بموضوع مشترك داخل الفصل في باب خاص له تسميته الخاصة .

وتتضمن جميع الفقرات اسانيد الى الفقرات والابواب الاخرى تحتوى على المعلومات اللازمة لاستيعاب المادة

الخاضعة للدرس استيعابا جيدا . وهذه الاسانيد عبارة عن ارقام ثلاثية محصورة بين قوسيين . فعلى القارئ الذى يصادف ، مثلا ، الاسناد (٥٠٦) او (٣١١) ان يراجع الفقرة ٦ من الفصل الخامس او الفقرة ١١ من الفصل الثالث . واذا تضمن الاسناد عدة ارقام اقتضى الامر مراجعة مضمون عدة فقرات ، مع ايلاء اهتمام خاص للمقاطع المبرزة فى النص . وتعطى الاسانيد الى ابواب النص السالفة والتالية على السواء ، مما ييسر تبين الروابط الداخلية بين مختلف ابواب الفلسفة ويتيح رؤية وحدتها الباطنية .

ان منظومة الاسانيد تيسر العمل مع الكتاب ايضا عند مطالعته بالتسلسل ، ذلك انها تتيح بسرعة ويسر استذكار المادة المقروءة ولكن غير المستوعبة بما يكفى من الرسوخ . وهى تساعد كذلك على فهم صلة الفقرة موضوعة الدرس بابواب الكتاب وفقراته التالية .

ويعتبر التقيد بالارشادات المذكورة هنا شرطا مهما لاستيعاب اصول الفلسفة الماركسية اللينينية الواردة فى هذا الكتاب .

مدخل ما هي الفلسفة ؟

الفلسفة : لمن ولای غرض

٠٠١

الانسان فى العالم المعاصر . نحن نحيا فى عالم معقد وسريع التغير . ففى غضون قرن واحد وقعت حربان عالميتان ، وانفرط عقد نظام الرأسمالية الذى كان موحدًا فى عهد سالف ، وتحولت الاشتراكية التى اصبحت بادية ذى بدء واقعا فى الاتحاد السوفييتى الى منظومة عالمية ، وتشكلت اسرة الدول الاشتراكية المضطلة ببناء النظام الاشتراكي ، وبرزت على مسرح التاريخ مجموعة كبيرة من الاقطار النامية المتحررة من التبعية الاستعمارية والسائرة على طريق تطورها الذاتى . وثمة علاقات وتناقضات معقدة بين مختلف الانظمة الاقتصادية الاجتماعية ، اكثرها عمقا هو التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية الذى يعين سمة عصرنا ، كونه عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فالشيوعية . الى جانب ذلك ، يشهد العالم فى الوقت ذاته تقدما علميا تقنيا منقطع النظير . فقد خرج الانسان الى الفضاء الكونى ، وهو يتوغل كل يوم اعمق فأعمق فى خفايا الطبيعة . وبات بمقدور العلم والتقنية منذ الآن تأمين مستوى حياة رفيع لمعظم البشر . بيد ان التقدم العلمى التقنى يسفر عن نتائج مختلفة باختلاف الظروف . فالبلدان الغنية المتطورة صناعيا تغدو اكثر ثراء . وثمة جملة من الاقطار التى تخلفت فى تطورها او تطورت ببطء باتت تعاني مزيدا من التبعية لتلك البلدان الغنية . واصبح الجوع والفقر من نصيب عشرات الملايين من

البشر فى الكثير من الاقطار النامية . ويجرى استنزاف الموارد الطبيعية وتلوث البيئة بصورة لا تخضع لرقابة او تحكم . ولا يزال السلاح النووى الذى صنع بفضل منجزات العلم والتقنية العصرية يشكل خطر وقوع كارثة نووية حرارية عالمية تهدد بالهلاك البشرية جمعاء . لهذا اصبحت صيانة السلام وتفادى الكارثة النووية التى قد تبديد الحياة على الارض ، ولاول مرة فى التاريخ ، قضية تمس مصالح البشر قاطبة .

فى هذه الظروف تبرز امام كل انسان تساؤلات هى : ما هى مكانته فى العالم المعاصر ، وما هو بوجه عام هدف الحياة الانسانية ومغزاها وقيمتها ، وما هى آفاق تطور البشرية ، وماذا ينبغى ويمكن لها ان تفعل فى سبيل حل اشد واصعب تناقضات هذا العصر ، وتسخير منجزات العلم والتقنية لما فيه خير الانسان ؟ وفيما يتمثل هذا الخيـر تحديدا ؟ ان ليس باستطاعة اى انسان نشيط وواع ان يتهرب من البحث عن اجوبة لهذه التساؤلات . فالعلم والتقنية بحد ذاتهما لا يستطيعان الاجابة عنها . ثم ان القضية لا تنحصر فى العثور مرة والى الابد على اجوبة صالحة وحفظها جيدا . فالامر الاكثر اهمية هو حيازة طرق ايجاد هذه الاجوبة فى العالم المعاصر السريع التغير والقدرة على التأكد من صحتها وتعلم العمل بموجبها . ان معارف كهذه يقدمها فرع علمى متميز هو الفلسفة .

٠٠٢

«خلاصة العصر الروحية» . ظهرت الفلسفة فى بلاد اليونان القديمة . وكلمة «فلسفة» تعنى فى اللغة اليونانية حرفيا «محبة الحكمة» . بيد اننا فى الوقت الراهن نضفى على مفهوم «الفلسفة» ، مغزى آخر . فما هو هذا المغزى ؟

هناك العديد من المدارس والاتجاهات الفلسفية المختلفة . اما الفلسفة الماركسية اللينينية فهى تجسد كل ما يعد من انفس واثمن ما انجز خلال ٢٥٠٠ سنة من تطور الفلسفة . ولهذا ينبغى لنا كى نفهم ما هى الفلسفة ان

نستطلع قبل كل شيء كيف كان يفهمها مؤسسو الماركسية اللينينية . يقول ماركس : «نظرا لكون كل فلسفة حققة هي الخلاصة الروحية لعصرها ، يحل بالضرورة وقت تغدو خلاله الفلسفة لا من الناحية الداخلية ، اى من حيث مضمونها فحسب ، بل ومن الناحية الظاهرية ، اى من حيث تجليها ، على تماس وتفاعل مع عالم عصرها الواقعى . آذئذ تكبف الفلسفة عن ان تكون منظومة معينة نسبية الى المنظومات المعينة الاخرى ، وتغدو فلسفة بوجه عام نسبية الى العالم ، تغدو فلسفة العالم المعاصر» * .

فى هذا القول يجب ان تفهم كلمة «خلاصة» على انها «اساس» او «جوهر» . على هذا النحو ، يفرد ماركس الفلسفة كمنظومة معارف عن الواقع بأكمله ، اى كمعرفة متميزة عن العالم المحيط بنا .

ان هذا العالم يضم الطبيعة والمجتمع معا . فمنظومات المعارف الاخرى ، مثلا المعارف الاعتيادية القائمة على التجربة الحياتية ، والمعارف السياسية والعلمية والتقنية وما الى ذلك ، تعكس جوانب متفرقة من الواقع ، وهى ضرورية لحل مهمات محددة تماما تبرز فى الحياة اليومية ، فى حقل الانتاج والصراع السياسى ، فى غضون عملية معرفة الطبيعة وهلمجرا . الى جانب ذلك ، يطرح كل عصر وكل فترة فى تطور البشرية مهمات ومسائل تمس مشاكل الحياة الجذرية ، وعلى حل هذه المشاكل يتوقف فى الكثير ايضا مصير البشرية بوجه عام ، ومصير كل فرد . وليس من اليسير البتة فهم هذه المهمات التى تعبر عن مصالح الشعب الجذرية وادراكها واعطاء صيغة صحيحة لها . والامر الاكثر صعوبة هو تعيين السبل والوسائل الصحيحة لتنفيذ هذه المهام ، فهو يتطلب تبجرا كبيرا فى معرفة منجزات مختلف العلوم ، واعطاء صيغة

* ماركس ، انجلس . المجلد ١ ، ص ١٠٥ . (من الآن فصاعدا نورد موضع الاقتباس فى الطبعة الروسية الخامسة من المؤلفات الكاملة للينين ، ومن المؤلفات لماركس وانجلس - المترجم) .

صحيحة للسّمات والخصائص التي تميز بالذات العصر المقصود . وواضح ان هذا يقتضى توفر منظومة معارف خاصة تمتاز عن سائر المنظومات سواها بأنها تبحث لا فى بعض جوانب ومعضلات الواقع ، بل تبحث فى الواقع بأسره ، اى انها «تغدو على مساس . . . بعالم عصرها الواقعى» ، علما بان مركز هذا الواقع يشغله الانسان بطموحاته وآماله وشكوكه وتساؤلاته ، وبكل تناقضاته الداخلية واكتشافاته واوهامه .

أذن ، فالفلسفة كونها «التلاصقة الروحية لعصرها» ، وبصفتها «فلسفة العالم المعاصر» هي منظومة معارف خاصة عن مكانة الانسان فى العالم ، وعن موقفه من العالم المحيط . انها تسعى الى استجلاء اصول النشاط الانسانى وما يلزمه من سنن (قوانين) . وكما نرى فـأن المهام الماثلة امام الفلسفة معقدة جدا . ولا يتسنى وضع معارف فلسفية عميقة وجادة الا للفلاسفة المتخصصين الجيدين الاعداد ، بيد ان هذه المعارف لا تستطيع اداء دور الاساس الروحى للعالم المعاصر ، الا اذا كان بإمكانها - تعبيرا عن مصالح عصرها الجزرية - ان تغدو ملكا للجميع ولكل فرد ، ويجرى استيعابها وادراجها فى اساس النشاط الواعى والهادف . فكيف تغدو المعارف الفلسفية ملكا للجماهير الواسعة من البشر ، وكيف تمارس تأثيرها فى حياتهم ونشاطهم ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة تقتضى تبيان الترابط بين الفلسفة والعقيدة .

٠٠٣

الفلسفة والعقيدة . كيف يمكن للمرء تمضية امسية شاغرة ؟ أينذهب لمشاهدة لعبة فى كرة القدم ، ام يجلس امام التلفزيون ، ام يطالع رواية ممتعة ام يزور زميلا له ليثرثر معه ؟ عند معالجة مثل هذه المسائل يسترشد المرء بمزاجه الانى وعاداته المألوفة وامكانيات يومه . بيد ان ثمة قضايا فى الحياة تتطلب معالجتها توافر قناعات ونظرة واسعة الى العالم وفهما واضحا لاهداف ومغزى الحياة الانسانية . ان

مجموع القنوات الاساسية والنظرات الى العالم وبنيته
ومنشأه ، والى مغزى الحياة الانسانية والغرض منها ، والى
مكانة الانسان فى الواقع المعاصر يسمى بالعقيدة .

من خلال معالجة المذهب عن موقف الانسان من العالم
المحيط تصبح الفلسفة فى مركز المسائل العقائدية كافة .
ويشارك فى تكوين العقيدة - عدا عن الفلسفة - العلم والفن
والدين والتعاليم السياسية المختلفة والتجربة التاريخية
للشعب المعنى وما الى ذلك . ويترك بصماته على طابع العقيدة
نمط الحياة ونشاط البشر المعيشى والانتاجى . غير ان الفلسفة
تشغل مكانة خاصة فى منظومة العقيدة . فقيم تتمثل هذه
الخاصية ؟

ان الفلسفة لا تصدق ما ترى بلا براهين . فمنذ نشوئها
كان الفلاسفة يسعون دوما الى اثبات ما يطرحونه من احكام .
فتراهم يوردون الأدلة دفاعا عنها ، ويضعون التعاليم عن
البراهين الدقيقة وغير القابلة للدحض ويحرصون على اضافة
صفة منطقية ونظام معين على المعارف الفلسفية وترتيبها فى
منظومة ما . وفى الوقت ذاته كان الفلاسفة يعكفون - دحضا
لاراء خصومهم - على وضع قواعد للطروحات النقدية . اذ لم
يكونوا يكتفون برفض هذه او تلك من الاراء ، بل يسوقون
حججا معلة غير متناقضة تدحض هذه الاراء . على هذا النحو
تجد التعليم الفلسفى ، حين يبرهن على هذه او تلك من
النظرات الى العالم ومكانة الانسان فيه ، يقوم بتعليل عقيدة
مناسبة . وفى نتيجة ذلك تغدو الفلسفة بمثابة اساس نظرى
لهذه العقيدة .

ان كل عصر تاريخى ينتج عقيدته . ويرتغن مضمون هذه
العقيدة وشكلها (١١١) بمستوى تطور المجتمع والعلم والتقنية
والثقافة عموما . ومع نشوء الطبقات والتناقضات الطبقيّة
(٢٠٦) تكتسب العقيدة هى الاخرى صبغة طبقية . فالعبيد
وارباب العبيد والاقنان والملاكون العقاريون والعمال
والرأسماليون يتبنون نظرات مختلفة الى العالم ، ويفهمون
فهما مختلفا دور الانسان ومغزى وجوده . وفى مجرى الصراع

الطبقي تسعى كل طبقة الى الذود عن عقيدتها ودحض آراء الطبقات المعادية لها . وعقيدة طبقات المجتمع التقدمية ، كونها الاكثر طليعية بالنسبة للعصر التاريخي المقصود تحتاج هي الاخرى الى تحليل واثبات . فيقوم الفلاسفة المدافعون عن مصالح هذه الطبقة بوضع اصول عقيدة مناسبة لها ، وايراد حجج لصالحها ، ويشحذون أدلة نقدية لمكافحة الآراء الغربية والمعادية . وهذا ما يتجلى فيه الدور المهم للفلسفة او وظيفتها .

يتألف الاساس النظرى للعقيدة البرجوازية من مختلف مدارس واتجاهات الفلسفة البرجوازية . اما الاساس النظرى للعقيدة العلمية التقدمية فهو الفلسفة الماركسية اللينينية . وهى التى تضع وتعلل اهم الاحكام العقائدية ، ومن يمتلك ناصية الفلسفة الماركسية اللينينية بعمق وجدية وابداع يتبنى هذه العقيدة لا بحكم الايمان الاعمى ، بل بحكم القناعة القائمة على الادلة والبراهين العلمية .

٠٠٤

الفلسفة والمنهجية العامة للنشاط والمعرفة . ان ابرز سمة تميز الانسان عن سائر المخلوقات هى ان نشاط الانسان (٢٠٢) موافق لاغراضه . بطبيعة الحال ، ان ليس كل فرد ، وليس دائما ، يتصور نتائج نشاطه القصية . بيد ان الاهداف القريبة التى تقوم لاجلها بهذا الفعل او ذاك تكون عادة واضحة ومفهومة لكل فرد منا . وحين يتصرف المرء بهذا الشكل او ذاك انما يعتمد على معارف معينة . والعكس بالعكس ، ففى سيرورة نشاطه يقوم بتعديل وتصويب معارفه المختلفة ، كما يقوم بوضع اخرى جديدة . وكما نرى فان المعارف والنشاط مترابطان ترابطا وثيقا . فبفضل ماذا يجرى هذا الترابط ؟ انه يجرى بمساعدة قواعد تمل افعالا معينة فى ظروف معينة وتبين بأى تعاقب ينبغى اداء هذه الافعال فى سبيل بلوغ الهدف المرسوم . ومجموع القواعد الثابتة المرتكزة على التجربة الحياتية او المعارف العلمية يسمى بالمنهج .

واذا كان المنهج صحيحا فان النشاط المشيد عليه يفضى

ايضا الى الهدف المنشود . ولهذا جرت العادة فى السياسة وفى الانتاج وفى العلم سواء بسواء على اىلاء اهتمام كبير لوضع وتعليل واختيار مناهج امينة . وفى الرياضات نجد مناهج حسابات مختلفة ، ويقوم علم التربية بوضع مناهج للتعليم والتربية ، وتقوم العلوم الهندسية والتقنية بوضع مناهج لانشاء المباني والجسور وتصميم المكاثن وخطوط الانتاج الاوتوماتيكية وهلمجرا . يسمى علم مناهج النشاط والمعرفة بالمنهجية (الميثودولوجيا) . فلكل علم ولكل ميدان خاص من ميادين النشاط الانسانى منهجيته الخاصة التى تضع وتعلل المناهج الصالحة لمعالجة دائرة محدودة من المسائل . فالمنهجية الفيزيائية تعلل مناهج اجراء التجارب على سرعات الجزيئات البسيطة ، والمنهجية الطبية تعلل مناهج تشخيص وعلاج الامراض ، الخ .

غير ان الناس لا ينشغلون بحل المسائل اليومية الخاصة فحسب ، بل يتوجب عليهم اتخاذ قرارات على الصعيد الانسانى العام الاكثر اتساعا . على سبيل المثال ، يبرز امام الانسان السؤال التالى : هل يعتبر بلوغ اهدافه مبررا لتخريب الطبيعة ، وهل يتوجب عليه ان يسعى فى نشاطه الى حفظ العالم القائم كما هو ، دون تغيير ، ام ينبغي ان يقوم بتحويله على نحو معين ؟ على الانسان ان يضع لنفسه استراتيجية سلوك واسعة ، وهذا يقتضى ان تتوفر لديه بعض الاحكام والقواعد الحياتية التى تبين كيف ينبغي التعامل مع الجماعة ومع الفرد ، مع المصالح الاجتماعية والخاصة ، واى موقف ينبغي تبنيه فى الصراع الطبقي ابان الحرب وفى فترة العمل السلمى . ان حل جميع هذه المعضلات يتطلب توفر مناهج خاصة ومنهجية خاصة . وهذه المنهجية لم تعد ترتعن ببعض منظومات المعارف الخاصة ، ولا ببعض العلوم ، انما بالعقيدة عموما . لهذا السبب تسمى بالمنهجية العامة .

لاجل تبين كيف ترتبط العقيدة بوضع المنهجية العامة للنشاط والمعرفة سوف نتناول مثالا من تاريخ العلم . كانت عقيدة قدماء الاغريق تتسم بتأليه الطبيعة . وكان

لكل شجرة ولكل جدول او تل اله خاص . لهذا كانت فلسفة بلاد الاغريق القديمة تعلق اصولا واحكاما تتطلب الركوع امام الطبيعة وتقويض الاهتمام بها ، لكنها فى الوقت ذاته كانت تحرم تغيير شىء فيها بشكل جوهري ، وتحظر اجراء التجارب بوجه عام ، ذلك ان ليس من حق الانسان تغيير الظواهر الالهية . وقد ادى هذا الحكم العام الى الحيلولة دون تطور الطبيعيات التجريبية فى العلوم اليونانية القديمة . وعلى العكس ، كانت العقيدة البرجوازية فى فترة نمو الرأسمالية الصناعية تتسم بنظرات مغايرة الى الطبيعة والانسان . فقد كان الانسان هو وحده الذى يعتبر حائز القوة الروحية ، اما الطبيعة ، بما فيها الاحياء ، فقد كانت تعتبر بلا روح . وبحكم ذلك ازيلت القيود التى تحظر تغيير الطبيعة واخضاعها للتجارب . وطرح المفكرون البرجوازيون - تعبيرا عن مصالح الانتاج الرأسمالى - مطلب الاستيلاء على الطبيعة والتسلط عليها فى سبيل انماء الصناعة والتجارة . وساعد هذا الحكم المنهجى العام على نشوء علم الطبيعيات التجريبى ، لكنه اسفر الى جانب ذلك عن نتائج وخيمة تمثلت بمرور الوقت فى اشتداد استثمار البيئة وتلويثها وتخريبها . وكما نرى ، فان الاحكام والقواعد المنهجية العامة تؤثر تأثيرا ملحوظا فى طابع المعرفة والنشاط الانسانى ، عن طريق التحكم بسلوك الانسان وموقفه من العالم الخارجى .

فما هى العلاقة بين الفلسفة والمنهجية العامة للمعرفة والنشاط ؟ ان الفلسفة ، كما نعلم الآن ، هى اساس العقيدة (٠٠٣) . فعن طريق تعليل المبادئ التى تتحكم بموقف الانسان من العالم ومن الآخرين ومن المجتمع عموما ، تعلق الفلسفة فى نفس الوقت وتوضح الاهداف التى تضعها البشرية امامها فى كل مرحلة من وجودها ، كما انها - اى الفلسفة - تضع وتعلل وتبرر الاصول والقواعد العامة التى يجب على الانسان الاسترشاد بها فى نشاطه الرامى الى بلوغ هذه الاهداف . وكل علم خاص يضع منهجيته الخاصة لدراسة الطبيعة تجريبيا . فالتجربة على الحيوانات توضع بصورة مغايرة

وترمى الى اهداف تختلف عن الاهداف التى تنشدها الدراسة التجريبية لسطح القمر باستخدام المركبة القمرية . بيد ان كل هذه التجارب والمنهجيات الخاصة التى تعللها وتتحكم بها ما كان لها ان تكون لو لم يكن هناك حكم منهجى فلسفى عام يؤكد ان معرفة العالم على اساس المراقبات السلبية وحدها امر متعذر ، وان هذه المعرفة تتطلب تجربة علمية نشيطة (٥١١) . اذن ، فالفلسفة تؤدى وظيفة مهمة اخرى هى الوظيفة المنهجية ، وتعتبر اساسا للمنهجية العامة للنشاط والمعرفة . وهذا الدور لا يمكن ان يؤديه اى علم آخر . ان الفلسفة ، باعتبارها اساسا للعقيدة والمنهجية العامة ، تؤثر بشكل معين فى عملية تعيين اهداف البشرية فى كل مرحلة من تطورها ، وفى طابع النشاط الرامى الى بلوغ هذه الاهداف .

٠٠٥

الفلسفة والايديولوجيا . الناس مخلوقات اجتماعية . ولاجل بلوغ اهدافهم نراهم يتوحدون فى مختلف المجموعات والمنظمات . وبوسع كل انسان ان ينتمى فى وقت واحد الى عدة من هذه المجموعات والمنظمات . فبالامكان ، مثلا ، ان يكون المرء فى وقت واحد لاعبا فى فريق لكرة السلة وعاملا فى مصنع ، عضوا فى جمعية رياضية وعضوا فى جمعية هواة الطوابع ، وهلمجرا . ولكن لا يجوز الانتماء فى وقت واحد الى طبقتين اجتماعيتين مختلفتين (كأن يكون المرء قنا وملاك عقاريا ، عاملا ورأسماليا) والدفاع عن مصالح طبقية مختلفة (٢٠٦) . ففي المجتمعات الطبقية تكون الاهداف والمصالح الطبقية متعارضة ومتضاربة وغير متهادنة .

ومنذ ان انقسم المجتمع الى طبقات متعارضة - الى مستغلين (بالكسر) ومستغلين (بالفتح) - اصبحت التناقضات الطبقية اعمق تناقضات اجتماعية . لهذا يختلف فهم العالم والنظرة الى الانسان وهدف حياته ومغزاها لدى ممثلى الطبقات المختلفة . وهم يقومون تقويما مختلفا ايضا كل واقعة من وقائع الحياة الاجتماعية وكل حدث او تصرف يؤثر فى مصير ومكانة الطبقة المعنية . وعليه فان مجموع التعاليم

والنظريات والتقويمات المتعلقة بظواهر الحياة الاجتماعية ،
والمعطاة من مواقع طبقة معينة وتعبّر عن اهدافها ومصالحها
الجزرية وتوطد مواقعها الاجتماعية يسمى بالايديولوجيا (٢٢٤).
وبمساعدة الايديولوجيا يجرى استيعاء موقف الناس من الواقع
الاجتماعى ومن بعضهم البعض ، وفيها تنعكس المشاكل
والتناقضات الاجتماعية ، وكذلك برامج النشاط الرامى الى
حفظ وتنمية او تغيير العلاقات الاجتماعية القائمة . وتتجسد
الايديولوجيا فى معتقدات مناسبة ، قانونية وسياسية ومعنوية
وفنية ودينية واقتصادية (٢٢٦-٢٣١) . ومثلما لا يجوز فى
وقت واحد الانتماء الى طبقتين مختلفتين ، لا يجوز ايضا تبني
آراء ايديولوجية مختلفة . ويعتبر ادراك هذا مهما بصفة خاصة
فى عصرنا الراهن ، حين بلغت التناقضات بين النظامين
العالميين - الرأسمالية والاشتراكية ، بين العمل والراسمال ،
بين البلدان التى تحررت مؤخرا من الاستعمار والبلدان
الرأسمالية الغنية درجة هائلة من الشدة . وفى نتيجة ذلك
يستمر تصادم الاهداف والمصالح الاجتماعية والسياسية .
ولكن من الخطأ الاعتقاد بان المجابهة الايديولوجية تعنى الغياب
التام للمصالح المشتركة لدى مختلف الطبقات او عدم وجود
مصالح مشتركة بالنسبة للبشرية جمعاء . وفى ظروف الخطر
المميت المخلق بالبشرية جراء صنع وانتاج السلاح النووى
ياقت صيانة السلام ونزع السلاح النووى والتعايش السلمى
بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة وخفض مستوى
المجابهة الحربية تشكل مصلحة مشتركة وقيمة رئيسة بالنسبة
للبشرية جمعاء .

ان الطبقات المسيطرة تسعى دوما الى فرض وجهات
نظرها وايديولوجيتها وعقيدتها على طبقات وشرائح المجتمع
الخاضعة للاستغلال . فايديولوجيا الطبقة المسيطرة هى
الايديولوجيا السائدة . ومرد ذلك هو ان الطبقة المسيطرة
التي تشكّل الاقلية على الدوام تحتاج لغرض الاحتفاظ
بالسلطة الى الاعتماد لا على الجيش والبوليس والموظفين
فحسب ، بل وعلى الايديولوجيا التي يتسنى بواسطتها اقحام

الاراء والتقويمات والافكار والتصورات التى تبرر وتعزز هذه السيطرة فى وعى الطبقات الاخرى . فمن دون امتلاك وعى الجماهير وبالاغتماد على القوة المسلحة والبيروقراطية فحسب ، ما كان بإمكان اية طبقة مهيمنة ان تحتفظ بالسلطة . لهذا السبب يعتبر الصراع مع ايدىولوجيا الطبقات المسيطرة والتحرر من نفوذها من ابرز واهم مميزات الثورة الاجتماعية (٢١٤) وبناء المجتمع الجديد .

لقد وصف ماركس وانجلز الايدىولوجيا بانها «وعى كاذب» . ولكن لماذا ؟ وما هو المغزى الذى اودعاه فى هذه العبارة ؟ لقد كانت الطبقات المستغلة (بالكسر) تسعى دوما الى تصوير مصالحها وكأنها المصالح الوحيدة العادلة والممكنة ، الابدية والثابتة . وعندما جاءت هذه الطبقات الى السلطة بذلت كل ما فى وسعها من اجل تخليدها ، فحرمت نفسها جراء ذلك من فهم الحتمية التاريخية للتغييرات التى تفضى عاجلا او آجلا الى نظام اجتماعى جديد . اما الطبقات التى كانت مجردة من السلطة وتشغل موقع الخضوع فكانت تسعى الى اخرى ، عند تكوين تصوراتها عن العدالة والنظام الاجتماعى المنشود ، الى اصفاء صبغة الحقائق الازلية والراسخة على آرائها فوقعته بدورها فى اضلولة تمنح عنها عدم فهم حقيقة ان كل مجتمع طبقى وكل ايدىولوجيا طبقية يجب عاجلا او آجلا ان يختفى ليحل محلها المجتمع اللاتبقى .

ايمكن ان تكون هناك ايدىولوجيا حقة تعكس الواقع عكسا صحيحا ، وتضع اهدافا تليق بالانسان وتعطى تقويمات لاحداثها الذاتية فى صالح البشرية جمعاء ؟ انه ، بلا شك ، امر ممكن . ففى بادىء الامر تتكون كأيديولوجيا للطبقة العاملة . انها الطبقة الوحيدة التى تسعى الى الغاء كل اشكال الاستغلال واقامة المجتمع اللاتبقى ، والتى تعي الطابع العابر تاريخيا لمهامها واهدافها . كما ان ايدىولوجيتها لا تسعى الى تحليل نظام ما اجتماعى كونه ازليا وغير قابل للتغير . ففى المجتمع الاشتراكى تغدو ايدىولوجيا الطبقة العاملة - مع

اختفاء الطبقات المستغلة - ايدولوجيا للكادحين كافة ،
تعبير عن اهدافهم ومصالحهم الجذرية . وتتمثل توجهاتها
وقيماها الرئيسية فى الانسان المتحرر والمتطور تطورا شاملا ،
وفى العدالة الاجتماعية والديمقراطية الحقيقية . وتكتسب هذه
الايدولوجيا قيما انسانية عامة كالسلام فى العالم اجمع
والعلاقات المتكافئة والمتبادلة النفع بين البلدان والتعايش
السلمى بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة وحماية
حقوق الانسان . لذا فهى موجهة ضد ايدولوجيا الامبريالية
والروح العسكرية ، وضد محاولات الرجعية المعاصرة ،
الرامية الى مقاومة تحويل المجتمع باتجاه العدالة الاجتماعية
والديمقراطية والانسانية . اما بشأن الحياة الداخلية للمجتمع
الاشتراكى الذى لا يخلو من مختلف التناقضات الحادة فى
بعض الاحيان ، فالخلافات الايدولوجية تتجلى فيه بشكل
مداخلات صريحة ومناقشات علنية للاستراتيجية السياسية
والتكتيك الذى يرسم لاجل بلوغ المصالح والاهداف العامة .
فالاشتراكية المتنامية لا تمت بصلة الى «الثكنة الايدولوجية»
او «الدير» ، حيث يبدو الجميع متشابهين ويتبنون وجهات
نظر متشابهة وليس لديهم اراء شخصية فى المسائل المهمة
حيويا بالنسبة للمجتمع . ان الفوارق فى وجهات النظر ازاء
هذه او تلك من المسائل لا تعنى التخلي عن مبادئ
الاشتراكية ولا الخروج على اطر الايدولوجيا الاشتراكية .
فالاشتراكية لا تلغى تعددية الراى التى تؤمن البحث عن
حلول جديدة .

فى ظروف البيريسترويكا الثورية الجارية فى الاتحاد
السوفييتى من اجل تخطى نزعات الركود التى ارتسمت
معالمها خلال العقدين المنصرمين ، لا محيص من بيريسترويكا
ايضا فى الايدولوجيا نفسها . وفى فترة الركود كانت
اللامبالاة والموقف غير النقدى ازاء النواقص والنزعة المحافظة
وبعض من النزعة الذاتية فى اتخاذ القرارات توضع فى احيان
غير نادرة فى مصاف المبادئ الايدولوجية . ويتطلب تخطى
الركود تطبيق اصلاح اقتصادى جذرى واشاعة الديمقراطية

فى المجتمع . وهذا يثير نوعا من المقاومة لدى من ليس له استعداد للاقدام على مثل هذه التحويلات . لذا تقتضى ايدىولوجيا التجديد تجديدا للايدىولوجيا نفسها . فعليها ان تعطى تقويما دقيقا لاسباب الركود ولكل انتهاكات العدالة الاجتماعية والانحرافات عن الديمقراطية الاشتراكية واعمال القمع غير المبررة التى نفذها ستالين وحاشيته . وعليها ايضا ان تعلق ضرورة البيريسترويكا الثورية للمجتمع . فى هذه الحالة فقط تكتسب الايدىولوجيا الجاذبية لدى اوسع اوساط الكادحين ولدى المواطنين كافة ، وتنال كامل الثقة من السكان قاطبة . وكلما كانت الايدىولوجيا اكثر تعليلا وثباتا ، وكلما كانت حججها مدروسة اكثر ، تقوى تأثيرها فى وعى الناس وسلوكهم . والفلسفة التى تبحث فى اهم واخطر قضايا العصر من حيث اهميتها الانسانية العامة ، وفى تأثير هذه القضايا على الوجود البشرى (١٠٢) ، انما ترسى بذلك الاساس اللازم لتعليل الايدىولوجيا وما يشكلها من قيم واهداف . واذ تتيح الفلسفة ملاحظة تناقضات الواقع وجوانبه السلبية ومن ثم تجاوزها ، انما تساعد بذلك على تطوير الايدىولوجيا . وهذا ما تتجلى فيه الوظيفة الايدىولوجية للفلسفة .

٠٠٦

المهمة الرئيسة للفلسفة الماركسية اللينينية . على منظومة الاراء والتعاليم الفلسفية ، كيما تكون فلسفة العصر الحقيقية بالفعل ، ان تصوغ صياغة صائبة المهمة الرئيسة التى يحددها مضمون العصر التاريخى المعنى . وهذا يتطلب منا ان نعرف ما هو مضمون العصر التاريخى .

ان المضمون الاساس لعصرنا هو الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، اى التطلع الى تغيير بناء العالم اجتماعيا على اسس العدالة . وهذا يعنى توفير فرص متكافئة امام الجميع ، وبلوغ الرخاء المادى ، وتأمين الضمانات الاجتماعية وتطبيق حقوق الانسان بما فيها حقه فى العمل ونيل التعليم ، وتحقيق الديمقراطية الحقيقية والعلمية التامة (الغلاسنوست)

والمجاهرة فى اتخاذ القرارات المهمة اجتماعيا وصيانة البيئة
السليمة لنا ولاحقادنا ، واحترام الكرامة الشخصية والحرية
الشخصية لكل عضو من اعضاء المجتمع ، واخيرا الغاء
استغلال الانسان للانسان . وهذه عملية معقدة وطويلة
يشترك فيها مئات ملايين البشر ، وتترجمها الطبقة العاملة
وطليعتها السياسية - الاحزاب الشيوعية والعمالية .

ويمس الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية كل جوانب
حياة البشر الاجتماعية والشخصية . فهو يرتبط بهدم المبادئ
والتصورات البالية ، وباعادة بناء مجمل العقيدة ، وبالصرع
الايدولوجى الحاد ، ويؤدى الى تغيرات جذرية فى حياة
المجتمع الاقتصادية والسياسية والروحية .

كان البشر يحلمون دوما بحياة افضل ، وبالتخلص من
الويلات والفاقة والاستغلال والجور وغياب الحقوق . بيد ان
الاحلام شئ والواقع شئ آخر تماما . ولا يجوز القول ان
ذوى البصيرة والتبحر من مفكرى الماضى قد صرفوا انتباههم
عن هذه الاحلام والتطلعات . بيد انهم كانوا خلال تناولهم
ومناقشتهم لها يكتفون فى التحصيل الاخير بتفسير واقع
الاشياء القائم ، وذهبوا الى ان جذوره تكمن فى طبيعة
الانسان ذاتها ، وفى تعذر الغاء الفقر والغنى والتسلط
والانصياع . وقد كتب ماركس منوها بهذه الخاصية التى
اتسمت بها كل الفلسفة السالفة : «لم يكن الفلاسفة يفعلون
سوى تفسير العالم على هذا النحو او ذاك ، اما بيت القصيد
فهو تغييره» * . هكذا جرى بشكل جديد ، ولاول مرة فى
التاريخ ، طرح وصياغة مهمة الفلسفة . فما هو مغزى كلمات
ماركس هذه ، وعن اى تغيير للعالم يدور الحديث ؟

ليس صحيحا ، بالطبع ، الاعتقاد بان البشر لم يغيروا
العالم المحيط بهم فى نشاطهم على مدى الالوف المنصرمة من
السنين . فقد قاموا بتغيير طبيعة وتضاريس مناطق سكناهم ،
وبقطع الغابات وشق الاقنية وانشاء المدن وتشبيد منشآت

* ماركس ، انجلس . المجلد ٤٢ ، ص ٢٦٦ .

لم يسبق لها مثيل . غير ان كل هذه التغييرات كانت تجرى ، عادة ، بصورة عشوائية وكان من المتعذر التنبؤ بتبعاتها البعيدة . وعلى مدى الوف عديدة من السنين اختفت دول وظهرت اخرى ، وانصرف وجاء غزاة مختلفون ، وذهب نظام اجتماعي وحل محله آخر . ولكن لم يختف فقر وضيم الكادحين ، كما استمر استغلال الانسان للانسان . ولم تظهر لأول مرة فرصة فعلية لتغيير كامل بنية الحياة الاجتماعية تغييرا جذريا ، وليس فقط جوانب معينة من معيشة ونشاط البشر الا في عصرنا بفضل التطور المنقطع النظير الذى شهدته العلم والتقنية ، وبفضل ظهور الطبقة العاملة الصناعية الاكثر تنظيما ووعيا من سائر الطبقات المستغلة . وهذا التغيير بالذات هو المقصود فى قول ماركس ، وعليه ان يحل التناقضات الجذرية ومشاكل العصر الاكثر التهابا ، وان يغير موقف البشر من الطبيعة ومن المجتمع ومن بعضهم البعض .

اذن ، تتلخص المهمة الرئيسة للفلسفة الماركسية اللينينية ، كونها فلسفة العصر الراهن الحقيقية ، فى اعطاء تحليل علمي لامكانية وضرورة التحويلات الجذرية للحياة الاجتماعية باسرها ، تلك التحويلات التى تقضى الى القضاء على الاستغلال واقامة المجتمع الشيوعى الذى يوفر الفرصة لتحقيق الرفاهية والمساواة الحقيقية والتطور الروحي والبدني الشامل لكل فرد . وما من منظومة فلسفية اخرى وضعت امامها مثل هذه المهمة . وكان طرحها يقتضى اجمال وتعميم تجربة كل العلوم العالمية ، ووضع عقيدة علمية جديدة ، ومعرفة قوانين التطور الاجتماعى وتبيان حقيقة كونها تقود المجتمع بالضرورة الى الشيوعية ، ورسم ايدولوجيا ثورية جديدة ومنهجية للنشاط تتيح القيام بتحويل العالم .

كان فلاسفة الماضى ، شأن الفلاسفة البرجوازيين المعاصرين ، يخصصون مؤلفاتهم ، عادة ، لدائرة محدودة من ممثلى الطبقة المسيطرة . وكانت مؤلفاتهم غير متاحة لاطراف واسعة من الكادحين . ولهذا نشأ عن الفلسفة نفسها ايضا رأى يفيد بأنها حقل غامض يستعصى فهمه على الانسان البسيط .

ان هذا التقويم مرفوض تماما بالنسبة للفلسفة الماركسية اللينينية التى هى الفلسفة الحقيقية للعالم المعاصر ، والتى تستجيب بنشاط وحيوية لكل مسائله الملتهبة ، وتعتبر عن المصالح الجذرية والعميقة لجمهير الكادحين الواسعة . لقد كتب ماركس : «مثلما تجد الفلسفة فى البروليتاريا سلاحها المادى ، تجد البروليتاريا فى الفلسفة سلاحها الروحى . . .» *

المسألة الاساسية للفلسفة وموضوعها ومنهجها

٠٠٧

المسألة الاساسية للفلسفة . لكل علم مسألته الاساسية وموضوعه ، اى دائرة ما يدرسه من ظواهر وعمليات ، وله - اخيرا - مناهج خاصة للبحث . اذن ، لاجل ان نفهم بمزيد من العمق ما هى الفلسفة ينبغى لنا تحديد مسألته الاساسية وموضوعها ومنهجها .

ان تنفيذ المهمة الرئيسة للفلسفة (٠٠٦) يستوعب بالدرجة الاولى الاجابة عن سؤال : ما هو موقف الانسان من العالم المحيط (او علاقة الانسان بالعالم المحيط) ، وهل بإمكان الانسان ان يعرفه ويحوله ؟ وهذا هو جوهر المسألة الاساسية للفلسفة . ولان البشر كانوا منذ القدم يرون خاصيتهم الرئيسة فى كونهم - بخلاف كل المخلوقات الاخرى - مخلوقات مفكرة ، عاقلة وواعية ، فان مسألة علاقة الانسان بالعالم كانت تصاغ هى الاخرى عادة كمسألة علاقة الوعى والفكر بالوجود ، بالواقع المحيط او المادة .

ان هذه المسألة لا تعتبر الاساسية فحسب ، بل وتعتبر المسألة الخاصة للفلسفة . فالعلوم كالفيزياء والفلك والبيولوجيا تحاول الاجابة عن اسئلة ما هى قوانين حركة الجزيئات البسيطة او انتشار الضوء او ما هى بنية الكون وما هى الحياة . اما العلوم الاجتماعية كالتاريخ والاقتصاد السياسى فتسعى الى اعطاء اجوبة عن مسائل تتناول كيفية نشوء البشر ، وما هى قوانين الانتاج الاجتماعى وما الى ذلك .

* ماركس ، انجلس . المجلد ١ ، ص ٤٢٨ .

وثمة علوم خاصة عن التفكير والنشاط النفساني كعلم النفس والمنطق . وهي تحاول الاجابة عن مسائل تتقصى كيف تنشأ تصوراتنا وتخيلاتنا الحسية ، وما هو الغضب والفرح ، الابتهاج والحزن ، وما هي القواعد التي يجب ان يسترشد بها الانسان كي لا تقوده طروحاته وبراهينه الى استنتاجات خاطئة ، وهلمجرا . ولكن ما من علم من هذه العلوم يتناول مسألة علاقة الانسان بالعالم عموما ، اى علاقة الفكر بالمادة بينما تعتبر الاجابة عن هذا السؤال مهمة لا بالنسبة لعلماء الطبيعيات والاجتماع فحسب ، بل وبالنسبة لرجال السياسة وللحياة العملية . فالعالم ، مثلا ، بحاجة الى ان يعرف هل يعطى وعينا وتفكيرنا معلومات صائبة عن قوانين حركة الجزيئات وانتشار الضوء ، وهل نستطيع بمساعدة تفكيرنا ان نعرف الماضى التاريخي وندرس اصول النشاط الاقتصادى . كما ان رجل الدولة والزعيم السياسى الساعى الى تغيير الحياة الاجتماعية وتحسينها بحاجة الى ان يعرف مم ينبغى البدء بالتحويلات الاجتماعية : من تغيير وعى الناس ام من تغيير الوجود الاجتماعى المادى . هكذا يتضح ان الاجابة عن المسألة الاساسية للفلسفة تسترعى عاجلا او اجلا اهتمام العلماء ورجال المجتمع ومن يزاول التأملات النظرية ومن ينصرف كليا الى مزاولة النشاط التطبيقي الفعال ، سواء بسواء .

لم يجر فورا فهم الصلة العميقة التي تربط المسألة الاساسية للفلسفة بكل انواع وجوانب النشاط الانساني . وهي لم تغد واضحة وبادية للعيان الا فى العصر الجديد ، حينما اتاح التطور السريع للعلم وتعاضم نضال الكادحين الثورى الكشف باوفى وجه عن اهمية هذه المسألة بالنسبة للعلم والممارسة الاجتماعية . لذا تكتسب دراسة علاقة الفكر بالمادة ، الوعى بالوجود ، اهمية خاصة بالنسبة للفلسفة المعاصرة ، اى بالنسبة للفلسفة الماركسية .

وللمسألة الاساسية للفلسفة جانبان . ولجل التعمق فى فهم اهمية ومغزى التعريف الذى اعطاه انجلس ينبغى لنا ان نناقش بالتفصيل كلا منهما .

الجانب الاول من المسألة الاساسية للفلسفة .
 المثالية والمادية . عند تأمل علاقة المادة بالفكر يحق لنا ان
 نتساءل : لمن الاولوية ، اى لمن السبق فى الزمن ، - للعالم
 المادى ، اى الاشياء المحيطة بنا ام للفكر والوعى ؟ هذا
 بالذات هو الذى يشكل الجانب الاول من المسألة الاساسية
 فى الفلسفة . وتبلغنا تجربتنا الحياتية بان من اليسير الاجابة
 عن هذا السؤال فى كل حالة بعينها . مثلا ، كان القمر موجودا
 قبل انبثاق مفهوم (فكرة) القمر وصور القمر الشعرية بوقت
 طويل . اذن ، كان الشئ المادى - القمر - سابقا لصورته
 العلمية او الشعرية ، اى سابقا لفكرة ومفهوم القمر .
 وبالمقابل ، قبل ان تحط مركبة لونغود السوفيتية ، وقبل
 ان يهبط رواد الفضاء الامريكان على القمر ، كان يجب ان
 تنبثق وتتطور لدى المصممين والمخترعين والعلماء
 والمهندسين فكرة المحركات النفاثة ونظام ادارة التحليق وما
 الى ذلك . وبعد ذلك فقط ، اى بعد ان جرى تجسيد هذه
 الفكرة فى اجهزة ومعدات تقنية معينة ، تسنى القيام برحلة
 الى القمر . هنا كان الفكر التصميمى والعلمى سابقا لصنع
 الاشياء المادية بهيئة صاروخ ناقل ومختبر قمرى اوتوماتيكى .
 ولو كان المقصود هو مثل هذه الحالات فقط ، لكان حل
 الجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة على ما يكفى
 من البساطة . بيد ان الفلسفة لا تتناول حالات على هذا القدر
 من البساطة ، بل تتناول علاقة الانسان بالعالم عموما . لهذا
 يتضح لنا ان الفهم الصحيح للجانب الاول من المسألة
 الاساسية فى الفلسفة ليس بالامر اليسير هو الآخر .
 فالمطلوب هنا من حيث الجوهر هو استيضاح ما الذى يعتبر
 سابقا وحاسما على صعيد تطور الكون التاريخى باكملة -
 الفكر ام العالم المادى - وما الذى يعتبر حاسما فى نشاط
 الانسان باى شكل من اشكاله - الوعى ام الوجود المادى .
 فى هذه الاطر فقط يكون ثمة مغزى لهذه المسألة (١٢٧) .
 وتبعاً لاجابة الفلاسفة عن هذه المسألة انقسموا الى معسكرين

او اتجاهين كبيرين هما المادية والمثالية . فالماديون يؤكدون ان الاولى والحاسم هو المادة ، والثانوى والمحسوم هو الوعى . والمثاليون يذهبون الى ان الفكر ، الوعى هو السابق والاولى ، اما الثانوى فهو المادة .

وتنقسم المثالية كاتجاه فلسفى معين الى تيارين اساسيين اولهما يعطى الاولوية لفكرة او مثال او وعى يدعى انه كان موجودا منذ الازل ، قبل نشوء المادة والانسان . ويسمى هذا التيار بالمثالية الموضوعية . ولا يقر التيار الثانى المسمى بالمثالية الذاتية الا بوجود الوعى الانسانى الفردى ، اى وعى الذات المعنية . اما باقى العالم المادى فيوصف ببساطة انه غير موجود ، بل متخيل .

وشهد تاريخ الفلسفة كذلك مفكرين حاولوا اتخاذ موقف بينى ، وسطى . اذ كانوا اشبه بمن يعترف بتوازى واستقلالية وتكافؤ مبدأى العالم : المادة والوعى . ويسمى هؤلاء المفكرون بالثنويين . ولم يكن للمذهب الثنوى اهمية مستقلة ، كما لم يكن له تأثير كبير فى تطور العلم ، ذلك ان اكبر واصلب ممثليه كانوا ينتقلون عاجلا او آجلا اما الى مواقع المثالية واما الى مواقع المادية .

فى الحياة اليومية تعتبر الاغلبية الساحقة من البشر اشخاصا ماديين عفويين على غير وعى منهم . لهذا كثيرا ما يبرز السؤال التالى الذى ينم عن الاستغراب : كيف يمكن بوجه عام الذهاب الى المثالية ، الى التصور القائل بان الافكار والوعى تسبق فى تطورها العالم المادى وتحدد مجمل نشاط البشر ؟ ولكن لا غرابة بتاتا فى وجود المثالية . لقد املت ظهورها ظروف اجتماعية تاريخية . فالتعاليم الفلسفية الاولى التى ظهرت فى قديم الزمان تكونت فى حين كان تأثير الدين لا يزال قويا جدا . وبموجب معظم التعاليم الدينية ، المعاصرة والقديمة ، ان الذى خلق العالم هو الله او الالهة ، اى كائنات غير مادية ، تنتصب فوق الطبيعة ، وقادرة على كنى شىء . وكان لهذه المعتقدات تأثير معين فى جملة من التعاليم الفلسفية التى تبنت التفسير المثالى الدينى للعالم .

فلماذا يستمر وجود المثالية فى ايامنا هذه ، حين يقدم
تطور العلم والتقنية عددا غفيرا من البراهين التى لا تدحض
على صواب المادية ؟ القضية هى ان للمثالية جذورا معينة فى
التفكير البشرى بحد ذاته ، وفى ظروف الحياة الاجتماعية .
وسنتناول لاحقا هذه الجذور بمزيد من التفصيل (٥٠٦) ،
اما الآن فنكتفى بالقول ان المثالية ترتبط ارتباطا وثيقا
بعقيدة وايدولوجيا الطبقات المسيطرة ، وتعود بالنفع على
بعض القوى الاجتماعية ، لانها تقدم حججا تشهد لصالح
سرمدية ورسوخ نظام العالم القائم . علما بانها لا تستند الى
هيبة الدين فحسب ، بل وتسوق ادلة معينة دفاعا عن موقفها .
لهذا لا يستطيع الماديون المعاصرون ان يرفضوا المثالية
بسهولة وان ينبذوا حججها كأمر لا قيمة له . انهم ملزمون
بتحليلها واثبات بطلانها والرد عليها ببراهينهم القائمة على كل
منجزات العلم المعاصر والممارسة الاجتماعية السياسية .
وآنئذ فقط تغدو مزايا الفلسفة المادية اكيدة لا جدال فيها .
٠٠٩

حوار المادى مع المثالى . لننظر ما هى الحجج التى يستطيع
التقدم بها الشخص المادى والشخص المثالى دفاعا عن وجهات
نظرهما . لو افترضنا شخصين احدهما مادى والاخر مثالى
موضوعى ، لكان جدلها على النحو التالى تقريبا :
المادى (م) : انت تزعم ان الافكار لها الاولوية ، وهى
تسبق الاشياء المادية .

المثالى الموضوعى (م . م) : هذا صحيح .

م : انا اخالفك الراى . فنحن محاطون باشياء مادية
قابلة للاستشعار بالحواس ، اشياء تستطيع رؤيتها ولمسها
وشمها وتذوقها ، لكننى لم اصادف قط مفاهيم وصورا ذهنية
مستقلة لا علاقة لها بالاشياء ولا تعتبر انعكاسا لها . لهذا
لا اعتقد ان بمقدور الافكار ان تسبق الاشياء وان يكون لها
وجود بدونها . ناهيك عن ان تكون موجودة قبلها .

م . م : حاول متابعة طروحاتى بانتباه ، وآمل ان يتسنى
لى اقناعك بان الافكار تسبق الاشياء المادية وبامكانها ان توجد

بمعزل عنها وقبلها وبصورة مستقلة عنها .

م : انا جاهز .

م . م : قل لى ، من فضلك ، من اين جاءت بدلتك
والمقعد الذى تجلس عليه ؟

م : بدلتى صنعها الخياط ، والمقعد صنعه النجار .

م . م : حسنا ، ولكن صنع البدلة او المقعد يفترض ان
تكون لدى الخياط والنجار فكرة اولية ، اذ يتوجب عليهما
التفكير بفصال البدلة او بشكل المقعد قبل البدء بالخياطة او
نشر الخشب بوقت طويل .

م : هذا صحيح ، ولكن ماذا بعد ؟

م . م : قبل البدء حتى بصنع ابسط حاجة ، يتوجب على
صانعها ان يبتكر ويعى ما يعتزم صنعه ، اى ان الفكرة تسبق
الحاجة المصنوعة .

م : وما الذى يمكن استنتاجه من هذا القول ؟

م . م : ان العالم معقد جدا ، ولا يسع المرء الا التعجب
لتعدد وجوهه وتناسق اجزائه . انظر كيف يبدو كل شيء
متوافقا فيه . فى العالم ترى النحل الذى يجمع الرحيق الحاوى
للعسل بالضبط فى الوقت الذى تقتضى الضرورة تلقيح
النباتات . وهناك الانهار والامطار التى تحتاج الطبيعة الى
مياها . وهناك تعاقب الليل والنهار الذى لا وجود بدونه
للكثير من الكائنات الحية . وتحيط بعالمنا الارضى كميات
كافية من ثانى اوكسيد الكربون الضرورى للنباتات ومن
الاوكسجين الضرورى للاحياء .

م : وما الذى تثبته هذه الامثلة ؟

م . م : سوف انظم طروحاتى الآن فى سياق واحد . اذا
كان لا بد لاحد من ان يقوم بصنع حتى الشيء البسيط كالبدلة
او المقعد ، فكيف كان من الممكن ان ينشأ تلقائيا عالم معقد
ومنظم كالذى يحيط بنا ؟ اذا كان صنع البدلة والمقعد يتطلب
وجود فكرة لدى الخياط والنجار ، فان خلق العالم كان يتطلب
وجود فكرة سابقة له اعقد واكبر مرات عديدة من فكرة الخياط
او النجار .

م : من صاحب هذه الفكرة ؟

م . م : اود القول بان فكرة معقدة كهذه تراعى كل ترابطات الحيوانات والنباتات والهواء والماء لا يمكن ان تكون فكرة شخص بمفرده ، مهما كان عبقريا . انها فكرة قائمة بذاتها . الناس المتدينون يطلقون عليها نعت الله ، لكننى فيلسوف وافضل تسميتها بالعقل العالمى او الفكرة الاولى . والقضية ليست فى التسمية ، بل فى الاقرار بان خلق هذا العالم المعقد والمتنوع والمتسم بهذا القدر من الكمال كان يقتضى ان تسبقه فكرة ، علما بانها يجب ان تكون فكرة سرمدية وعظيمة . على هذا النحو اخلص الى ان الفكرة اولية والمادة ثانوية .

م : انت تزعم ان كل العالم المادى قد خلق وفق فكرة اولية ما خفية . ولكن لمن هذه الفكرة ؟ ان كل فرد من البشر سبق له ان رأى النجار والخياط ، لكن «فكرتك الاولى» او «العقل العالمى» ليست لاحد . فآين ذلك الرأس الذى ابتكرها ؟ ان كل طروحاتك تقوم على كونك تلاحظ جانبا واحدا فقط من القضية ، وتتقصص التزام الصمت بشأن الجانب الآخر . ان كل الوقائع التى تحدثت عنها يفسرها العلم المعاصر دون ان يلجأ الى معونة الرب او العقل العالمى او الفكرة السرمدية . وقد اظهرت الكيمياء البيولوجية ان الكائنات الحية يمكن فى ظروف معينة ان تنشأ من المادة غير الحية (الجماد) . والاكسجين فى غلاف الارض الجوى نتيجة للنشاط الحيوى للنباتات التى تفرزه تحت تأثير ضوء الشمس ، وغاز الكاربون نتيجة نشاط الحيوانات الحيوى . عدا عن ذلك ، اثبت العلم ان الانسان نفسه ثمرة التطور التاريخى الطويل ، والفكر والوعى ثمرة نشاط دماغ الانسان (١٢٠-١٢٤) . علاوة على ذلك ، ان العالم ليس متوافقا بالصورة التى تتحدث عنها حين تنسب ترتيب بنيته الى عقل الهى . ففي العالم امراض معدية وحروب وآلام بشرية وما الى ذلك . ونحن نعلم انه يمكن ويجب مكافحتها . ولو كان كل هذا نتيجة فكرة اولية الهية لكان من المتعذر ان تكون هناك اية مقاومة لقوى الطبيعة الغاشمة

وللجور الاجتماعى . بينما يمكن التغلب على هذا وذاك بواسطة العلم والجهود البشرية . وعليه فان نظرتك تعتبر وحيدة الجانب . انها تناقض العلم المعاصر وتناقض تلك المنجزات العظيمة فى التطور الاجتماعى الذى نعتبر من المشاركين فيه وشهود عيانته .

هنا يشترك فى الحوار شخص جديد مفترض هو المثلث الذاتى ليبر عن وجهة نظره .

المثلث الذاتى (م . د) : انا اختلف مع الماديين ومع المثاليين الموضوعيين على السواء . فانا اؤكد ان المادة عموما لا وجود لها ، وان من المستحيل اثبات وجودها ، وان الاشياء المادية المنفردة تتراعى لنا فقط . انها مجرد عادة لنا .

م : كيف تبرهن على صحة ارائك ؟

م . د : هل لك ان تبلغنى من اين لك ان تعرف ان ثمة تفاحة على الطاولة التى امامك ؟

م : اننى ارى على الطاولة التى امامى شيئا كرويا ، احد جوانبه احمر والآخر يميل الى الخضرة ، وتفوح منه رائحة زكية وله طعم حامض حلو . وانا اطلق على هذا الشئ نعت التفاحة ، واؤكد انه موجود لاننى اراه واشمه والمسه واتذوقه .

م . د : على هذا النحو ، نجد ان «التفاحة» ليست سوى تسمية لاحاسيسك : لشيء حامض حلو ، كروى ، احمر من جانب ومائل الى الخضرة من جانب آخر ، تفوح منه رائحة عطرة . وعندما تلفظ كلمة «تفاحة» ، انما تريد ان تقول ببساطة انك تحس بحواس البصر والذوق واللمس والشم .

م : وماذا نستنتج من هذا القول ؟

م . د : نستنتج ان ليس هناك اى شئ مادى لا علاقة له بنا ، بل هناك توليفة ، نسق من الاحاسيس المعينة ، علما بانها احاسيسنا نحن ، الملازمة لتفكيرنا ووعينا ، او بايجاز للـ«انا» التى تخصنا . ونحن نسمى توليفة الاحاسيس هذه بكلمة «تفاحة» . وبنفس الصورة يمكن القول ان الطاولة والبدلة والمقعد ليست سوى تسميات لتوليفات معينة من الاحاسيس البصرية واللمسية وغيرها .

م : ولكن عليك ، والحالة هذه ، ان العالم كله ليس سوى توليفة لاحاسيسنا ، وان العالم لا وجود له اصلا .
م . د : هذا ما اقصده بالضبط ، عندما اقول ان المادة لا وجود لها . فكلمة «مادة» هي ايضا تسمية لحشد كبير من الاحاسيس التى اعتدنا الظن بانها انعكاس للاشياء . اما انا فأجزم بان ليس هناك ايما اشياء ، لكننا اعتدنا فقط التحدث عن الاشياء : فليس هناك فى واقع الحال سوى تفكيرى ، ليس هناك سوى الـ«انا» التى تخصنى بكل ما يلزمها من احاسيس . وما العالم المادى الا عالم يتراءى لنا ، ما هو الا طريقة معينة للتحدث عن احاسيسنا .

م (مبتسما بتهكم) : انت فى هذه الحالة تدخل حتما فى تناقض مع نفسك .

م . د : وما هذا التناقض فى اعتقادك ؟

م : انت تتكلم معى . ولكنك لا تعلم اننى موجود الا من خلال احاسيسك . ومن وجهة نظرك اننى ايضا لست سوى توليفة من الاحاسيس ، ولست انسانا ماديا واقعيا حيا .

م . د : وماذا فى ذلك ؟

م : من ذلك نستنتج اننى لست موجودا لذاتى بل انا توليفة من احاسيسك ، وانك توجه كل طروحاتك الى احاسيسك الذاتية ، اى انك فى واقع الحال تتكلم مع نفسك وتبرهن لنفسك على وجهات نظرك ، وتحاول اقناع نفسك بصحة آرائك . ولئن توخينا المنطق فسوف نجد ان ليس هناك بشر آخرون ما خلا الـ«انا» التى تخصك . معنى هذا ان ليس هناك احد سواك ، ولا وجود فى هذا العالم لاىما بشر آخرين .

م . د (بوجوم) : انا لم اكن راغبا فى قول ذلك ، ولكن لعلك محق ، فحججى ليست على ما يرام .

سوف يتسنى لنا لاحقا غير مرة التعرض بالنقد للمثالية الموضوعية والذاتية على السواء . اما هنا فيكفى ان ننوه بالسمة التى كان الشخص المادى مصيبا فى تشخيصها ضمن

هذا الحوار ، وهى ان المثالية الذاتية الثابتة الراى تفضى الى مذهب وحدانية الذات ، اى نكران وجود سائر البشر ما خلا الشخص الذى يدلى بوجهة النظر المثالية .

ان مجمل تاريخ صراع المادية مع المثالية الذاتية والموضوعية يرينا ان كلا هذين التيارين يتعارض مع العلم ويناقض كل استنتاجاته . لكننا نجد آراء المثاليين الذاتيين والموضوعيين فى الواقع مموهة ، عادة ، وليست صريحة كما فى المحاورات التى اوردناها ، لذا يتوجب على الماديين بذل مجهود تقدى كبير للكشف عن الحجج الحقيقية للمثالية ، وتوظيف قدر لا يستهان به من الجهود لدحضها دحضا منطقيا معللا علميا .

صحيح ان المادية لا تتهاون مع اى شكل من اشكال المثالية ، بيد ان المادى الجاد لا يستطيع نبذ حجج المثالى ببساطة . اذ لا يجوز دحض المثالية بالادلة الكلامية وحدها . فالمادية تبني براهينها على تعميم نتائج تطور كل العلوم الطبيعية والتقنية ودراسة الفكر البشرى ، وما الى ذلك . واسترشادا بهذه الاعتبارات بالذات سوف نتصرف ونكرس جملة من الابواب الخاصة لمناقشة موقف المادية الفلسفية ، ولا سيما شكلها الاسمى الراهن ، اى المادية الجدلية . وسنتناول فيها بالتفصيل ليس فقط المثالية الذاتية والموضوعية ، بل وكل المضمون الايجابى للفلسفة المادية فى ضوء نتائج ومنجزات العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والتقنية المعاصرة .

١٠

الجانب الثانى من المسألة الاساسية للفلسفة . عند تناول علاقة الفكر بالمادة ، علاقة الوعي بالوجود ، يمكن طرح السؤال التالى : هل بمقدور فكرنا ان يعرف معرفة صحيحة العالم المحيط بنا ، وهل بإمكاننا وضع مفاهيم صحيحة عن الظواهر والعمليات المحيطة بنا ، وهل نستطيع ان ندلى بآراء صائبة عنها ونحكم عليها حكما صحيحا ونتصرف بنجاح استنادا الى طروحاتنا وآرائنا هذه ؟ ان سؤال هل من الممكن معرفة

العالم ، واذا كان ذلك ممكنا فالى اى مدى يستطيع الانسان ان يعرف ويدرك ويدرس الواقع المحيط به بشكل صائب ، او قريب من الصواب فى اقل تقدير ، هو الذى يشكل الجانب الثانى من المسألة الاساسية فى الفلسفة .

وتبعاً للموقف الذى اتخذه هؤلاء او اولئك من الفلاسفة فى حل السؤال عن امكانية معرفة العالم ، انقسموا الى اتجاهين . وينتمى الى الاتجاه الاول القائلون بامكانية معرفة العالم (الماديون وجزء كبير من المثاليين الموضوعيين) ، بينما ينتسب الى الاتجاه الثانى القائلون بعدم امكانية معرفة العالم ، ممن يذهب الى ان العالم كلياً او جزئياً غير قابل للمعرفة (هؤلاء هم ، عادة ، المثاليون الذاتيون) . ويسمى الذين ينكرون امكانية معرفة العالم ، عادة ، باللاأدريين . وليس من الصعب ادراك ان لمسألة امكانية معرفة العالم وطرائق التأكد من صحة معارفنا أهمية بالغة الخطورة فى الظروف الراهنة . فلاجل التأكد من صواب موقفنا علينا ان نكون واثقين بان من الممكن معرفة العالم ، وبان عقيدتنا وايديولوجيتنا تقدمان نظرة صائبة الى العالم وتقويما صحيحا لما يجرى من احداث . لذا فان اللاأدريّة لا تقوض اساس العلم فحسب ، بل واصول العقيدة العلمية والايديولوجيا التقدمية . ولا غرابة فى ان اللاأدريّة تعتبر سلاحا فى الصراع الايديولوجى يستخدمه خصوم الطبقات التقدمية فى المجتمع المعاصر . فبنكران امكانية معرفة العالم تجردنا اللاأدريّة من بوصلة هادية فى العالم . ويعمد اشباعها الى طرائق خبيثة ومتفننة للدفاع عن وجهات نظرهم . وعليه فان الصراع معهم يشكل احدى ابرز مهام المادية الفلسفية المعاصرة .

٠١١

حوار حول امكانية معرفة العالم . كيف يدافع اشباع اللاأدريّة وانصار امكانية معرفة العالم عن وجهات نظرهم ؟ بالنظر لكون اتباع اللاأدريّة هم بالدرجة الرئيسية المثاليون الذاتيون ، ولكون الماديّين ينتمون الى انصار امكانية معرفة العالم ، فسوف يشارك فى الجدل حول امكانية معرفة العالم نفس الشخصين

اللذين افترضناهما (٠٠٩) ، اى المادى (م) والمثالى الذاتى (م . د) .

م : يصعب علينا حتى ان نتصور انسانا عاديا ينكر امكانية معرفة العالم . فتجربتنا الحياتية باسرها تنبئنا بامكانية معرفة العالم .

م . د : ان العكس بالضبط هو الصحيح . ان تجربتنا الحياتية اليومية تركز على مراقبة الاشياء المحيطة بنا وعلى تلقيها الحسى بواسطة حواس البصر والسمع واللمس ، الخ . ، وهى مصدر معارف لا يؤتمن .

م : لماذا ؟

م . د : هذا قلم فى يدي ، يبدو للناظر اليه مستقيما . والآن ساعمر نصفه فى قدح ماء . فكيف تراه الآن ؟ م : ارى القلم منحرفا بزاوية صغيرة .

م . د : على هذا النحو تبلغنا حاسة البصر بان القلم مستقيم تارة ومنحرف تارة اخرى . فأيهما نصدق ؟ كيف يمكن بعد ذلك ان نزع اننا نعرف شيئا يعول عليه حتى بخصوص شىء بسيط كهذا ؟

م : المثال الذى اوردته غير مقنع . هنالك عدة طرق لان نتأكد اى الانطباعات البصرية صحيحة وايها خاطئة . اولاً ، يمكن ان نمرر اصبعنا على القلم دون ان نخرجه من الماء كيما نتيقن من ان الانحراف يتراءى لنا فحسب . ثانياً ، يمكننا ان نغمز القلم بكامله فى الماء ، ففي حالة انغماره التام يكون مستقيماً ، كما هو فى الهواء . ثالثاً ، يمكن صنع علبة ضيقة منحرفة بزاوية صغيرة على غرار القلم المغمور نصفه فى العلبة دون ان نخرجه من الماء ، فنتأكد انه امر متعذر .

م . د : وماذا يستنتج من ذلك ؟

م : ان المراقبة وحدها لا تكفى للتأكد من صحة المعارف ومعرفة الصائب والحقيقى منها ، اى ما يناسب الواقع ، بل تقتضى الضرورة ان نجري ، على الاقل ، ابسط تجربة ، اى ان نقوم بنشاط معين مع القلم وقدح الماء ، كي يتسنى لنا تمييز خداع البصر عن واقع الاشياء .

م . ذ (مواصلا عناده) : هناك ايضا حجج اخرى للشك في صحة المعرفة .

م : ما هي هذه الحجج ؟

م . ذ : في القرن الماضي كان العلماء يعتقدون ان الذرات غير قابلة للتجزئة . بعد ذلك خلصوا بفضل التجارب الى ان الذرات تتألف من نوى وجزيئات بسيطة لا يمكن المضي بتجزئتها هي الالكترونات . وفي السنوات الاخيرة يميل العلماء الى الظن بان الجزيئات البسيطة نفسها تتكون من عناصر فيزيائية خاصة . على هذا النحو نجد ان ما كان يعتبر حقيقة ثابتة في اواخر القرن التاسع عشر اصبح خاطئا في اوائل القرن العشرين ، وان ما كان يعتبر حقيقة ثابتة في اوائل القرن العشرين بات يعتبر الآن خاطئا . فكيف يمكن القول بصحة معرفة العالم ؟

م : انت لا تراعى سنن تطور العلم . ان جوهر القضية هو اننا مع تعمق معارفنا لا نكتفى بنبد الآراء المغلوطة السالفة ، بل ندققها ونجعلها اوفى واصوب . بتعبير آخر ان المعرفة ليست «قطاعا» معزولا ، بل هي حلزون يتكون من عدد لا نهاية له من الاستدارات . لذا فنحن نواجه عملية معرفة تسير خلالها طوال الوقت الى الامام ، نحو معرفة اصوب واتم للعالم . وما المثال الذي اوردته الا توكيد لكون الفيزياء المعاصرة تعرف بنية الذرات افضل مما قبل ٥٠ او ١٠٠ سنة . وهذا لا يؤكد وجهة نظرك ، بل وجهة نظري ، وهي ان بالامكان معرفة العالم ، وهذه المعرفة لا حدود لها .

من الحوار الذي اوردناه نخلص الى استنتاجين مهمين .
١- ان الشخص اللاأدرى يستخدم لاثبات وجهات نظره خداع الحواس (وهو في مثالنا خداع البصر) ولا يعتمد الا على المراقبات السلبية ، علما بانه يتناول كل مراقبة بمعزل عن سواها . اما المادى القائل بإمكانية معرفة العالم ، فلاجل دحض وجهات نظر اللاأدرى يلجأ الى التجربة التي تعتبر جزءا مهما من

الممارسة ، اى من نشاط البشر الاجتماعى الانتاجى .
فالممارسة هى التى تتيح لنا اثبات امكانية معرفة العالم .
٢ - ان اللاادرى يتناول المراحل المختلفة من تطور العلم
دونما ترابط فيما بينها . وهو لا يلاحظ. وحدتها الداخلية
وترابطها ، ولا يلاحظ. تطور العلم ، ولذا لا يتمكن من معرفة
ان كل مرحلة فى عملية التطور تتمم الاخرى ، وان بعض
المعارف تعمق وتدقق المعارف الاخرى . اذن ، فالمعرفة بحد
ذاتها تتطور وبالتالي فنحن نتعرف على العالم المحيط بنا بشكل
اوفى فاوفى .

ان كل علم خاص يدرس موضوعه ومجاله الخاص من
الواقع . فعلماء الفيزياء يدرسون حركة وتفاعل الحقول
والاجسام المادية . ويستكشف علماء الكيمياء كيف تتألف
الجزيئات من الذرات ويسعى علماء البيولوجيا الى فهم ما هى
الحياة ، وما هى قوانينها وهلمجرا . ولكن ما من علم من
هذه العلوم يستكشف كيف يتعرف الانسان على العالم المحيط ،
وكيف وبأية طريقة يتأكد من صحة معرفته . هذه المهمة لا
يضطلع بها سوى الفلسفة عندما تناقش الجانب الثانى من
مسائلها الاساسية . ويسمى ذلك الفصل من الفلسفة الذى
يدرس عملية المعرفة وطرق التأكد من صحتها بنظرية
المعرفة . ولذا فبالرغم من تأكيد اهمية نظرية المعرفة بالنسبة
لفهم جوهر الفلسفة نستطيع وصف مسائلها الاساسية
بالمسألة المعرفية . ومن خلال معالجة التعليم المتعلق
بالمعرفة ومصادرها وتطورها وطرائق التأكد من صحتها ، وتمييز
المعرفة الصحيحة ، اى الحقيقية ، عن المعرفة الخاطئة ، اى
الكاذبة تحل الفلسفة مسائل مهمة لا يحلها اى علم آخر . وهذه
وظيفة اخرى مهمة من وظائفها هى الوظيفة المعرفية .
وسنتناولها بالتفصيل فى الباب الخامس من هذا الكتاب .

١٢٠

منهج الفلسفة والمفهوم التمهيدى للجدل والميتافيزيقا . فى
الحوار الذى اوردناه كانت النتائج والاستنتاجات التى توصل
اليها المتحاوران متعارضة تماما . وهذا امر مرهون الى درجة

كبيرة بكونهما يستخدمان مناهج مختلفة في الطروحات والبراهين . فالمنهج الذى يستخدمه المادى فى هذا الحوار يسمى بالمنهج الجدلى (الديالكتيكي) .

يتطلب المنهج الجدلى للمعرفة تناول كل الظواهر فى العالم المحيط بنا فى ترابطها وتفاعلها وتطورها الدائم . وينطلق هذا المنهج من ان الانسان لا يستطيع معرفة العالم المحيط ومعرفة ذاته الا بشرط كونه سيتناول ويدرس كل الظواهر فى حركتها وتغيراتها الدائمة ، وبالاتباه قبل كل شىء الى الانتقالات المتبادلة للظواهر وتحول بعضها الى بعض . ويسعى المنهج الجدلى خلال ذلك الى العثور (ويعثر بالفعل) على المصدر الداخلى للتطور فى كل شكل من اشكال الحركة ، وفى كل واقعة من وقائع التغير . وهذا المصدر هو التناقضات الداخلية الموجودة فى كل ظاهرة وفى كل عملية ، وصراع هذه التناقضات وحسمها . فالتطور بحد ذاته لا يفهم كتكرار او حركة دائرية ، بل كظهور دائم للجديد ، شريطة ان يبدو فى الظواهر الجديدة نوعيا بعض جوانبها ومواصفاتها وكأنه يكرر ما كان فى المراحل السالفة . وفى عملية التطور يجرى دائما تهدم وتلاشى القديم وانبثاق الجديد ، مع بقاء كل ما هو قيم وحيوى فى هذه العملية .

والمنهج الذى يتعارض مع المنهج الجدلى يدعى بالميتافيزيقى . ويتناول المنهج الميتافيزيقى كل ظاهرة بصورة منفردة وبمعزل عن ترابط وتفاعل الظواهر فيما بينها . ولئن جرت مراعاة هذا الترابط والتفاعل ، فان ذلك يجرى بصورة سطحية وغير عميقة . **وعند تناول التغير والحركة يغفل المنهج الميتافيزيقى عن التطور العقيقى ، ولذا فهو لا يقر بإمكانية بروز ظواهر وعمليات جديدة مبدئيا فى الطبيعة والمجتمع وفكر الانسان .** فمن وجهة النظر الميتافيزيقية ان كل شىء فى العالم يتكرر عاجلا او اجلا ، ويبعدو كل شىء وكأنه يتحرك فى دائرة ، ومصادر الحركة والتغير لا تكمن فى داخل الاشياء والظواهر ، لا فى تناقضاتها الداخلية ، بل فى دافع خارجى ، فى قوى خارجة على الظاهرة المعنية . ولا

يقر المنهج الميتافيزيقي بالتحويلات النوعية الجذرية والتغيرات الثورية في العالم المحيط بنا ، بل يحاول تصوير كل شيء بهيئة ارتقاء انسيابي وتغيرات كمية ضئيلة الاهمية . ان المنهجين الجدلي والميتافيزيقي يتعارضان تعارضا جذريا . ففي عصرنا العاصف ، في عصر التغيرات الثورية العميقة والتطور السريع للعلاقات الاجتماعية والاقتصاد والعلم والتقنية والثقافة عموما ، لا يتسنى الا للتعليم الفلسفي الذي يعتمد على المنهج الجدلي ويستخدمه في حل معضلاته ان يؤدي بنجاح دور «الخلاصة الروحية لعصره» (٠٠٢) .

ولكلمتي «الديالكتيك» و«الميتافيزيقا» اصل يوناني قديم . اذ كانت الاولى تعنى بادی ذي بدء فن او قاعدة التوصل الى الحقيقة من خلال الجدل * عن طريق مقارنة الآراء المتعارضة . والكلمة الثانية (التي تعنى حرفيا «ما بعد الفيزيا») استخدمها الفيلسوف اليوناني القديم البارز ارسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق . م .) عنوانا لمؤلفه الفلسفي الرئيس . واحتراما له كانت الميتافيزيقا تسمى على مدى قرون عديدة بالفلسفة عموما . بيد ان مغزى هاتين الكلمتين تغير منذ ذلك الحين تغيرا جذريا ، ولسوف نستخدمهما نحن ايضا ، مقتفين آثار ماركس وانجلس ولينين ، بالمغزى الذي تستخدمان به في هذه الفقرة . وسنتناول بالتفصيل جوهر المنهج الجدلي في الباب الرابع من هذا الكتاب .

٠١٣

موضوع الفلسفة الماركسية اللينينية . الماركسية اللينينية علم عن التحويل الثوري للمجتمع وبناء الاشتراكية والشيوعية . ومكوناته هي : نظرية الشيوعية العلمية التي تدرس سنن الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكي والشيوعي ، والاقتصاد السياسي الذي يدرس قوانين الانتاج الاجتماعي ونشاط البشر الاقتصادي ، وفلسفة الماركسية اللينينية . وبالنسبة لنظرية الشيوعية العلمية والاقتصاد السياسي تعتبر الفلسفة الماركسية

* لذا ارتأينا استخدام «الجدلية» عوضا عن «الديالكتيك»
- المترجم .

اللينينية اساسا عقائديا وايدولوجيا ومنهجيا ، وهي تقوم بوضع المناهج والمبادئ النظرية للمعرفة العلمية التي يستخدمونها في معالجة مسائلهما . وتترابط مكونات الماركسية اللينينية فيما بينها ترابطا لا ينفصم ، وتتحدا اتحادا وثيقا . والتسمية العلمية للفلسفة الماركسية اللينينية هي المادية الجدلية والتاريخية .

ان تسمية «المادية الجدلية» تدل على ان التعليم الفلسفي يعطى جوابا ماديا عن المسألة الاساسية في الفلسفة ويستخدم المنهج الجدلي في مناقشة وحل كل المعضلات الفلسفية والعقائدية والمنهجية والايدولوجية والمعرفية المعقدة . وبذا يختلف هذا التعليم اختلافا جذريا عن سائر اشكال وانواع الفلسفة السالفة ، كذلك عن باقي التعاليم الفلسفية غير الماركسية الموجودة في هذا العصر :

لقد نشأت الفلسفة المادية منذ عهد سحيق . بيد ان المادية لم تكن تشمل سوى فهم ترابط الطبيعة والفكر . اما الآراء المتعلقة بالمجتمع فقد كانت تسودها الآراء المثالية حتى بروز المادية الجدلية . اذ كان مفكرو الماضي ، بغض النظر عن كيفية معالجتهم للمسألة الاساسية في الفلسفة عموما ، يجمعون على ان العامل الحاسم في الحياة الاجتماعية هو الافكار ، الوعي ، هذه او تلك من آراء الناس ، اما الواقع المادي والعلاقات الاجتماعية وانتاج الخيرات المادية فترتهن كلياً بهذه الافكار والآراء ، وليست سوى وسيلة لتطبيقها . ولهذا السبب بالذات كانت الشخصيات والفئات الاجتماعية الساعية الى تغيير النظام الاجتماعي الجائر تسعى الى الشروع في تطبيق تحويلاتها من تغيير الافكار والوعي وآراء الناس ، وكانت خلال ذلك تمنى كل مرة بالهزيمة . ولكون المهمة الرئيسة للفلسفة الماركسية اللينينية هي ليست مجرد تفسير العالم ، بل تحليل سبل تغييره ، فقد راعى مؤسسها هذه الفلسفة ماركس وانجلز تجربة اسلافهم الفاشلة ، وسلكا سبيلا مغايرا ، وهو انهما نشرتا الفهم المادي لا على الطبيعة والفكر فحسب ، انما ايضا على مجمل تاريخ المجتمع البشرى ، وعلى كل اشكال

النشاط الاجتماعى . لهذا تعتبر المادية الجدلية الى جانب ذلك مادية تاريخية ايضا . ويتلخص اختلافها الجذرى عن سائر التعاليم المادية السالفة فى كونها «استكملت بناء» المادية وصولا الى الفهم المادى للتاريخ والحياة الاجتماعية . اذن ، ليس صحيحا الظن بان المادية الجدلية والتاريخية منظومتان فلسفيتان مختلفتان او فصلان مستقلان فى الفلسفة الماركسية اللينينية . ان فلسفتنا واحدة هى المادية الجدلية لانها تضع وتستخدم منهج المعرفة الجدلى ، وتجيب ماديا عن المسألة الاساسية للفلسفة . وهى الى جانب ذلك مادية تاريخية لانها تعمم المادية على المجتمع ، وترى ان الوجود الاجتماعى المادى يحدد الوعى الاجتماعى ، وتعتبر التاريخ عملية جدلية متنامية . على هذا النحو نجد ان الفلسفة الماركسية اللينينية تبحث فى اعم علاقات الانسان بالعالم وتكشف عن الروابط والقوانين العامة فى تطور الطبيعة والمجتمع والفكر . وهذا هو ما يشكل موضوع الفلسفة الماركسية اللينينية التى هى الاساس النظرى للايديولوجيا الثورية والعقيدة العلمية الاكثر تقدمية فى العصر الراهن .

٠١٤

مبدأ التعزب فى الفلسفة . بإمكان الناس الذين يعتنقون آراء مختلفة ان يتوصلوا فى الحياة اليومية ، او حتى فى السياسة ، الى اتفاق او ان يجدوا حلا وسط بشأن هذه او تلك من المسائل . اما حين يتعلق الامر بالاصول الفلسفية للعقيدة ، التى تعبر عن وجهة نظر مثالية او مادية ، فان مثل هذا الاتفاق او الحل الوسط يغدو متعذرا . وقد شهد تاريخ الفلسفة قدرا غير قليل من المحاولات الرامية الى التوفيق بين هذه النظرات المتعارضة الى العالم . بيد ان الجوهر الحقيقى لمثل هذه المحاولات كان واحدا على الدوام ، وهو اخضاع المادية للمثالية وانتزاع التنازلات من الاولى لصالح الثانية . لهذا كان الماديون والمثاليون الثابتون يخوضون منذ اقدم العهود صراعا حادا لا هوادة فيه . وقد اطلق لينين اسم المادى اليونانى القديم ديمقريطس (زهاء ٤٦٠ - حوالى ٣٧٠ ق . م) والمثالى

الموضوعى افلاطون (زهاء ٤٢٧-٣٤٧ ق . م) على هذين الاتجاهين فاسماهما خطى ديمقريطس وافلاطون ، مؤكدا انهما يشكلان حزبين لا يتهاذنان فى الفلسفة . والاقرار باللاتهادن بين المثالية والمادية هو السمة المهمة الاولى لمبدأ التحزب الماركسى فى الفلسفة . ويكمن هذا اللاتهادن فى الحياة الاجتماعية ذاتها .

لقد كانت الفلسفة منذ ظهورها حتى الآن ولا تزال تعبر عن المصالح والاحتياجات الروحية والعقائدية والايديولوجية لقوى وفئات وطبقات اجتماعية معينة . بيد ان مؤسسى مختلف التعاليم الفلسفية كانوا يسعون دوما الى تصوير وجهات نظرهم وكأنها تعبر عن المصالح الانسانية العامة ، والى تمويه جوهرها الطبقي واتجاهها الايديولوجى .

وبخلاف جميع التعاليم السالفة تجاهر المادية الجدلية صراحة بأنها تعليم فلسفى يعلل عقيدة وايدولوجيا الطبقة العاملة وجماهير الكادحين الذين تقودهم . والاقرار الصريح بترابط العقائد والتعاليم الفلسفية بمصالح الطبقات والصراع الطبقي هو السمة المهمة الاخرى لمبدأ التحزب فى الفلسفة . ولا ينبغى التماهى كليا بين مبدأ التحزب فى الفلسفة والتحزب بالمغزى السياسى الذى يعنى الانتماء الى منظمة سياسية معينة ، او الى هذا الحزب السياسى او ذاك . فالمادية الجدلية هى الاساس الفلسفى لعقيدة الاحزاب الشيوعية والعمالية وايدولوجيتها ومنهجية نشاطها . غير ان هذا لا يلغى انتشار المادية الجدلية على نطاق واسع ايضا بين الذين يعتنقون آراء سياسية واجتماعية تقدمية لكنهم ليسوا اعضاء فى هذه الاحزاب .

ان ارتباط مختلف التعاليم الفلسفية بالمصالح الطبقي والصراع الطبقي ليس بسيطا ولا مباشرا . لهذا يجب فى كل حالة معينة ان تجرى دراسة دقيقة للآراء الفلسفية ذات العلاقة ، بعدئذ فقط يمكن القول بكل تحديد ما هى القوى الاجتماعية وما هى الاهداف والمصالح التى تخدمها هذه الآراء . على هذا النحو ، يعتبر مبدأ التحزب وسيلة مهمة لتعيين

المواقف الاجتماعية التي يتبناها كل فيلسوف او عالم او شخصية اجتماعية تتبنى هذه او تلك من العقائد الفلسفية وتستخدمها فى نشاطها . وسنعمد بثبات هذا المبدأ فى جميع فصول هذا الكتاب .

نشوء وتطور الفلسفة

٠١٥

فلسفة العهود القديمة . ظهرت اولى التعاليم الفلسفية خلال القرنين ٦-٧ ق . م ، فى الصين والهند واليونان القديمة . وجاء ظهور الفلسفة مواكبا للانتقال من النظام المشاعى البدائى الى مجتمع العبودية الطبقي . ورافق هذه الفترة الانتقالية صراع حاد بين المالكين والمعدمين وانبثاق كيان الدولة ومبادئ المعارف العلمية ، الامر الذى حدد ايضا طابع التعاليم الفلسفية الاساسية التى عللت النظام الاجتماعى الجديد . وللخط الذى يمتد من الفلسفة اليونانية القديمة جل الاهمية بالنسبة لفهم الفلسفة المعاصرة .

لقد جرت العادة على تسمية كل ما يتعلق بتاريخ بلاد اليونان وروما القديمة بالعهد القديم . وقد نشأت الفلسفة القديمة على اساس من المعارف العلمية التى ظهرت فى ذلك العهد . ومنذ البداية كانت الفلسفة تناقض وتعارض فى الكثير العقيدة الميثولوجية الدينية التى نشأت فى فترة متأخرة من النظام المشاعى البدائى اللاتبقى . وكان العلم الناشئ ، وبالدرجة الاولى الرياضيات ، يعتمد على البرهان لا على الايمان . وقد لعبت البراهين دورا كبيرا فى الحياة الاجتماعية السياسية للمدن - الدول اليونانية القديمة . ودخلت الفلسفة التى قامت بوضع قواعد تصنيف المعارف وتعليلها وبراهينها فى تناقض مع الميثولوجيا القائمة على الايمان والمفتقرة الى التصنيف والبراهين .

وكانت الفلسفة بادىء ذى بدء تشمل كل المعارف وكل الحكمة . وكان مركز الفلسفة القديمة تشغله مسألة كيف

تبدو بنية العالم ، وهل يمكن تفسير العالم «من داخله» ، وهل بإمكان الانسان ان ينال الطمأنينة والغبطة حين يعرف بنية العالم . ومنذ البداية ارتسم في الفلسفة اتجاهان مادي ومثالي . وكان ممثلو الاتجاه الاول يذهبون الى ان صلب (او جوهر) العالم تؤلفه العناصر المادية التي نصادفها في حياتنا اليومية وهي الماء والهواء والنار والتراب . وفي وقت لاحق تقدم ديمقريطس بتعليم عن الجزيئات المادية غير القابلة للانقسام هي الذرات باعتبارها اصل العالم . وكان ماديو الماضي انصارا عفويين عن غير وعي لمقولة ان الاولوية للعالم المادي ويعتقدون بانه كان موجودا حتى قبل الآلهة . وعلى العكس ، كان المثاليون - فيثاغورس (حوالي ٥٧٠ - حوالي ٥٠٠ ق . م) واتباعه الفيثاغوريون وافلاطون - يعتقدون بان اصل العالم هو اشكال الوعي ، الارقام (حسب فيثاغورس) او الافكار (حسب افلاطون) .

كان المفكرون اليونانيون في نظرتهم الى العالم يتلقونه كليا بمثابة كون واحد كل شيء فيه يجرى ويتغير ويتلاشى وينبثق . وكانت هذه النظرة ساذجة بعد ، لكنها الى جانب ذلك نظرة جدلية . وارتقى مفكرو الماضي الى ادراك ان مصدر حركة وتغير الظواهر المتفرقة هو - كما ينبغي الاعتقاد - التناقضات الداخلية الملازمة لها . بيد ان فهمهم للتطور كان محدودا ، اذ كان الاعتقاد السائد هو ان كل شيء في الكون يتكرر عاجلا او آجلا ، ولا جديد اطلاقا . وكانت دراسة تغيرات وحركة وبنية الكون المعضلة المركزية في العلم والفلسفة اليونانيين ، اللذين بلغا ذروتها في مؤلفات ارسطو ، حيث قام بتصنيف كل المعارف المتاحة له في مجال الفيزياء والبيولوجيا والاخلاق وعلم المجتمع ، فوضع اول تعليم مصنف عن البراهين . وقد تعرض ارسطو بالنقد لآراء معلمه افلاطون المثالية ، لكنه لم يتخلص نهائيا من المثالية . اذ كان يعتقد - تحديدا - ان حركة العالم نتجت عن دافع خارجي ، او المحرك الاول . وكان لآراء ارسطو تأثير كبير في تطور الفلسفة اللاحق .

فلسفة الشرق . لقد اسهمت التعاليم الفلسفية لفلاسفة الصين والهند وشعوب المشرق العربى اسهاما كبيرا فى تطور الثقافة العالمية . وتطورت هذه التعاليم على يد الكثير من المدارس والمفكرين على امتداد مجمل تاريخ هذه الدول وانتشرت خارج حدودها فى جملة من بلدان المنطقة الاسيوية . وتمثل السمة المميزة للتعاليم الدينية الفلسفية الشرقية خلال العهدين القديم والوسيط فى غلبة توجهها نحو العالم الداخلى للانسان . فالكونفوشية ، مثلا ، تتسم بالترابط الوثيق ، بل وحتى باندماج التعاليم الدينية الخلقية والاجتماعية السياسية التى تداخلت فيها تداخلا وثيقا معضلات الكمال الشخصى بالتعاليم المتعلقة بالاسرة والادارة السياسية والعمل واحترام المسنين وما الى ذلك . وتتسم مدارس الهند الدينية الفلسفية بعمق وحدة الاصل الكونى والشخصانى . فبالاعتماد على التعاليم الدينية الفلسفية كان مفكرو الهند فى العهدين القديم والوسيط يولون اهتماما كبيرا لقضية التوازن الروحى والتحرر من المعاناة والالم وبلوغ وحدة الانسان بالعالم ، بجوهره الاولى . واتاح الاهتمام العميق بعالم الانسان الداخلى ، النفس الذاتى للفلاسفة الهنود تحليل ضرورة سعى الانسان الدائم الى الكمال الذاتى . والسمة الاخرى المهمة مبدئيا للفكر الفلسفى الهندى هى تحليل السلوك المسالم والتصرفات الخالية من العنف والسعى الى تخليص النفس والآخرين من المعاناة والالم والتحرر من الاهواء الدنيوية والشهوات الجسدية .

وجرى ضمن اطار التعاليم الاخلاقية الفلسفية للهند والصين القديمتين وضع آليات مبدئية وتطبيقية للتهديب الذاتى وتمارين الارادة والوعى ، وتقنيات كبح الاهواء وتنشئة ثقافة عاطفية معينة . ولتقنيات تركيز الفكر والتمارين الذاتى التى وضعت وصقلت على هذا الطريق اهمية لا ريب فيها بالنسبة للعلم العصرى المتعلق بدراسة الانسان .

لقد كان العديد من رجال السياسة الافذاذ فى الهند ،

ممن وهب كل قواه للنضال فى سبيل استقلال وطنه وحرية ،
ومن اجل مثل العدالة والتعايش السلمى بين الدول ذات
الانظمة الاجتماعية السياسية المختلفة ، وعمل على انماء هيبة
الهند ، من امثال غاندى ونهرو وردها كرشنان من كبار
العارفين بالفلسفة الهندية ، وقد اكدوا مرارا دورها فى
تكوين عقيدتهم وآرائهم السياسية .

وبعد ظهور الاسلام ابان القرن السابع نشأت فى اقطار
العالم العربى واخذت تتطور سريعا الفلسفة العربية .
واستوعب المفكرون العرب استيعابا عميقا تراث اليونان
القديمة ، واسهموا اسهاما كبيرا فى تطوير الرياضيات وعلم
الفلك والطب وعلم الاخلاق . ووضع ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧)
وابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) مؤلفات موسوعية نوقشت
فيها معضلات علم الكونيات والمنطق والرياضيات وطائفة
كاملة من المشاكل الفلسفية البالغة التعقيد . وكان لمؤلفات
المفكرين العرب تأثير عظيم فى الفلسفة الاوربية ابان
القرون الوسطى ، كما انهم صانوا تراث الماضى الفلسفى
وجعلوه متاحا امام علماء القرون الوسطى الاوربيين . ويمكن
القول دون مبالغة ان الفلسفة العربية ساهمت الى حد معين
فى التحضير للتطورات الثقافية العميقة التى شهدتها فلسفة
عصر النهضة .

على هذا النحو ، مارست منجزات الفكر الفلسفى الشرقى
ولا تزال تمارس دورا جوهريا فى انماء الثقافة العالمية .
١٧ .

فلسفة القرون الوسطى . ادى انحطاط المجتمع القديم الناجم
عن تناقضاته الداخلية الى ظهور النظام الاقطاعى . وتكونت
الثقافة الاقطاعية القروسطية الجديدة . وبات يشغل موقع
السيطرة فيها الدين المسيحى والكنيسة . فالرب ورسله
وملائكته فى السماء يقابلهم الملوك والدوقات والبارونات
على الارض . وغدا الدين المسيحى الذى اصبح الدين السائد
يعبر اوفى تعبير عن مصالح الطبقة المسيطرة ويعمل
ايدولوجيتها . ولجل تبرير وتوكيد مصداقية الدين المسيحى

اضطر علماء اللاهوت فى القرون الوسطى الى مراجعة تراث
الماضى الفلسفى ، فاستخدموا خلال ذلك آراء افلاطون المثالية
وتعاليم ارسطو عن البراهين المنطقية التى جرى تكييفها طوال
فترة القرون الوسطى (من القرن الخامس الى القرن الرابع
عشر تقريبا) لخدمة احتياجات المسيحية ، فاصبحت الفلسفة
خلال هذه الفترة خادما للاهوت . وبات فى مركز اهتمامها
الرب وعلاقة الانسان به . وبوشر بدراسة الفلسفة فى
المدارس الكلامية وبات مدرسوها يسمون بالكلاميين . وفى
غضون وضع براهين الوجود الالهى البالغة التعقيد ، ما لبث
الكلاميون ان فقدوا كل صلة بالحياة وبمستلزمات التطور
الاجتماعى التطبيقية . ومنذ ذلك الحين باتت الفلسفة المعزولة
عن الحياة والمتشابكة المدلولات والبالغة التعقيد عن قصد
تسمى بالكلامية .

ولكن حتى فى القرون الوسطى لم يخفف التقليد المادى ،
وان كان ضعيفا للغاية . فبسبب التعرض لملاحظات الكنيسة
والمدرسة الكلامية حاول الفلاسفة المتمسكون بالتقليد
المادى اثبات ان تفكير الانسان ، ولا سيما اللغة (الكلام) ،
وسيلة لوصف ومعرفة الاشياء الموجودة فعلا . بيد ان
المدرسة الكلامية استنفدت نفسها كليا فى اواخر عصر
النهضة ، وباتت عائقا يعترض طريق علم العصر الجديد
الحديث الولادة ، ويعرقل تطور الثقافة الجديدة والمجتمع
الجديد .

. ١٨

فلسفة وثقافة عصر النهضة . فى القرنين الرابع عشر والخامس
عشر اخذت تنشأ فى ايطاليا يادى ذى بدء ، ومن ثم فى
البلدان الاوربية الاخرى العلاقات الاجتماعية البرجوازية .
وكانت الطبقة الاجتماعية الجديدة - البرجوازية - تسعى
باندفاع الى السلطة . وفى خضم الصراع مع الايديولوجيا
القديمة والدين الذى كان يقدس النظام الاقطاعى اخذت
تتكون الثقافة البرجوازية الجديدة التى سميت بثقافة عصر
النهضة . اذ كان مؤدجو البرجوازية الناهضة يدعون الى احياء

(انهاض) الثقافة والعلم والفلسفة الهيلينية . وكان فنانون هذا العصر ونحاتوه وفلاسفته وشعراؤه وعلماءه يقوضون ، من حيث الجوهر ، صرح المدرسة الكلامية وما يرتبط بها من ثقافة القرون الوسطى الراكدة والفاقدة لحيويتها . كانت المسيحية تعلم الناس ان خالق العالم هو الله ، اما الانسان فهو مخلوق سلبى يرضخ لمشيئة الرب ، وان وهبت له الروح . وما العالم باسره الا مسرح يحيا عليه الانسان وفق سيناريو وضعه الرب . اما فلسفة عصر النهضة ، فعلى العكس ، كانت تعتبر الانسان صانعا لمصيره . لذا كانت تطرح فى المقام الاول شخصية الانسان - الخالق الشجاعة الباهرة ، شخصية انسان عصره النشيط . وتجسد هذا التصور عن الانسان فى التصوير الزيتى والنحت والادب المنتمى الى عصر النهضة ، ولا سيما فى نتاجات ميكيل انجلو وليوناردو دافنشى ورفائيل وبتراركا ودانتى وغيرهم . وكان مفكرو عصر النهضة عند الحديث عن الشخصية الانسانية الفعالة يضعون الانسان فى مركز الكون ويعتقدون صادقين بأنهم يدافعون عن مصالح البشر العامة فى جميع العصور . اما فى الواقع فقد كانوا يعبرون عن مصالح البرجوازية الحديثة الولادة ويتغنون بمثالها الانسانى الا وهو الشخصية القوية الفعالة ، الانسان الفردى السائر الى اهدافه رغم كل العقبات التى تضعها على طريقه العلاقات الاقطاعية الفئوية والافكار القديمة الباطلة ، والدولة والقانون . وهذا ما تجلت فيه بوضوح الصلة العميقة بين الفلسفة وعقيدة العصر التاريخى المعنى .

. ١٩

فلسفة المجتمع البرجوازي . فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حدثت فى بلدان اوربا الاكثر تطورا ثورات برجوازية اسفرت عن استيلاء البرجوازية على السلطة ، فشغلت بذلك مركز السيادة فى المجتمع الرأسمالى الجديد . ولعبت التعاليم الفلسفية المعبرة عن مصالح واحتياجات الطبقة الحاكمة الجديدة دورا مزدوجا . ففي فترة التحضير

لثورات البرجوازية كانت تزعزع الاسس الايديولوجية والعقائدية للنظام الاقطاعي القديم وتبرر وتعلل اطماع البرجوازية بقيادة المجتمع . وهذا ما تجلى فيه دورها التقدمي والنقدي . وبعد مجيء البرجوازية الى السلطة اصبحت مهمة العقيدة والايديولوجيا البرجوازية تتمثل فى اثبات رسوخ وديمومة النظام القائم وابدية سيطرة الرأسمال . ولكن لا ينبغي الظن ان وظائف الفلسفة الجديدة كانت تنحصر فى ذلك فحسب . ذلك ان نمو الانتاج الرأسمالى كان مقترنا بنمو سريع فى المعارف العلمية . ولم يكن تطور الابحاث العلمية الناجح ممكنا الا بالاستناد الى منهجية جديدة للمعرفة ، لذا كان كبار الفلاسفة البرجوازيين فى القرون السابع عشر - التاسع عشر يعيرون الكثير من الاهتمام لوضع منهجية ونظرية عامة للمعرفة ولل قضايا المعرفية التى اصبحت تطرح الى جانب مسائل التقدم الاجتماعى فى المقام الاول من جميع التعاليم الفلسفية تقريبا .

لقد وضع الفلاسفة الماديون الانجليز منهجية تجريبية للمعرفة تبين كيف تبرز القوانين والنظريات العلمية على اساس الاختبار والتجريب . واقام ماديو القرن الثامن عشر الفرنسيون تعاونا وثيقا مع علماء عصرهم . ففى غضون صراعهم النشيط مع الدين والكنيسة تقدموا ، ولا سيما ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) ، بتعليم عن منشأ الوعى والفكر من الطبيعة اللاعضوية ، غير الحية . وفى وقت لاحق سمي هذا التعليم بنظرية الانعكاس التى طورها لينين على اساس جديد مبدئيا .

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تطورت العلوم الطبيعية ، ولا سيما الفيزياء والفلك والميكانيك ، تطورا عاصفا . واصبحت الفلسفة المادية المرتبطة بها ميكانيكية هى الاخرى ، ذلك انها اخذت تحصر مادتها فى المادة الفيزيائية ، وتحصر انواع الحركة المعقدة فى الانتقال الميكانيكى البسيط فى المكان . ومن ذرى ايماننا هذه تبدو مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر الميكانيكية الميتافيزيقية محدودة ومبسطة ،

لكنها كانت بالنسبة لعصرها ظاهرة تقدمية وضرورية تاريخيا ، وقد لعبت دورا ايجابيا فى محاربة المثالية ، ولا سيما الذاتية منها .

وشهدت الفلسفة قبل الماركسية ارقى درجة من التطور فى الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، وبالدرجة الرئيسة لدى كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) وهيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) . وكان ممثلو هذا الاتجاه مثاليين وعقلانيين ، ويولون الاولوية فى الاهتمام لدراسة قوانين الفكر والعقل ، وقد حققوا نتائج مهمة فى هذا المضمار . فعلى وجه التحديد تسنى لكانط وهيغل ادراك وصياغة جملة من الاحكام المهمة فى منهج المعرفة الجدلى . وكانت جدليتهم تتفوق تفوقا كبيرا على جدلية العهد القديم الساذجة . اذ كانوا يدركون ادراكا عميقا الطابع العميق المتناقض داخليا لعملية التطور المطرد . لكنهم ، وبسبب كونهم مثاليين ، كانوا يقتصرون على تناول جدلية الفكر وجدلية العقل ، ولا يقرون بان التطور سمة ملازمة ايضا للعالم المادى الموضوعى . لهذا ظل منهجهم الجدلى مثاليا ولم يجد استخداما له فى العلوم الطبيعية فى ذلك العصر . وتجلت محدودية الجدلية المثالية ايضا فى انها اختتمت تطور المجتمع ، خدمة لبعض المصالح الطبقية ، ولا سيما فى طروحات هيغل ، بظهور كيان الدولة البرجوازي فحرمت البشرية بذلى من آفاق التطور اللاحق .

باتت نواقص الفلسفة الكلاسيكية الالمانية والجدلية المثالية التى وضعت صيغتها ضمن اطار هذه الفلسفة ملحوظة بصفة خاصة فى ثلاثينات واربعينات القرن التاسع عشر . وفى نتيجة ذلك نبذ فورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) الذى كان فى وقت سابق تلميذا لهيغل الآراء المثالية لاسلافه وانتقل الى مواقع المادية . غير ان ماديته كانت ميتافيزيقية ، اى منافية للجدلية ، ولم تكن تشمل الحياة الاجتماعية . لقد ظل فورباخ ، شأن اسلافه ، مثاليا فى فهم المجتمع والتاريخ البشرى . فعندما ارتقى الى ادراك جور المجتمع البرجوازي كان يرى المخرج لا فى التغيير العملى لهذا المجتمع ، لافى النضال الثورى ،

بل فى حب الانسان للانسان حبا عاما وشاملا . وكانت علة ذلك هى الصفة الانثروبولوجية لفلسفة فويرباخ . اذ كان يركز اهتمامه على الانسان المجرى المنفرد الذى ترتب آراؤه ورغباته ونواياه وغاياته بطبيعته البيولوجية ، وتعتبر واحدة بالنسبة لكل العصور والشعوب . وقد اعاق هذا فويرباخ عن فهم الجوهر الاجتماعى للانسان ، ومنعه من ادراك ان بالامكان تحرير الانسان وتحقيق انتصار العدالة الاجتماعية لا عن طريق تغيير طبيعته ، بل عن طريق التحويلات الاجتماعية الجذرية .

٢٠ .

المهذبات الفلسفية والاجتماعية والعلمية للفلسفة الماركسية .
ظهرت الفلسفة الماركسية فى النصف الاول من القرن التاسع عشر . وكانت عملية ظهورها وتطورها قد اعد لها وقيضها مجمل سير الحياة الاجتماعية . اما مجموع الظروف التى ادت الى وضع التعليم الفلسفى الجديد فقد جرت العادة على تسميته بمهذبات هذا التعليم .

كانت اهم مهذبة اجتماعية لظهور الفلسفة الماركسية هى نمو الطبقة العاملة الصناعية الذى اقترن بنمو ثورتها . ففي ثلاثينات واربعينات القرن الماضى اظهرت النضالات الثورية للطبقة العاملة فى اكثر بلدان اوربا الرأسمالية تطورا ان هذه الطبقة تتقدم بثقة الى مقدمة مسرح التاريخ العالمى . وكانت الطبقة العاملة فى ظروف الرأسمالية الصناعية الصاعدة هى القوة الاجتماعية الاكثر تلاحما وتنظيما . وكان هذا يرتبط بنفس طابع الانتاج الصناعى الذى نظم ورص صفوف جماهير كبيرة من الكادحين . وبخلاف سائر الطبقات الخاضعة للاستغلال تنفرد الطبقة العاملة برسالة تاريخية خاصة . فالعبيد واقنان القرون الوسطى وحرفيو الورشات لم يضعوا امام اعينهم قط ، خلال نضالهم ضد الاضطهاد والاستغلال ، هدف القضاء على الاستغلال عموما واقامة المجتمع اللاتطبقى . كما لم تكن لمثل هذه المطالب ظروف تاريخية موضوعية . وعلى العكس ، فان الطبقة العاملة ملزمة - من اجل تحرير نفسها - بالقضاء على استغلال الانسان للانسان وتحرير كل

الكادحين وكل البشر من تسلط الاقلية ومن الجور الاجتماعى والاقتصادى والاضطهاد السياسى . ولجل ذلك يتوجب عليها ان تغير كل العلاقات الاجتماعية تغييرا جذريا . فما بذل فى الماضى من محاولات تغيير العالم قد منى بالفشل لانه كان ينطلق من السعى بالدرجة الاولى الى تغيير الوعى الاجتماعى والافكار واخلاقية البشر . اما حركة البروليتاريين الثورية فقد طرحت موضوعيا مهمة وضع ايدولوجيا وعقيدة من شأنهما ان توجهها الانظار الى اولوية تغيير الوجود الاجتماعى والعلاقات الاقتصادية الاجتماعية . لهذا كانت رسالة الطبقة العاملة التاريخية بحد ذاتها تقتضى باصرار وضع فهم مادى للتاريخ ، وفهم جديد لاهداف الفلسفة كمنهجية (٠٠٤) لتحويل المجتمع ثوريا . بعبارة اخرى ، انها افضت الى ضرورة توحيد العقيدة المادية بالايديولوجيا الثورية والمنهج الجدلى للمعرفة والنشاط .

وكانت الممهدة الثانية ترتبط بخصائص تطور العلم فى اواسط النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فقد كان العلم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر مفعما بروح النزعة الميكانيكية (٠١٩) . وشهد القرن التاسع عشر اكتشافات عظيمة افضت الى ادراك ان كل الظواهر فى الطبيعة ، كما فى المجتمع ، مترابطة وهى تتطور تطورا لا يتوقف ينشأ خلاله الجديد باستمرار ويفنى القديم . اما اكتشاف حقيقة ان اجسام الكائنات الحية تتألف من خلايا مجهرية فقد اظهر وحدة الانسان وبنيته مع الطبيعة الحية بأسرها خلافا لما جاء به الكتاب المقدس ولاهوتية القرون الوسطى . واثبت اكتشاف قانون حفظ الطاقة والبرهنة عليه تجريبيا ان حركة المادة سمرمية وغير قابلة للفناء : فبعض اشكال الحركة والطاقة قد تتحول الى سواها ، لكنها لا يمكن ان تفنى . وقد اثبت هذا ، من جهة ، وحدة العالم المادية ، كما اثبت ، من جهة اخرى ، تنوع اشكال وجوده وحركته . واطهر اكتشاف نظرية الارتقاء البيولوجى على يد دارون ان مصدر تطور الطبيعة الحية هو الصراع الدائر بين الانواع وداخل النوع الواحد . وافضى

هذا الى الفكرة القائلة بان التطور ، ايا كان ، يجرى لا بحكم دافع خارجى ، بل فى نتيجة حل التناقضات الداخلية . ولم تعد المادية الميتافيزيقية والميكانيكية القديمة تناسب المعطيات العلمية الجديدة . وبات العلم يتطلب باصرار الجمع بين المادية ومنهج المعرفة الجدلى . وظهر اكتشاف مندليف لجدول قانون العناصر الكيميائية ان مفعول قوانين التطور الجدلى العامة يسرى فى العالم اللاعضوى ايضا ، قاضى بذلك طابعا علميا عاما على هذا المطلب .

والمهدة الثالثة تسمى ، عادة ، بالمهدة الفلسفية . ومجمل القول ان الظروف اللازمة لظهور فلسفة المادية الجدلية قد تهيأت فى غضون تطور التعاليم الفلسفية السالفة بحد ذاته .

لقد جرى فى مؤلفات هيغل واسلافه وضع منهج المعرفة الجدلى . وهذا هو ما يحدد الاسهام الكبير لجدلية هيغل فى التحضير الفكرى للفلسفة الماركسية . بيد ان جدليته كانت تعاني ثلاثة نواقص كبيرة : ١ - انها كانت تقوم على اساس من المثالية ، اى انها لم تكن تركز سوى على دراسة تطور اشكال الفكر ، ٢ - انها كانت تعتبر المادة سلبية ، وبالتالي كانت تنكر التطور فى الطبيعة ، مما يناقض اكتشافات العلم الحديث ، ٣ - انها كانت تزعم ان التطور الاجتماعى لم يجر الا فى الماضى ، وانه قد اكتمل فى الدولة البرجوازية الالمانية ، حيث بلغ المجتمع البرجوازي درجة الكمال ، وبالتالي ليس من الممكن حدوث تطور لاحق واقامة المجتمع اللاتبقى الاكثر عدالة .

وكما اسلفنا فان فورباخ قد نبذ المثالية الهيجلية ، لكنه نبذ مع المثالية الجدلية ايضا . لهذا كانت ماديته ميتافيزيقية ، تنتقص من دور الصراع الطبقي والتناقضات الاجتماعية كونها مصدرا للتطور ، ولم تكن تشمل فهم الحياة الاجتماعية .

ولكن جدلية هيغل ومادية فورباخ ، على الرغم من محدوديتهما التاريخية ، كانتا من اكبر منجزات الفلسفة ما قبل الماركسية ، وقد انتفع منهما ماركس وانجلس فى وضع

فلسفتها الثورية الجديدة . وبطبيعة الحال ، كان من غير الجائز اخذ جدلية هيغل المثالية ومادية فورباخ الميتافيزيقية بشكل جاهز ، وجمعهما بشكل ميكانيكي وساذج ، واستخدامهما في معالجة المسائل الاجتماعية الجديدة المتعلقة بالتغيير الثورى للمجتمع . كانت جدلية هيغل ، على حد تعبير ماركس ، تقف على رأسها ، لذا اقتضى الامر قلبها رأسا على عقب . وكانت مادية فورباخ محدودة وغير ثابتة ، لذا كانت تقتضى هى الاخرى تحويلا جذريا . ومن خلال اكتشاف البذرة العقلانية والعناصر التقدمية فى مؤلفات هذين المفكرين ، كذلك من خلال تعميم احدث منجزات العلم والتحليل الدقيق لدروس الحركة العمالية الثورية تمكن ماركس وانجلس من وضع ايدولوجيا جديدة وعقيدة جديدة مبدئيا وفلسفة تعللها هى فلسفة المادية الجدلية .

٢١ .

ظهور المادية الجدلية انقلاب جذرى فى تطور الفلسفة . كان ظهور المادية الجدلية انقلابا جذريا فى تاريخ الفلسفة . ويتلخص جوهر هذا الانقلاب فيما يلى :

١ - لاول مرة فى تاريخ الفلسفة جرى ربط المادية الفلسفية الواعية بالجدلية الموضوعية بشكل علمى . فالتعليم الفلسفى الجديد ، اذ يعطى جوابا ماديا عن المسألة الاساسية للفلسفة ، انما يقتضى تناول كل الاحداث والاشياء والعمليات الجارية فى الطبيعة والمجتمع والفكر من خلال تطورها وحركتها وترباطها وتحولاتها المتبادلة . وهو يؤكد ضرورة التعمق فى دراسة قوانين نشوء كل ما هو جديد ، ومصادر التطور وسبل حل التناقضات الداخلية فى الظواهر موضوعة البحث .

٢ - جرى لاول مرة تعميم المادية لتشمل فهم حياة المجتمع والعملية التاريخية . فالفهم المادى للتاريخ نتيجة ثورية حقا لنشوء وتطور الفلسفة الماركسية .

٣ - من خلال الاقرار بإمكانية معرفة العالم اظهرت المادية الجدلية لاول مرة ان اساس ومعيار ومصدر المعرفة

العلمية الصحيحة هو بالدرجة الاولى نشاط البشر الانتاجى الاجتماعى ، اى الممارسة .

٤ - بخلاف التعاليم والمدارس والاتجاهات الفلسفية الاخرى لا تقتصر المادية الجدلية على تفسير العالم ، بل ترى مهمتها الرئيسية فى وضع اصول وسنن تحويله ثوريا بالاستناد الى العدالة الاجتماعية ومساواة وحرية البشر كافة .

٥ - تعتبر المادية الجدلية نفسها جزءا من الماركسية اللينينية واساسا للايديولوجيا البروليتارية والعقيدة العلمية ، وهى تعلن وتدافع صراحة عن مبدأ التحزب فى الفلسفة (١٤٠) ، وتقر بعدم تهادن المثالية والمادية .

٦ - تبني المادية الجدلية كل استنتاجاتها وبراهينها على اساس من منجزات العلم الطليعى المعاصر .

٧ - اذ تجمع المادية الجدلية فى صلبها الصفة العلمية والثورية ، تقوم بوضع الاصول النظرية والمنهجية للشيوعية العلمية ، وتعتبر اداة مهمة فى الصراع الايديولوجى وانباء الثقافة الروحية للمجتمع الاشتراكى ، وتساعد بشتى السبل على تطوير ممارسة البناء الاشتراكى .

الى جانب ذلك لا تعتبر المادية الجدلية تعليما طائفيًا ضيقا . فقد اكد لينين مرارا ان الماركسية لم تنشأ بمعزل عن الطريق العام لتطور الحضارة العالمية . ان الفلسفة الماركسية هى امتداد مباشر لآكثر تعاليم الماضى تقدمية . فالمادية الجدلية اذ تعالج تقديما منجزات الفكر الفلسفى السالف ، انما تستوعب كل ما هو قيم وضرورى ومفيد لحل اعقد مسائل العصر ، وهى بهذا المعنى تصون وتطور افضل منجزات وتقاليد ثقافة الماضى ، وتسعى الى ربطها بثقافة عصرنا الاشتراكية التقدمية .

٢٢ .

المرحلة الجديدة من تطور الفلسفة الماركسية . فى اواخر القرن التاسع عشر واولئل القرن العشرين ، حين انتقلت الرأسمالية الى مرحلتها الاخيرة - مرحلة الامبريالية المقترنة بالنزاعات الاجتماعية الملتهبة ، وبانهيار منظومة الرأسمالية

الموحدة ، وبالثورات الاشتراكية وظهور الدول الاشتراكية ، حلت ايضا مرحلة جديدة فى تطور المادية الجدلية . وقد جرى التحضير لها ايضا بفعل الاكتشافات الثورية الجديدة فى العلوم الطبيعية : اكتشاف النشاط الاشعاعى الطبيعى ، وقابلية الذرة للانشطار ، ووضع النظرية النسبية وميكانيك الكم وما الى ذلك . وترتبط هذه المرحلة ارتباطا وثيقا بالنشاط الفيلسفى العلمى والثورى الذى مارسه لينين وانصاره واتباعه ، ولذا فهى تسمى بالمرحلة اللينينية .

كان النضال من اجل قضية الطبقة العاملة والتحويل الاشتراكى للمجتمع ، الرامى الى بناء الاشتراكية والشيوعية يشغل مكانة مركزية فى حياة لينين ونشاطه . ولينين هو مؤسس الحزب الشيوعى ، الحزب الثورى الجديد الطراز ، ومؤسس اول دولة اشتراكية فى العالم . وكان قد اشرف على منابع المجتمع الاشتراكى الجديد ، كما كان اكبر شخصية سياسية وابرز مفكر اجتماعى فى عصرنا . وكانت ابرز واهم سمة لمجمل نشاطه هى موقفه الابداعى من حل المعضلات التى كانت تمثل امام الحزب والدولة ، ذلك الموقف الذى تجسد بالدرجة الاولى فى قدرته على رصد كل ما هو جديد واسناده فى محاربة قوى الرجعية ، وفى سعيه الدائم الى ربط النظرية بمهام الحياة العملية والاقتصادية والسياسية ، وفى فهمه العميق لمصالح الشعب الجذرية . وتجلت هذه السمات بحجمها الكامل ايضا فى نشاطه المتعلق بمواصلة وضع وتطوير الفلسفة الماركسية .

لقد خاض لينين صراعا لا هوادة فيه مع المثالية الذاتية واللاأدرية . فقد حاول هذان الاتجاهان فى الفكر الفيلسفى استغلال الثورة التى شهدتها العلوم الطبيعية فى تخوم القرنين ١٩ - ٢٠ لتوطيد مواقعهما عن طريق التأويل غير الصحيح والتفسير الوحيد الجانب لمنجزات الفيزياء . وقد صاغ لينين صياغة دقيقة مبدا التحزب (١٤٠) وأشار الى ان اتحاد الفلاسفة الماديين مع علماء الطبيعيات التجريبيين وعلماء الاختصاصات الاخرى هو وحده الذى يستطيع - من

جهة - ضمان التعليل والتطوير اللازم لنظرية الانعكاس (١١٨) والجدلية ، ومن جهة اخرى يستطيع تسليح العلم بعقيدة مادية راسخة وعميقة . وكان لينين يؤكد باصرار ان العلم الفلسفى عن الفكر والبراهين وعن منهج المعرفة ، اى المنطق ، يجب فى ظروف العالم المعاصر المعقدة والسريعة التغير ان يتحد مع الجدلية ونظرية المعرفة المادية ، اى ان يغدو منطقا جدليا .

واسهم لينين اسهاما مهما للغاية فى التعليم المتعلق بالفهم المادى للمجتمع والتاريخ . فقد ابان الطابع المنطقى والمشروع لانتصار الثورة الاشتراكية فى روسيا ، وعلل ضرورة دكتاتورىة البروليتاريا خلال الفترة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وقدم تعليلا فلسفيا لاشكال كيان الدولة الاشتراكية الجديدة .

وفى الصراع مع الشعبية الرجعية (الناوردنيتشيستفو) ، ومع التحريفيين والاصلاحيين دافع لينين عن التعليم المتعلق بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ، وبالعملية المنطقية لتعاقب مراحل تطور المجتمع ، وطور هذا التعليم ورفعته الى مستوى جديد .

وفى الصراع مع الانتهازية فى الحركة العمالية كان لينين يربط باستمرار معالجة القضايا الفلسفية بمهمات الممارسة الثورية . وقد اشار خلال ذلك مرارا الى ان انفصال النظرية الفلسفية عن الممارسة يؤدى بالحتم الى النزعة الكلامية والدوغمائية وتشويه الماركسية . وفى السنوات الاولى لبناء الاشتراكية فى روسيا قام لينين ، عن طريق تعميم الخبرة الثرة للجماهير الشعبية والحركة الثورية والعمالية العالمية ، بوضع تعليم جدلى عن تنوع اشكال الثورة الاشتراكية بالاستناد الى السنن الموضوعية العامة للتطور الاجتماعى . وكان يؤكد باستمرار اهمية وضع الاصول الفلسفية والنظرية العامة لنشوء الوعي الاشتراكى والشيوعى والتربية الشيوعية للكادحين وتنشئة الانسان الجديد . فالاهتمام العميق بقضية الانسان وتطوره الشامل

وتوفير الظروف المادية والروحية المناسبة لذلك هو الذى يجعل اللينينية ذروة للنزعة الانسانية .

ولا تزال المرحلة اللينينية من تطور المادية الجدلية مستمرة حتى هذا اليوم . فاللينينية المعاصرة هى اسمى انجاز للماركسية . ويتلخص تفرد اللينينية العميق ومفزاها التاريخى العالمى فى كونها ترتبط اوثق ارتباط بحل المهمات التطبيقية الملموسة التى طرحها الحياة . ويعزى اليها بالدرجة الاولى : تطوير المجتمع الاشتراكى والنضال من اجل السلام ودرء الكارثة النووية ، ومن اجل انماء وتعميق العملية الثورية العالمية ، وما الى ذلك . وتتسم المرحلة اللينينية من تطور الفلسفة الماركسية بالمعالجة النشيطة والمكثفة للاصول المنهجية التى تخص حل ما طرحه الحياة من معضلات تطبيقية ، وبتعليل ضرورة التفكير الجديد بالنسبة لحل المشكلات الدولية وتنفيذ المهام الاجتماعية التى طرحها المرحلة الراهنة من تطور البشرية .

ولماركسى البلدان الاخرى دور ملحوظ فى مواصلة انماء الفلسفة الاجتماعية للماركسية والفهم المادى للتاريخ ، وفى تطوير المنهج الجدلى . ففي عقدي العشرينات والثلاثينات نشأ فى اوربا الغربية وضع اقتضى استخدما ابداعيا للجدلية فى سبيل فهم اعمق لآفاق الحركة العمالية وتعليل استراتيجيات وتكتيك الاحزاب الشيوعية والعمالية . وثمة اسهام كبير فى تطبيق هذه المهمات لانطونيو غرامشى الذى كان يشيد بمؤلفات لينين ويدرس بانتباه تجربة الثورة الاشتراكية فى روسيا . فالمفهوم الذى طرحه بشأن نضال الطبقة العاملة الموقعى ، وضرورة الرد المرن والجدلى على الموقف الجديد داخل البلدان الرأسمالية المتطورة فى اوربا الغربية ، لا يزال يحتفظ بأهميته حتى ايامنا هذه ويؤثر تأثيرا ملحوظا فى معالجة احكام النظرية الماركسية فى المرحلة الراهنة . لقد دشن تطور المجتمع السوفييتى فى الوقت الراهن مرحلة خاصة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ العالمى . فبعد اعمار الاقتصاد الوطنى الذى الحقت به الحرب العالمية الثانية

اضرارا جسيمة شرع الاتحاد السوفييتى فى مسيرة اقتصادية واجتماعية سريعة مطورا قواه المنتجة ومؤمنا ازدهار العلم والثقافة . بيد ان وتائر التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية انخفضت منذ اواسط السبعينات انخفاضا ملحوظا وارتسمت بوادر نزعات الركود السلبية فى حياة المجتمع . واصاب الوهن نشاط العديد من المؤسسات الديمقراطية وتقلص نشاط الكادحين الابداعى .

يعلم التاريخ بان انخفاض وتائر التنمية الاجتماعية وتعوق التقدم ، ناهيك عن الركود فى ميدان الانتاج المادى والحياة الروحية كانا يفضيان عاجلا او آجلا الى كوارث اجتماعية محتومة لم يتسن تفاديها لا لمجتمع العبودية القديم ولا للمجتمع الاقطاعى فى القرون الوسطى ولا للمجتمع الرأسمالى . بيد ان الخاصية المميزة للاشتراكية باعتبارها نظاما اجتماعيا جديدا تتمثل بالذات فى انها تخلو من القوى الاجتماعية التى يمكن ، بحكم وضعها الموضوعى وفى سبيل الاحتفاظ بسلطتها السياسية ، ان تكون معنية بتعويق التقدم العلمى التقنى والاجتماعى ، وباضعاف الديمقراطية وخفض مستوى العلنية (الغلاسنوست) واعلام المجتمع . فالعكس بالضبط هو الصحيح . ان المجتمع السوفييتى معنى بالتنمية السريعة والشاملة ، وهذا يتطلب تخطى نزعات الركود وتطبيق التغيير الجذرى (البيريسترويكا) فى الاقتصاد والحياة الاجتماعية ، وبث طاقات وقوى جديدة فى الديمقراطية الاشتراكية ، والتعرض بالنقد الشديد للنواقص والاعطاء والهفوات الذاتية وتخطيها وايجاد السبيل الاكثر فاعلية واستقامة لازالة الصعاب القائمة وتسريع التنمية الاقتصادية الاجتماعية .

لأجل تنفيذ كل هذه المهام يجب القاء نظرة جديدة على دور الانسان والعامل البشرى فى الحياة الاجتماعية المعاصرة ، وفى تطور التقنية وادارة شؤون الدولة . وتتقضى الضرورة التعمق فى فهم حوافز نشاط الوعى البشرى ، وكيفية تخطى النزوع المحافظ ، وما الذى ينبغى القيام به كي يتسنى

للمجتمع الاشتراكي ، بخلاف سائر الانظمة الاجتماعية ، تأمين تحقيق العدالة الاجتماعية في ظل التقدم الاقتصادي الاجتماعي السريع ، وضمان ازدهار وتعمق الديمقراطية وتأمين الحرية الحقيقية وظروف الحياة اللائقة بكل فرد .

ان تطبيق كل هذه المهام يتطلب اجراء بيرسترويكا خاصة ، عميقة ، ثورية من حيث الجوهر ، وهي بدورها امر يتعذر القيام به من دون ادراك فلسفي عميق لموقف الانسان المعاصر من عالم اليوم السريع التغير ، ومن دون وضع منهجية جديدة للتحويلات الثورية العميقة ، ومن غير استيعاء لصلة الاحكام المتعلقة بالقيم والمبادئ الخلقية بالظروف الموضوعية وسنن تطور المجتمع التاريخية . وهذا ما يفسر لماذا يتنامى في الظروف الراهنة بشكل خاص الاهتمام بالفلسفة التي يطلب منها ارتباط اوثق بالحياة وتغلغل اعماق في الواقع الاجتماعي ، في جوهر الوجود والوعي الفردي والاجتماعي . لهذا السبب بالذات لا يسمح بانفصال الفلسفة عن الحياة ، ولهذا ايضا نرى الزعماء السياسيين للمجتمع السوفييتي وقادة الحزب يعودون مجددا ، في اثناء مناقشة القضايا الاجتماعية والسياسية البالغة التعقيد ، وفي اثناء اتخاذهم لاهم القرارات ، وقيامهم بوضع الاستراتيجية الجديدة للتسريع الاقتصادي الاجتماعي واستراتيجية النضال من اجل السلام ونزع السلاح والوجود السلمي للبشرية ، الى اصول العقيدة الماركسية اللينينية ، والى افكار ومبادئ الفلسفة السياسية الاجتماعية . وهم يؤكدون ضرورة تطويرها بشكل ابداعي وربطها الوثيق بمستلزمات العصر بصعب ما فيه من معضلات صعبة وملتهمة .

الفصل الاول المادة والوعي

سوف نباشر بشرح اصول الفلسفة الماركسيّة اللينينية من مناقشة الجانب الاول للمسألة الاساسية فى الفلسفة (٠٠٧ ، ٠٠٨) . وهذا يقتضى أن نتناول بالتفصيل اهم المفاهيم الفلسفية : «المادة» و«الوعي» ، «الحركة» ، «الزمان» ، «المكان» وغيرها .

المادة ولوحة العالم

١٠١

المفهوم والمقولة . عندما يناقش الناس احداثا ما من الحياة الشخصية او الاجتماعية ، وعندما يتأملون هذه او تلك من القضايا ، انما يعبرون عن نواياهم ورغباتهم وافكارهم بواسطة المفاهيم . ونحن نستعمل فى حياتنا مفاهيم مثل «طفل» و«شقة» و«متجر» و«حذاء» و«تلفزيون» وما الى ذلك . وفى حقل الانتاج نستخدم مفاهيم مثل «الماكنة» ، «انتاجية العمل» ، «المنتوج» وهلمجرا . وهناك مفاهيم علمية خاصة مثل «الالكترون» و«التفاعل الكيميائي» وغير ذلك .

ويجرى التعبير عن كل مفهوم بواسطة مفردة او مجموعة مفردات تدل على هذه او تلك من الاشياء والعمليات فى العالم المحيط بنا . وهذه الاشياء والعمليات تشكل مدلول المفهوم . اما تلك المعالم التى تصف أهم وابرز سمات هذه الاشياء والظواهر ، والتى نستطيع بواسطتها أن نميزها عن سواها من الظواهر فتشكل مغزى المفاهيم . فمدلول مفهوم

«الإنسان» هو كل مجموع البشر الاحياء ، اما مغزاه فيعبر عنه
بالعبارة التالية : كائن اجتماعى عاقل ، قادر على انتاج
ادوات العمل والاشياء المختلفة بواسطة ادوات عمل أخرى .
وتستخدم الفلسفة كذلك مفاهيم خاصة بها تسمى
بالمقولات الفلسفية أو بمجرد المقولات . ويتمثل فارق
المقولات الرئيسى عن سائر المفاهيم العلمية ، مثلما عن
سائر مفاهيم الحياة العادية ، فى أن للمقولات مدلولاً واسعاً
للغاية . فالمقولات الفلسفية تعزى الى كل ظواهر العالم
المحيط بنا . وبما أن المقولات من حيث مدلولها تعتبر
المفاهيم الاوسع والاشمل والاعم التى تعبر عن الشروط العامة
لوجود وحركة وتطور الظواهر فى الطبيعة والمجتمع والفكر ،
فأن على جميع العلوم الخاصة التى تبحث فى ميادينها الخاصة
أو فى اقسام معينة من الطبيعة أو الحياة الاجتماعية أو
النشاط الفكرى أن تعتمد عند وضع مفاهيمها الخاصة على
المقولات الفلسفية . وهذا ما يفسر لماذا تستطيع الفلسفة
أداء دور المنهجية العامة للمعرفة والنشاط (٠٠٤) .

واذا لم يجر تعريف هذه أو تلك من المفاهيم بشكل
دقيق ، أو إذا جرى تعريفها بشكل ضيق جداً أو واسع
جداً ، وإذا كان مغزاهما فضفاضاً أو مبهماً ، فلا يمكن أيضاً
تعيين مدلولها . ومن غير الجائز استخدام مثل هذه المفاهيم
فى النشاط العلمى والتطبيقى والاجتماعى ، لأن هذا سيؤدى
الى حدوث بلبلة واطاء . لذا فإن الفهم العميق والصائب
للفلسفة نفسها ، وبالدرجة الاولى المادية الجديدة ، يتطلب
قبل كل شئ تحديد وتدقيق مقولاتها . أن اهم واوسع هذه
المقولات هى «المادة» و«الوعى» اللذان تتكون وتحل
بمساعدهما المسألة الاساسية للفلسفة .

١٠٢

ما هى المادة ؟ ما هو مدلول مفهوم أو مقولة «المادة» وما هو
مغزاه الفلسفى ؟

أن الإنسان محاط بجم غفير من الاشياء والعمليات
المختلفة : الحيوانات والنباتات ، المكائن والادوات

المختلفة ، المركبات الكيميائية ، نتائج الفن ، ظواهر الطبيعة ، الخ . ونحن نعلم أن جميع الاشياء تتكون من جزيئات وذرات ، ويعلمنا علم الفلك المعاصر بأن الكون المرئى يتألف من مليارات النجوم والمجرات والسدم . وقد يبدو كل ذلك للوهلة الاولى تراكما زاهيا من الاشياء والظواهر غير المترابطة فيما بينها . لهذا لا يندر أن يبدو العالم للبشر ضربا من القوضى وتشابكا من الاشياء والظواهر الطارئة يتراءى الانسان بينها ذرة رمل ضائعة فى هذا العالم . بيد أن لجميع الاشياء والظواهر ، رغم كل تنوعها ، سمة مميزة عامة هى انها موجودة خارج وعى الانسان وبصورة مستقلة عنه . بعبارة اخرى ، أن الاشياء والعمليات المحيطة بنا هى عبارة عن واقع موضوعى .

على هذا النحو ينبغى تمييز الواقع الموضوعى الموجود خارج الانسان وبصورة مستقلة عنه ، خارج وعيه ، والمقولة الفلسفية المناسبة له ، أى المفهوم الخاص الذى يعكس ويدل على هذا الواقع . ولا يجوز الخلط بينهما ، مثلما لا يجوز الخلط بين السيارة الفعلية ومفهوم «السيارة» . فالسيارة الفعلية يمكن التنقل بها ، اما المفهوم الذى فى عقل الانسان فلا يمكن التنقل به .

كان وضع التعريف العلمى حقا لمقولة «المادة» الفلسفية انجازا فذا للمادية الجدلية . وهذا هو التعريف الذى اعطاه لينين : «المادة مقولة فلسفية تدل على الواقع الموضوعى المعطى للانسان فى احاسيسه ، والذى ينتسخ ، يتصور وينعكس فى احاسيسنا ، مع انه موجود بصورة مستقلة عنها» * . ويستدل من هذا التعريف : ١ - أن مدلول مقولة «المادة» يشكل كل العالم المحيط بالانسان ، أى كل ما لا يعتبر وعيا ويقع خارجه ؛ ٢ - أن مغزى هذه المقولة يتلخص فى أن السمة الاساسية الوحيدة والاكثر اهمية لاي شئ مادي أو خاصية أو علاقة او عملية هى سمتهـا

* لينين . المجلد ١٨ ، ص ١٣١ .

الموضوعية واستقلاليتها عن الوعي ؛ ٣ - أن مقولة «المادة» يمكن استخدامها لا فيما يتعلق بظواهر الطبيعة فحسب ، بل وفيما يتعلق بالمجتمع والعمليات الاجتماعية والعلاقات الجارية والموجودة خارج وعى الانسان وبصورة مستقلة عنه ؛ ٤ - أن كل الظواهر والعمليات المادية يدركها الانسان أو تنعكس فى وعيه على اساس احاسيسه وتلقيه الحسى . والمقصود هنا ليس فقط تلك الاشياء والظواهر التى يمكن تلقيها بصورة مباشرة ، أى عن طريق حاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الشم ، بل وتلك التى تستخدم لاجل تلقيها اعقد الاجهزة العصرية كالتلسكوب والميكروسكوب والرادار وغيرها من الاجهزة التى تبدو وكأنها تزيد من قوة حواس الانسان .

ان المثالية الذاتية تنكر عموما وجود العالم المادى (٠٠٩) . اما بخصوص المثالية الموضوعية فهى تقر بوجود المادة خارج الوعي البشرى وبصورة مستقلة عنه (٠٠٩) ، لكنها تدعى خلال ذلك أن المادة ثانوية ومشتقة نسبة الى الفكرة المطلقة ، الى الروح العالمى أو الفكرة الالهية التى خلقت العالم المادى . ويتلخص الفارق المبدئى بين الفهم المادى الجدلى للمادة عن الفهم المثالى فى أن الاول يقرر بوجود المادة خارج الوعي البشرى وبصورة مستقلة عنه ، وبأنها سرمدية غير مخلوقة ، غير قابلة للفناء ولانهاية فى الزمان والمكان . ولهذا السبب بالذات يرتهن الوعي الذى لا يعتبر أزليا بالمادة ، فى حين لا ترتهن المادة بالوعي . وبهذا المعنى يكون الوعي ثانويا ومشتقا .

ولاجل أن نفهم مدى الاهمية الكبيرة التى تسم تعريف لينين للمادة ومدى كونه انجازا فذا فى تاريخ الفلسفة ينبغى لنا أن نقارنه بتلك التصورات عن المادة والعالم المادى التى كانت موجودة قبل ظهور المادية الجدلية .

١٠٣

كيف تطورت الآراء بشأن المادة . كان البشر منذ عهود سحيقة يعملون الفكر فى مسألة مسم تتكون الاشياء المحيطة

بهم وهل لها أصل واحد . وكان أقدم فلاسفة تلك العهود (٠١٥) يشيدون تصوراتهم على تجربتهم وملاحظاتهم اليومية . فمن خلال ملاحظة أن الماء ضروري للحيوانات والبشر ، وأن البحر يحد سواحل اليابسة وأن المعصرة تعصر سوائل من الاعناب ، أعلن فاليس (حوالي ٦٢٥-٥٤٧ ق . م) أن الماء هو أصل الأشياء كافة . وذهب تلميذه اناكسيمين (زهاء ٥٨٨-٥٢٥ ق . م) الى أن أصلها هو الهواء . أما هيراقليطس الشهير (زهاء ٥٢٠-٤٦٠ ق . م) فقد رأى هذا الأصل متمثلاً في النار ، لأنه كان يعتقد بأن الشمس هي نار السماء . وفي وقت لاحق اضيف التراب الى هذه العناصر . وساد رأى مفاده أن كل الأشياء تتألف من هذه العناصر الاربعة . وهذه هي المادة . غير انها - في رأى أرسطو - سلبية ، عديمة الشكل ، وبالتالي لا بد من توفر قوة تضيف عليها الشكل ، مثل النحات الذى يصنع تمثالا من كتلة لا شكل لها من النحاس .

وكان لوقيبوس (حوالي ٥٠٠-٤٤٠ ق . م) وديموقريطس وتلميذهما ابيقور (٣٤١-٢٧٠ ق . م) يعتقدون بأن أصل العالم ذرات غير مرئية . ولكن من أين يعلم الناس بوجودها ؟ أن المعرفة الفلسفية تقوم على البراهين . لهذا كانت طروحات ديمقريطس الرامية الى اثبات فرضيته عن الذرات كما يلي : نحن عادة لا نرى دقائق الغبار فى هواء الغرفة . اما اذا قمنا بتعتيم الغرفة ، وذلك باسدال ستار ، تاركين شفا ضيقا ، فسوف يكون بمقدورنا أن نرى فى شعاع الشمس المتسرب الى الغرفة مليارات من دقائق الغبار المتحركة دون ايما دافع خارجي . وليس بالامكان ايضا أن نرى الذرات ، لكننا نستطيع تصورها بواسطة «البصر الذهني» او العقل . انها موجودة منذ الازل ، ولها سمة لا تنفصل عنها هي الحركة المتواصلة بلا انقطاع . بيد أن طروحات الفلاسفة القدماء هذه ظلت مجرد فرضية حتى حلول هذا القرن .

كانت فلسفة القرون الوسطى (٠١٦) تعتبر العالم المادى

منتوج خلق الهى ، وترى كل ما هو مادي وضيعا ومعفرا بالخطيئة ، وبالتالي لا يستحق الاهتمام .

ولم تصبح مسألة العالم المادي محط اهتمام الفلسفة من جديد الا مع تطور العلم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وبما أن الموضوع العلمى الرائد فى ذلك العهد هو الميكانيك ، فقد اصبحت النظرة الميكانيكية الى المادة هى السائدة . وكان الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) وعالم الفيزياء الانجليزى نيوتن (١٦٤٣-١٧٢٧) والعالم الروسى لومونوسوف (١٧١١-١٧٦٥) يرون اصل المادة متمثلا فى دقائق متحركة شبيهة بكريات دقيقة صلبة . وبالنظر لكون الميكانيك يبحث فى تنقل وتفاعل مختلف الاجسام المتحركة بخطوط معينة فى المكان (الفضاء) ، فقد جرت ماماهة تامة بين مفهوم «المادة» ومفهوم «الجسم» . وبما أن للجسم كتلة ثابتة وشكلا هندسيا ، ويتحرك بخطوط معينة ، وهو محدود فى المكان ، فقد اخذوا ينسبون هذه الخصائص ايضا الى المادة كلها . وتلكم هى نظرة المادية الميتافيزيقية والميكانيكية الى المادة فى القرنين ١٧-١٨ . وفى اواخر القرن التاسع عشر - اوائل القرن العشرين شهدت العلوم الطبيعية ، ولاسيما الفيزياء ، ثورة احدثت انقلابا فى فهم المادة . فقد جرى اكتشاف ظواهر جديدة تماما لم يكن للعلم سابق معرفة بها هى الحقول الفيزيائية . وفى الوقت الراهن اصبحتنا نعرف الحقول الكهرمغناطيسية وحقول الجاذبية والحقول النووية وغيرها . وتسنى بمساعدتها تفسير الكثير من الظواهر التى كانت تبدو مبعدة . فقد تبين ، مثلا ، أن الموجات اللاسلكية والضوء المرئى ليست سوى سيول من الحقول الكهرمغناطيسية الحاوية لطاقات مختلفة ، وأن بعض الجزيئات كالنيوترونات العديمة الشحنة والبروتونات المشحونة تحتفظ بوحدها داخل نوى الذرات بفعل الحقول القوية التى تؤثر فى مسافات مجهرية القصر . وطاقة هذه الحقول هى التى تتحرر عند التفجيرات الذرية او عند العمليات النووية الخاضعة للتحكم والمستخدمة للاغراض

السلمية . وبفعل حقول الجاذبية يجرى تجاذب الكواكب والشمس وسائر الاجرام الارضية والسماوية .
وليس للحقول الفيزيائية كتلة سكون ، شأن جزيئات الاجسام ، وليس لها شكل هندسى ومقاسات نهائية ، كما انها لا تتحرك على مسارات محددة . ولذا فهي لا تدخل ضمن مفهوم المادة الميكانيكى القديم . وبعد أن تم فى القرن العشرين اثبات ان الجزيئات البسيطة يمكن أن تتحول فى ظروف معينة الى حقول اخذ العديد من الفلاسفة المثاليين وبعض علماء الفيزياء المياليين الى المثالية الذاتية يدعون ان المادة تقنى وتتحول الى طاقة ، والطاقة فى رأيهم ليست مادية ، لانها غير متجسمة . وكان لينين قد أبان منذ مطلع هذا القرن ان المقصود فى الواقع هو ليس أن المادة تقنى ، بل هو أن مفهوم المادة الميتافيزيقى القديم بات ضيقا جدا . ذلك انه كان وثيق الارتباط بالتصور المحدود تاريخيا عن بنية العالم الفيزيائية . وبالنظر لكون مفهوم «المادة» قد جرت مهاماته بمفهوم «الجسم» ، فقد اعاق هذا ادراك أن الحقول الفيزيائية نوع خاص من انواع المادة . فعلى الرغم من خصائصها المدهشة ، توجد هذه الحقول ، شأنها شأن الذرات والجزيئات البسيطة ، خارج وعى الانسان وبصورة مستقلة عنه . وهذا بالذات هو الذى يعتبر السمة الوحيدة ، والحاسمة فى آن واحد ، التى تتيح الاجابة عن سؤال ما هو المادى وما غير المادى ، أى المثالى . فلعمود التلغراف كتلة ، وهو لا يمرر الضوء ، الخ . اما ظله فليس له كتلة ، ولا ينطبق عليه مفهوم قابلية تمرير الضوء . رغم ذلك يعتبر العمود وظله على السواء ماديين لانهما موجودان موضوعيا .

وكان مفهوم المادة الميتافيزيقى والميكانيكى محدودين ومغلوطين ايضا ، لانه لم يكن بالمقدور استخدامهما خارج حدود الميكانيك والفيزياء . فالمجتمع البشرى والعلاقات البشرية لا يمكن وصفهما بواسطة صفات كالكتلة والمسار والشكل الهندسى وانعدام قابلية تمرير الضوء وما الى ذلك .

لهذا لم يكن بالمقدور سحب المفاهيم السالفة عن المادة والمادية السالفة على المجتمع والعمليات الاجتماعية ، وبالتالي لم تكن تسمح بتوفير فهم مادي للتاريخ . بينما المجتمع والحياة الاجتماعية هما اللذان يعنيان الانسان بالدرجة الاولى ، ولاسيما في عصر التحولات الثورية العظيمة ، عندما تبرز بحدة مسألة : مم يجب الشروع فيها : من العلاقات الاجتماعية المادية أم من ظواهر الحياة الروحية . لهذا السبب نجد التعريف اللينيني للمادة الذي يمكن استخدامه فيما يتعلق بظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية على السواء قد اكتسب في عصرنا الراهن لا اهمية علمية وفلسفية فحسب ، بل وسياسية اجتماعية ايضا .

١٠٤

لوحة العالم العلمية المعاصرة . ترتبط التعاليم الفلسفية عن المادة ، كما نرى ، ارتباطا وثيقا بذلك المستوى من معرفة العالم ، الذي بلغه علم ذلك العصر . ومع تغير هذا المستوى في نتيجة الاكتشافات الجديدة قد تتغير التصورات العلمية . وعندما اخذ المثاليون الذاتيون يتحدثون عن فناء المادة في اواخر القرن التاسع عشر - اوائل القرن العشرين تحت تأثير الاكتشافات الثورية في الفيزياء (اكتشاف النشاط الاشعاعي الطبيعي والاشعة السينية وقابلية الذرة للانشطار ، الخ .) ، أشار لينين معارضا لهم الى أن المادة لا تفنى ، بل يتغير ذلك الحد الذي بلغه البشر سابقا في معرفتها .

أن كل عصر تاريخي يصوغ تبعا لمستوى تطور العلم تصوراته عن بنية العالم المادي ، وهي ما يسمى بالتصورات العلمية الطبيعية عن بنية المادة ، والتي تتكون منها **لوحة العالم** الأكثر عمومية . و«لوحة العالم» مقولة فلسفية مهمة يجرى بواسطتها تحليل عقيدة العصر المناسبة . وتفضى لوحة العالم المثالية التي تتمثل شخصيتها المركزية في الرب ، خالق العالم ، الى العقيدة المثالية . اما لوحة العالم المادية التي تعتمد على منجزات العلم ، وبالدرجة الاولى الفيزياء ، فتعتبر المادة سرمدية لم تخلق وغير قابلة للفناء ، وهي

تنفضى الى العقيدة المادية . فما هى لوحة العالم العلمية المعاصرة ؟

ان العلم المعاصر يقسم كل الظواهر الى مستويين هما المستوى الاصغر الذى تعزى اليه الذرات وما يسمى الدقائق البسيطة ، والمستوى الاكبر الذى تعزى اليه الجزيئات وما يتألف منها من اجسام اكبر . ولم تعد الفيزياء فى هذا العصر تبحث عن لبنات العقيدة الفائقة الدقة وغير القابلة للتجزئة فحذ بداية القرن العشرين اكتشف أن الذرات تتألف من نواة ودقائق فائقة الصغر هى الالكترونات . وقد شهدت العقود الاخيرة ما يؤكد ذلك فعليا . فعدا عن الالكترونات اكتشفت مئات من الدقائق البسيطة الاخرى كالنيوترونات والبروتونات والنيترينو والهيبيرونات والميزونات وغيرها . ولبعض منها شحنة كهربائية وليس لبعضها الآخر هذه الشحنة . وتختلف الدقائق فيما بينها بالحجم والكتلة ووجود او غياب العزم الكهرمغناطيسى وهلم جرا . بعضها مستقر ويدوم مليارات السنين ، وبعضها يدوم لواحد بالمليار من الثانية ، وينشأ ويتهدم باستمرار . وقد طرحت فى السنوات الاخيرة فرضية يجرى التحقق منها بدقة مقادها أن الدقائق تتألف من كواركات ذات شحنة كهربائية متناهية فى الدقة . ونالت هذه الفرضية اليوم توكيدا تجريبيا جيدا . على هذا النحو تتعقد التصورات عن بنية المادة تعقدا لامتناهيا .

يؤدى اتحاد الذرات بمساعدة مختلف الحقول والروابط الفيزيائية الى تشكل جزيئات مستقرة نسبيا . وتضم الجزيئات العضوية ، وبالدرجة الاولى الجزيئات البوليميرية العملاقة مئات ، بل وحتى الولا من ذرات مختلف العناصر الفيزيائية ، ويمكن أن تكون كبيرة جدا . ويتألف من جزيئات مختلفة ما يحيط بنا من اجسام عالم الجماد وعالم الاحياء ، بما فى ذلك النباتات والحيوانات والانسان . واثبتت الابحاث التى تناولت القمر والزهرة والمريخ والكواكب الاخرى بواسطة الاقمار الصناعية اثباتا تاما أنها جميعا تتألف من اجسام تتألف بدورها من جزيئات العناصر الكيميائية التى تضمنها جدول

مندلييف الشهير . ويسدل التحليل الطيفى لعوالم النجوم والسدم الاخرى على الوحدة الفيزيائية الكيميائية لبنية الكون المعروف لدينا بأكمله .

لقد وسع علم الفلك المعاصر من معلوماتنا عن العالم المحيط . ويضم الكون عددا عملاقا من النجوم والمجرات التي يضم كل منها مليارات النجوم . وبظهور التلسكوبات العصرية تسنى اثبات أن النجوم والمجرات يتناهى بعضها عن بعض بلا انقطاع . ومع تطور التقنية الفلكية اصبحنا نعرف المزيد والمزيد عن أقصى اقصى الكون ، مما يتيح الاعتقاد بأن الكون لامتناه عمليا .

والكون فى تطور مستمر . وليس ثمة مسوغات للظن ، كما يفعل بعض المثاليين ، بأن طاقة النجوم بأسرها سوف تستنفد عاجلا أو آجلا ، فيحل أجل الكون أى «موته الحرارى» . وتعتمد فكرة موت الكون حراريا على القانون الثانى لعلم الحركة الحرارية والذي يفيد بأن الحرارة تنتقل من الاجسام الاكثر سخونة الى الاقل سخونة ، مما يؤدى الى توازن وسكون كل المنظومة . بيد أن هذا القانون فى الواقع لا يصح الا بالنسبة للمنظومات المحدودة والمعزولة والمنغلقة على ذاتها ، ولا ينطبق على الكون عموما .

على هذا النحو نجد أن لوحة العالم الفيزيائية الفلكية بالغة التعقيد ، وبطبيعة الحال ، سوف تتغير وتتطور وتزداد تعقيدا مع ما سيظهر من اكتشافات فلكية وفيزيائية جديدة ، لكنها لا تدع مجالا لادنى شك فى الصفة المادية للعالم . وينبغى خلال ذلك أن ندرك بوضوح أن تصورات العلوم الطبيعية عن بنية العالم ولوحة العالم العامة القائمة على اساس هذه التصورات لا تطابق مفهوم المادة الفلسفى . فمقولة «المادة» تعبر عن الصفات العامة للواقع الموضوعى ، أى وجوده خارج الوعى وبصورة مستقلة عنه ، وهى لا تتغير مع كل اكتشاف جديد ، فى حين تظهر على لوحة العالم مع كل اكتشاف كهذا لمسات وتفصيلات جديدة ، وخصائص جديدة . ومقولتا «لوحة العالم» و«المادة» تترابطان ترابطا

وثيقا ويتمم بعضهما بعضا ، ولكن لا يجدر الخلط بينهما ، لانهما لا تؤديان الدور ذاته فى صياغة النظرة الى العالم ، أى العقيدة .

١٠٥

وحدة العالم المادية . عند تناول تطور وتغير لوحة العالم يمكننا بالاعتماد على التعريف اللينينى للمادة (١٠٢) أن نصوغ الاستنتاج العقائدى والمنهجى المهم التالى : **الوحدة** صفة ملازمة للعالم . فما معنى هذا ؟ أنه يعنى قبل كل شئ أن بالامكان القول ، استنادا الى تصورات العلوم الطبيعية عن صفات الاشياء المحيطة بنا على الارض وخارج حدودها ، أى فى الكون ، أن لها جميعا بنية فيزيائية كيميائية واحدة . بعبارة اخرى أن كل الظواهر والعمليات المادية تتألف من جزيئات وذرات ودقائق بسيطة والانواع الاخرى من مكونات المادة ، وكذلك من شتى انواع الحقول الفيزيائية . ويترتب على ذلك أن كل الظواهر المادية يمكن للانسان أن يدرسها ويصفها ويدركها بالاستناد الى العلم والتجربة والتطبيق دون اللجوء الى ايما مرتكزات مثالية أو قوى خفية أو خارقة .

أن العقيدة المسيحية تقول هى الاخرى بأن العالم واحد ، غير انها ترى وحدة العالم فى كونه من خلق الرب ، وفق فكرة اولية واحدة ليس متاحا للانسان أن يدركها . اما فى الواقع فإن **وحدة العالم الحقيقية تكمن فى صفته المادية** . وبناء على ذلك فإن العالم الموضوعى الواحد هو كل مترابط يتطور حسب قوانينه الذاتية . كان انسان العهود الماضية يعتبر العالم مستعصيا على المعرفة ومتسما بالفوضى والخفايا والغموض ، ذلك أنه كان ضعيفا فى مواجهة قوى الطبيعة العمياء . اما الانسان المعاصر ، المسلح باحدث المعدات والاجهزة والادوات التقنية العلمية ، فلم يعد يعتبر العالم متسما بالغموض والفوضى . فبامكان الانسان أن يعرف كنه العالم المادى ككل مترابط واحد ، وبمقدوره أن يتفاعل معه ويغيره .

المنظومة ، البنية ، العنصر . حين تقول أن العالم المادى واحد ، انما تقصد بذلك أن جميع اجزائه - من الجماد الى الكائنات الحية ، ومن الاجرام السماوية الى المجتمع البشرى - مترابطة بهذا الشكل أو ذاك . وكل ما يترابط فيما بينه بشكل معين ويخضع لقوانين معينة يسمى بالمنظومة .

منذ اقدم العصور كان المفكرون يضعون مفهوم «الكل» او «المنظومة» تقيضا لمفهوم «الفوضى» او «العشوائية» . وتستخدم هذه المفاهيم على نطاق واسع جدا فى الحياة اليومية وفى التقنية والعلم على السواء . فاكوام الآجر وتلال الاسمنت والاشباب فى مواقع البناء يمكن أن تكس بصورة عشوائية . اما المبنى المشيد منها ، والذي ترتبط كل آجرة فيه ارتباطا متينا بسواها ، وكل عارضة تشغل مكانها المحدد بصرامة ، فلم يعد فوضى ، انما هو منظومة معينة . والمنظومة ايضا هى كل حيوان ، وكل اعضائه المترابطة والمتفاعلة فيما بينها ، والتي تؤمن نشاطه الحيوى فهى منظومات ثانوية ، أو اجزاء من جسم الكائن الحى . ولئن جرى فصم هذا الترابط وابطل هذا التفاعل ، فسوف يهلك الكائن الحى . والمنظومة كذلك نجدها متمثلة فى المصنع الكبير ، اما ورشاته وقطاعاته الانتاجية فهى منظومات ثانوية ، فى حين تشكل مكائن الانتاج والعمال عناصر منظومة المصنع . ولئن جرى تعطيل الاتصالات والعلاقات والتفالات بين الورشات والقطاعات ، فسوف يحدث انقطاع فى نشاط مجمل المنظومة . ويعتبر منظومة عملاقة معقدة كذلك كل المجتمع المعاصر ، ومنظوماته الثانوية هى الطبقات والفئات الاجتماعية المندرجة فى علاقات مختلفة كعلاقات الصراع الطبقي مثلا (فى ظل الرأسمالية) أو التعاون (فى ظل الاشتراكية) .

ويمكن أن تكون هناك علاقات وروابط وتفاعلات مختلفة بين اجزاء هذه المنظومة ومنظوماتها الثانوية . وتسمى **العلاقات والروابط والتفاعلات المستقرة المتشابهة والوحيدة النمط بالبنية** . وبما أنه من المحتمل ان يكون هناك الكثير

من الروابط والعلاقات المختلفة داخل نفس المنظومة ، لاسيما اذا كانت كبيرة ومعقدة (مثلا ، داخل منظومة الاتصالات الهاتفية او المواصلات او المنظومة الاجتماعية ، الخ) ، فان بالامكان أن نشخص فيها جملة كاملة من البنى . وتسمى مثل هذه المنظومات بالمتعددة البنى . على سبيل المثال ، يمكننا أن نشخص فى جسم الحيوانات اللبونة بنية جهاز الهضم وبنية الجهاز العصبى وبنية الجهاز الحركى وهلمجرا .

والعلية «الآخرة» من كل منظومة ، أى «الآخرة» غير القابلة للتجزئة هى العناصر . ولكل منظومة عناصرها . ومن الاهمية بمكان أن نفهم أن الظاهرة الجارى تناولها كعنصر ، أى كوحدة غير قابلة للتجزئة ، فى منظومة ما ، يمكن فى حالة تناول مغاير لها أن تغدو بحد ذاتها منظومة معقدة لها عناصرها . مثلا ، يمكن اعتبار ماكينة الانتاج عنصرا من منظومة المصنع ، وكل جزء من الماكينة نفسها عنصرا منها ، ولكن لا يجوز اعتباره عنصرا من عناصر المصنع . كذلك الحال بالنسبة للانسان ، فهو يعتبر عنصرا من المنظومة الاجتماعية . وعلى صعيد آخر ، عندما نتناول الانسان كمنظومة بإمكاننا أن نعتبر اعضاء جسمه أو خلاياه عناصر له . ولكن من الخطأ الشديد اعتبار هذه الاعضاء أو الخلايا عناصر للمجتمع .

لقد انتشرت مفاهيم «المنظومة» و«البنية» و«العنصر» انتشارا واسعا بصفة خاصة منذ اواسط هذا القرن . ومرد ذلك هو أن العلم والتقنية اصطدما بمعضلات تصميم مختلف المنظومات الهائلة التعقيد وبمشاكل التحكم بها . وتضم مثل هذه المنظومات احيانا مليارات العناصر ، وتتطلب دراستها والتحكم بها مناهج عصرية ومعقدة جدا . واتضح أن هذه المناهج قابلة للاستخدام لا فى مجال التقنية فحسب ، بل اخذت تستخدم على نطاق واسع فى مجال ادارة الانتاج ، والرحلات الفضائية ، والادارة العلمية لشؤون المجتمع ، ودراسة منظومات الاتصال وهلمجرا . واكتشف أن مفاهيم «المنظومة» و«البنية» و«العنصر» تعتبر واسعة جدا ، ومتعددة

الاغراض عمليا ، مما يتيح عزوها الى عداد أهم المفاهيم العلمية العامة والمقولات الفلسفية .

أن العالم المادى عموما هو عبارة عن منظومة عملاقة خارقة التعقيد ، وهى فى تغير وحركة وتطور مستمر يخضع لبعض القوانين الموضوعية العامة . وهذه القوانين هى ما تدرسه الفلسفة ، ذلك أنها العلم الوحيد الذى يتناول علاقة الانسان بالعالم عموما (٠٠٧ ، ٠١٣) . اما العلوم الاخرى فتبحث فى بعض من منظومات العالم الثانوية كالسدم النجمية والطبيعة الحية والمجتمع ، الخ ، وما يتحكم بها من قوانين . ولأجل تبيان ترابط ما تدرسه هذه العلوم من منظومات ثانوية فيما بينها وتحديد مكانها فى منظومة العالم ، يكون لزاما على هذه العلوم ان تعتمد على المعارف الفلسفية عن العالم والمادة وقوانينها . اما فهم ماهية القوانين الموضوعية ، أى القوانين التى تتحكم بتغير وحركة وتطور العالم المادى ككل متكامل ومنظوماته الثانوية المنفردة فيغدو على هذا النحو أهم شرط لمعرفة العالم علميا . وبغير ذلك لا يجوز ايضا تنظيم نشاط البشر الواعى . ولأجل فهم ما هو القانون ينبغى لنا أن ننظر فى اهم مقولات المادية الجدلية ، الا وهى «الضرورة» و«المصادفة» .

١٠٧

الضرورة والمصادفة . إذا كان هبوب الريح القوية يقتلع بذور الهندباء البرية فسوف تنتشر هذه البذور باتجاهات مختلفة ، وليس بوسع احد أن يعرف بالضبط أين ستستقر . فى حالة كهذه يقولون أن مكان استقرارها كان محض مصادفة . فى الوقت ذاته يعتبر انتشار بذور الهندباء شرطا ضروريا لوجودها . ولو لم يحدث ذلك لانقرض هذا النوع من النبات . وبالامكان سوق عدد كبير من الامثلة المشابهة . وفى العالم المحيط بنا نستطيع بيسر أن نشخص روابط وتفاعلات قصيرة الاجل ، واهية ، خارجية ، غير مستقرة ، سريعة الاختفاء ، ومن دونها تستطيع الظاهرة التى نرصدها أن تبقى وتتطور . وهذه الروابط والتفاعلات هى

التي تسمى بالطائفة أو وليدة المصادفة . بيد ان فى كل منظومة ، وفى كل ظاهرة ، روابط وتفاعلات وعلاقات ، وعناصر ومنظومات ثانوية ، لا تستطيع الظاهرة المعنية بدونها أن تبقى وتتطور ، وهى تسمى بالضرورة .

ان مفهومى «الضرورة» و«المصادفة» مقولتان بالفتا الالهية فى المادية الجدلية . وهما تسمان الصفات الموضوعية لكل المنظومات المادية . وبما أن فى العالم عددا لا نهاية له من المرصودات المتفاعلة المختلفة ، فليس صحيحا أن نقول ، كما يفعل العديد من المثاليين والميتافيزيقيين ، بوجود ضرورة ما واحدة لا غير . أن العدد الغير من الضرورات المختلفة فى الطبيعة والمجتمع يتقاطع ويتفاعل باستمرار . وهذا التقاطع والتفاعل هو بالضبط ما يسفر عن المصادفة . وعليه فإن فصل «الضرورة» عن «المصادفة» ، ناهيك عن اعتبار احدهما تقيضا للآخرى ليس صحيحا ، وليس جدليا . فالمصادفة موضوعية وقائمة خارج وعى الانسان ، شأنها شأن الضرورة . وثمة صلة داخلية عميقة بين هاتين المقولتين . وفى سيرورة تطور وحركة المادة قد تتحول الضرورة والمصادفة احدهما الى أخرى ، وكأنهما تتبادلان بالاماكن . فما هو مصادفة فى علاقة ما وفى منظومة ما قد يغدو ضرورة فى علاقة اخرى وفى منظومة اخرى ، وبالعكس . على هذا النحو تشق الضرورة الطريق لنفسها دوما وتتجلى عبر المصادفة ، كما أن كل مصادفة تنطوى فى صلبها على قدر معين من الضرورة .

يفصل المنهج الميتافيزيقى بين عمليتى المصادفة والضرورة ويضع بعضها تقيضا للآخر . اما المنهج الجدلى فيؤكد استنادا الى العلم المعاصر أنه لا بد من دراسة ترابطهما . وهذا المنهج هو وحده الذى يتيح فهم ومعرفة كنه الطبيعة والمجتمع بشكل صائب .

لهذا ليس صحيحا الاعتقاد بأن العلم عدو المصادفة . فالعالم الذى يدرس بانتباه كل ظاهرة طائفة هو وحده القادر على اكتشاف الروابط الضرورية المستقرة والعميقة الكامنة

وراء ركام من المصادفات . ولتوضيح هذه الفكرة نسوق حوارا بين عالم ومعاونه يكشف عن التعامل العلمى حقا مع الظواهر وليدة المصادفة .

العالم (وهو يتفحص فى دورق شفاف سائلا غذائيا لتربية جراثيم الاستربتوكوك) : يخيل الى أن الدورق لم يغلق جيدا ، فتسرب اليه شىء ما .

المعاون : عفوا ، استاذ ، هذه محض مصادفة . سوف اصلح الخطأ .

العالم : انا أرى فى المحلول الاصفر بعض القطرات الفاتحة اللون . يبدو أن الجراثيم قد ماتت فيها .

المعاون : لنسكب هذا المحلول ، ونستبدل به غيره . فهذه القطرات مصادفة محضة .

العالم : ليست فى العالم ، يا صديقى ، مصادفات محضة . ينبغى فحص هذه القطرات تحت المجهر لمعرفة منشأها (يفحص القطرات تحت المجهر) .

المعاون : ماذا ترى ؟

العالم : لقد تسربت الى المحلول بزيرات الفطر الرشاش الذى يفرز مادة تقتل جراثيم الاستربتوكوك .

المعاون : وما العمل الآن ؟

العالم : علينا أن ندرس هذه الظاهرة باكبر قدر ممكن من الانتباه ، واذا اتضح أن هذه المادة يفرزها الفطر الرشاش بالضرورة ، فربما سنتمكن من ابتكار دواء جديد لمكافحة الامراض التى تسببها مثل هذه الجراثيم .

وهذا ما حدث بالفعل . كان تسرب بزيرات الفطر الرشاش الى المحلول الحاوى للجراثيم مصادفة ، غير أن افراز هذا الفطر لمواد خاصة تقتل الجراثيم كان نتيجة ضرورية املاها النشاط الحيوى لهذا الفطر . هكذا تم اكتشاف البنسلين ، وهو الاول فى جملة الكثير من مضادات الحيويات المستخدمة الآن على نطاق واسع فى الطب . والذى يهمنى هنا هو أن الاحداث التى تعتبر مصادفة فى حالة ما تنطوى على ضرورة فى حالة اخرى .

تلعب جدلية الضرورة والمصادفة دورا عظيما فى تطور المجتمع . فمن حيث العملية التاريخية العالمية تعتبر الثورة الاشتراكية ضرورة ، لانه يتعذر بدونها تطور المجتمع . بيد أن موعدها ، يوم حدوثها بالضبط يعتبر من وجهة النظر هذه مصادفة تاريخية ، ذلك أنه يرتهن بتقاطع وتفاعل العديد من الظروف الضرورية التى لا يتسنى دائما احتسابها كليا . ولكن فى ظروف الواقع الروسى الملموسة التى ترتبت فى اكتوبر ١٩١٧ استطاع لينين أن يجزم بأن اختيار توقيت الانتفاضة المسلحة الذى يعنى بدء الثورة الاشتراكية ليس مصادفة ، بل املته ظروف معينة ، واملاه اصطفاى القوى التطبيقية الملموس فى ذلك الظرف الزمنى . لهذا ذكر فى رسالة بعث بها الى اعضاء اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي-الديمقراطى فى روسيا بتاريخ ٢٤ اكتوبر ١٩١٧ أن البدء بالانتفاضة يجب أن يجرى بالضبط ليلة ٢٥ اكتوبر ، والا سيفوت الاوان * . ان اختيار توقيت الانتفاضة الذى يعد مصادفة من وجهة نظر العملية التاريخية العالمية كان ضرورة من حيث الظروف التاريخية الملموسة فى ذلك الحين . وعليه فإن الفهم الصحيح لترايط المصادفة والضرورة فى التطور الاجتماعى يعد احد أهم شروط نشاط البشر الواعى والقيادة العلمية للمجتمع .

أن من ينكر كل دور للمصادفة فى تطور الطبيعة والمجتمع يسمى بالجبرى . اما من يفعل العكس ، أى ينكر كل ضرورة ويقر بأن العالم ما هو الا مملكة مصادفات وفوضى فيسمى باللاحتماى . فاللاحتماية تنكر أى وجود للروابط والعلاقات المستقرة والدائمة والمشبعة للنظام ، وتجعل الانسان عاجزا امام الاحداث الجارية حوله . وتعكس الجبرية واللاحتماية بشكل مبسط وخاطى الواقع الموضوعى ، لانهما تقتطعان بعض جوانبه وتضعانها نقيضا لجوانبه

* لينين . المجلد ٣٤ ، ص ٤٣٥-٤٣٦ .

الآخرى . لهذا فكلتاها يتعارضان جذريا مع المادية الجدلية ومع المنهج الجدلى .

بعد أن اوضحنا ما هى الضرورة والمصادفة ، نستطيع الانتقال الآن الى مناقشة مقولة «القانون» .

١٠٨

قانون العالم الموضوعى . لكلمة «قانون» مدلولات عديدة . ففي العلوم القانونية يقصد بالقانون القواعد والاصول الخاصة التى تقرها الدولة وتحدد ما يسمح وما يحظر القيام به فى المجتمع المعنى ، وما يتخذ من تدابير العقاب بحق المخيلين بهذه القواعد والاصول . ويجرى الحديث كذلك عن قوانين العلم وقوانين العالم الموضوعى . وسنخوض فى قوانين العلم عندما سنبحث فى نظرية المعرفة (٥١٠) ، اما قوانين العالم الموضوعى فيجدر بحثها الآن .

أن قوانين العالم الموضوعى هى الروابط والتفاعلات الداخلية المستقرة والضرورية بين مختلف ظواهر وعمليات العالم المادى . ولهذه الروابط حضور فى الطبيعة وفى المجتمع على السواء . وسنتناول مثالين .

من خلال دراسة خواص الغازات لاحظ علماء الفيزياء أن حجم الغاز يتغير تبعا لدرجة حرارته . ومن خلال اجراء التجارب على مختلف الغازات فى مختلف الظروف اكتشفوا أنه كلما أرتفعت درجة الحرارة أزداد حجم الغاز ، اما اذا جرى ضغط الغاز فسوف ترتفع حرارته . وقد تسنى التعبير عن هذا الترابط بصيغة معادلة رياضية تستخدم الآن على نطاق واسع فى العلم والتقنية . أن درجة حرارة المنظومة الفيزيائية ، أى الغاز ، وحجمه لا يبدوان مترابطين للوهلة الاولى . ولكن تسنى تجريبيا أثبات أن ثمة ترابطا داخليا عميقا فيما بينهما ، أى صلة ضرورية مستقرة . وهذا هو القانون الموضوعى لهذه المنظومة الفيزيائية .

لقد أدرك المؤرخون البرجوازيون منذ مستهل القرن العشرين أن تطور المجتمع وتاريخه يرتبطان ارتباطا وثيقا بالصراع الطبقي . وحاولوا خلال ذلك تصوير الامر وكان

الصراع الطبقي «سوء فهم مؤسف» : أذ يكفى أن يفهم البشر «عدم جدواه» حتى يكفون عن خوضه . وتنتشر مثل هذه الآراء على نطاق واسع بين اوساط المؤدلجين البرجوازيين حتى الآن . ويزعم اتباع هذه الآراء أن التقدم العلمى التقنى والتقنية الالكترونية الحديثة يوفران الظروف اللازمة لمجتمع الرخاء العام الذى يستمر فيه المستغلون والمستغلون (بالكسر والفتح على التوالى) ، بينما يختفى الصراع فيما بينهم . غير أن ماركس وانجلس قد اظهرا أن الصراع الطبقي قانون موضوعى للمجتمع الرأسمالى . فهو نتيجة موضوعية للاستغلال الرأسمالى وشرط ضرورى بنفس القدر لاستمرار تطور المجتمع . وسيختفى هذا الصراع كذلك بصورة منطقية وبالضرورة ، ولكن فى ظل المجتمع الاشتراكى فقط ، أى عندما تنشأ منظومة اجتماعية أخرى ويتم القضاء على استغلال الانسان للانسان . إذن ، فقانون الصراع الطبقي السارى فى ظل المنظومة الرأسمالية لا يفقد مفعوله الا مع اختفاء هذه المنظومة بحد ذاتها . اما المنظومة الاخرى ، الاشتراكية ، فتتسم بقوانين أخرى وعلاقات أخرى بين الطبقات والفئات الاجتماعية .

نحن نرى ، على هذا النحو ، أن القوانين تلازم موضوعيا المنظومات المادية بحد ذاتها سواء فى الطبيعة أو فى المجتمع .

فهل هناك قوانين يخضع لها وعينا وتفكيرنا ؟ أن المادية الجدلية تجيب عن هذا السؤال بالايجاب . فالتفكير ثانوى ، وهو - بخلاف المادة - ليس ذا وجود سرمدى ، لكنه ما دام قد انبثق وراح يتطور حسب قوانين معينة ، فهو «يعمل» وفق قوانينه الخاصة . وهذه القوانين هى ما يدرسه المنطق والجدلية ونظرية المعرفة (انظر الفصل الخامس) . فما يفكر به الانسان وما يقوم بدراسته ومناقشته من اشياء وظواهر ، انما يرتفع الى درجة معينة باختياره وارادته ورغباته ، الا أن القوانين التى يخضع لها نشاطه المعرفى وتفكيره لا ترتفع بأرادته . فهى موضوعية وواحدة عموما بالنسبة للبشر

اجمعين ، ذلك انها ذاتها ناتج للتطور التاريخي . ولو كانت الحال على غير ذلك ، لما كان بمقدور البشر أن يتفاهموا فيما بينهم ، ولما كان بإمكانهم أن يتفاعلوا ويعرفوا العالم ، لان كلا منهم في تلك الحالة سيسترشد بقوانينه للتفكير والمعرفة ، وبالتالي لن يكون لنتائج نشاطه ايما أهمية او مغزى بالنسبة للآخرين . ولكن بالنظر لكون قوانين الطبيعة والمجتمع والتفكير موضوعية ، فهي تحرز سمات عامة متشابهة . والسمة العامة التي تتسم بها هذه القوانين هي ما تدرسه الفلسفة . ويترتب على ذلك أننا ، اذ ننشد بوصلة هادية في العالم المحيط بنا ، انما يتوجب علينا بالدرجة الاولى أن نبحث تحت الروابط الخارجية الطارئة والعابرة عما هو ضروري ومستقر ودائم ، أي عن روابط منطقية للمنظومة التي نحن بصدددها . لهذا يحق لنا أن نعتقد بأن مقولة «القانون» تعكس ما هو مستقر ، «ساكن» في الظواهر . وما المعرفة واستخدام مقولات مثل «الضرورة» و«القانون» الا نتيجة لتطور البشرية التاريخي الطويل . يقول لينين : « . . . أن مفهوم القانون هو احدي مراتب معرفة الانسان لوحدة وتواصل العملية العالمية وترباطها واكتمالها» * . ويقود نكران الطابع المنطقي للعالم المادي على الفور الى اللادرية والمثالية الذاتية . اذ لا يتبقى لمن ينكر سنن العالم الموضوعية ، كونها أهم سمة للمنظومات المادية كافة ، سوى الظن بأن الطروحات بشأن القوانين الموضوعية ليست سوى نتاج «الأنا» الذاتية ، وهذا ليس ببعيد عن مذهب وحدانية الذات (٠٠٩) ، وعن النكران التام لوجود ايما نظام في العالم ، بل حتى لوجود هذا العالم بحد ذاته .

ألا يعنى الاقرار بالقوانين الموضوعية أن الانسان عاجز عن أن يغير شيئاً في الطبيعة المحيطة به وفي المجتمع ؟ أولا يعنى هذا الاقرار بسلبية الانسان ؟ كلا ، بتاتا . ففي العالم تنوع لامحدود لمختلف الظواهر والعمليات . وكلها تخضع

* لينين . المجلد ٢٩ ، ص ١٣٥ .

لمختلف القوانين والسنن الموضوعية . وليس فى مقدور البشر ان يغيروا او «يلغوا» هذه القوانين بمحض ارادتهم ، لكنهم قادرون دون شك على معرفتها وفهم الظروف التى يسرى مفعولها فيها ، وعلى تغيير هذه الظروف بهذا القدر أو ذاك استنادا الى ما عرفوه من قوانين . علما بأن فى مقدور البشر مقاومة بعض القوانين ، او بالادق مقاومة عواقبها بالارتكاز على قوانين اخرى . مثلا ، كان من المفترض حسب قانون الجاذبية الارضية أن تسقط الطائرات التى هى اثقل من الهواء على الارض ، ولكن بالاعتماد على ما عرف من قوانين الميكانيك والايروديناميك تعلم البشر لا التحليق على الطائرات فحسب ، بل واطلاق المركبات الفضائية . وقد جرى ذلك لا لأن بعض القوانين قد الغيت ، بل - على العكس - لأن البشر عرفوا هذه القوانين وسخروها لاغراضهم . ويجرى الامر ذاته مع قوانين الطبيعة وقوانين الحياة الاجتماعية على السواء . ويجدر أن نأخذ بالاعتبار أن مفعول قوانين التطور الاجتماعى لا يسرى الا فى ظل توافر الظروف المناسبة ، كما أن تجلياتها تختلف باختلاف الظروف . ومن بين هذه الظروف توجيه نشاط البشر ذى القيمة الاجتماعية . وبما أن الحياة الاجتماعية تشهد دوما نزعات مختلفة تتحكم بها قوانين مختلفة ، فإن مسألة النزعة التى ستكون لها الغلبة فى الموقف التاريخى الملموس المحدد تبقى مرهونة بتناسب القوى الاجتماعية ، وبمستوى استيعاء القوانين المعنية ، والقدرة بالاستناد اليها على تغيير الموقف المعنى بهذا الاتجاه أو ذاك . لذا فمن الخطأ الانتقاص من مراعاة العامل الذاتى فى سريان مفعول القوانين الاجتماعية والاتكال على انها ستشقى طريقها تلقائيا ، وبصورة مستقلة عن ارادة الناس ووعيهم . ان معرفة قوانين العالم الموضوعى هى الهدف الاسمى للعلم والفلسفة الماركسية اللينينية . فنشاط الانسان الابداعى الفعال والواعى فيما يتعلق بتغيير العالم لا يمكن أن يكون ناجحا الا شريطة أن يكون مرتكزا على معرفة قوانينه الموضوعية . لهذا السبب يرتبط التعليم عن مادية العالم وعن

موقف الانسان منه ارتباطا لا ينفصم بالتعليم عن القوانين الموضوعية والطابع المنطقي والمشروع لما يجرى فيه من التغيرات والانواع المختلفة من الحركة والتطور .

الحركة والزمان والمكان

١٠٩

المادة والحركة . عندما نقوم بمختلف الافعال ونراقب العالم المحيط بنا ، نلاحظ أن بعض الاشياء تتغير وتنتقل في المكان ، ويتبدل لونها وطعمها وشكلها وتركيبها الكيميائي ، الخ . اما بعضها الآخر فيبقى ساكنا ، ثابتا ، محتفظا بشكله ولونه وتركيبه الداخلي . لهذا أعرب فلاسفة الماضي القديم (١٥٠) عن وجهتي نظر متعارضتين . احدهما تفيد بأن الحركة صفة لصيقة بالعالم عموما . فقد اكد هيراقليطس : «أن كل شيء يجرى وكل شيء يتغير» وعليه «لا يمكن ولوج نفس النهر مرتين» . ومضى تلميذه كراتيليس (اواخر القرن الخامس - اوائل القرن الرابع ق . م) بهذا الرأي الى حدوده القصوى حين قال : «أن من غير الممكن ولوج نفس النهر حتى ولا مرة واحدة» . وكان يذهب الى أن العالم متحرك ومتقلب الى درجة ، بحيث لا يستطيع الانسان أن يعتمد في نشاطه ومعرفته على أي شيء متين ومستقر . ومن هذا الرأي استخلص المثاليون الذاتيون في العهود القديمة وفي العصر الراهن على السواء الاستنتاج القائل بأن معارف البشر عن العالم الخارجى لا يعول عليها ، وما العالم الخارجى نفسه سوى وهم من اوهامنا ، ذلك أن ما ليس هو مستقر وما يتغير ويتحول طوال الوقت الى شيء آخر سواء لا يمكن أن يكون له وجود موضوعى .

وكان اشياء وجهة النظر الاخرى الذين يقرون بأن العالم الخارجى والحركة مجرد وهم يدعون أن ثمة عالما موضوعيا ، سرمديا ، لا يتغير ولا يتحرك ولا يرتهن بالانسان . وكان أصل هذا العالم بالنسبة للمثاليين الذين انضموا الى افلاطون هو مملكة أزلية من الافكار الثابتة . فأصل العالم الثابت والساكن بالنسبة للايليين كان يتمثل في وجود سرمدى ثابت مكافئ

لذاته . وكانت كلتا وجهتي النظر تلتقيان في امر واحد هو انهما فصلتا الحركة فصلا كاملا عن السكون ، وجعلتا احدهما نقيضا للآخر ، فحرمتا الانسان من امكانية الاجابة عن سؤال : هل بإمكانه أن يعتمد في نشاطه ، وهو يصطدم بأشياء متحركة ومتغيرة ، على أمر ما متين وامين ، كأن يكون - مثلا - قوانين العالم المادي الموضوعية ؟ أن فصل الحركة عن السكون وجعل احدهما معارضا للآخر هو السمة الاساس للمنهج الميتافيزيقي . ومن يتبنى هذا المنهج لا بد من أن يخلص عاجلا او آجلا الى أن المادة بحد ذاتها لا وجود لها . وهذا الاستنتاج هو ما خلص اليه في اواخر القرن ١٩ ومستهل القرن ٢٠ المثاليون الذاتيون الذين اطلق عليهم اسم الماخيون (من اسم الفيلسوف وعالم الفيزياء النمساوي ماخ (١٨٣٨-١٩١٦) ، مؤسس هذا الاتجاه) ، وقد ادعوا أن المادة تفنى عندما تتحول الى طاقة ، والطاقة هي حركة محضة بلا ايما مادة . وقد تعرض لينين بنقد شديد للماخيين فأبان أن الطاقة مادية هي الاخرى كالعناصر الاخرى (١٠٢ ، ١٠٤) ، وهي موجودة موضوعيا ، خارج وعى الانسان . وليس ثمة مادة بلا حركة ، ولا حركة بلا مادة . ووجد هذا الاستنتاج ما يؤكد تماما في تطور الفيزياء المعاصرة ، ذلك أن تحول الطاقة والمادة احدهما الى الاخرى قد اثبت الحكم القائل بوحدة وترابط المادة والحركة . فما هي الحركة يا ترى ؟

أن مقولة «الحركة» تعكس كل التغيرات الجارية بالدرجة الاولى في العالم الموضوعي .

وبخلاف المادية الميكانيكية التي كانت تفهم الحركة فهما ضيقا جدا ، كونها تنقلا بسيطا للجسام في المكان ، تقصد المادية الجدلية بالحركة لا التنقل فحسب ، بل والتغيرات الكيميائية والفيزيائية وعمليات النمو والتمثيل الغذائي في اجسام الكائنات الحية ، والعمليات الاجتماعية كالصراع الطبقي ، والتغيرات الاقتصادية ، وسائر انواع النشاط البشرى . ويعكس وعينا هذه التغيرات بواسطة مفاهيم خاصة ، اهمها واكثرها عمومية وتعددا للاغراض هو مقولة «الحركة»

المستخدمة فيما يتعلق بالطبيعة والمجتمع والفكر سواء
بسواء .

ولكن اذا كان كل شيء فى العالم يتحرك ويتغير ، فما
العمل مع النظرات المعارضة الى الحركة والسكون ، التى سبق
أن تطرقنا اليها ؟ ربما يكون الحق مع المفكرين الذين كانوا
يعتقدون بأن الاقرار بالحركة العامة لن يقدم للمراء اسسا
متينة يستطيع الارتكاز عليها فى نشاطه ، ولا يسمح له
بمعرفة القوانين الموضوعية ، نظرا لكون هذه القوانين عبارة
عن روابط ضرورية ومستقرة ودائمة فى المنظومات
المادية ؟

١١٠

حوار حول الحركة والسكون . يناقش هذه المسائل المادى
الجدلى والمادى الميتافيزيقى .

المادى الميتافيزيقى (م . م) : كلانا يقر بأن العالم
مادى ، وموجود موضوعيا ولا يعتبر من ثمار مخيلتنا .

المادى الجدلى (م . ج) : هذا صحيح تماما .

م . م : لكننى اصر على أن بعض الاشياء والظواهر فى
العالم تتحرك : مثلا ، الاجرام السماوية تدور ، وامواج البحر
تمور ، والغيوم تسبح فى السماء . اما بعضها الآخر فثابت :
منذ الوف السنين والاهرام المصرية لا تتحرك ، كذلك الارائك
التي نجلس واياك عليها ، كما أننا شخصا لم نتغير عما كنا
عليه البارحة .

م . ج : انت تفصل السكون عن الحركة فصلا تاما ، وهذا
هو الخطأ الرئيسى الذى ترتكبه .

م . م : هل لك أن تثبت ذلك ؟

م . ج : انا اؤكد أن كل شيء فى العالم يتغير باستمرار ،
وهو حركة أزلية وغير قابلة للفناء . . .

م . م (مقاطعا) : ولكن ماذا بشأن الاشياء الساكنة ؟

م . ج : السكون موجود هو الآخر موضوعيا ، ولكن هذا
يجب أن يفهم فهما صحيحا : أن الحركة مطلقة وتجرى
باستمرار وفى كل مكان ، اما السكون فنسبى .

م . م : ما معنى هذا القول ؟

م . ج : أن نسبية السكون تعنى أن احدى الظواهر ساكنة نسبة الى أخرى سواها ، وأن احدى التغيرات لا يلحظ بالمقارنة مع تغير آخر . والسكون لا يمكن ان يكون ابدى ، بمعنى انه موجود ، ولكن بصورة مؤقتة فقط ، بصورة نسبية ك لحظة ، كحالة من حالات العالم السرمدى الحركة . وهذا هو المغزى الرئيسى لما اقول .

م . م : اوضح ذلك بمثال .

م . ج : يبدو للوهلة الاولى فقط أن الحركة والسكون متعارضان وغير قابلين للترباط ، لكن الامر ليس كذلك . اذا راينا غيمتين تسبحان فى السماء وتسوقهما ريح واحدة والمسافة بينهما لا تتغير ، فهما ساكنتان بالنسبة لبعضهما البعض ، لكنهما تتحركان بالنسبة للارض . والاهرام المصرية ، كذلك ارائكنا تعتبر ساكنة بالنسبة للارض ، لكنها تدور معها حول محور الارض وحول الشمس . وفى جسم الانسان تجرى تغيرات دائمة : اذ يجرى التمثيل الغذائى ويستهلك الاوكسجين ويلفظ . ثانى اوكسيد الكربون ، وتجرى الدماء فى الاوعية وتنقسم خلايا الجسم ، وينشأ الجديد منها ، وفى الذرات تدور الالكترونات باستمرار حول النواة الساكنة . والذرات نفسها اما تتحرك فى المكان حركة طليقة ، واما تراوح قرب موضع وسطى اذا كانت تندرج ضمن تركيبية جزيئية او بلورة . والشمس التى تعتبر مركزا ثابتا ، لمنظومتنا الشمسية تبدو بهذا المعنى ساكنة ، لكنها هى الاخرى تدور على مدار معين ضمن مجرتنا ، والمجرة تتحرك على صعيد الكون . والاشجار الثابتة فى مكان واحد تنمو فى الوقت ذاته وتهتز اوراقها واغصانها مع هبوب الريح وتزهر وتذبل ازهارها وهلمجرا .

م . م : وما الذى تستنتجه ؟

م . ج : الاستنتاج واضح وهو أن الحركة والسكون متعارضان ، لكنهما مترابطان فى عين الوقت . فالحركة مطلقة والسكون نسبي ، السكون موضوعى ، شأنه شأن الحركة ، ولهذا يتسنى لنا فى أية منظومة ، وفى أية عملية مهمة ولو

قدرا ضئيلا من الاهمية ، أن نشخص روابط وعلاقات ضرورية مستقرة ودائمة نسبيا تحدد وتشكل اساس كل التغيرات وتبيح لنا القول بوجود القوانين الموضوعية للعالم المادى (١٠٨) . لهذا أعتبر الفصل الميتافيزيقى بين الحركة والسكون وجعل احدهما نقيضا للآخر ليس فقط امرا مغلوطا ، بل وضارا .

١١١

الشكل والمضمون . أذن ، أن العالم المحيط بنا فى حركة مستمرة بلا انقطاع . وهذه الحركة تجرى بأشكال مختلفة . ونحن كثيرا ما نتحدث عن الشكل والمضمون فى الادب الروائى وفى المؤلفات الموسيقية ، وعن اشكال ومضمون العمل السياسى الجماهيرى وما الى ذلك . ويندر فى الحياة اليومية أن يستقصى الناس المغزى العلمى الدقيق لهاتين المفردتين . بيد انه امر ضرورى عند مناقشة المسائل الفلسفية العلمية . فما هو الشكل والمضمون ؟ أن الظواهر المحيطة بنا معقدة جدا وهى - كما أسلفنا - تتألف من عدد غفير من الاجزاء والعناصر التى توجد بينها علاقات وروابط مستقرة او تفاعلات تسمى بالبنى (١٠٦) . وهذه البنى تبدو وكأن لها جانبين داخليا وخارجيا . **الجانب الخارجى للبنية** يسمى **بالشكل** ، **والجانب الداخلى** مع ما يشمل من عناصر وعمليات يسمى **بالمضمون** . ومن هنا يتأتى أن شكل ومضمون كل ظاهرة يترابطان ترابطا وثيقا ، رغم عدم تطابقهما . وهما خلال ذلك لا ينقسمان . ان كل الاشياء تتفاعل فيما بينها ومع الانسان بجانبها الخارجى ، ان جاز القول . اما الجانب الداخلى للاشياء ، أى المضمون ، فلا يتكشف مباشرة ، بل عبر الجانب الخارجى ، أى الشكل . وما دام الشكل والمضمون لا ينقسمان ، فإن الشكل ينطوى دوما على المضمون والمضمون على الشكل . وبالنظر لكون القوانين الموضوعية تشمل دوما مضمون الظواهر ، فإن العلم حين ينتقل من الشكل الى المضمون ويتوغل فى عمق الظواهر المحيطة ، انما يتوصل الى معرفة روابطها الضرورية والمتكررة الاكثر استقرارا ، أى

قوانينها . بعد ذلك يستطيع العلم ، ما أن يدرس المضمون ويفهم القوانين ، أن يفسر تفسيراً أعمق وأصوب الشكل ، أى التفاعلات الخارجية التى يتلقاها الإنسان بحواسه . على هذا النحو نجد أن مقولات «المضمون» و«الضرورة» و«القانون» هى مفاهيم من فئة واحدة . فهى تميز صفات الظواهر الباطنية الأكثر أهمية واستقراراً . وقد يتجسد نفس المضمون فى أشكال مختلفة . على سبيل المثال ، قد تغدو علاقة الحب بين شاب وشابة وما يرتبط بها من أحداث مضمونا لنتائج مختلفة من حيث الشكل الأدبى الوجدانى : رواية ، مسرحية ، قصيدة عاطفية ، الخ . وبالعكس ، فقد يعبر نفس الشكل الأدبى الواحد ، الرواية مثلاً ، عن عقائد وانفعالات ومواقف من الحياة مختلفة من حيث المضمون .

والمضمون هو الجانب الحاسم لكل ظاهرة او عملية . وبتطوره ضمن اطار الشكل القديم يدخل المضمون الجديد عاجلاً أو آجلاً فى تناقض معه فيمهد لحلول شكل جديد محله . ويؤثر الشكل الجديد تأثيراً ايجابياً فى تطور المضمون ويدعمه ، لكن المضمون يبقى فى جميع الحالات هو الجانب الحاسم . ولجدلية الشكل والمضمون ، أى تفاعلهما وتحولهما المتبادل أهمية كبرى بالنسبة لمعرفة الظواهر الاجتماعية ، ولسوف نعود مستقبلاً غير مرة الى استخدام هاتين المقولتين (٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٧-٢٣٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩) . ولنعد الآن الى مسألة ترابط وتغير اشكال حركة المادة .

١١٢

اشكال حركة المادة . للتغيرات الجارية فى العالم المحيط بنا مضامين واشكال مختلفة . فمضمونها يرتفع بنوع المادة وبخواص هذه او تلك من الاشياء والعمليات المادية . اما الشكل فيتوقف على طابع تفاعل هذه الاشياء والعمليات وما يجرى لها من تحولات . ولذا فكل نوع من انواع المادة تناسبه اشكال معينة بهذا القدر او ذاك من الحركة .

لقد شخص انجلس قبل مائة عام تبعاً لمستوى تطور

العلم المعاصر له ستة اشكال لحركة المادة . اذ ربط شكل الحركة الميكانيكى بتنقل وتفاعل الاجسام الصلبة والغازية والسائلة فى المكان . وشمل الشكل الفيزيائى للحركة تفاعل الجزيئات والعمليات الكهرمغناطيسية ، وانتشار وتحول الطاقة الحرارية ، وما الى ذلك . وشمل الشكل الكيميائى عمليات تكون الجزيئات من الذرات وتحول بعض المواد الكيميائية الى سواها ، وشمل الشكل البيولوجى كل انواع النشاط الحيوى للنباتات والحيوانات . وأعتبر الشكل الاجتماعى للحركة بمثابة نسق لكل انواع نشاط البشر الاجتماعى . واعتبر التفكير ، هو الآخر ، شكلا خاصا لحركة المادة ، رغم أن التفكير بحد ذاته ليس ماديا ، بل مثالى . وسنتوقف بمزيد من التفصيل عند خاصية التفكير هذه فى الاقسام التالية من هذا الفصل .

فى غضون السنوات المائة المنصرمة طرأت تغيرات عملاقة على التصورات العلمية عن بنية العالم (١٠٤) . واصبحنا نعرف الآن عددا غفيرا من الاشكال الجديدة لحركة المادة يرتبط بالعمليات الجارية داخل الذرة وتفاعل الكواركات والحقول الفيزيائية المتنوعة والجزيئات البسيطة ، وكذلك بانواع أخرى من المادة تنشأ فى تخوم الطبيعة الحية والطبيعة غير الحية (الجماد) ، وفى العمليات الكونية المعقدة ، والنخ . . . وستبقى التصورات العلمية عن الانواع الجديدة من المادة واشكال حركة هذه الانواع تولد باستمرار . لهذا ينال السؤال المتعلق بعدد ما يتوفر من اشكال حركة المادة ، وما هى هذه الاشكال جوابا جديدا فى كل مرة تبعا للمستوى المحقق من المعرفة العلمية للعالم . اما من وجهة نظر الفلسفة فينبغى التنويه بالاهمية القصوى لفكرة انجلس بحد ذاتها ، والقائلة بأن عملية تطور العالم المادى تشهد نشوء انواع جديدة من الاشياء والعمليات المادية ، أى انواع جديدة من المادة ، وبالتالي نشوء اشكال جديدة ايضا من الحركة . كما أن الاشياء والعمليات الاكثر تعقيدا يناسبها شكل اكثر تعقيدا لحركتها . فكلما كان النوع المعنى من المادة اكثر تعقيدا ، اصبحت اكثر

تنوعا اشكال الحركة التى تتخذها المادة فى عين الوقت . فالكائنات الحية ، مثلا ، اكثر تعقيدا من اى كيان فيزيائى يتألف من جزيئات او بلورات وما الى ذلك . فهى تتسم بالشكل البيولوجى للحركة ، لكنها فى الوقت ذاته تخضع كذلك للقوانين الفيزيائية ، مثلا لقوانين الجاذبية ، وللقوانين الكيميائية التى تتحكم باتحاد الجزيئات التى تتألف منها اعضاء الحيوانات او النباتات ، الخ . . ويندرج الانسان فى شكل الحركة الاجتماعى ، لكنه يندرج فى نفس الوقت ، باعتباره كائنا حيا ، ضمن الشكل البيولوجى للحركة ، وهلمجرا . كذلك الحال بالنسبة لكواكب المنظومة الشمسية . فهى تندرج فى اشكال كوكبية خاصة من الحركة (الارض ، مثلا ، تندرج فى الشكل الجيولوجى) . الى جانب ذلك ، هى عبارة عن منظومات بالغة التعقيد تندرج اجزاؤها وعناصرها فى الشكل الفيزيائى والشكل الكيميائى وغيرهما من اشكال الحركة .

وتتضمن اشكال الحركة الارقى والاكثر تعقيدا اشكالا ابسط نشأت خلال مراحل التطور السالفة . ولا يجوز خلال ذلك عزو الاشكال الاعقد الى الاشكال الابسط . مثلا ، لا يجوز ان نعزو المجتمع ، كونه شكلا خاصا للحركة ، الى شكل الحركة البيولوجى . فمن شأن مثل هذه المحاولة أن تعنى هدم المجتمع وتحويل البشر الى حيوانات . فلكل شكل من اشكال حركة المادة قوانينه الموضوعية الخاصة . ومثلما لا تجوز احوالة اشكال حركة المادة الاكثر تعقيدا الى اشكالها الابسط ، كذلك لا تجوز احوالة قوانين اشكال الحركة الاكثر تعقيدا الى قوانين الاشكال الابسط . ولكن من الخطأ الظن بأن ليس ثمة صلة داخلية بين هذه القوانين . ذلك أن هذه الصلة تنشأ خلال سيورة التطور ، ودراستها تعتبر مهمة كبيرة الشأن من مهمات الجدلية الماركسية (انظر الفصل الرابع) .

والحركة تجرى فى الزمان والمكان . لهذا يقتضى الاستمرار بمناقشة مسألة المادة وقوانين الحركة والتطور جوابا عن سؤال بالغ الاهمية بالنسبة للعلم والفلسفة ، الا وهو : ما هو الزمان والمكان ؟

الزمان والمكان . تؤكد المادية الجدلية بالاعتماد الكامل على العلم المعاصر أن الزمان والمكان موجودان موضوعيا . وهما لا ينفصلان عن المادة ، شأن الحركة .

ينبغي أن نميز الزمان والمكان بوضوح ، كونهما طريقتي وجود وصفيتين موضوعيتين للمادة المتحركة ، عن مقولتي «الزمان» و«المكان» الفلسفتين ، وكذلك عن التصورات العادية والعلمية عن الزمان والمكان ، التي كانت تسم كل عصر من العصور التاريخية .

أن الزمان والمكان الموضوعيين ماديان بعد ذاتهما ، أي انهما موجودان خارج وعي الانسان وبصورة مستقلة عن ارادته . ومقولتا «الزمان» و«المكان» الفلسفتان تعكسان أهم المواصفات الشاملة للزمان الموضوعي والمكان الموضوعي . تعكس مقولة «الزمان» وجود تغيرات غير ارتدادية بهذا القدر أو ذاك في جميع اشكال حركة المادة ، وكذلك وجود تتابع معين لاحداث العالم الموضوعي ، أي كونها تجري حسب تسلسل معين ، الواحد اثر الآخر . ويستدل من ذلك أن للزمان اتجاها معينا وأن من المستحيل التحرك في الزمان بالاتجاه المعاكس . فجميع المحاولات التجريبية الرامية الى الكشف عن اتجاه عكسي للزمان لم تتكلل بالنجاح .

وتعكس مقولة «المكان» خاصية أخرى للمادة المتحركة تتمثل في حقيقة أن كل حدث وشيء وعملية وظاهرة معينة ترافقها وتجاورها في عين الوقت احداث وأشياء وعمليات وظواهر أخرى . والتغيرات المكانية ، أي التنقلات ، ارتدادية . يقال عادة أن لكل شيء مادي ثلاثة ابعاد هي الطول والعرض والارتفاع . والحركة الارتدادية ممكنة في كل من هذه الابعاد : الى الامام - الى الوراء ، الى اليمين - الى الشمال ، الى الاعلى - الى الاسفل .

ترتبط التغيرات في الزمان والمكان ارتباطا وثيقا ، وتسم بالوحدة . ولا تعكس مقولتا «الزمان» و«المكان» سوى جوانب مختلفة ، «مقاطع» مختلفة من عملية الحركة الموحدة . وهاتان

المقولتان تعكسان من حيث الجوهر حقيقة أن ثمة في الطبيعة والمجتمع والفكر ما يمكن أن يتكرر وما لا يمكن أن يتكرر ، أى أن هناك عمليات ارتدادية وغير ارتدادية .

قد يُعترض على هذا القول بأن بعض الظواهر قد تتكرر فى الزمان أيضا . ففى ظروف مختلفة من الزمان يمكن استخدام نفس الاشياء ، ويمكن للمرء أن يشاهد فيلما سينمائيا عدة مرات ، أو أن يقوم بتشغيل ماكينة انتاج واحدة طوال سنوات عديدة وهلمجرا . أن هذا الاعتراض يجانب الصواب . فكل شىء - مهما بدا ثابتا - يتغير فى الزمان ، رغم أن هذه التغيرات قد تكون غير ملحوظة تقريبا . فجدران الوعاء الذى نستعمله مرارا تنحف وترق ، والشريط السينمائى يبلى ، وماكينة الانتاج تندثر . وللتغيرات الزمنية غير الارتدادية أهمية عظيمة لا فى الطبيعة فحسب ، بل وفى المجتمع . اذ ترتبط بها الصفة اللارتردادية للعملية التاريخية . صحيح أن بعض ظواهر الحياة الاجتماعية قد تتكرر ، بيد أن هذه التكررات لا تكون دقيقة دقة مطلقة . لهذا ترتدى قضية الزمان أهمية اجتماعية كبيرة . فالمجتمع الذى شهد تغيرات جذرية فى الزمان ، كأن تكون ثورة اجتماعية ، لم يعد بمقدوره أن يعود الى الوراء وأن يكرر بالضبط ما سبق أن قطعه من مراحل التطور التاريخى . وما دامت العمليات الزمنية غير ارتدادية ، فإن قضية الزمان مهمة بالنسبة لتنظيم مجمل الحياة الاجتماعية : الانتاج ، الادارة ، التربية ، الخ . لهذا تولى الفلسفة التى تدرس علاقة الانسان بالعالم المحيط هذا القدر الكبير من الاهتمام لمناقشة ما هو الزمان والمكان ، وكيف تتغير وتتكون التصورات عنهما .

١١٤

اللاتهادن بين الفهم المثالى والفهم المادى للزمان والمكان .
فى التعليم المتعلق بالزمان والمكان تشغل المادية والمثالية موقفين متعارضين . فالآراء المثالية فى الزمان والمكان منتوج عصر معين ، ذلك أنها تنشأ على أساس من التأويل غير الصحيح للفهم الميكانيكى للزمان .

لقد ذهب عالم الفيزياء الانجليزي نيوتن ، مؤسس علم الميكانيك الكلاسيكي ، الى ان الزمان والمكان شرطان خارجيان لحركة الاجسام الميكانيكية . فالمكان اشبه بعلبة فارغة عملاقة يستطيع الجسم ان يتحرك داخلها ذهابا وايابا على كل بعد من الابعاد الثلاثة . والزمان يبدو له اشبه بشريط ينسبط برقابة . كان الزمان والمكان والاجسام المتنقلة فيهما تبدو لنيوتن موجودة خارج وعى الانسان . الزمان يقاس بالساعات والمكان بالمسطرة . وبوجه عام كانت هذه الآراء مادية . ولكن بسبب صفتها الميكانيكية كانت تنطوى على احتمال المثالية . فقيم كان يتلخص هذا الاحتمال ؟ بما أن الزمان والمكان كانا يعتبران شرطين خارجيين لتحرك الاجسام لا يرتبطان بصفاتها المادية ، بل هما مستقلان عنها ، فقد برز السؤال التالى : بم يرتهن الزمان والمكان ؟ اذا كانا لا يرتهنان بالاجسام المادية ويعتبران خارجيين نسبة اليها ، فثمة جواب يفرض نفسه هو انهما لا يرتهنان الا بالانسان – الذات المتلقية للمعرفة .

هذا الجواب المثالى الذاتى هو الذى اقترحه الفيلسوف الالماني الكبير كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) ، منطلقا من أن الزمان والمكان ليسا من صفات الظواهر المادية ، بل هما شرطان لتلقيها من قبل الانسان . فبتفاعلنا مع الاشياء ، حسب كانط ، نتلقى سيلا من الاحاسيس . ويساعدنا الزمان والمكان على ترتيب هذه الاحاسيس فى نظام معين . فالزمان «يرتب» الاحاسيس واحدا بعد الآخر ، بينما «يرتبها» المكان الواحد جنب الآخر . على هذا النحو يكون الزمان والمكان اشبه بمخطط ملازم لاحساسنا ، لقدرتنا على التلقى ، نشيع بواسطته النظام فى سبل احاسيسنا ومتلقياتنا العشوائية . اما الحديث عن نظام موضوعى فى العالم المحيط ، فهو فى نظر كانط واتباعه امر لا طائل تحته .

ويذهب المثاليون الموضوعيون الى أن الزمان والمكان من صنع عقل عالمى ، روح مطلق ، ويعتبران صفتين اساسيتين له ، وليسا شكلين لوجود المادة . وعليه فان الزمان والمكان

يمكن أن يوجد قبل نشوء المادة وبصورة مستقلة عنها .
يتضمن كتاب لينين «المادية ومذهب نقد التجربة»
اعتراضات حازمة على الآراء المثالية في الزمان والمكان .
فالعلم المعاصر يقدم أدلة دامغة تشهد لصالح الفهم المادي
للزمان والمكان . فالمجرة موجودة منذ قرابة ١٠ مليارات
سنة ، والارض زهاء ٥ مليارات سنة ، وقد ظهرت اولى
الكائنات الحية عليها منذ حوالى ٣ مليارات سنة . اما اجداد
الانسان المباشرون فقد ظهوروا قبل حوالى ٥,٥ مليون سنة .
معنى هذا أن الارض والمحرة كانتا موجودتين فى المكان ،
وتتطوران فى الزمان قبل ظهور الانسان العاقل وتصوراته عن
الزمان والمكان . على هذا النحو نرى أن الزمان والمكان
موجودان خارج الانسان وبصورة مستقلة عنه . وتدل احدث
الاكتشافات فى العلم الراديو فلكى والفيزياء الفلكية على أن
العالم يشهد دوما عمليات نشوء مجرات جديدة واختفاء اخرى
قديمة . وليس ثمة من مسوغات للاعتقاد بأن لهذه العمليات
بداية ونهاية فى الزمان او هى محدودة فى المكان . لهذا تؤكد
المادية الجدلية بالاستناد الى معطيات العلم المعاصر أن الزمان
والمكان لا ينقسمان عن المادة المتحركة ، وهى سرمدية زمانيا
ومكانيا .

١١٥

تصورات العلوم الطبيعية المعاصرة عن الزمان والمكان . كانت
الآراء الميكانيكية تقوم من بين ما تقوم على تصور مفاده أن
الزمان والمكان لا يرتئنان بصفات الاجسام المادية وخواص
حركتها . ولأجل وصف كل التنقلات الميكانيكية استخدمت
هندسة اقليدس التى وضعت اسسها فى بلاد اليونان
القديمة . وبموجبها لا يمكن أن يمر عبر كل نقطة على سطح
معين سوى خط واحد يوازي الخط المرسوم على هذا السطح ،
وأن مجموع الزوايا الداخلية لكل مثلث يساوى ١٨٠ درجة ،
ولا علاقة له بابعاد المثلث ، وأن كل المكان مليء بمستويات
علاقة غير مرئية يمكن عبر كل نقطتين عليها تمرير خط
مستقيم منتهى الاستقامة . بيد أن عالم الرياضيات الروسى

لوباتشيفسكى (١٧٩٢-١٨٥٦) اكتشف منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر هندسة جديدة غير هندسة اقليدس ، وافاد بأن من الممكن أن يكون هناك بناء مجسم يمكن ابانه أن نمرر عبر نقطة تقع خارج المستقيم المرسوم حزمة من الخطوط المستقيمة التي لا تتقاطع معه ، وأن مجموع زوايا المثلث يرتفعن بأبعاده وقد يكون اقل من ١٨٠ درجة ، بمعنى ان هذا المكان يبدو كما لو كان «ملتويا» .

وساد لفترة من الوقت اعتقاد مفاده أن هندسة لوباتشيفسكى لا تمت بصلة الى الواقع الموضوعى . وفى بداية القرن العشرين وضعت نظريتا النسبية الخاصة والعامة . وبموجب هاتين النظريتين يعتبر الزمان والمكان والحركة امورا موضوعية و مترابطة ترابطا لا ينفصم . وترابطها لا يكاد يلحظ فى حالة سرعة الحركة الاعتيادية التى يتعامل معها الانسان فى حياته اليومية . ولكن فى حالة السرعة التى تقترب من سرعة الضوء (وهى تعادل ٣٠٠ الف كلم/ثا) تقلص حجوم الاجسام المتحركة ويتباطأ الزمن . وقد جرى التأكد من هذه الحقائق تجريبيا على السرعات العصرية للدقائق البسيطة . عدا عن ذلك يتغير طابع المكان تبعا لكتلة الجسم : فكلما كانت الكتلة اكبر ، ازداد انحراف المكان عن هندسة اقليدس واكتسب الصفات الموصوفة فى النظرية الجديدة . ومع «انحراف» المكان يتغير مجرى الزمان ايضا . ووجدت هذه النتائج ما يؤكدتها تجريبيا وتطبيقيا . وبمساعدها جرى حساب وتعيين مسارات المختبرات الفضائية السوفيتية التى اطلقت الى الزهرة وهبطت على سطحها بدقة .

ويترابط المكان والزمان والحركة ترابطا وثيقا لا ينفصل عن الظواهر المادية الى درجة جعلت علماء الفيزياء يستخدمون فى احيان كثيرة مصطلح الزمكان ويقيسون الحركة لا بالاحداثيات الثلاثة المعروفة ، بل بأربعة ، مضيفين اليها الاحداثى الزمنى (البعد الرابع) . ومن هنا نشأ التصور عن المكان الرباعى الابعاد . على هذا النحو نجد الزمان والمكان صفتين موضوعيتين للمادة ترتفعنان بطابع حركتها .

يقدم الفهم العلمى لترايط الحركة والزمان والمكان تعليلا
راسخا للجواب المادى عن المسألة الاساسية للفلسفة ،
ويتيح امكانية تقديم برهان قاطع على ما تؤكده المادية
الفلسفية بأن السوعى ثانوى ويعد ناتجا للتطور الطويل
وازدیاد تعقد المادة المتحركة .

١١٦

السبب والنتیجة . ان جميع الظواهر او الاحداث او العمليات
فى الطبيعة والمجتمع والفكر تسببها او تقيضها ظواهر واحداث
وعمليات اخرى ، أى انها ناجمة عن اسباب (علل) معينة بهذا
القدرة او ذاك . **والظاهرة (العملية ، الحدث) يسمى سببا**
(علة) لظاهرة (عملية ، حدث) اخرى اذا : ١- كانت الاولى
تسبق الثانية زمنا ، ٢- كانت الاولى مهدة ضرورية أو
اساسا لنشوء أو تغير أو تطور الثانية . بعبارة اخرى ان
الاولى تسبب الثانية ، أى تتمخص عنها .

ان السبب (العلة) والنتیجة (المعلول) موجودان موضوعيا
والعلاقات فيما بينهما تسمى بعلاقة السبب والنتیجة . وتعكس
مقولا «السبب» و«النتیجة» الفلسفتان علاقات السبب
والنتیجة التى لها اهمية متعددة الاغراض ، ولها حضور فى
جميع اشكال حركة المادة . ودراسة هذه العلاقات تعتبر
مهمة بالغة الخطورة فى العلوم الطبيعية والاجتماعية والتقنية .
ولكل ظاهرة سببها . وبالعكس : فكل تغير فى العالم
المادى يسفر عن هذه النتيجة او تلك . بيد ان هذا لا يعنى
أن بعض الظواهر لا تعتبر الاسباب والاخرى لا تعتبر الـ
نتیجة . فالجدلية المادية تقر استنادا الى التجربة ،
والى ممارسة البشر التاريخية ، والى منجزات العلم ،
بأن ظاهرة معينة كتجمع البخار فى السحب ، كونها
نتیجة لظاهرة اخرى هى تبخر المياه من على سطح الارض ،
قد تكون هى ذاتها سببا لظاهرة جديدة هى المطر . بهذا
المعنى يمكن القول أن السبب والنتیجة يبدوان وكأنهما
يتبادلان بالمواقع : فما يعتبر نتیجة فى هذا الظرف قد يغدو
فى الظرف التالى سببا لظاهرة اخرى . ولهذه الموضوعة اهمية

كبيرة في حياة الانسان ونشاطه الاجتماعي . على سبيل المثال ، ان ارتفاع المستوى التعليمي وسعة الاطلاع والاعداد المهني يتيح للانسان فرصة العمل الافضل والترقي الوظيفي ، ويفضي عادة الى ارتفاع مستوى رفاهيته . تلكم هي النتيجة الاكثر احتمالا لارتفاع المستوى التعليمي والاعداد المهني . بيد ان ارتفاع مستوى الرفاهية يتيح للانسان ايضا بدوره ان يزاوئ رفع مستواه المهني والتعليمي وسعة اطلاعه ، وهذا يوفر مرة اخرى فرصا جديدة في الحياة الشخصية والاجتماعية وهلمجرا .

وترتبط مقولتا «السبب» و«النتيجة» ارتباطا وثيقا بمقولة «الشرط» . فالشرط هو مجموع مختلف العمليات والظواهر المادية التي لا يستطيع السبب المعنى بدونها ان يسفر عن النتيجة المعنية . الى جانب ذلك ، لا تلعب الشروط (الظروف) دورا فعلا وحاسما في نشوء النتيجة المعنية .

أن فعلا بعينه يؤدي الى نتائج مختلفة باختلاف الشروط . مثلا ، قد تؤدي كيماة الانتاج ايضا الى صنع عقاقير فعالة وزيادة غلة الارض وصنع مواد صناعية جديدة ، ولكن قد تكون لها نتيجة اخرى هي تلوث البيئة والمياه والجو وما الى ذلك . وعلى صعيد آخر قد تنجم نتيجة بعينها عن اسباب مختلفة . مثلا قد ينجم نمو غلة الارض عن استعمال انواع وفيرة المنتوج من البذور ، وعن تسميد التربة وتحسين اساليب فلاحة الارض وهلمجرا . وفي الظروف الاجتماعية المختلفة تحت ظل النظامين الرأسمالي والاشتراكي يؤدي التقدم العلمي التقني المعاصر (٣١٢) الى نتائج مختلفة تماما : الى البطالة واشتداد الاستغلال في المجتمع الاول ، والى التطور الشامل للمجتمع تحت ظل النظام الثاني . لهذا من الاهمية بمكان أن نفهم ترابط الظروف والاسباب والنتائج كي يتسنى لنا أن نقوم تقويما صائبا للظواهر المحيطة بنا ، وبالدرجة الاولى الظواهر الاجتماعية ، خاصة اذا اخذنا بالاعتبار أن الظواهر المحيطة بنا تنجم عادة لا عن سبب واحد فحسب ، بل عن جملة كاملة من الاسباب .

يتبنى المثاليون والماديون ، الميتافيزيقيون والجدليون ، نظرات متعارضة الى علاقات السبب والنتيجة . اذ يذهب الميتافيزيقيون الى أن لكل ظاهرة سببها الخاص ، وبالعكس ، أن كل سبب يتمخض عن نتيجة محددة بصرامة . أن وجهة النظر هذه التي تسمى بالاحتمية الميكانيكية تميز الماديين الميتافيزيقيين ، في حين يتبنى اللاأدريون والمثاليون الذاتيون وجهات نظر مخالفة ، وتبدو طروحاتهم على النحو التالي : لا يمكن للمرء مطلقاً أن يجزم هل ستنبو نبتة من هذه البذرة ، أم أن هذه البذرة ستموت بحكم عدم ملائمة الظروف . وفي بعض الحالات يقود الصراع الطبقي الى صدام مسلح ، بينما يكتسب في حالات أخرى اشكالا سلمية . وهم يمشون الى القول بأن العلم المعاصر غالبا ما يبحث في منظومات معقدة ذات عدد غفير من الظواهر والعمليات المترابطة التي يؤثر بعضها في بعض بحيث يتعذر على المرء أن يجزم أى منها هو المتسبب في الظاهرة الجديدة المعنية . لهذا يميل انصار وجهة النظر هذه الى الادعاء بأن هناك ظواهر بلا أسباب تنشأ تلقائيا ، ولم تتمخض عنها ، لم تسببها بالضرورة ايما ظواهر او عمليات أخرى . وهذا الموقف يسمى بالاحتمية .

ان الاحتمية الميكانيكية محدودة للغاية . ففي الواقع ليست ثمة رابطة صارمة ووحيدة المدلول بين الاسباب والنتائج . وتبرهن المادية الجدلية على أن الاسباب والنتائج تتبادل بالمواقع في سياق التطور . فكل ظاهرة قد تنشأ عن جملة كاملة من شتى الاسباب تبعا لاختلاف الظروف . وبنفس الصورة تماما قد يؤدي سبب بعينه الى نتائج مختلفة . لذا فنحن نتبنى وجهة نظر يمكن وصفها بالاحتمية الجدلية ، وهي تراعى مدى تعقد العلاقات والروابط السببية وتغيرها وتطورها الدائم .

ويعن في الخطأ اتباع مذهب الاحتمية . اذ يرينا العلم المعاصر ، ولاسيما فيزياء الكم ، أن التفاعلات السببية في عالم الدقائق البسيطة والظواهر الجارية داخل الذرة ترتدى

طابعا متعدد المدلولات ، وليس طابعا وحيد المدلول بشكل صارم . ومن الصعوبة بمكان التنبؤ بنتيجة كل سبب منفرد تنبؤا قاطعا . وعند وصف مثل هذه الظواهر يضطر العلماء الى استخدام نظرية الاحتمالات التى تساعد على تقدير مستوى هذا الغموض . لكن هذا يعنى أن السببية فى عالم الفيزياء الذرية تحمل طابعا احتماليا او احصائيا ، وليس القضية هنا فى غياب الروابط السببية . ولو كان الامر كذلك لمسا استطاع العلماء عموما التنبؤ بالظواهر الجديدة واكتشاف الدقائق الجديدة ، ناهيك عن التحكم بعمليات الطاقة الذرية وغيرها .

عندما سنتناول فى المستقبل مسألة نشوء الوعى وتطور المجتمع وأسباب الثورات الاجتماعية وسنن البناء الاشتراكي ، سوف يتسنى لنا غير مرة أن نرى أى دور كبير تمارسه مقولتا «السبب» و«النتيجة» .

الانعكاس كصفة عامة للمادة

١١٧

المسألة الاساسية للفلسفة فى «عصر» الكمبيوتر . قبل بضع سنوات جرى لاجل القيام بتجربة علمية تشييد متاهة صغيرة ، لكنها موهمة كفاية . وراحوا يطلقون فيها حسب الدور فئران اصطناعية الكترونية مزودة بحواس صناعية وعقل صناعى . وكان باستطاعة هذه الاجهزة اداء مهمات معينة وتصحيح ما يرتكب من اخطاء . وكان هدف الفئران الالكترونية هو الخروج من المتاهة . والفائزة من هذه الفئران هى التى تنفق اقل قدر من الوقت وترتكب اقل عدد ممكن من الاخطاء . ولدهشة الجميع كانت الفائزة هى ابسط هذه «الفئران» واكثرها بدائية .

أن مثل هذه التجارب ترغم المرء على إعمال الفكر فى الاسئلة التالية : ما هو الوعى ، ما هو الفكر ، وهل تحوزه الآلة الحاسبة ، وهل بإمكانها أن تحل محل العقل البشرى محل الذهن ؟

منذ بضعة عقود وكل هذه المسائل موضع مناقشة عاصفة

فى الادبيات العلمية والفلسفية . صحيح أن الكثير من العمليات الذهنية تؤديه فى الوقت الراهن الحاسبات الالكترونية (الكمبيوترات) التى تغدو جيلا بعد جيل اصغر حجما واسرع اداء . ويستخلص اتباع مختلف المدارس والتعاليم المثالية من هذه الحقيقة أن الوعى والفكر يمكن أن يوجد بصورة مستقلة عن الانسان . وبلغ الامر ببعضهم حتى الى القول بأن الله او العقل المطلق ما هو الا برنامج آلى متعدد الاغراض يسبق خلق العالم ، اما الكون ومنظومتنا الشمسية بل والانسان نفسه ان هى الا جهاز يطبق هذا البرنامج .

فى عصر التحولات الاجتماعية العظيمة والثورة العلمية التقنية المرتبطة بصنع الحاسبات الخارقة القدرة ، تكتسب المسألة الفلسفية القديمة عن العلاقة بين الوعى والمادة ، على هذا النحو ، نغمة جديدة ومغزى اجتماعيا جديدا وأهمية عقائدية ومنهجية خاصة . ويتوقف على حل هذه المسألة فهم المشاكل الاجتماعية وتعيين اتجاهات الابحاث العلمية . فما هو الموقف الذى تتخذه المادية الجدلية من كل هذه المسائل ، وما هو جوابها عنها ؟

١١٨

ما هو الانعكاس ؟ منذ القرن الثامن عشر احتلم الجدل فى الفلسفة حول سؤال : هل يمكن أن يوجد الوعى بغير المادة ، والذهن بغير حامله المادى ، واذا كان الرد بالنفى فمن أين يأتى الوعى ؟ اعتراضا على مزاعم الاسقف الانجليزى ج . بيركلى (١٦٨٥-١٧٥٣) بأن العالم المادى الخارجى ليس سوى مجموعة احاسيسنا ولا وجود له الا فى مخيلتنا (٠٠٩) ، قارن المادى الفرنسى د . ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤) المثاليين الذاتيين «المعزف المجنون» . فالمعزف (الانسان) يبعث الاصوات ويستحضر موسيقى متناسقة (الاحاسيس والفكر) عندما يلامس مفاتيحه (الحواس) عازف البيانو (الطبيعة) . اما المعزف المجنون (أى المثالى الذاتى) فيعتقد بأنه هو الذى يولد كل الاصوات وكل الموسيقى . وردا على سؤال المثاليين

الذاتيين ، من أين يأتى الوعي ، اذا كانت المادة جمادا (عديمة الروح) ، ادلى ديدرو بفكرة حدسية مفادها أن أساس المادة يتسم بصفة خاصة تشبه الاحاسيس من حيث الجوهر . ومن هذه الصفة تنبثق القدرة على الاحساس ، ومن ثم على التفكير . ولاثبات هذه الفكرة ساق ديدرو مثال البيضة والكتكوت . فالبيضة ليس لها القدرة على الاحساس وتلقى العالم ، فى حين يحوز الكتكوت الحى هذه القدرة . اذن ، فالقدرة على الاحساس ، حسب طروحات ديدرو ، تنشأ من الجماد . وبما أن العلم فى القرن الثامن عشر لم يكن بحوزته - مقارنة بعصرنا - سوى حجم ضئيل من المعلومات عن منشأ الحياة والوعي ، فلم يكن بمقدور ديدرو أن يضع نظرية فلسفية مكتملة ومعللة عن رابطة المادة والوعي .

هذه النظرية قام بوضعها وصياغتها على اساس المعارف العلمية المعاصرة فلاديمير لينين الذى استند الى ديدرو باعتباره قد سبقه الى ذلك واطلق عليها اسم نظرية الانعكاس . **الانعكاس هو صفة موضوعية ، عامة ، أساسية ، وغير قابلة للفصل من صفات المادة .** وهى صفة موضوعية ، شأن صفاتها الاخرى كالحركة والزمان والمكان . علاوة على ذلك ، أن الانعكاس أمر متعذر من دون حركة الظواهر المادية فى الزمان والمكان . فما هو الانعكاس ؟ أن **الانعكاس هو صفة خاصة لكل شىء مادي (ذات او معمول الانعكاس) فى الرد بشكل معين على تأثير الاشياء المادية الاخرى المتفاعلة معه (موضوع او عامل الانعكاس) .** وتؤدى هذه الصفة فى سياق التطور الطويل للعالم المادى وتعد اشكال حركة المادة فى المطاف الاخير الى نشوء الوعي والتفكير لدى الانسان . أن **الوعي هو اسمى شكل للانعكاس .**

ويرتبط فى نظرية الانعكاس ارتباطا وثيقا لا ينقسم التعليم المتعلق بمادية العالم وتطوره الجدلى . ويعجز المثاليون ، شأن الميتافيزيقيين ، عن فهم هذه الرابطة ، ولذا لا يستطيعون اعطاء جواب صحيح ينسجم مع العلم المعاصر عن مسألة منشأ الوعي .

الانعكاس فى العالم اللاعضوى . ان ابسط نوع للانعكاس هو الانعكاس فى العالم اللاعضوى ، الذى يشمل الشكل الميكانيكى والفيزيائى والكيميائى وبعض الاشكال الاخرى لحركة المادة . ولكى نفهم فيم تتلخص خاصية هذا النوع من الانعكاس ، سوف نتناول أربعة امثلة .

١ - عندما تضرب كرة البليارد بالعصا تتدحرج باتجاه معين تعيينا صارما ، وبسرعة تكتسبها بفعل قوة الضربة ، ولمسافة معينة .

٢ - عندما تصطدم اثنتان من الدقائق الفيزيائية البسيطة ، هما الالكترىون المشحون بشحنة سلبية والبوزترون ذو الشحنة الموجبة ، فى ظروف معينة تتحولان الى فوتونين ، أى كمين ضوئيين .

٣ - عندما يلامس الماء سطح قطعة حديد غير مطلى بمانع الصدا يصدأ هذا السطح نتيجة عملية التأكسد الكيميائية .

٤ - تحت تأثير الشمس والماء والرياح التى تجمل ذرات رمل واحجارا صغيرة ، كذلك بفعل المواد الحامضية والقاعدية الطبيعية نرى حتى الصخور الصلدة المؤلفة من خامات معدنية تتهدم تدريجيا وتتشقق وتتآكل (ظاهرة التحات) فتتحول الى شظايا صغيرة ، ومن ثم الى ذرات رملية .

نصادف فى هذه الامثلة اشكالا مختلفة لحركة المادة هى الشكل الميكانيكى والفيزيائى والكيميائى ، وما يسمى بالشكل الجيولوجى الذى هو عبارة عن اتحاد الاشكال الثلاثة السالفة . وفى الحالة الاولى تنتقل الكرة انتقلا بسيطا فى المكان . وذات الانعكاس (الكرة) نفسها لا تتغير خلال ذلك . وفى الامثلة الثلاثة الاخرى نجد ذات التأثير الخارجى (احدى الدقائق البسيطة ، قطعة الحديد ، الصخرة) لم تتأثر تأثرا معيناً بالعوامل الموضوعية فحسب ، بل وتهدم تحت تأثيرها فتتحول الى شىء آخر (فوتون ، صدا ، رمل) . وفى جميع الحالات تتأثر ذات الانعكاس بالمؤثرات الخارجية بشكل محدد تماما . والتغير الذى يجرى معها يناسب طابع المؤثر الخارجى .

مثلا ، لو ضربت قطعة الحديد بعصا البليارد ، لما علاها الصدا . ولو صب الماء على كرة البليارد ، لما تحركت من مكانها . وترتهن كيفية تأثر ذات الانعكاس بالمؤثرات الخارجية لا بطبيعة موضوع الانعكاس فحسب ، بل وبخواص ذات الانعكاس ، بنصائرها الفيزيائية والميكانيكية والكيميائية . ومن وجهة نظر العلوم المختلفة تطالعنا في الامثلة المذكورة تجليات لهذه او تلك من اشكال حركة المادة . ومن وجهة النظر الفلسفية تجمع بين كل هذه الامثلة سمة واحدة ، هي بالتحديد أن الذات ترد بشكل معين على تأثير الموضوع ، أى انها تساهم في عملية الانعكاس . وهى خلال ذلك أما تغير مكانها (المثال الاول) واما تغدو عرضة لتغيرات نوعية عميقة فتتحول الى شئ آخر (الدقائق البسيطة تحولت الى كم ضوئى ، والحديد الى صدا والصخرة الى حصى ورمل) . وعليه فإن تهدم الذات او تغيرها النوعى (٤١١) خلال عملية الانعكاس سمة مميزة للانعكاس فى العالم اللاعضوى .

١٢٠

تعقد الانعكاس عند الانتقال الى الطبيعة الحية . قبل حوالى ٣ مليارات سنة ظهرت الحياة على الارض . ولم تكن فى هذا الامر اعجوبة . ففي المحيط العالمى الساخن وغلاف الارض الجوى المشبع بأبخرة المياه كانت تتوفر كميات غزيرة من الكربون والهيدروجين والنتروجين والاكسجين والعناصر الاخرى . ونشأت من هذه العناصر نتيجة عمليات فيزيائية كيميائية معقدة مركبات عضوية . وبفضل مؤلفات باخ وزيلينسكى وأوبارين ، وعلماء آخرين قام العلم المعاصر بوضع مناهج للحصول على هذه المركبات فى الظروف المختبرية . وتحت تأثير الطاقة الشمسية وطاقة البراكين ، وبتأثير من الشحنات الكهربائية فى الجو والعوامل الطبيعية الاخرى ، كانت الارض بحد ذاتها ، وعلى مدى مليارات السنين اشبه بمختبر طبيعى عملاق صنع فيه حسب مبدأ «التجارب والاختفاء» عدد غفير من المركبات المختلفة ، وكانت تعزى الى عددها ايضا الجزيئات الفائقة التعقيد التى كان بعضها

يتهدم سريعا وبعضها الآخر يدوم ردحا طويلا من الزمن .
وتتمتع مثل هذه الجزيئات ، وبالدرجة الاولى الجزيئات
البروتينية التى تدخل فى تركيب اجسام الكائنات الحية
قابلة ، بخاصية بالغة الاهمية بالنسبة لنا . فهى لا تهدم
تحت تأثير العوامل الخارجية ، ولا تتحول الى منظومات مغايرة
نوعيا ، بل تبقى وتواصل وجودها . ولا يتغير خلال ذلك سوى
بعض من بنائها . وهذا يعنى أن تغيرا يجرى فى التوزيع
الداخلى المتبادل لاجزاء أو عناصر الجزيئة المعقدة المعنية أو
المادة المؤلفة من هذه الجزيئات . وتتغير الروابط المتعلقة
بالطاقة بين الاجزاء والعناصر ، غير أن المنظومة المعنية
ذاتها (ذات التأثير) لا تتحلل الى اجزائها أو عناصرها . وعندما
يكف العامل الذى سبب مثل هذه التغيرات عن العمل ، تعود
الذات الى حالتها الاولى .

على هذا النحو ، بإمكاننا أن نصف فترة الانتقال من
العالم اللاعضوى ، من الطبيعة غير الحية ، الى العالم العضوى ،
الى الطبيعة الحية ، بأنها مرحلة خاصة من تطور وتعدد
الانعكاس . وعلى صعيد المنظومات العضوية المعقدة يتجلى
الانعكاس فى أن الذات ترد على تأثير الموضوع بتغيير
ارتدادى لبعض بنائها الداخلية . ومع توقف التأثير تعود هذه
البنى الى حالتها الاولى فتضمن بذلك امكانية وجود وتطور
ذات الانعكاس .

١٢١

ارتقاء الحياة وظهور الجملة العصبية . يرتبط تطور الانعكاس
لاحقا بتطور الحياة وارتقائها . فالحياة هى شكل خاص لوجود
وحركة المادة . وتمثل نواقلها المادية الاساسية فى
البروتينات والحوامض النووية التى تؤمن التحكم بالاحياء
وتكاثرها وانتقال صفاتها الوراثية . والصفات المميزة للاحياء
هى التمثيل الغذائى (الايض) والنمو والتأثر . (الحساسية)
والقدرة على التكاثر واعادة توليد الذات والتنظيم الذاتى
والتكيف للبيئة . وبسط الكائنات الحية هى الوحيدة الخلية .

وجرى ارتقاء الحياة اللاحق خلال عملية التطور الطويلة المعقدة والمتناقضة التى تسمى بالارتقاء البيولوجى .

وفى مجرى عملية الارتقاء ازدادت الكائنات الحية تعقيدا وتطورا . وبما أن البيئة وسائر ظروف الحياة كانت تتغير تدريجيا ، فلم يكن البقاء الا من نصيب تلك الانواع من الكائنات الحية التى تكيفت لهذه التغيرات افضل من سواها . وفى اساس التكيف للبيئة تندرج عمليتان هما المحافظة على صفات وخصائص الكائن الحى التى يتوارثها جيل عن جيل (الوراثة) ، وقابلية التغير (الطفرة) . فتحت تأثير اسباب مختلفة قد تتغير بعض صفات الاحياء فجأة ، وعلى شكل طفرة . وقد تكون هذه التغيرات من ناحية النوع بأسره ضربا من المصادفة . واذا كان هذا التغير الفجائى مفيدا (كأن يساعد على التكيف للبيئة بصورة افضل ، ومن ثم يغدو ينتقل بالوراثة) فإن احفاد هذا الكائن الحى يتيسر لهم البقاء على قيد الحياة فى الصراع على الوجود مع باقى انواع النبات أو الحيوان . على هذا النحو تحولت المصادفة الى ضرورة (١٠٧) .

ولا تغدو الكائنات الحية عرضة لتأثير البيئة فحسب ، بل وتؤثر هى الاخرى فيها . اذ تزاوّل خلال سيرورة نشاطها الحيوى وتكيفها للبيئة افعالا او وظائف محددة تماما . وهذه الموضوعات ترتدى أهمية خاصة من منظور نظرية الانعكاس ، ذلك أن عملية الانعكاس لدى الكائنات الحية لا ترتبط بالتغيرات الارتدادية للبنى الداخلية فحسب ، بل وبوظائفها الحيوية .

ومع ازدياد تعقد وارتقاء الاحياء فى الصراع من اجل البقاء يجرى الانتقال من الاحياء الوحيدة الخلية الى الاحياء المتعددة الخلايا . ثم يجرى تخصص مجموعات من الخلايا وبعض من اعضاء الاحياء المتعددة الخلايا باداء وظائف معينة . فبعضها يؤدى وظيفة الحركة والتنقل ، وبعضها يؤدى وظيفة التغذية ، وفريق ثالث يؤدى وظيفة التكاثر وهلمجرا . وبمرور الوقت تظهر مجموعات خاصة من الخلايا تسمى بالانغلايا العصبية تتخصص باداء وظيفة الانعكاس . ويتجلى الانعكاس

لدى الكائنات الحية فى خاصية التأثر ، أى قدرة الجسم الحى فى الرد على تأثير البيئة بالتحرور خلال فترة معينة من الزمن على نحو يؤمن له التكيف بصورة افضل لهذا التأثير ، والبقاء وحفظ الذات . وتندرج فى أساس التأثر عمليات مادية بيوكهربائية .

وفى المرحلة التالية من عملية الارتقاء اخذت تظهر لدى الحيوانات الاكثر تطورا - الاسماك ، الحشرات ، البرمائيات ، الحيوانات اللبونة - جملة (منظومة ، جهاز) عصبية متشعبة ومعقدة . ويؤدى التخصص الجديد و«تقسيم الواجبات» الى جعل بعض الخلايا العصبية لا تستقبل سوى المؤثرات الضوئية للوسط الخارجى ، وجعل بعضها الآخر يتلقى مؤثراته الصوتية والثالث يتلقى المؤثرات الميكانيكية وهلمجرا . وتقوم مجموعة خاصة من الخلايا بوظيفة الاتصال بين سائر الخلايا وتؤدى وظائف خاصة : تنقل الاشارات العصبية الى باقى الاجهزة ، وتخزن (تحفظ) المعلومات عن المؤثرات السالفة ، وتحلل وتغير الاشارات الواردة من الوسط الخارجى . ومن هذه الخلايا العصبية الخاصة ينشأ فى وقت لاحق لدى الحيوانات الارقى مرتبة عضو خاص يدير مجمل النشاط المتعلق بالانعكاس والتفاعل مع البيئة . وهذا العضو هو الدماغ .

وبظهور الجملة العصبية ، ولاسيما الدماغ ، يرتقى الانعكاس الى مرتبة جديدة اعلى . وترتقد التغيرات البنيوية الارتدادية كرد فعل على التأثير الموضوعى للعالم الخارجى بتغيرات وظيفية تساعد لا على حفظ جسم الكائن الحى فحسب ، بل وعلى تكيفه للوسط المعيشى والتفاعل معه بشكل افضل .

١٢٢

الانعكاس الايجابى والسلبى للواقع . هل يعنى نشوء الجملة العصبية والدماغ أن الحيوانات الارقى مرتبة تحوز فكرا وسلوكا عاقلا وواعيا ؟ يصف عالم طبيعيات معاصر فى كتاب له كيف تقوم فصيلة النمل الاشقر الكبير الجسم المسمى بالامزوني باختطاف افراد فصيلة النمل البنى الغامق الصغير

الحجم ، واسكانهم فى مستوطناتها لتستثمرهم كـ«عبيد» . ولكن حتى «العبيد» يبدون نشاطا خاصا فى سلوكهم . «ذات صباح ذهبت الى مستوطنة النمل الامزونى فرأيت «عبدین» من النمل البنی الغامق يسحبان نملة امزونية من أرجلها ، محاولين اخراجها من المنزل ، وكانت الامزونية تقاوم ، لكنها لا تعضهما ، أى انها تبدي مقاومة سلبية . قام «العبدان» بسحبها لمسافة شبر عن المنزل ثم اطلقا سراحها ، واذا بالامزونية تهيم على الفور بالعودة الى المنزل . أدركها «العبدان» مرة اخرى وامسكا بأرجلها وراحا يسحبانها من جديد بعيدا عن مدخل المنزل ، واطلقاها . فى هذه المرة يبدو أن النملة الامزونية استسلمت للضرورة ، اذ جلست برهة فى مكانها ، ونظفت نفسها ، ثم انصرفت فى ادغال العشب ، فأستنتجت انها ذهبت الى الصيد وجمع القوت ، والا لما كان بمقدورى أن افسر كل هذه التصرفات الغريبة التى بدت عن ممثلى النمل ذى اللون البنی الغامق (وقد شهدت مثل هذه التصرفات مرات عديدة) . يبدو أن «العبيد» كانوا يطردون «اسيادهم» الى العمل ، أى الى القيام بغارات على الاراضى المجاورة والبحث عن الطعام ، كى لا يجلسوا بلا عمل» * . أن الوصف الذى اوردناه يبدو للوهلة الاولى وكأنه يقدم الدليل على وجود سلوك عاقل وواع لدى النمل وغيره من الحشرات . لكن الامر فى الواقع ليس كذلك .

أن انعكاس الواقع لدى الاحياء الوحيدة الخلية ، وهى ابسط الاحياء ، كما اسلفنا ، يكتسب شكلا بدائيا جدا . فاذا ازدادت كثافة الحامض فى جزء من الوعاء حيث توجد الاميبا ، وهى من الاحياء الوحيدة الخلية ، فسوف نجدها تبتعد الى حيث تكون كثافة الحامض اقل . واذا اصطدمت الاميبا بطعام عن طريق المصادفة ، فسوف تلتهمه بأى قطاع من قطاعات جسمها . والاميبا لا تختار اتجاهها معيناً للحركة ، ولا تضع امامها اهدافا معينة . وبلاستناد الى

* اكيموشكين . غرائب الطبيعة . موسكو ، ١٩٨١ ، ص ٣٥ .

خاصية التأثير (١٢١) لا يمكن أن نرى سوى تكيف سلبي للواقع . والتكيف السلبي يعنى أن الكائن الحى ينتقى فقط الظروف الملائمة لوجوده بين ما يتوفر منها فى الوسط المحيط به ، لكنه لا يبحث عنها ، ناهيك عن أن يخلقها . وتتوفر خاصية التأثير ايضا لدى الكائنات المتعددة الخلايا ، ومن ضمنها النباتات . فنبتة العتر (عصا الراعى) الموضوعة على النافذة تقوم ، بفضل تحول الهورمونات من جانب الجذع المضاء باشعة الشمس الى الجانب الواقع فى الظل ، بإدارة اوراقها بحيث يسقط عليها المزيد من ضوء الشمس اللازم لنشاطها الحيوى . وهذا ايضا شكل من اشكال التكيف الانتقائى لكنه سلبي رغم ذلك ، لأن نبتة العتر لا تنتقل بحثا عن الضوء ، ناهيك عن انها لا تقوم ذاتيا بصنع الانارة اللازمة عندما يمسى الضوء غير كاف .

ومع تعقد وتطور الجهاز العصبى ونشوء الدماغ يلاحظ انتقال تدريجى من التكيف الانتقائى السلبي الى التكيف الايجابى . ويرتبط التكيف الايجابى لدى الحيوانات الراقية - الحشرات ، الطيور ، ولاسيما الحيوانات اللبونة - بالبحث عن الظروف الملائمة للمعيشة فيؤدى الى تبلور اشكال سلوك معقدة كفاية . ونحن نلاحظ اشكال سلوك اكثر تعقيدا لدى الحيوانات اللبونة الارقى مرتبة . فالذئب ، مثلا ، تؤشر حدود اراضيها المخصصة للصيد وتمنع الذئب الاخرى من الاصطياد فيها . وقد راقب احد الباحثين كيف كانت ذئبة جائعة تحاول جذب انتباه مجموعة «فضولية» من البط البرى واستدراجها الى الشاطئ ، بعيدا عن الماء ، حيث قدمت الذئبة على ساحل البحيرة «حفلا استعراضيا» راحت تتواثب خلاله وتتدحرج على العشب وترقص ، فتبعها البطات وهى تبتعد اكثر فاكتر عن البحيرة ، وعندما تقلصت المسافة بين الذئبة ومجموعة البط وثبت فجأة وظفرت بغنيمتها . والمعروف أن النمل والنحل تشيد منشآت معقدة جدا ، اما حيوان القندس فلا يشيد بيوتا ذات سقوف واقبية خفية تفضى الى التربة فحسب ، بل ويبنى سدودا حقيقية . فتراه ينقل الى

قاع النهر او الجدول او تادا مدببة خصيصا ويشدها بالاغصان ويردمها بالاحجار ويطلبيها بالغرين ، علما بأنه يترك ممرات لجريان الماء ويتحكم بجريانه تبعا لمنسوبه فى التربة او النهر . كل هذا يوفر المسوغات للظن بأن سلوك هذه الحيوانات عاقل وواع . بينما ليس هذا فى الواقع سوى تكيف ايجابى ، فعال تبديه الحيوانات الراقية المرتبة ازاء البيئة المحيطة بها على اساس اشكال الانعكاس العالية التطور . ويتلخص التكيف الفعال فى أن الحيوانات الراقية توظف بنشاط عناصر البيئة لأغراض معيشتها ، وتتقصى أكثر الظروف ملائمة ، وتقوم بتكييف البيئة ، وإن بإبعاد محدودة ، كى تكون مناسبة لنشاطها الحيوى . غير انها تفعل ذلك دون خطة للنشاط ، ولا تقوم بتحويل الواقع المحيط بها تحويلا جذريا . أن الكثير من الاشكال المعقدة لسلوك الحيوانات يعتبر فطريا ، يتبلور خلال ملايين السنين من التطور (الارتقاء) وينتقل بالوراثة . وتسمى اشكال السلوك الفطرية هذه بالغرائز ، وقد تكون معقدة جدا ، ولكن فى حالة حدوث تغير حاد فى ظروف الحياة تجد الحيوانات نفسها «أسيرة» غرائزها ، وعاجزة عن تغيير هذه الغرائز لغرض التكيف للظروف الجديدة ، ناهيك عن عجزها عن تغيير هذه الظروف بشكل حاسم وتكييفها لاحتياجاتها الجديدة .

١٢٣

النفسى والفيزيائى ، المثلث والمادى . الجهاز العصبى والدماغ ماديان ، تجرى فيهما عمليات فيزيائية وكيميائية مختلفة : اذ يتم التمثيل الغذائى وتنتشر النبضات البيوكهربائية وما الى ذلك . وتسمى نتيجة تفاعل الدماغ والعالم المادى الخارجى بالنفسية ، بينما تسمى عملية اداء النفسية لوظائفها بالنشاط النفسى . وتنطوى النفسية على : ١ - الصور الحسية ، البصرية والسمعية واللمسية والشمية والذوقية للأشياء والعمليات الجارية فى العالم المادى الموضوعى ؛ ٢ - القدرة على اختيار الاهداف والسعى الى تحقيقها ، الامر الذى لا تقتسم به الا الحيوانات الراقية المتسمة بسلوك هادف (من هذه

القدرة تنشأ لدى الانسان الارادة والسلوك الارادى) ؛ ٣ -
العواطف والانفعالات والمشاعر التى ترد بها الحيوانات ردا
مباشرا على مؤثرات البيئة (كالغضب والفرح والخوف والشغف ،
الخ) ؛ ٤ - القدرة على حفظ ونقل المعلومات ، وبالدرجة
الاولى القواعد والاصول والمواصفات التى تتحكم بالسلوك
وتتيح التكيف للبيئة (ومن هذه القدرة ينشأ لدى الانسان
الوعى والتفكير) .

ومن المهم جدا أن يفهم المرء أن النفسية كونها منتوج
النشاط الحيوى للدماغ لا تنحصر فى الانعكاس السلبي
البسيط للواقع الخارجى ، ولا تعتبر صورة له طبق الاصل ،
كما فى المرأة . فهى تتمتع بقدرة على تلقى وتحويل
المعلومات التى تتيح صياغة قواعد السلوك ، وبقدرة على
التوليف الفعال للصور وردود الفعل النفسية واعادة تركيبها .
وفى نتيجة الارتقاء الطويل ، ومع ظهور الانسان ، تتحول هذه
القدرات الى قدرة على الابداع تخص الانسان وحده . بيد
اننا نستطيع رصد اجنتها فى النشاط النفسى للحيوانات
الراقية . وحتى مع ظهور الوعى البشرى تبقى جملة من
مستويات واشكال النشاط النفسى لا يشملها الوعى ، ولا
تخضع لرقابته ، بل تمكث فى مجال النشاط النفسى اللاواعى .
وثمة علم خاص يدرس منشأ النفسية واداءها لوظائفها ،
وكذلك علاقة الوعى واللاوعى فى النشاط النفسى هو علم
النفس (السيكولوجيا) .

يستخدم مفهوم «الوعى» و«التفكير (الفكر)» عادة
كمترادفين . وهكذا استعملهما انجلس عند صياغته للمسألة
الاساسية فى الفلسفة (٥٠٧) . ولكن ، ثمة فارق معين
بينهما . فالتفكير يعنى اساسا عملية صنع المعارف
المتعلقة بالواقع المحيط ، عملية صنع المفاهيم والطروحات
والاستنتاجات ، التى تتمثل المرحلة الاولى منها فى تكون
الاحاسيس والمتلقيات الحسية (١٠١ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧) ، فى
حين يعنى الوعى نتيجة لهذه العملية ونشاطا يتعلق باستخدام

ما تم وضعه من مفاهيم وطروحات واستنتاجات فى التعامل مع العالم المحيط لغرض معرفته وتغييره .

على هذا النحو ، يشكل التفكير والوعى أسمى مستوى من النفسية والنشاط النفسى . ولا يتسم بهما سوى الانسان . اما الحيوان فلا يحوز الا أجنة ، عناصر بسيطة للغاية ، او بالادق قابليات ينشأ منها فى سياق التطور الطويل التفكير والوعى البشرى .

والنفسية ، بما فيها فكر الانسان ووعيه ، مثالية . وعلى الرغم من أنها تنشأ نتيجة تفاعل مادي بين الدماغ المادى والعالم الخارجى المادى ، فهي لا تتمتع بالصفات والملامح التى تتسم بها كل الظواهر المادية (كالامتداد فى المكان أو الشكل الهندسى أو الحجم أو كتلة السكون أو الحركة) . وليس للظواهر النفسية ايما مواصفات فيزيائية او كيميائية . وهي لا تحتوى على شحنات كهربائية او ذرات او جزيئات او دقائق بسيطة او كواركات او حقول فيزيائية ، الخ . ولا تخضع هذه الظواهر لقوانين الحركة الفيزيائية أو الكيميائية او البيولوجية . فالظواهر المادية فى حركة دائمة لا تتوقف بصرف النظر عن تغير نفسية هذا الحيوان او ذاك ام عدم تغيرها . على العكس ، أن تغير النفسية مرهون بتغيرات الدماغ المادى والاشياء المادية الخارجية .

والنفسية ثانوية بالنسبة للعالم الفيزيائى المادى ، فى حين أن هذا العالم لا يرتهن بها ويعتبر اوليا . ثم أن النفسية هي نتيجة تطور خاصية الانعكاس التى تتسم بها كل المادة ، بيد أن النفسية لا تصنعها المادة كلها ، بل الدماغ الذى هو الشكل الاكثر تعقيدا للمادة الحية . أن هذا الاستنتاج الذى استخلصته نظرية الانعكاس اللينينية يتيح امكانية الدحض الكامل لمذهب حيوية المادة القائل بأن المادة بأسرها حية ولها خواص نفسية .

تكشف نظرية الانعكاس اللينينية عن كامل بطلان المادية الميكانيكية والمبتذلة من جهة ، والمثالية الموضوعية والذاتية من جهة اخرى .

وبجعل الانسان الذى يدعى ان له روحا الهية خالدة نقيضا للحيوان «العديم الروح» ، كان الفيلسوف الفرنسى ديكارت المتمسك بمواقع المذهب الثنوى (٠٠٨) يزعم أن الحيوانات ليست سوى آلات معقدة لا يشكل سلوكها سوى رد ميكانيكى على مؤثرات البيئة . وقام المادى الميكانيكى الفرنسى ج . لاميتري (١٧٠٩-١٧٥١) بتعميم هذا الراى الميكانيكى ايضا على سلوك الانسان الذى لا يعتبر - فى رأيه - سوى آلة معقدة للغاية أشبه بآلية ساعة عملاقة . وكان ماديو القرن التاسع عشر المبتدلون (فوخت ، بيوهنر ، موليشوت) يدعون أن الفكر والوعى عبارة عن منتج مادى ، بل وحتى ملموس لنشاط الجسم . فالفكر ، فى اعتقادهم ، يفرزه الدماغ مثلما يفرز الكبد المادة الصفراء .

بطبيعة الحال ، لم نعد نصادف فى النصف الثانى من القرن العشرين هذا الشكل الصريح من المادية المبتدلة . ولكن لا تزال تنتشر حتى الآن بين اوساط ممثلى الفلسفة البرجوازية ، وعلى نطاق واسع كفاية ، آراء ميكانيكية وفيزيائية تنكر الخصوصية النوعية التى يتسم بها النشاط النفسى ، وبخاصة التفكير . فالفيلسوف الاسترالى ارمسترونغ ، مثلا ، يدعى صراحة أن العقل ما هو الا الدماغ ، وان التفكير يمكن حصره فى وصف خواص الدماغ الفيزيائية .

أن معطيات العلم المعاصر تدحض دحضا تاما آراء الماديين الميكانيكيين والماديين المبتدلين على السواء . وبالاغتماد على هذه المعطيات تقدم نظرية الانعكاس اللينينية دليلا لا يدحض ضد المثالية ايضا . فهى تكشف لنا أن النفسية لا يمكن أن توجد من غير حاملها المادى ، أى من غير الدماغ الذى يصنعها . وهذا الدليل يدحض فى الوقت ذاته المثالية الموضوعية التى تدعى أن الوعى ، والعقل العالمى موجودان منذ الأزل ، خارج المادة وقبلها وبصورة مستقلة عنها ، كما يدحض المثالية الذاتية التى تنكر وجود المادة بحد ذاته وتقول بإمكانية وجود الفكر من غير النشاط العصبى الذى يتمخض عنه .

وبالاعتماد على معطيات العلم المعاصر تؤكد المادية الجدلية الى جانب ذلك أن النفسية ، كونها ثانوية ، تتطور وتؤدي عملها حسب قوانينها الذاتية ، ولا يمكن حصرها ميكانيكيا فى الظواهر والعمليات الفيزيائية أو الكيميائية أو البيولوجية .

على هذا النحو ، وبعد أن تناولنا تطور وتعقد الانعكاس ، نكون قد اقتربنا جدا من مسألة خصوصية الوعي البشرى باعتباره الشكل الاسمى لانعكاس الواقع .

وعى الانسان

١٢٤

الدماغ هو العضو المادى للنشاط النفسى . أن دماغ الحوت اخف من وزنه بحوالى ٥٠٠ مرة ، ودماغ الاسد اخف من وزنه بحوالى ١٥٠ مرة ، اما دماغ الانسان فأخف من وزنه ٦٠-٦٥ مرة فقط . وهذا يدل على أن «الوزن النوعى» للنشاط النفسى او الوظائف النفسية فى حياة الحيوانات اللبونة الراقية يختلف تماما بالنسبة الى وظائف الجسم الاخرى . والقضية ، بالطبع ، ليست فى حجم الدماغ ووزنه ، بل فى النشاط الذى يزاوله . هنالك فارق نوعى مبدئى بين نشاط الانسان النفسى ، الذهنى او العاطفى والحيوانات الراقية . فالانسان قادر على صنع مواد لا وجود لها فى الطبيعة ، وعلى برهان النظريات الرياضية وممارسة الفن وصنع المكائن ، بل وحتى ارتياد الفضاء الكونى بعيدا عن حدود الارض . كل هذا لا طاقة للحيوانات به ، وكل هذا فى الوقت ذاته يجرى بفضل نشاط الدماغ . فالدماغ هو شكل المادة الحية الاسمى والاكثر تعقيدا وتنظيما .

لقد كشف العالم الروسى بافلوف (١٨٤٩-١٩٣٦) وتلاميذه عن أن ارتكاسات الدماغ الشرطية واللاشرطية هي التى تندرج فى أساس النشاط النفسى . فلتن كانت ثمة مؤثرات خارجية تؤثر على النهايات العصبية للحواس ، فسوف تنتقل الى الدماغ عبر الجهاز العصبى اشارات بيوكهربائية

محددة بصرامة ، فتسبب جملة من التحولات الفيزيائية الكيميائية المعقدة تتحول فى سياقها الاشارة القادمة فتثير لدى الجسم رد فعل جوابيا . وعلى اساس هذه الاشارة يبعث الدماغ ايعازا جوابيا الى الاعضاء الباطنية او الاعضاء الحركية ذات العلاقة للقيام بالفعل الاكثر ملاءمة . فعند رؤية الطعام ، مثلا ، ينفرز اللعاب فى تجويف فم الحيوان . وحين يمس الانسان سطحا حاميا يسحب يده بلمح البصر . هذه العملية تسمى بالانعكاس اللاشرطى او الغريزة .

والاشارات التى تثير الانعكاس اللاشرطى هى الاشياء والعمليات فى الواقع الموضوعى ، المهمة حيويا بالنسبة لمجمل نشاط الجسم . وعلى اساس الانعكاسات اللاشرطية تتكون الانعكاسات الشرطية . مثلا ، اذا دأبنا على قرع جرس قبل اطعام الكلب باستمرار ، فبمرور الوقت سوف يقوم جسمه بافراز اللعاب ردا على قرع الجرس حتى فى حالة غياب الطعام . وفى الطبيعة تساعد مثل هذه الانعكاسات الشرطية الحيوانات على التكيف لظروف البيئة السريعة التغير . وهى تستخدم فى الحياة اليومية لترويض الحيوانات . ففى المثال الذى اوردناه اصبح الجرس «ينوب» عن اللحم ، أى انه اصبح اشارة شرطية لشيء مهم حيويا .

والانعكاسات الشرطية واللاشرطية تنبعث من قشرة نصفى الدماغ الكبيرين لدى الحيوانات الراقية والانسان . وقد اصبحنا الآن نعرف بدقة كافية قطاعات الدماغ التى تتلقى الاستثارات البصرية والسمعية واللمسية والشمية ، وكذلك القطاعات التى تتحكم بعمل مختلف الاعضاء (الايدي ، الارجل ، اللسان ، وهلمجرا) . وعندما تصاب هذه القطاعات لدى حيوانات التجارب او الانسان (نتيجة مرض او حادث) تختل الوظائف المتعلقة بها اختلالا شديدا . وهذا يؤكد بما لا يقبل الجدل أن النشاط النفسى المثالى فى طبيعته يعتبر نتيجة لعمل الدماغ المادى .

وقد اثبت خلال السنوات الاخيرة أن الشطرين الايمن واليسر من الدماغ لدى الحيوانات الراقية والانسان يؤديان

وظائف مختلفة . ففي الشطر الايمن يجرى تركيب وتحليل
وخزن المعلومات التعبيرية ، الحسية ، عن العالم الخارجى
(الاحساس بالاصوات والروائح والصور البصرية وهلمجرا)
على شكل ذاكرة . اما الشطر الايسر فيخزن ما يشبه قواعد
وأصول النشاط . على هذا النحو تتعمق معارفنا عن الدماغ
والنشاط النفسى وستبقى تتعمق مستقبلا .

١٢٥

العمل أساس الوعى . ولكن لماذا تتوفر لدى الحيوانات
بداءات التفكير ، لكنها تعجز عن معالجة تلك المهام والقيام
بتلك الافعال التى يعالجها ويقوم بها الانسان ؟ الجواب عن
هذا السؤال هو : أن فكر ووعى الانسان يختلفان اختلافا
نوعيا عن النشاط النفسى للحيوانات بفضل العمل . ولكن الا
تستطيع الحيوانات مزاولة العمل ؟

أن العقاب الابيض الرأس يلتقط بمنقاره حجرا كرويا
ويقلع الى ارتفاع شاهق ، ويسدد الى بيضة النعامة الكبيرة
التى يعجز عن كسرها بمنقاره ، ثم ينقض عليها ويطلق الحجر
كطوربيد صغير من مسافة بضعة امتار عن الهدف . تهشم
قشرة البيضة فتغدو لقمة سائغة للعقاب . والشمبانزى -
القرود الشبيهة بالانسان - يطيب لسه فى الظروف الطبيعية
والمختبرية على السواء استعمال العصا لاسقاط ثمرة موز
معلقة على ارتفاع شاهق . اما عن حب النحل والنمل للعمل
فتحكى الاساطير . رغم ذلك ، فالحيوانات لا تزاول العمل .
انها تستثمر مادة الطبيعة الضرورية للحياة ، وتجمع القوت
وتشيد مساكنها بواسطة اعضائها الطبيعية : الانياب ،
المخالب ، الاجنحة ، المناكير ، الزعانف . اما الخاصية المميزة
لعمل الانسان فهى أن ما بين الانسان والطبيعة تمثل أدوات
العمل . فالانسان بواسطة ادوات العمل لا يكتفى باستثمار مادة
الطبيعة ، بل يقوم بتحويلها مضافا عليها شكلا خاصا ،
ضروريا لتلبية احتياجاته . انه يقوم خلال سيرورة العمل
بأنسنة الطبيعة ، ولا يندر أن يصنع اشياء لا وجود لها اصلا
فى الطبيعة . أن علاقة الحيوانات بالطبيعة تعتبر مباشرة .

فالحيوانات نفسها تعتبر جزءا من الطبيعة . وعلى الضد من ذلك ، تمثل بين الانسان والطبيعة ادوات الانتاج : المعدات والاجهزة والآليات والمكائن المعقدة . لذا فأن علاقة البشر بالطبيعة تعتبر غير مباشرة ، أى انها تجرى بمساعدة ادوات العمل . وبفضل ذلك ينفصل الانسان عن الطبيعة ويضع نفسها فى مواجهتها . ولكن الا يتناقض هذا مع المثالين اللذين اوردناهما عن العقاب والشمبانزى ؟

كانت سيرورة العمل الحقيقية التى تحول اجدادنا الاقدمون بفضلها الى بشر ترتبط بصنع ادوات خاصة ومخصصة لمزاولة العمل بالذات ، لا باستخدام مسا يجدونه بشكل جاهز فى الطبيعة من اشياء . فالعقاب لا يصنع صخرته ، والشمبانزى لا يقطع ولا ينشر عصاه . ولكن حتى اقدم اجدادنا كانوا يصنعون ادوات حجرية بدائية ، وذلك عن طريق نحت حجر بحجر آخر . وكانوا يقومون بتدبيب نهايات العصى بواسطة مقاشط حجرية ويعالجونها بالنار لتكتسب المتانة . ولكن حتى ارقى الحيوانات المعاصرة ، ومن ضمنها القروود الشبيهة بالانسان لتعجز عن القيام بشئ كهذا . ولهذا السبب بالذات فان أى نشاط للحيوانات ، حتى اذا كانت تستخدم لاجله احيانا الاشياء التى تعثر عليها فى الظروف الطبيعية ، يختلف اختلافا مبدئيا ونوعيا عن عمل الانسان .

أن العمل لا يتيح تحويل وتغيير الاشياء المحيطة فحسب ، بل ويؤدى الى تغيير وتطوير الانسان نفسه . فعن طريق تكرار بعض العمليات مليارات المرات على مدى مئات الوف السنين طور البشر اعضاءهم ، وبالدرجة الاولى ايديهم ، ومعها تطور ايضا دماغ الانسان . وقد جرى ذلك لأن نفس قطاعات الدماغ التى تتحكم بعمل اليد ، تتحكم ايضا بالنطق وبلسان الانسان ، كونها مراكز نشاطه الذهنى . واتاح تطور الدماغ بدوره تركيب ونقل المعلومات الى الاجيال التالية عن اساليب العمل وطرق صنع ادواته ، وعن مراسى التعاون والتعاقد الجماعى وعن العالم المحيط . وفى سياق العمل قام الانسان بتغيير وتحويل اشياء مختلفة . وقد اتاح له ذلك معرفة

ودراسة صفاتها غير المتاحة للحيوانات . على هذا النحو أصبحت سيرورة العمل اساسا لتطور الفكر والوعى كونهما اسمى اشكال النشاط النفسى . وعندما انفصل الانسان عن الطبيعة لم يع موقعه المعارض للطبيعة فحسب ، بل ووعى ذاته كمخلوق متميز يتمتع بالوعى ويختلف بفضل ذلك عن سائر الكائنات الحية .

على هذا النحو كان ظهور الوعى يعنى الانتقال الى الشكل الاسمى لانعكاس الواقع . وكان هذا الانتقال يتلخص فى أن الانسان ، عوضا عن التكيف السلبي وحتى الايجابى للطبيعة ، قد تعلم على اساس عكس ومعرفة الواقع تكيف الطبيعة لاحتياجاته وتحويلها تبعا لغاياته ، وصنع اشياء لا وجود لها فى الطبيعة .

١٢٦

اللغة والفكر . الوسيلة الجبارة الاخرى لتطور الوعى هى اللغة . فاللغة هى الواقع المباشر للفكر . بعبارة اخرى أن الفكر يتجسد دائما فى اللغة . والعكس بالعكس : أن اللغة شكل للتعبير عن الفكر .

واللغة منظومة رموز خاصة . فكل لغة تتألف من كلمات مختلفة ، أى من اشارات صوتية رمزية تعنى مختلف الاشياء والعمليات ، وكذلك من قواعد النحو التى تتيح تنظيم المفردات فى جمل . والجمل هى التى تعتبر وسائل التعبير عن الافكار . فبواسطة الجمل الاستفهامية يتساءل البشر ويعبرون عن استغرابهم او جهلهم . وبواسطة صيغة الامر يصدرن الايعازات والاوامر . وتستخدم الجمل الوصفية او التعبيرية لوصف العالم المحيط والتعبير عن معارفنا عنه ونقلها الى الآخرين .

ان مجموع مفردات هذه اللغة او تلك يشكل متنها . ويضم متن اكثر اللغات المعاصرة تطورا عشرات الوف المفردات . وبمساعدها ، وبفضل قواعد تركيب وتوليف المفردات فى جمل ، تتسنى كتابة او لفظ عدد غير محدود من الجمل المفيدة ، باعتمادها فى ملء مئات ملايين الكتب

والمقالات . وبحكم ذلك تتيح اللغة التعبير عن مختلف الافكار ، ووصف مشاعر وانفعالات الناس ، ووضع صيغ النظريات الرياضية وصنع المعارف العلمية والتقنية .

وعلى الرغم من أن الفكر والوعي مثالان ، فإن اللغة التي تعبر عنهما مادية . فحواس الانسان تستطيع تلقي اللغة المنطوقة او المدونة . فبعد أن ظهرت اللغة وتطورت في سياق النشاط العمل الجماعي اصبحت أهم وسيلة لتطور الفكر . فبواسطتها يتم حفظ وتحليل ونقل المعلومات من انسان الى آخر ، ومن جيل الى جيل . واللغة تظهر في مجتمع وتعتبر ظاهرة اجتماعية وتؤدي وظيفتين بالغتي الاهمية هما التعبير عن الوعي ونقل المعلومات .

وتتوفر لدى الحيوانات الراقية مبادئ الابلاغ بالاشارات الصوتية . فالدجاج يصدر بضع عشرات من الاصوات التي تعبر عن الاحساس بالخطر وتستقدم الكتاكيت وتبلغ بوجود الطعام او غيابه . ولدى بعض الحيوانات اللبونة المتطورة الآن كالدلافين مئات الاشارات الصوتية . رغم ذلك فليست هذه لغة بالمعنى الحقيقي للكلمة . وتقوم قدرة الابلاغ بالاشارات لدى الحيوانات على الاحاسيس والتصورات البسيطة . ويصفها بافلوف بجهاز الاشارات الاول . وليس لدى هذه القدرة على التبليغ بالاشارات قواعد توليف . لذا تكون المعلومات التي تبثها محدودة جدا . فجهاز الاشارات لدى الحيوانات يستطيع أن يبث قدرا من المعلومات بالقدر المتوفر لديه من الاشارات ، في حين تستطيع اية لغة بشرية أن تبث وتعبر عن قدر غير محدود من المعلومات المتنوعة .

ولغة الانسان هي جهاز الاشارات الثاني . وقد نشأت تاريخيا في سياق نشاط البشر العمل والاجتماعي ، واصبحت أهم أداة لمعرفة وتغيير العالم المحيط بل والانسان نفسه . والصفة المميزة الرئيسية لجهاز الاشارات هذا تتمثل في كون الشخص الذي يستخدم الاشارات الاصطلاحية - الكلمات وما تكونه من جمل يستطيع الخروج عن اطر الغرائز واكتساب

قدر من المعارف غير محدود من حيث الحجم والتنوع .
لقد اخفقت كل محاولات تعليم القردة الشبيهة بالانسان
لغة صوتية ، ذلك أن الجهاز الصوتي لدى الحيوانات يعجز
عن محاكاة أصوات اللغة البشرية الواضحة المخارج . وقد
تسنى خلال السنوات الاخيرة تعليم عدد من قردة الشمبانزى
استعمال بعض الايماءات من لغة الصم والبكم للتعبير عن
ابسط الانفعالات (الجوع ، الخوف ، وما الى ذلك) . واكثر
ما تستطيع القردة أن تعبر عنه بهذه اللغة يثبت بالاشارات
التي تعنى : «اعطني ماء» ، «أبرز الدمية» الخ . اما الجمل الاكثر
تعقيدا ، التي تتضمن المفاهيم المجردة التي يستحيل بدونها
تطور التفكير ، فلا تتسنى لها الا بعناء شديد . والعائق
المنيع الذي يعترض تطور النشاط اللغوي لدى القردة هو
أن دماغها ليس بالحجم والتطور اللذين يمكنانها من تعلم لغة
الانسان . أن لاجراء مثل هذه الابحاث أهمية علمية معينة ،
وهي تدل الى جانب ذلك على أن القردة الراقية الشبيهة
بالانسان تعجز لا عن أن تطور بشكل مستقل جهاز الاشارات
الثاني الذي يندرج في اساس نشاط الانسان الذهني ، بل
وعن أن تستوعبه استيعابا تاما .

ان النشاط اللغوي الذي نشأ ابان العمل كأساس ووسيلة لتطور الفكر والوعي يعتبر سمة مميزة للانسان .

وفى سيرورة العمل بالذات ظهرت الحاجة الى التفاهم
والتبادل بالخبرة الانتاجية ، الحاجة الى تنفيذ الاوامر باحكام ،
وتركيب ونقل المعلومات الضرورية للحياة . وهذا هو ما أدى
الى تطور اللغة وتعقدتها تدريجيا ، بعد أن كانت بادية ذى
بدء تتداخل تداخلا مباشرا مع النشاط العملي .

كان العمل واللغة العاملين الاساسيين اللذين ساعدا
على ظهور وعى الانسان كشكل اسنى لانعكاس الواقع .

١٢٧

بصدد الطابع النسبي لتعارض المادة والوعي . هكذا نرى
أن الوعي ، بخلاف المادة ، ليس ازليا . انه ناتج تطور
المادة . والوعي هو الشكل الاسنى والاكثر تعقيدا لخاصيتها

المتميزة ، أى الانعكاس . فالمادة يمكن أن توجد بغير الوعي ، وتسبقه فى عملية التطور ، بيد أن الوعي لا يمكن أن يوجد بغير المادة . بهذا المعنى بالذات يعتبر الوعي ثانوياً ، مشتقاً . وهذا هو موطن تعارض المادة والوعي . أن الأشياء المحيطة بنا مادية ، فى حين يعتبر الوعي الذى ينشأ فى دماغنا مثالاً ، وهذا ما يتجلى فيه أيضاً تعارض المادة والوعي . بيد أن هذا التعارض بحد ذاته ليس مطلقاً بل هو نسبي . كما أنه لا يحوز معنى إلا فى حدود المسألة الأساسية للفلسفة ، عندما نَعْنى بسؤال لمن الأولوية – للمادة أم للوعي ، وما هو موقف الوعي من المادة ، وهل بإمكانه معرفة العالم المحيط بنا .

لنفترض أننا نتأمل الأشياء المحيطة بنا وندرسها . وبما أن هذه الأشياء تقع خارجنا وبصورة مستقلة عن وعينا ، ونحن نتلقى منها المعلومات عن طريق حواسنا ، فبوسعنا أن نقول بثقة أنها جميعاً تعتبر جزءاً من المادة ، أى من الواقع الموضوعى (١٠٢) . وبما أن صور الأشياء المحيطة بنا ومفاهيمها والطروحات والتعابير المعينة التى تعبر عن معارفنا تقع فى دماغنا وتدخل فى تركيبه وعينا ، فهى بهذا المعنى ذاتية . فالذاتى ، على هذا النحو ، هو انعكاس للواقع الموضوعى فى ظروف معينة . وبهذا المعنى بالذات يكون الوعي معارضاً للمادة كونها واقعا موضوعياً .

ثم لنفترض أن شخصاً يراقبنا ريثما نعكف على دراسة الأشياء المادية التى تعيننا ، فتراه يتفحصنا ويدرسنا ويتأمل تصرفاتنا وكلامنا وأفعالنا . بالنسبة إلى هذا الشخص ووعيه نعتبر نحن أنفسنا ودماغنا ونشاطنا موضوعيين شأن كل الأشياء الأخرى فى العالم المادى المحيط بنا . إذن ، يمكن لهذا الإنسان أن يعتبرنا نحن أنفسنا ، شأن نواتج نشاط دماغنا واقعا موضوعياً ، وشيئاً يقع خارج وعيه وخارج نشاطه النفسى . معنى هذا أن فكرنا ونفسيتنا يشكلان بالنسبة إلى الشيء الذى يعيننا فى حالة ما انعكاساً له فى دماغنا ، ويمكن لمراقب آخر أن يعتبر فكرنا ونفسيتنا فى حالة أخرى واقعا

موضوعيا يقع خارج وعيه وبصورة مستقلة عنه . ونضيف
اننا نحن ايضا يمكن ان نتخذ بدورنا موقفا مماثلا ازاء وعى
هذا المراقب ونشاطه النفسى .

على هذا النحو ، ينبغي لنا فى حدود المسألة الاساسية
للفلسفة ، حين يجب ان نقرر هل يستطيع الوعى ان يوجد
بصورة مستقلة عن المادة وقبلها او بدونها ، ان نجيب ان
الوعى ناتج تطور المادة الطويل . وهنا يقتضى الامر تبين
تعارض الموضوعى والذاتى بدقة واثبات كون الوعى ثانويا ،
مشتقا . وعندما يتم استيضاح هذا الجانب من القضية وتثبت
صحة المادية ، تغدو المبالغة بهذا التعارض خطأ جسيما .
فمن شأن ذلك ان يعيق البحث العلمى فى الوعى والفكر وباقى
تجليات النشاط النفسى كالارادة والشعور . وبما ان النفسية
تتجلى فى نشاط الانسان المادى ، وفى العمل وتنتصرفات
المختلفة ، وفى النشاط اللغوى وما الى ذلك ، فأن من شأن
اعتماد تعارض المادة والروح ، الفيزيائى والنفسى وفصل
احدهما عن الآخر فصلا تاما الا يكون سوى عائق يعترض
البحث العلمى فى الوعى والظواهر النفسية الاخرى .

١٢٨

هل بإمكان الكمبيوتر ان يفكر ؟ لقد اوضحنا كيف ينشأ
الوعى فى نتيجة التطور الموضوعى للمادة ، وما هى الاسباب
والعوامل التى تؤثر فى تكوينه . وبوسعنا الآن ان نعود الى
المسائل المطروحة فى مستهل القسم السالف (١١٧) .

فى اواسط القرن الحالى برزت واخذت تتطور سريعا
مواضيع علمية جديدة : السيبرنيطيقا ، نظرية الاعلام ،
نظرية الذهن الصناعى ، وغيرها . وكان ظهورها مرتبطا
بصنع الحاسبات الالكترونية السريعة العمل (الكمبيوترات) .
وتتمثل خاصية الكمبيوترات فى انها ، بخلاف سائر المكانى ،
صنعت لتخفيف مجهود الانسان الذهنى لا البدنى . كان
باستطاعة بواكير الكمبيوترات ان تؤدى بضعة الوف من
العمليات الحسابية والمنطقية فى الثانية ، متفوقة على الانسان
فى السرعة . اما الحاسبات العصرية ، ولاسيما الميكروحاسبات

فهى رغم صغر حجمها تتفوق الوف المرات على سالفاتها وتؤدى عشرات ملايين العمليات فى الثانية . ومنذ وقت قريب تم صنع صفائح سيليكونية بحجم الطابع البريدى تضم قرابة ربع مليون خلية من خلايا «الذاكرة الالكترونية» . وبإمكان العلماء والمصممين فى الوقت الراهن أن يصنعوا على مثل هذه الصفائح مخططات تكاملية خارقة الكبر تحتوى على ملايين من المفاتيح الترانزيستور ، الامر الذى تسنى بفضلها صنع ميكروحاسبات قادرة على اداء عمليات منطقية وحسابية معقدة جدا بحجم عظيم من المعلومات خلال فترات زمنية متناهية القصر . وتساعد نظرية الاعلام ونظرية الذهن الصناعى على وضع برامج معقدة للكمبيوترات . ويجرى وضع هذه البرامج بلغات رياضية صناعية خاصة ، وهى عبارة عن تشكيلات قوامها الوف عديدة من القواعد التى تملى تركيب وتتابع العمليات التى يجب أن تؤديها الكمبيوترات عندما تعالج هذه او تلك من المسائل . وبإمكان الكمبيوترات العصرية أن تؤتمت كليا جملة كاملة من العمليات الانتاجية والحسابات البالغة التعقيد . وهناك ايضا كمبيوترات البرمجة الذاتية التى تقوم ، استنادا الى ما تزود به من برامج ، بوضع برامج جديدة اكثر تطورا وتعقيدا ، وتصحيح الاخطاء التى يرتكبها المبرمجون ، بل وحتى تقوم بتصميم اجهزة الكترونية اخرى تعمل اوتوماتيكيا . وتعمل فى العالم را هنا مئات الالوف من الاجهزة الاوتوماتيكية الالكترونية - الروبوتات التى تحل فى بعض المصانع محل العمال القائمين بتشغيل خطوط الانتاج ، والتى ضمننت الاتمته الكاملة لعمال اللحام وغيرها من الاعمال الشاقة . وثمة روبوتات قادرة على اداء المجهود المكتبى المعقد فى المصارف . وسوف يزداد عدد الروبوتات حتى اواخر القرن الحالى اضعافا مضاعفة ، وستغدو اكثر تطورا ، كما ستظهر برامج جديدة اكثر تعقيدا واجهزة حاسبة وادارية اصغر حجما واسرع اداء .

بناء على ذلك ، غالبا ما يبرز السؤال التالى : هل بإمكان الكمبيوترات أن تفكر ؟ أولا يمكن أن تزاخم الانسان

كمخلوق عاقل ، أو أن تحل محله بمرور الوقت على كوكبنا ؟
أن لهذا السؤال مغزى ليس فلسفيا فحسب ، بل وسياسي
اجتماعي . فعلى الرغم من أن الابحاث فى مجال نظرية الذهن
الصناعى وصنع المنظومات الخبيرة القادرة على حل المسائل
المعقدة وتصميم الروبوتات الذاتية العمل قد تقدمت كثيرا
فى الوقت الراهن ، وتتوفر المسوغات للاعتقاد بأن التقدم
فى هذه المجالات سوف يتنامى باطراد ، فليس هناك بعد
مسوغات لمثل هذه المخاوف ، على الاقل فى المستقبل
المنظور .

اما اذا نظرنا الى القضية من ناحية تحليل طبيعة الفكر
والوعى ، فسيكون الجواب عن السؤال المطروح كما يلى :
أن نشاط الانسان النفسى يضم ليس فقط شكله الاسمى ،
أى التفكير المنطقى الجارى حسب قواعد معينة ، بل والعديد
من اشكال الانعكاس الانفعالى للواقع (كالفرح والغضب والخوف
واللذة والحب والصداقة وشعور العداء والجوع والتخمة وما
الى ذلك) ، وكذلك مختلف انواع العمليات النفسية اللاواعية .
ويسترعى اهتماما خاصا ابداع الانسان ، وهو ظاهرة لا
تخضع لقواعد مقررة سلفا . على العكس ، فى الابداع
بالذات توضع قواعد جديدة وتبلور افكار ومبادئ نشاط
جديدة نوعيا . ولو لم يكن الابداع ، لزاول البشر باستمرار ،
شأنهم شأن الحيوانات ، نفس التشكيلة من انواع النشاط
المتأصلة فيهم والمنقولة بالوراثة . والابداع هو بالذات تلك
الخاصية النفسية للانسان التى تتجلى فى قدرته على تغيير
العالم المحيط تغييرا نوعيا ، ونتاج ما هو جديد تماما ،
والتي تميزه جذريا عن سائر الكائنات الحية . وهنا يمر
الفاصل الواضح بين امكانيات اكثر الكمبيوترات كمالا
وامكانيات أى انسان سوى . فالكمبيوترات بحد ذاتها لا
تفكر ، بل تؤدى فقط ، وبمساعدة المخططات التكاملية
والاجهزة الالكترونية ، القواعد التى تتضمنها البرامج .
والكمبيوترات تتفوق على الانسان بسرعة اداء العمليات ،
وتتفوق عليه بحجم الذاكرة (بقدره اجهزة حفظ المعلومات)

وبالمثابرة والقدرة على مزاولة العمل بلا انقطاع على مدى سنوات طويلة ، وما الى ذلك . ولكن بما أن عملية الابداع لا يمكن أن تخضع كليا لقواعد ولا يمكن أن توصف بواسطة هذه القواعد ، فمن غير الممكن «برمجة» عملية الابداع سلفا و«نقلها» الى الاجهزة الحاسبة . وبغير الابداع يتعذر تطور العلم والتقنية والفن ، ويتعذر التفكير الحقيقي . وما من كمبيوتر ، حتى الذى يؤلف الموسيقى وفق قواعد معطاة سلفا ، يستطيع أن يحل محل بتهوفن . وليس بإمكان الكمبيوتر الذى يؤلف نصا وفق قواعد معطاة سلفا أن يقدم نتاجا كرواية ليف تولستوى «الحرب والسلام» . والكمبيوتر بوجه عام يعجز عن حل المسائل غير المقررة فى البرنامج الموضوع فيه .

فى رواية «احدب نوتردام» للكاتب الفرنسى فيكتور هيجو ، التى تصف احداث اواخر القرن الخامس عشر يعبر احد شخوص الرواية مقارنا الكتب المخطوطة والمطبوعة عن مخاوفه قائلا أن آلة الطباعة التى اخترعت توا سوف تؤدى الى جعل الناس ينسون اصول الكتابة فيزداد الجهل . ونحن نعلم الآن أن هذه المخاوف والتخمينات لم تتحقق . فعدد الناس الذين يجيدون القراءة والكتابة ينمو باطراد فى العالم بأسره ، ويرتفع المستوى التعليمى العام ، وهذا يجرى بفضل الطباعة بالذات . ويمكن قول شئ مماثل ايضا بشأن ما يسمى بالكمبيوترات «المفكرة» . فحين تضطلع الميكروكمبيوترات والروبوتات بتنفيذ بعض العمليات المنطقية الحسابية ، أنما تغنى الناس عن المجهود الشاق الروتينى الذى يحجر العقل . ومثلما أدت الطباعة الى نمو الثقافة العامة ، كذلك سيساعد انتشار الكمبيوترات على استمرار تطور وترقى الفكر البشرى . اذ ستحدث قفزة حادة فى المستوى التعليمى وفى ثقافة الناس ، فى نمو قابلياتهم الابداعية . وسيتيح هذا للبشرية أن تخطو خطوة عملاقة اخرى الى الامام على طريق تنمية وتطوير نشاطها النفسى ، على طريق معرفة العالم وتحويله تحويلا معقولا لصالح الاغلبية الساحقة من البشر . ولهذا يجب

ان نرى فى تطور الكمبيوترات ، ولاسيما الالكترونيات الدقيقة ، لا منافسا خطرا للفكر البشرى ، بل قاعدة لاستمرار تطوره وارتقائه .

١٢٩

بعض الاستنتاجات . الوظيفة التركيبية للفلسفة . بعد الفروغ من مناقشة الجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة يجب استخلاص الاستنتاجات التالية .

ان للمقولات التى بحثناها فى هذا الفصل أهمية منهجية كبيرة . فهى تبين ما هو الاتجاه العام لنشاطنا المعرفى . فعند دراسة وبحث العالم المحيط يجب على العالم والشخصية الاجتماعية وأى انسان واع فعال أن ينظر اليه لا كركام عشوائى من المصادفات ، بل كعملية مادية واحدة مترابطة ، موجودة موضوعيا وتتطور حسب قوانينها . وليس العالم عموما هو وحده الذى يشكل منظومة مادية عملاقة ، بل واجزأؤه ايضا عبارة عن منظومات خاصة تتسم بروابط ضرورية مستقرة ، ولها عناصرها وبنائها . ويستدل من ذلك أن من غير الجائز النظر الى معرفة العالم من مواقع المثالية الذاتية ، لانها تنكر الطابع الموضوعى للظواهر المحيطة بنا . ولا يجوز النظر الى معرفة العالم ايضا من مواقع المثالية الموضوعية التى لا ترى فى كل الظواهر المحيطة سوى مظهر للوعى ، ولا تجد الا سنن الفكر ، دون أن تفهم أن الفكر والوعى يحدد ذاتهما عبارة عن ناتج لمسيرة تطور العالم المادى المعقدة . وأخيرا ، فإن المادية الميتافيزيقية التى تنكر الطابع العام للتغير والتطور لا تستطيع ، هى الاخرى ، الاجابة عن سؤال كيف ينشأ التفكير والوعى ، ولا تستطيع توجيه عقولنا الى دراسة القوانين الموضوعية للحركة والتطور ، فى حين هذا هو الذى يشكل بالذات ابرز مهمة للعلم المعاصر بأسره . ومن لا يرى الطابع العام المتعدد الاغراض للتغير والحركة وتطور الطبيعة والمجتمع ، سوف يخطئ ايضا فى حل المسائل السياسية الاجتماعية التطبيقية . وفى العالم المعاصر السريع التغير تعتبر معرفة القوانين الموضوعية لتغير المنظومات

والبنى الاجتماعية شرطا ضروريا للنشاط الناجح .
وتؤدي مقولات المادية الجدلية التي تناولناها في هذا
الفصل ، فضلا عن الوظيفتين العقائدية والمنهجية ، وظيفة
مهمة اخرى . فبمساعدة هذه المقولات يجرى تركيب وتوحيد
مختلف المعارف العلمية في لوحة واحدة للعالم ، مما يتيح
النظر بوجه عام في كل اشكال حركة المادة ، من شكلها
الابسط ، الميكانيكي ، حتى اسمائها واكثرها تعقيدا .
فالاشياء الجامدة والكائنات الحية ، الاشكال الدنيا من الانعكاس
وشكله الاسمي - الوعي ، وعملية نشوء الحياة ، والعمل
كنشاط اجتماعي واللغة كناقل مادي للفكر - كل هذا يندرج
في لوحة موحدة ، ويجمع ويركب في عقيدة واحدة .
ان الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفلك والتاريخ
والسيبرنيطيقا وغيرها من العلوم تعالج مسائلها حسب مناهجها
الخاصة وتضع مفاهيمها وتصوراتها الخاصة
الواسعة الى هذا القدر او ذاك عن المواضيع التي
تدرسها . ولكن ما من علم من هذه العلوم يستطيع تركيب
وتوحيد نتائج العلوم الاخرى ضمن اطار لوحة العالم الموحدة .
والفلسفة لا تعوض عن ولا تحل محل العلوم الاخرى حين
تضع المقولات الفلسفية التي تتيح تركيب الاستنتاجات
الرئيسية والاساسية للعلوم الاخرى ، تلك الاستنتاجات
التي تعزى الى لوحة العالم العامة وتقدم تصورات عنه ككل
واحد . ويتسنى خلال ذلك تركيب وتوحيد مختلف الظواهر
ضمن اطار عقيدة واحدة . وهذا يتيح فهم مكانتها في العالم
المتغير وترابطها ، كما يمكن من التنبؤ الصائب بتطورها
اللاحق . على هذا النحو تؤدي الفلسفة ايضا وظيفة اخرى
هي تركيب المعرفة .

الفصل الثانى

الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى

اوضحنا فى الفصل السابق كيف تجيب الفلسفة الماركسية اللينينية عن الجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة . بيد ان الانسان يعيش فى المجتمع ، وجل ما يهيمه هو سنن التطور الاجتماعى . وفهم هذه السنن يتطلب النظر فى المسألة الاساسية للفلسفة بمقتضى الحياة الاجتماعية . وهذا يعنى ان علينا تبين ترابط الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى ، وايهما الاولى والحاسم فى نشاط البشر وتاريخ المجتمع . والجواب عن هذه الاسئلة تقدمه المادية التاريخية او الفهم المادى للتاريخ .

الفهم المادى للمجتمع وتاريخه

٢٠١

حديث فى الفهم المثلث والمادى للمجتمع . تتعارض المادية التاريخية تعارضا جذريا مع المثالية التاريخية ولا يمكن ان تتهاون معها . ولأجل تبين ما هى الاختلافات الجذرية بين النظرتين المادية والمثالية الى المجتمع ، من المناسب ان نستمع الى حديث يجريه ثلاثة اشخاص سبق ان اصطلحنا عليهم وهم : مادى جدلى ومثالى موضوعى ومثالى ذاتى .

م . م : اذا كانت النظرات المادية الى الطبيعة والوعى تتفق مع العلم ، فان ذلك لا يعنى بعد انها تصلح لفهم الحياة الاجتماعية والتطور التاريخى .

م . ج : هكذا كان يظن الماديون الميتافيزيقيون

السالفون ، وهكذا يظن كل المثاليين ، بيد ان موقفهم يفتقر الى التعليل .

م . م (مشاركاً في الحديث) : ان الاشياء المادية متشابهة . اما البشر فان انفس ما لديهم هو تفردهم الذي لا يتكرر والذي يميز بعضهم عن بعض . ويستدل من ذلك ، اولاً ، ان ليست هناك ايما قوانين موضوعية لنشاط البشر . فهم يسترشدون باهدافهم الشخصية الفريدة ، والفريد ، الطارىء ، ليس من القوانين بشيء . لهذا ، ثانياً ، ان الامر الرئيسى فى المجتمع هو اهداف وارادة ونوايا الافراد ، وجل اهتمامنا ينصب على الافراد العظماء . فهم يقودون الجمهور على الطريق المختار الذى لا يمكن التنبؤ به لانهم شخصيات مبدعة . وثالثاً ، من العبث التحدث عن تطور المجتمع ، بل يمكن الحديث فقط عن تطور الشخصيات المنفردة .

م . م : بخلافك ، انا اعتقد ان البشر يخضعون لقوانين عامة ، لكنها قوانين تطور الافكار ، تطور الوعي الاجتماعى الذى تخضع له فى كل عصر الارادة والرغبات الشخصية الفردية . على سبيل المثال كان الناس فى العصور الوسطى باغلبيتهم متدينين ، لان الغلبة كانت لفكرة الرب . وفى عشية الثورات البرجوازية كانت الغلبة فى انجلترا وفرنسا لفكرة الحرية ، فاستخدمتها البرجوازية فى صراعها ضد الانظمة الملكية الاقطاعية . ولنفترض ان فكرة الرخاء العام والتآخى الطبقي تحظى بانتشار فى ايامنا هذه . ولئن استحوذت على العقول فسوف يتوقف كل صراع ، بما فى ذلك الصراع الطبقي ويترسخ الى الابد النظام الاجتماعى القائم . بعبارة اخرى ، ان كل ما يفعله الناس انما يفعلونه تبعاً لتلك الافكار التى تسود فى المجتمع . المطلوب فقط هو فهم هذه الافكار فهما صحيحاً .

م . ج : ان حججكما تقوم على ان كلا منكما يقطع جانباً من الواقع ويجعله تقيضاً لجوانبه الاخرى . انها طريقة تناول ميتافيزيقية . لهذا يبقى الامر الرئيسى خارج طروحاتكما . فالمثالية الذاتية والموضوعية لا تستطيعان ، مثلاً ، ان تفسرا

لماذا يمر المجتمع فى سياق تطوره عبر نفس مراحل العبودية والاقطاعية والراسمالية والاشتراكية . واذا لم تكن هناك سنن موضوعية فى المجتمع ، فكيف يمكن تفسير اوجه الشبه بين الثورات البرجوازية التى حدثت فى انجلترا وفرنسا وامريكا وهولندا الخ ؟ واذا كان كل شئ مرهونا بالارادة الشخصية ، فلماذا اخذ عدد كبير من البلدان يشمل زهاء ثلث البشرية يسلك فى ايامنا هذه طريق الاشتراكية ، وهو - بصرف النظر عن بعض الفوارق - يسير نحو هدف واحد هو الشيوعية ، وهذه المسيرة تخضع لسنن عامة متشابهة ؟ واخيرا ، كيف يمكن تفسير حقيقة ان بعض الافكار تسود فى بعض العصور وفى عصور اخرى تسود افكار اخرى غالبا ما تكون معارضة لتلك ؟ ولماذا ، مثلا ، كان من غير الجائز ان تنبثق فى العصر الهيلينى فكرة التقدم العلمى التقنى ؟ ولماذا فى ايامنا هذه بالذات . وباعتراف الاصدقاء والاعضاء على السواء ، اصبحت الماركسية اللينينية التيار الفكرى الاكثر انتشارا فى العالم اجمع ؟ علاوة على ذلك ، ان الاراء المثالية لا تفسر لماذا سارت الجماهير فى بعض العصور وراء بعض الزعماء رافضة آراء ودعوات زعماء آخرين . فى عصور اخرى شاركت الجماهير الشعبية فى الحركات الاجتماعية ، وانتخبت من وسطها الزعماء والقادة الاكثر ملاءمة . عن كل هذه الاسئلة لا تقدم المثالية الذاتية والموضوعية ايما جواب ، فى حين نجد المادية التاريخية ، اذ تقرر بالتعقيد البالغ الذى يكتنف المشاكل الاجتماعية ، تعلق التعليم الذى يمكن بواسطته سير اغوار هذه المشاكل واتخاذ موقف حياتى فعال .

فما هى المبادئ الاساسية للمادية التاريخية ، وما هو مغزى الفهم المادى للمجتمع وتاريخه ؟

٢٠٢

الانسان والنشاط . مبادئ الفهم المادى للتاريخ . تقتضى الاجابة عن هذا السؤال تعيين المنطلق او المبادئ التى ينبغى البدء منها بالمناقشة . فما هى الخصائص المميزة للنشاط البشرى ؟

ان كل التغيرات في الطبيعة موضوعية . فهي لا ترتبط بالتفكير ، بهذه او تلك من اشكال الوعي . على العكس ، ان السمة الرئيسية المميزة لنشاط الانسان هي ان كل فعل او تصرف يقوم به ينطوى على جانبين مترابطين : مادي ، طبيعي ومثالي يشمل الوعي والفكر . واذا استثنينا الافعال التي تجرى في الحلم او حالة المرض اللاواعية ، فان كل فعل يقوم به الانسان الطبيعي السليم يرتبط بهذه او تلك من أنشطة الوعي . فقبل ان يفعل الانسان شيئا يضع امامه هذه الاهداف او تلك . فالهدف هو صورة متخيلة او مفهوم او تصور عما لا وجود له ، ولكن ينبغي السعي اليه . فقد يكون هدف شخص ما حيازة شيء او بناء مسكن ، الخ . وقد يكون هدف فريق من العاملين تحسين العملية الانتاجية ، او صنع ماكينة صناعية جديدة وهلم جرا . وقد يتمثل هدف المجتمع في التغيير الواعي لظروف حياته المادية وبناء نظام اجتماعي جديد كالشيوعية مثلا . وباختصار فان النشاط عموما ، وكل حلقة من حلقاته هما عبارة عن وحدة جانبين مادي ومثالي . وكل فعل مادي يقوم به الانسان - كالتنقل في المكان او قطع الاخشاب او تشغيل ماكينة ، الخ - يتطلب فهم مغزى ما يقوم به الشخص من افعال ، ومعرفة قواعد النشاط ، وحيازة مراس معين وادراك الهدف . وبغير ذلك يتعذر نشاط الانسان . وبالعكس ، ان اية فكرة للانسان ، واية رغبة من رغباته لا يمكن ان تتحقق واي هدف له لا يمكن بلوغه من دون نشاط مادي بدني ، ومن دون استعمال الوسائل المادية وادوات العمل . وحتى فكر الانسان ذاته لا يمكن ان يفهمه الاخرون الا بواسطة النشاط اللغوي المادي تماما . على هذا النحو نجد ان الجانبين المادي والمثالي في نشاط البشر يترابطان ترابطا وثيقا لا ينفصم . وهذه وحدة جدلية يتربط فيها تقيضان يتم احدهما الاخر ويتداخل احدهما في الاخر (٤٠٤)

ما الذي يعتبر حاسما في تناسب جانبي النشاط البشري المادي والمثالي ؟

لقد تطرق الى هذا السؤال المؤرخ والفيلسوف الانجليزى كوللنغود (١٨٨٩ - ١٩٤٣) فأدعى ان الامر الرئيس فى النشاط هو «الجانب الداخلى» ، اى الافكار والمشاعر والدوافع والنوايا والاهداف والقرار الواعى . اما الجانب «الخارجى» ، اى الافعال والتصرفات المادية المتلقاة شعوريا ، فلا تنبغى مراعاته الا بقدر كونه يساعد على التغلغل فى عالم الوعى البشرى . وفهم التاريخ ، من وجهة نظره ، يعنى فهم دوافع البشر ونواياهم واهدافهم . هذا فهم مثالى نمطى للتاريخ ، ولكن لا يجوز ، انطلاقا منه ، ان نفسر لماذا كانت تظهر لدى البشر فى ظروف تاريخية متشابهة اهداف ورغبات ونوايا متشابهة ، ولماذا تختلف لدى ممثلى الفئات والطبقات الاجتماعية المختلفة ، ولماذا - اخيرا - يستطيع البشر تحقيق بعض الاهداف والنوايا ، بينما بعضها الاخر لا يمكن تحقيقه فى ظروف معينة ، ويؤدى الى نتائج مفاجئة ، واحيانا مضادة تماما . من هنا تستدل ان من غير الممكن صرف الانتباه عن الظروف المادية لنشاط الانسان الحيوى الا فى المخيلة .

ان فهم خصوصية الحياة الاجتماعية وتاريخ المجتمع يقتضى النظر فى كلا جانبي النشاط البشرى - المادى والمثالى - فى وحدتهما وترابطهما ، دون فصل احدهما عن الاخر ، ودون وضع احدهما تقيضا للاخر . وهذا يتطلب الاجابة عن سؤال اى جانب من هذا النشاط هو الاولى والحاسم ، وايهما ثانوى ومحسوم :

٢٠٣

تطور المجتمع كعملية تاريخية طبيعية . الاجابة عن هذا السؤال يقدمها التعليم عن تطور المجتمع كعملية تاريخية طبيعية .

ان كل العمليات الجارية فى الطبيعة لا ترتعن بارادة ووعى الانسان ، انما هى موضوعية او طبيعية . لذا فالقوانين التى تتحكم بظواهر الطبيعة موضوعية هى الاخرى . فهل يمكن ان تكون هناك قوانين موضوعية لتطور المجتمع ، اى قوانين لا ترتعن بارادة ووعى البشر ؟ ان لنشاط البشر بحد ذاته

جانبيين مترابطين ، احدهما مادي والاخر روحى . لقد رد مؤسسو الماركسية اللينينية على هذا السؤال بالايجاب . فمن طريق تعميم تجربة التاريخ خلصوا الى استنتاج مفاده ان قوانين التطور الاجتماعى تسرى بصورة موضوعية ومحتومة كقوانين الطبيعة بفارق مبدئى واحد هو انها تشق طريقها عبر نشاط البشر . لهذا السبب بالذات وصفوا تطور المجتمع بانه عملية طبيعية تاريخية . وقد لا يفهم البشر ولا يدركون خلال ذلك ان نشاطهم يخضع فى التحصيل الاخير لقوانين اجتماعية موضوعية بمعزل عن ارادتهم ونواياهم . ويقال فى مثل هذه الحالات ان تطور المجتمع يجرى بصورة عفوية . وال عفوية لا تعنى ان البشر يتصرفون بشكل لاواع تماما . وفى مرحلة التطور العفوى لا يعى ولا يكون البشر الا اهدافهم الشخصية والفئوية المباشرة ، ويختارون الوسائل اللازمة لتحقيقها ، دون اعتماد على معرفة قوانين التطور الاجتماعى ، وفى هذه الحالة قد تكون نتائج نشاطهم غير مناسبة لما وضعوه من اهداف . اما اذا كان البشر يدركون سنن التطور الاجتماعى الحقيقية ، فان نشاطهم يعتبر واعيا بالمعنى الحقيقى للكلمة . وفى مرحلة النشاط الاجتماعى الواعى تكون نتائجه مناسبة تماما للاهداف الموضوعية وتؤدى الى تحقيقها ، ذلك ان الاهداف ذاتها فى هذه الحالة توضع وتصاغ بمراعاة السنن التاريخية الموضوعية .

يقوم فهم تاريخ المجتمع كعملية تاريخية طبيعية على الاقرار بالدور الحاسم للجانب المادى من النشاط البشرى . الى جانب ذلك يؤخذ بعين الاعتبار ان الجانب الروحى لهذا النشاط يلعب دورا فعالا مهما . فقد يؤثر تأثيرا ملحوظا فى الجانب المادى ، رغم ان هذا التأثير بحد ذاته تعينه وتقيده الظروف المادية لنشاط البشر الحيوى . ولاجل فهم افضل لتفاعل هذين الجانبين من العملية التاريخية الطبيعية وتأثيرهما المتبادل ينبغى ان نأخذ بالاعتبار الاحكام المهمة التالية التى طرحها وعللها ماركس وانجلس : ١ - ان «التاريخ» ليس شخصية خاصة تستخدم الانسان كوسيلة لبلوغ اهدافها .

فالتاريخ ليس سوى نشاط الانسان الساعى لتحقيق اهدافه» * ٢ - «. . ان البشرية لا تضع نصب اعينها دوما الا تلك المسائل التى تستطيع حلها ، ذلك انه يتضح دائما عند التبحر فى البحث ان المسألة ذاتها لا تبرز الا حين تتوفر الظروف المادية اللازمة لحلها ، او ان تكون هذه الظروف فى طور النشوء على اقل تقدير» * : .

يتضح من الاقوال التى اوردناها اى دور مهم كان مؤسسا الماركسية ينصان به الوعى الاجتماعى وصياغة اهداف ومهام التطور الاجتماعى . الى جانب ذلك كانا يؤكدان باستمرار ان طابع ومضمون هذه المهام تحددهما الظروف المادية ووسائل النشاط البشرى . لذا يغدو واضحا ان خصوم المادية التاريخية يشوهون حقيقة الامور حين يتهمون هذا التعليم الفلسفى بأنه لا يقدر حق التقدير اهمية الجانب الروحى للنشاط البشرى . وهم فى الوقت ذاته يعجزون عن فهم ان اعتبار نشاط البشر الهادف مضمونا حقيقيا للتاريخ لا يناقض ابدا حقيقة ان الظروف المادية ووسائل تحقيقها هى الجانب الحاسم لهذا النشاط .

فى الفصل السالف توصلنا فى حديثنا عن تناسب المادة والوعى (١٢٧) الى ان المادة هى عبارة عن الواقع الموضوعى ، وهى موجودة خارج نواتج نشاط الدماغ وبصورة مستقلة عنها . اما الوعى ، فعلى العكس ، يعتبر نتيجة لنشاط الدماغ ، لذا فهو بهذا المعنى ذاتى . وعلى غرار ذلك سوف نتحدث مستقبلا عن جوانب النشاط البشرى الموضوعية ، اى المادية ، والذاتية ، اى الروحانية ، وكذلك عن عوامل التطور الاجتماعى الموضوعية والذاتية . ولاجل فهم تفاعلها بصورة افضل ينبغى ان نتناول بمزيد من التفصيل مختلف انواع النشاط البشرى ، كما ينبغى تبيان السنن الموضوعية المندرجة فى اساسها .

* ماركس ، انجلس . المجلد ٢ ، ص ١٠٢ .
** المصدر السابق ، المجلد ١٣ ، ص ٧ .

طريقة الانتاج - اساس تطور المجتمع وادائه لوظائفه . فى الحياة اليومية يمارس الناس انواعا مختلفة من النشاط . ويعزى الى عدادها : النشاط المعيشى العائلى ، والانتاجى والسياسى والعلمى والتربوى والدينى والعسكرى والرياضى وغيرها . وعند ممارسة هذا النشاط او ذاك يقيم الناس علاقات معينة فيما بينهم . وكان مفكرو العصور السالفة ، وهم عادة يعبرون عن مصالح طبقات المجتمع المسيطرة ، يفردون الدور الرئيسى للنشاط الروحى . وكان هذا يجرى لان النشاط المتعلق بانتاج الثقافة الروحىة ، اى وضع الافكار الفلسفية والدينية والسياسية والعلمية وغيرها ، كان من امتيازات الطبقات المسيطرة .

وكان فهم حقيقة ان الاساس الحقيقى لتطور المجتمع واساس كل انواع النشاط الاخرى ، بما فى ذلك النشاط الروحى ، هو عملية العمل ، اى انتاج الخيرات المادية ، انجازا فذا للمادية التاريخية . وهذه الموضوعات التى تبدو لنا بسيطة ومفهومة كانت بالنسبة لزمناها (عندما تقدم بها ماركس وانجلس) انقلابا حقيقيا فى فهم الحياة الاجتماعية . لقد اوضحنا فى الفصل السالف ان العمل والنشاط التطبيقى المادى عموما (١٢٥) هو السبب الرئيسى لفصل الانسان عن مملكة الحيوان ، واساس نشوء الوعى . فالعمل هو اساس التطور التاريخى وممارسة المجتمع لوظائفه .

فما هى عملية العمل ، وما هى بنيتها ؟ ان العناصر الاساسية لهذه العملية هى : ١ - الانسان بمعارفه ومراسته ، ٢ - ادوات العمل ، والمعدات والاليات والعدد التقنية ، ٣ - مواد او مواضيع العمل التى يجدها الانسان فى الطبيعة او التى يقوم باعدادها ، ثم يصنع منها بمساعدة الادوات المنتوجات الجاهزة . وتسمى ادوات ومواد العمل مجتمعة بوسائل الانتاج . وهى مادية وموجودة موضوعيا . والانسان بمعارفه ومراسته ، وكذلك وسائل الانتاج ذات العلاقة تشكل قوى المجتمع المنتجة . وهذا هو ذلك الجانب من الانتاج

الذى يوجه الانسان نحو الطبيعة . وحين يؤثر الانسان بواسطة الادوات فى العالم المحيط بغيره ويضفى على الظواهر والعمليات المحيطة الشكل الاكثر صلاحا لتلبية احتياجاته . وبتغيير العالم المحيط يتغير الانسان نفسه . فعلى اثر تغير الادوات ووسائل الانتاج عموما يجرى تغير وتطور معارف ومراس الكادحين . وفى نتيجة ذلك يرتفع ايضا مستوى تطور القوى المنتجة . نرى على هذا النحو ان القوى المنتجة تضم المقومات المادية المحضة (الادوات ، الآليات ، الخ) مثلما تضم المقومات الروحية (المراس والمعارف الانتاجية) ، بيد ان الجانب الرئيسى والحاسم لتطور الانتاج هو المقومات المادية . ويعتبر الانسان ، الكادح ، القوة المنتجة الرئيسية ، ذلك انه هو الذى يقوم بتشغيل ادوات العمل ويساعد على تغيير وسائل الانتاج عموما . وفى ايامنا هذه بات تطوير القوى المنتجة يقتضى معارف علمية خاصة . لهذا يغدو العلم قوة منتجة مباشرة ، ويتنامى دور المعارف باطراد (٣١١) . وعند ممارسة النشاط الانتاجى يدخل الناس فى علاقات انتاجية ليست مرهونة بارادتهم ووعيهم . على هذا النحو ، يكون لعملية انتاج الخيرات المادية ، او طريقة الانتاج جانبان مترابطان هما القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . وتشكل القوى المنتجة مضمون طريقة الانتاج ، بينما تشكل العلاقات الانتاجية شكلها (١١١) . والمضمون هو الجانب الحاسم والرئيسى لكل ظاهرة . بيد ان الشكل هو الاخر يلعب دورا مهما وفعالا : فهو يساعد على تطور الظاهرة اذا كان موافقا للمضمون ، ويعيق هذا التطور اذا اختلف هذا التوافق . اذن ، ثمة ترابط موضوعى وضرورى ، اى قانونى بين جانبى طريقة الانتاج . وقد اكتشف هذا الترابط وبحثه لاول مرة ماركس ، ويمكن ان يصاغ كقانون موضوعى خاص يتحكم بتطور طريقة الانتاج ، ايا كانت . وهذا القانون يسمى بقانون توافق العلاقات الانتاجية مع طابع ومستوى تطور القوى المنتجة . وهو ينص على ان الانتاج المادى يتطور بمزيد من النجاح اذا كانت العلاقات الانتاجية تناسب القوى المنتجة على

الوجه الاوفى . بيد ان هذا التوافق لا يكون ابدا تاما ودائما بشكل مطلق . ولكون القوى المنتجة هي الجانب الاكثر تحركا لكل طريقة انتاج ، فهي تتقدم فى تطورها عاجلا او اجلا على العلاقات الانتاجية . ويحل اختلال فى التوافق بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . وتتحول العلاقات الانتاجية من قوة محركة للانتاج الى معرقل له ، وعندئذ تظهر ضرورة موضوعية لاقامة علاقات انتاجية جديدة . وفى نتيجة ذلك تنشأ طريقة انتاج جديدة ، وتتغير معها ايضا كل العلاقات الاجتماعية وكل انواع النشاط الاجتماعى الاخرى . وكما نرى فان العلاقات الانتاجية تلعب دورا مهما جدا فى تطور ونماء طريقة الانتاج . وعندما نقول ان هذه العلاقات تنشأ بصورة مستقلة عن ارادة ورغبة الناس ، انما نؤكد طابعها المادى الموضوعى . بيد ان الناس حين يقيمون علاقات فيما بينهم ، كعلاقات التعاون او التنافس ، التعاضد او الصراع ، يفهمون ما يفعلون ويدركون تصرفاتهم بهذا الشكل او ذاك . فلماذا يمكن القول فى مثل هذه الحالة ان علاقاتهم التى تنشأ خلال عملية الانتاج موضوعية ؟

لنتناول بمزيد من الانتباه العلاقات الانتاجية . انها تضم :
١ - علاقات ملكية وسائل الانتاج الاساسية ، وفى مقدمتها ادوات العمل ؛ ٢ - العلاقات التى تنشأ مباشرة خلال عملية الانتاج ؛ ٣ - واخيرا العلاقات المتعلقة بتوزيع منتوجات العمل ، اى علاقات التوزيع . والحاسم بين كل العلاقات الانتاجية هو علاقات الملكية التى ترتبها العلاقات الانتاجية الباقية . وبنمط الملكية يرتبها نمط طريقة الانتاج ذاتها ، القائمة فى المرحلة المعنية من التطور الاجتماعى . ويجرى تمييز خمسة انماط اساسية للملكية هى المشاعية البدائية الجماعية ، والعبودية والاقطاعية والرأسمالية والشيوعية (الاشتراكية) . وتبعاً لذلك هناك خمس طرائق انتاج اساسية هى المشاعية البدائية والعبودية والاقطاعية والرأسمالية والشيوعية (الاشتراكية) .

ومهم ان نفهم ان الملكية هى ليست صفة الاشياء ، كما

كان يزعم العديد من الفلاسفة والاقتصاديين البرجوازيين . اذ تعتبر نفس ماكنة الانتاج فى نظام الانتاج الرأسمالى ملكية خاصة . بينما تغدو فى نظام الانتاج الاشتراكى ملكية اجتماعية اشتراكية . ان الملكية نوع خاص من العلاقات بشأن الاشياء التى تعتبر وسائل انتاج ، التى يدخل فيها الناس بحكم الضرورة التاريخية الموضوعية تبعا لطابع ومستوى تطور قواهم المنتجة . على سبيل المثال ، فى حالة وجود ادوات العمل الحجرية فى المجتمع البدائى ليس بامكان البشر ان يدخلوا فى العلاقات الرأسمالية الخاصة التى تقوم على الملكية الخاصة والاستحواذ على الربح الرأسمالى . فمستوى القوى المنتجة المنخفض القائم هناك يعجز عن ضمان انتاج الربح . ولهذا فالعلاقات المشاعية البدائية الجماعية القائمة على الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج تنشأ لا بارادة ووعى البشر البدائيين ، بل تبعا لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة المادية .

فى المجتمع الرأسمالى المعاصر تقوم القوى المنتجة على تقنية معقدة تستخدم فيها الروبوتات والاجهزة الاوتوماتيكية . ويشترك فى عملية الانتاج ملايين الناس . معنى هذا ان القوى المنتجة تحمل هناك طابعا اجتماعيا . اما العلاقات الانتاجية فتقوم فى هذه الحالة على الشكل الرأسمالى الخاص للملكية الذى كان موافقا لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة التى نشأت خلال المراحل المبكرة من تطور الرأسمالية . وفى تلك الفترة كانت العلاقات الانتاجية الرأسمالية الخاصة تناسب باثم صورة قوى المجتمع المنتجة ، وتفتح مجالات رحبة لتطورها السريع . اما الان فلم تعد العلاقات الانتاجية الرأسمالية تناسب طابع ومستوى تطور القوى المنتجة . وعلى الرغم من ان هذه العلاقات لا تستطيع وقف التقدم التقنى ، فهى تعرقله بشدة وتعيق تطور القوى المنتجة . وفى نتيجة ذلك تنشأ على الرغم من ارادة ورغبة الناس ضرورة تاريخية موضوعية لاقامة شكل جديد تعاونى ، اشتراكى لملكية وسائل الانتاج . وهذا يعنى انه يجب موضوعيا ان تنشأ علاقات

انتاجية جديدة عوضا عن علاقات التنافس والاستغلال
الراسمالي هي علاقات التعاضد والتعاون والمباراة
الاشتراكية .

اذن ، فى كل مرة ، حين ينشأ تحت تأثير قانون توافق
العلاقات الانتاجية والقوى المنتجة نمط جديد للملكية ، تتغير
ايضا العلاقات الاخرى التى تقررها الملكية . ويتجلى هذا
بالدرجة الرئيسية فى مجال توزيع الخيرات المادية . وبطبيعة
الحال ، فى ظل الرأسمالية وفى ظل الاشتراكية على السواء ،
وتبعا للوضع الملموس القائم ، اى تبعا لتقلبات حالة
السوق ، وللعرض والطلب على العمل وجملة من الظروف
الاخرى ، يمكن لاشكال توزيع الخيرات المادية ان تتغير ،
ويمكن ان يتذبذب مستوى الاجور وان تتغير ربحية هذه
المؤسسات او تلك وما الى ذلك . بيد ان ارتهان التوزيع
العميق بنمط الملكية السائد يبقى قائما . وبالتالي فمع تغير
طريقة الانتاج يتغير مبدئيا مجمل نسق العلاقات الانتاجية .
بامكان الناس ان يدركوا حتمية مثل هذه التحويلات
الاجتماعية العميقة وان يعملوا لاجل تحقيقها ، وبامكانهم كذلك
ان يقاوموها دفاعا عن مصالح الطبقات المسيطرة ، المعنية
ببقاء العلاقات الاجتماعية القديمة . بيد انهم لا يستطيعون
تفادى قيام العلاقات الانتاجية الاشتراكية ، ذلك ان هذا امر
يقيضه الطابع الموضوعى لتطور القوى المنتجة المادية . بهذا
المعنى بالذات يرتدى نمط العلاقات الانتاجية التى تتسم بها
طريقة الانتاج المعنية ، وبالدرجة الاولى نمط الملكية الذى
يحدد كل العلاقات الانتاجية الاخرى ، طابعا موضوعيا ولا
يرتهن بارادة ورغبة البشر . بوسع الناس ان يساعدوا او
يقاوموا بهذا القدر او ذاك مفعول قوانين تطور الانتاج
الموضوعية ، وبالدرجة الاولى قانون توافق العلاقات الانتاجية
مع طابع ومستوى تطور القوى المنتجة ، لكنهم لا يستطيعون
الغاء هذه القوانين او تغيير او وقف مفعولها .
ولاجل ان نستوعب استيعابا حقيقيا الفهم المادى
للتاريخ ، من المهم جدا ان نفهم ان العصور التاريخية

يختلف بعضها عن بعض لا بما ينتجه الناس ، بل بالكيفية التى ينتجون بها ، اى بطريقة الانتاج . فالبشر لا ينتجون الاشياء المادية وحدها ، انما «ينتجون» ايضا ، اى يصنعون ويبتكرون الاراء الدينية والفلسفية والسياسية والعلمية ، وينجزون نتاجات الفن والاصول الخلقية والتشريعات وما الى ذلك . وانجازها يعزى الى الانتاج الروحى ، بيد ان هذا الاخير يتوقف فى الكثير على طريقة انتاج الخيرات الروحية . فالمعروف ان انجاز نتاجات الفن والادب يقتضى توفر ظروف واشياء مادية مناسبة . اذن ، فتغير طريقة انتاج الخيرات المادية يؤثر ايضا فى تغير الانتاج الروحى ، والنشاط الذى يمارسه الناس فى سياق الانتاج والعلاقات التى تنشأ على اساسه هى التى تحدد سائر انواع النشاط الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية . على هذا النحو تكون طريقة الانتاج المادى اساسا لتطور المجتمع وادائه لوظائفه ، اما القوانين الموضوعية التى تتحكم به فتندرج فى اساس سائر سنن التطور الاجتماعى .

٢٠٥

البناء التحتى والبناء الفوقى . ان المجتمع من وجهة نظر المثالية التاريخية ، عبارة عن جمهرة من الافراد ، من الشخصيات المنعزلة التى تتخذ القرارات وتنفذها مثلما يطيب لها . وكل فرد منهم اشبه بروبينسون كروزو ، يحيا فى عزلة على جزيرة غير مأهولة . وتعتبر هذه النظرة عن فردية مفرطة .

وعلى الضد من الفهم المثالى والفردى للمجتمع ، تعتبره المادية التاريخية منظومة معقدة او كيانا اجتماعيا ، كل فرد فيه تربطه بالآخرين روابط وعلاقات اجتماعية مختلفة . وبالتالى ، فلابد لفهم المجتمع ودراسة قوانين تطوره وادائه لوظائفه يجب فى المقام الاول ان نلسم بفحوى العلاقات والروابط والعمليات الاجتماعية القائمة . فيفضل وجود روابط وعلاقات مستقرة بين البشر بالذات ، يحتفظ المجتمع ، بصرف النظر عن تعاقب الاجيال ، وعلى مدى قرون عديدة ، بسماته الاساسية ، ويخضع لنفس السنن الموضوعية . على هذا

النحو نجد المفتاح الى فهم الحياة الاجتماعية لا فى دراسة «روبنسونات» منفردين ، معزولين ، بل فى دراسة الروابط والعلاقات الاجتماعية التى تنخرط فيها مختلف فئات الناس والشخصيات المنفردة .

فأى من هذه العلاقات يعتبر الحاسم ؟ ان المادية التاريخية التى تعتبر طريقة الانتاج اساسا لتطور المجتمع وادائه لوظائفه ، انما تعتبر العلاقات الانتاجية بالذات هى العامل الحاسم . اما سائر العلاقات وانواع النشاط كالعلاقات المعيشية العائلية والقانونية والخلقية والسياسية والفنية الجمالية والعسكرية والقومية وما الى ذلك ، علاوة على اشكال الوعى التى تناسب هذه العلاقات وانواع النشاط ، فتبدو وكأنها تنتظم فوق العلاقات الانتاجية ، مثلما تنتظم طوابق المبنى فوق اساسه . لهذا جرت العادة على ان تسمى العلاقات الانتاجية التى تشكل النظام الاقتصادى للمجتمع ببنائه التحتى (basis) . اما العلاقات الايدولوجية والقانونية والسياسية ، وكذلك المنظمات والدوائر الاجتماعية التى تمارس عبرها هذه العلاقات فتسمى بالبناء الفوقى للمجتمع . وهى تضم ايضا مختلف اشكال الوعى الاجتماعى التى تعكس الظواهر والعمليات الموضوعية الجارية فى الحياة الاجتماعية .

ان البناء الفوقى ليس فقط يعلو البناء التحتى ، وليس فقط يتحدد به ، بل ويؤثر فيه تأثيرا عكسيا فعلا . ويجدر ان نأخذ بالاعتبار ان البناء الفوقى للمجتمعات الطبقيية يضم المنظمات الاجتماعية والدوائر التى تعبر عن مصالح مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية ، ولذا فهى تؤثر فى البناء التحتى تأثيرا متباينا . فبعض منها يعزز البناء التحتى بتعبيره عن مصالح الفئات والطبقات الاجتماعية التى يضمن بها هذا البناء التحتى وضعه المسيطر فى المجتمع ، اما باقى عناصر البناء الفوقى التى تعبر عن مصالح الطبقات التى تعاني الاستغلال والفئات الاجتماعية المحرومة من الحقوق والسلطة فتزعزع البناء التحتى وتسعى الى تغييره ، وفى التحصيل الاخير ، الى اقامة علاقات انتاجية جديدة وطريقة انتاج جديدة ، وبالتالى

نظام اجتماعى جديد . واهم عناصر البناء الفوقى فى المجتمعات
الطبقية هى الدولة والاحزاب السياسية . وسنتناول الان هذه
الظواهر البالغة الاهمية من البناء الفوقى .

٢٠٦

الطبقات والصراع الطبقي . ان سبب نشوء الدول والاحزاب
السياسية وممارستها لنشاطها هو الطبقات والصراع الطبقي .
وحقيقة ان الطبقات تؤدى دورا مهما فى حياة المجتمع وصراعها
يؤثر فى تاريخه ويحدد اتجاهه اكتشفها المؤرخون
والاقتصاديون البرجوازيون قبل ظهور المادية التاريخية .
وكان هؤلاء عادة يرون اسباب التقسيم الطبقي فى تفوق بعض
البشر على الاخرين روحيا او عرقيا او فى «نبلهم» الفطرى .
صحيح ان رائد حركة التنوير الفرنسى جان جاك روسو
(١٧١٢-١٧٧٨) قد توصل الى ان الظلم الاجتماعى والتقسيم
الطبقى هما نتيجة لظهور الملكية الخاصة ، وقد اشاد ماركس
بهذا الاستنتاج . بيد ان الخطا الذى ارتكبه روسو هو انه
اعتبر قيام الملكية الخاصة فعلا من افعال الجور الشخصى .
ولو ان المالك الاول قد جوبه بالمقاومة ، فى اعتقاد روسو ،
لكان مستقبل البشرية اللاحق مختلفا تماما . والمؤدلجون
البرجوازيون المعاصرون الذين يعترفون بالتقسيم الطبقي
للمجتمع اما يعتبرون التقسيم ابديا وغير قابل للالغاء ، واما
يدعون بان تعارض المصالح الطبقية يمكن ان يلغى باقامة
مجتمع الرخاء العام ، ولكن دون مساس بالملكية الخاصة خلال
ذلك . وكان اعظم انجاز للمادية التاريخية هو اكتشاف
الاسباب الموضوعية لنشوء الطبقات والصراع الطبقي والبرهنة
على انه مع اختفاء هذه الاسباب يجب فى التحصيل الاخير ان
يحل طور جديد من التاريخ العالمى هو المجتمع الشيوعى
اللاطبقي . فما هى هذه الاسباب وما هى الطبقات ؟

**قبل ظهور الملكية الخاصة لم يكن للطبقات وجود فى
المجتمع .** فقد ظهرت الملكية الخاصة عندما بلغت القوى
المنتجة مستوى مرتفعاً يكفى لانتاج بعض الفائض من
المنتجات فوق ذلك الحد الأدنى الذى كان يذهب لتلبية

الاحتياجات الملحة الى الطعام والملبس والسكن وهلمجرا .
وعندما تم بلوغ هذا المستوى بات من المربح استخدام
واستغلال عمل الاخرين . وقد اتاح هذا تراكم الثروة في يد
قلة من الناس واستثمارها في سبيل حيازة الجيروت
الاقتصادى والسلطة على باقى اعضاء المجتمع . ومنذ تلك
اللحظة انقسم المجتمع الى طبقات مختلفة .

وليس جميع الفئات الاجتماعية تعتبر طبقات . لقد ذكر
لينين : «ان ما يسمى بالطبقات هى الفئات الكبيرة من البشر
التي تمتاز عن بعضها بمكانتها في منظومة الانتاج الاجتماعى
المحددة تاريخيا ، وبموقفها (المثبت بمعظمه والمنصوص عليه
في قوانين) من وسائل الانتاج ، وبدورها فى التنظيم
الاجتماعى للعمل ، وبالتالى ، بطرق حصولها على الثروة وبحجم
تلك الحصة من الثروة الاجتماعية المتوفرة فى حوزتها» * .
وابرز هذه الملامح هو ملكية وسائل الانتاج . فالطبقات التي
تحوز هذه الملكية وتستخدمها للاستحواذ على نتائج عمل
الاخرين تعتبر مستغلة (بالكسر) ، اما الطبقات المحرومة
منها فمستغلة (بالفتح) . ونستدل من ذلك ان التقسيم الطبقي
تندرج فى اساسه علاقات انتاجية معينة قيضها طابع ومستوى
تطور القوى المنتجة .

ولكل طريقة انتاج تسود فى عصر تاريخى معين ما
يناسبها من طبقات اساسية . فلعصر نجد هذه الطبقات متمثلة
فى العبيد ومالكي العبيد ، ولعصر ثان نجدها فى الاقنان
والاقطاعيين ، ولعصر ثالث فى الرأسماليين والعمال الاجراء .
اما فى المجتمع الاشتراكى حيث لا وجود للملكية الخاصة
لوسائل الانتاج ، وبالتالى لا وجود للطبقات المستغلة
(بالكسر) ، فالطبقتان الاساسيتان هما الطبقة العاملة والفلاحون
التعاونيون .

وفضلا عن الطبقات الاساسية يمكن ان تكون هناك
طبقات غير اساسية لا تمارس استغلال عمل الاخرين كالفلاحين

* لينين . المجلد ٢٩ ، ص ١٥ .

الاحرار وصغار الحرفيين منتجى البضائع ، وكذلك شرائح اجتماعية خاصة لا تشغل مكانة محددة بصرامة فى منظومة الانتاج ، كفة المثقفين مثلا .

وبما ان التقسيم الطبقي للمجتمع يمليه التطور الموضوعى للانتاج الاجتماعى ، فان تلاشى الطبقات لا يمكن ان يتم الا فى ظروف موضوعية معينة ، ابرزها واهمها الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وبالنظر لكون المصالح الاقتصادية لطبقات المجتمع الاساسية تحت تسلط الملكية الخاصة تتعارض ولا تتهادن فيما بينها ، فمنذ لحظة نشوء الطبقات يدور فيما بينها صراع ضار . ففى المجتمعات التى توجد فيها بعض الطبقات على حساب الطبقات الاخرى يكون الصراع الطبقي قاسيا وشديدا . وتسمى هذه المجتمعات بالتناحرية (٢١٨-٢٢٠) . وفى مجرى هذا الصراع تحل التناقضات التناحرية الداخلية بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية ، وتتهدم الاشكال القديمة لتنظيم المجتمع وتنشأ اخرى جديدة . اما بشأن الطبقات ، فهى تدرك اهدافها الاقتصادية والسياسية وتطرح آراء وتعاليم ونظريات معينة ضرورية لبلوغ هذه الاهداف وللانتصار على خصومها الطبقيين .

وبما ان الطبقات المستغلة تشكل ، عادة ، الاقلية فى المجتمع ، فهى فى كل مرحلة معينة من التطور التاريخى تكون بحاجة الى دوائر ومنظمات خاصة لحماية مصالحها الاقتصادية وللاحتفاظ بموقع السيطرة فى منظومة الانتاج الاجتماعى . واهم هذه الدوائر والمنظمات الاجتماعية هى الدولة والحزاب . وهى تدخل فى تركيب البناء الفوقى لجميع المجتمعات الطبقية ، وتؤدى وظائف حقوقية (قانونية) وسياسية مهمة .

٢٠٧

الدولة فى منظومة البناء الفوقى . الدولة ليست اذلية الوجود فعلى مدى مئات الوف السنين ، وصولا الى اتقسام المجتمع الى طبقات ، كان البشر فى غنى عن الدولة واجهزتها . فلماذا ظهرت الدولة ، وما هى الدولة اصلا ؟

كان الفيلسوف الانجليزى غوبس (١٥٨٨-١٦٧٩) ينطلق من ان البشر فى حالتهم الطبيعية يتصارعون فيما بينهم بلا انقطاع ، ذلك ان «الانسان يعد ذئبا لاخيه الانسان» . ولاجل تفادى الهلاك فى هذا الصراع الدائم اضطر البشر الى ابرام عقد اجتماعى وتشكيل الدولة كهيئة للوفاق العام . ودأب المؤدلجون البرجوازيون ، وما زالوا حتى ايامنا هذه ، على معالجة هذه الفكرة ببدائل شتى . فهم يزعمون ان الدولة هيئة للوفاق وتسوية كل التناقضات فى المجتمع ، بما فيها التناقضات الطبقيّة ، التناحرية . ولذا يتوجب على كل اوساط المجتمع ان تساند الدولة كمؤسسة تمارس نشاطها لا لاجل اهداف فتوية خاصة او طبقيّة ، بل لصالح المجتمع بأسره ولصالح كل فرد فيه . ان مثل هذه الاراء لا تطابق الواقع . اذ تدل الوقائع على ان اولى الدول العبودية تنشأ مع انقسام المجتمع الى طبقات . والدولة هى عبارة عن مجموع فئات خاصة من البشر تدافع وتذود عن مصالح الطبقات المسيطرة . والدولة ، على حد تعبير لينين ، هى «ماكنة للحفاظ على تسلط طبقة مسا على الطبقات الاخرى» * . وتؤدى الدول الاستغلالية جملة من الوظائف الداخلية والخارجية . فوظيفتها الداخلية الاساسية هى اخماد صراع الكادحين الطبقي . ولغرض تنفيذ هذه الوظيفة تضم الدولة طائفة من الاجهزة والمنظمات والدوائر . ويعزى اليها : القوات المسلحة ، اى الجيش ، جهاز المخابرات ، جهاز مكافحة التجسس ، المحاكم ، الادعاء العام ، الحكومة واجهزتها التنفيذية ، وكذلك الهيئات التشريعية . وتقوم هذه الاخيرة بوضع نظام القانون ، اى منظومة القوانين والاصول والقواعد التى تعبر عن مصالح وآراء الطبقات المسيطرة فى النظام الاجتماعى ، وتثبت ارادتها وسلطتها . وتقوم المحاكم والادعاء العام والبوليس بمراقبة التنفيذ الصارم لهذه القوانين ، ومعاقبة المخلين بها والتنكيل بهم دون رحمة . وينسحب هذا حتى على بعض ممثلى الطبقات

* لينين . المجلد ٣٩ ، ص ٧٣ .

المسيطرة ، اذا اخلوا بالقوانين التى تخدم مصالح الطبقة المسيطرة ، او عارضوا ما اقرته من قواعد للسلوك . والدولة لا تدافع عن المصلحة الشخصية لبعض ممثلى هذه الطبقة ، بل المصالح العامة لهذه الطبقة . لهذا تعتبر باطلة تماما استشهادات المؤدلجين البرجوازيين بوقائع استخدام تدابير الدولة واجراءاتها التنكيلية بحق بعض ممثلى الطبقات المسيطرة ، كدليل على طابع الدولة الشعبى العام فى المجتمعات الطبقيّة .

ان كل دولة استغلالية هى عبارة عن دكتاتورية هذه الطبقة المسيطرة او تلك . وتبعاً لذلك نستطيع تمييز ثلاثة انماط اساسية من الدول الاستغلالية هى العبودية والاقطاعية والبرجوازية (٢١٨-٢٢٠) . وعليه فان نمط الدولة يرتفع فى التحصيل الاخير بنمط الملكية السائد وباللاقات الانتاجية السائدة فى المجتمع المعنى ، والتى تشكل بناءه التحتى . وبأدائها لوظائفها تعزز الدولة البناء التحتى وتزود عنه .

وعند الانتقال الى المجتمع الاشتراكى تنشأ دول من نمط جديد هى الدول الاشتراكية . وهى عبارة عن مؤسسات تمارس السلطة السياسية للشعب بأسره . فـجهاز الدولة الذى جرى تشكيله فى ظروف المجتمع البرجوازى يشهد تبعاً لظروف البلد المعنى الملموسة ، وتبعاً لاصطفاف القوى السياسية والوضع الدولى ، تحويلات عميقة الى هذا القدر او ذاك ، ويجرى وضع تشريعات جديدة . ولكن ليس هناك نموذج موحد والزامى لتنظيم سلطة الدولة يصلح لجميع البلدان والشعوب ، ولا يمكن ان يكون . فاقامة الدولة الاشتراكية يفترض تنوعاً كبيراً فى الاشكال والمراحل الملموسة التى ترتفع بالتقاليد القومية وشدة الصراع السياسى ، وبكثير من العوامل الاخرى . ويعتبر عاملاً حاسماً خلال ذلك مستوى مقاومة الطبقات المستغلة . فاذا كان ممثلو البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة والمزارعين والمثقفين يرتضون المبادئ الاساسية للتحويلات الاشتراكية ، فان هذه الاخيرة يمكن ان تطبق تدريجياً وعلى اساس

ديمقراطى واسع بمشاركة كل اوساط السكان المستعدين للتعاون مع نظام الدولة الجديد . اما اذا كانت مقاومة التحولات الاشتراكية شديدة ، فسوف تضطر الدولة بطبيعة الحال الى استخدام تدابير لقمع المستغلين المطاح بهم . غير ان الوظيفة الرئيسية للدولة الاشتراكية ليست وظيفة القمع التى تحمل طابعا مؤقتا عابرا هو طابع حماية الامن ، انما هى وظيفة ابداعية ، وظيفة قيادة الجماهير التى تبني المجتمع الجديد على اسس العدالة الاجتماعية والمساواة والديمقراطية والانسانية .

وتمارس دكتاتورية البروليتاريا دورا حاسما فى اقامة المجتمع الجديد ، وفى سياق ترسخه تتعرض هى نفسها لتغيرات .

وبعد ان تؤدى دكتاتورية البروليتاريا رسالتها التاريخية تتطور الى منظمة سياسية للكادحين كافة ، وتغدو الدولة البروليتارية دولة للشعب بأسره ، وتعتبر عن مصالح الشعب بأسره .

ومع توفر الظروف الاقتصادية الاجتماعية والايدولوجية اللازمة واشراك جميع المواطنين فى الادارة ، وتوفر الموقف الدولى المناسب ، سوف تغدو الدولة الاشتراكية شكلا انتقاليا من الدولة الى اللادولة ، وتنتفى تدريجيا الحاجة الى الدولة كعنصر سياسى خاص من البناء الفوقى . بيد ان تطور الاشتراكية واستمرار التقدم نحو الشيوعية فى المرحلة الراهنة يرتبطان بالتنمية وتعزيز الشامل للدولة الاشتراكية التى هى دولة الشعب بأسره .

وتؤدى الدولة الاشتراكية ايضا وظائف خارجية . فهى ، بخلاف الدول الاستغلالية ، لا تسعى الى احتلال اراضى الغير ، لذا لا تنطوى وظائفها الخارجية الا على الدفاع عن اراضيها واقامة العلاقات الدولية ، وبالدرجة الاولى مع الدول الاشتراكية وباقى الدول المحبة للسلام ، واخيرا على النضال فى سبيل تعزيز وتوطيد السلام ، ومن اجل الانفراج فى العلاقات الدولية .

وبخلاف نمط الدولة الذي تحدده العلاقات الانتاجية السائدة ، يرتهن شكل الدولة بتناسب القوى الطبقية خلال المرحلة المعنية من التطور التاريخي ، وبخصائص تاريخ المجتمع المعنى وتقاليده وبالظروف السياسية الخارجية والداخلية الملموسة . والاشكال الاكثر انتشارا للدول الاستغلالية هي النظام الملكي (سلطة فرد واحد) والجمهورية الارستوقراطية او الاوليجاركية (تتزعّم الدولة مجموعة صغيرة من الاعيان او المواطنين الاكثر ثروة) والجمهورية الديمقراطية التي تنتخب فيها الهيئات التشريعية والتنفيذية بعدد ملموس بهذا القدر او ذاك من الناخبين . وفي الوقت الراهن توجد في معظم البلدان الرأسمالية انواع مختلفة من الجمهوريات البرجوازية . اما الانظمة الملكية الدستورية التي لا يزال لها وجود في بريطانيا والسويد وبعض البلدان الرأسمالية الاخرى ، فلا تختلف عنها الا بالاشكال التقليدية الظاهرية ، فوظائف رئيس الجمهورية فيها يؤديها الملوك الوراثيون الذين قيدت سلطتهم الفعلية تقييدا شديدا .

والديمقراطية البرجوازية اصلح ما يمكن لممارسة سلطة الرأسمال . فهي اذ تمنح الكادحين حقوقا انتخابية شكلية ، انما تقيد الى جانب ذلك ، والى ابعد الحدود ، امكانياتهم في ان يُنتخبوا ويشاركوا في ادارة شؤون الدولة . وليس للمساواة الشكلية امام القانون في المجتمع الرأسمالي المعاصر ما يدعمها من مساواة اقتصادية فعلية . ولكن عندما تشتد التناقضات الطبقية اشتدادا حادا تتخلّى البرجوازية حتى عن مثل هذه الديمقراطية المعتدلة وتنتقل الى اشكال الدكتاتورية العسكرية البوليسية او الفاشية . ويدل تاريخ نشوء الدولتين الفاشيتين في ايطاليا والمانيا خلال النصف الاول من القرن الحالى والحرب العالمية الثانية التي اضرمتا ناراها دلالة قاطعة على ان مثل هذه الانظمة الدكتاتورية تخدم مصالح البرجوازية الاحتكارية الكبيرة . وتقف في خدمة هذه الاوساط الدول العسكرية البوليسية الموجودة في بعض البلدان ، والتي لا

يتسنى لها باساليب الديمقراطية البرجوازية المألوفة التصدى لنضال الكادحين الثورى .

وبخلاف كل تلاوين الديمقراطية البرجوازية لا تكتفى الديمقراطية الاشتراكية بمنح الكادحين اوسع الحقوق ، بل وتضمن لهم امكانية المشاركة المباشرة على جميع المستويات فى ادارة شؤون المجتمع ، بصفتها ادارة الشعب الذاتية الاشتراكية . وتمثل الديمقراطية الاشتراكية الحقيقية فى ان كل مواطن واع وفعال لا يشارك فى النشاط التشريعى وفى ادارة المجتمع والانتاج فحسب ، بل ويطبق بنشاط الاجراءات التشريعية وقرارات الهيئات التنفيذية . وباعتبارها شكلا لتطور كيان الدولة الاشتراكى تحضر الديمقراطية الاشتراكية الى جانب ذلك الظروف اللازمة للانتقال الى اشكال الادارة الذاتية الشيوعية .

٢٠٨

الاحزاب السياسية فى منظومة البناء الفوقى . الاحزاب السياسية ، شأنها شأن الدولة ، تعتبر نتيجة لانقسام المجتمع طبقيا . فالاحزاب هى الفئات الاكثر تنظيما ووعيا ، التى تكون وتعبّر عن مصالح طبقة معينة او بعض شرائحها . واهم صفة مميزة للاحزاب ، وهى الصفة التى تحدد مكانتها فى منظومة البناء الفوقى ، هى انها تدرك وتعلل الاهداف السياسية والاقتصادية لطبقتها ، وتقوم بوضع استراتيجيتها وتكتيكها فى الصراع على السلطة ، وتطرح وتبرر ما يناسب ذلك من مثل الحياة الاجتماعية ، وتعبئ وتنظم كل قواها للنضال من اجل التأثير بين الجماهير .

ان هذه او تلك من اشكال الاحزاب السياسية موجودة فى جميع المجتمعات الطبقيّة تقريبا ، بيد ان الاحزاب تشكل ابرز مكانة فى البناء الفوقى للمجتمعين البرجوازي والاشتراكى . فالديمقراطية البرجوازية توفر افضل الظروف لنشوء مختلف الاحزاب البرجوازية . وبعضها يتبنى فى البلدان الرأسمالية المعاصرة مواقف يمينية رجعية للغاية ، وبعضها الاخر يفضل اتخاذ موقف سياسى اكثر ليبرالية . ويخلق وجود العديد من

الاحزاب السياسية ، اى ما يسمى بالتعددية السياسية وهم امكانية الاختيار لدى الكادحين . اما فى الواقع فان هذه الاحزاب التى لا يختلف بعضها عن بعض الا بوسائل واساليب تنفيذ المهام السياسية تسعى الى تعزيز البناء التحدى الاقتصادى السائد وتدعيم اركان الدولة البرجوازية .

ان ابسط الحريات الديمقراطية (حرية الكلمة ، حرية الاجتماع وتشكيل المنظمات) التى انتزعها الكادحون خلال المعارك الطبقيّة الضارية فى بعض البلدان الرأسمالية تتيح لهم ايضا تشكيل احزابهم السياسية . وتسعى مختلف الاحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية الى تطبيق سياسة الاصلاحات الاجتماعية . وهذا يعنى ان هذه الاحزاب ، حتى فى حالة مجيئها الى السلطة ، سوف تكتفى بتطبيق تحويلات محدودة هدفها «تخفيف» حدة الصراع الطبقي ، دون مساس بأسس النظام الرأسمالى بحد ذاتها ، اى الملكية الرأسمالية الكبيرة . وهذا ما يفسر كون هذه الاحزاب ، حتى اذا كانت على دست الحكم ، عاجزة عن نيل تأييد الكادحين ، وهى تفقد باستمرار نفوذها بين الجماهير .

يتحدد دور الاحزاب السياسية فى العالم المعاصر باسهامها فى حل المشاكل الاجتماعية الملتهبة داخل البلد المعنى او المنطقة المعنية ، وكذلك بمواقفها من المشاكل العالمية وابرزها : النضال من اجل السلام ، نزع السلاح الصاروخى النووى ، تفادى الكارثة الايكولوجية ، تحقيق نظام اقتصادى دولى اكثر عدالة ، النضال من اجل حقوق الانسان واقامة تعاون مرّن ومتكافئ بين البلدان ذات الانظمة الاقتصادية الاجتماعية المختلفة . وتكتسب اهمية خاصة مسألة دور الاحزاب التقدمية المعبرة عن مصالح الكادحين فى النضال من اجل التحويل الاجتماعى لبلدانها . ويرتهن دور هذه الاحزاب واستراتيجيتها وتكتيكها بالظروف التاريخية الملموسة ، وكذلك باحكامها الايديولوجية والاجتماعية السياسية العامة . وفى جملة من البلدان الاشتراكية والاقطار التى اختارت طريق التطور اللارأسمالى تتمتع الاحزاب الشيوعية والعمالية

والوطنية الثورية بمكانة حاسمة فى منظومة البناء الفوقى .
بيد ان نموذج الاشتراكية ذات نظام الحزب الواحد ليس هو
النموذج الوحيد الممكن . ففى ظروف تاريخية معينة يمكن ان
تكون هناك نماذج اخرى ، ومن ضمنها تلك التى تستطيع
فيها الاحزاب الشيوعية والعمالية ان تتعاون تعاوناً مثمرًا مع
باقى الاحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية بالاعتماد على
المؤسسات الديمقراطية وتأييد الاوساط الواسعة من
السكان . ومن المهم فى هذا الصدد ان تؤكد ان احد اهم
مبادئ التفكير الجديد وايدولوجيا التجديد التى اعلنها الحزب
الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى بمثابة ابرز اسسه
الايدولوجية والعقائدية والسياسية هو الاستقلالية والتكافؤ
التام لجميع الاحزاب الثورية والشيوعية والعمالية التى تضع
بصفة مستقلة استراتيجيتها وتكتيكها وخط سلوكها السياسى
وآليات علاقاتها مع المنظمات والمؤسسات السياسية الاخرى
الداخلية ضمن البناء الفوقى والنظام الاجتماعى السياسى
لمجتمعاتها .

ان مستوى نضوج الحزب ووزنه الفعلى وهيبته فى المجتمع
تحدد قدرته فى كل مرحلة من مراحل التطور التاريخى على
تجديد ورسم استراتيجيته السياسية التى تناسب المهام
الفعلية . وليس ثمة احزاب سياسية معصومة كليا من الخطأ
فى سياق التحويلات الاجتماعية العميقة . فنضوج الحزب
تحدده بالضبط قدرته على ان يدرك اخطاءه ادراكا نقديا وان
يجد الشجاعة والقوة لاصلاحها . وفى هذا الادراك بالذات
يتمثل جوهر ايدولوجيا التجديد والتفكير الجديد اللذين
وضعتهما فى اواسط الثمانينات قيادة الحزب الشيوعى
السوفييتى وتبنتهما اغلبية المواطنين السوفييت . تمثل امام
الحزب مهمات معقدة بصفة خاصة ، هى توفير الظروف اللازمة
للتعددية الاشتراكية ، ولتنشيط العامل البشرى وتطبيق
التحويلات الاجتماعية والاقتصادية العميقة والثورية من حيث
الجوهر ، والقادرة على جعل المجتمع الاشتراكى جذابا فى انظار
اوسع اوساط السكان . وبهذه المهمات بالذات ، كذلك

بالقدرة على تنفيذها يتحدد دور الحزب الشيوعى فى منظومة البناء الفوقى الاشتراكى .

٢٠٩

المنظمات الاجتماعية فى منظومة البناء الفوقى . يضم البناء الفوقى فى المجتمعات الطبقيّة ، فضلا عن الدولة والحزاب ، مختلف المنظمات الاجتماعية التى يمكن ان تشكلها الطبقات المستغلّة والمستغلّة على السواء . وتصلح مثالا على المنظمات الاجتماعية المدافعة عن مصالح المستغلّين اتحادات النبلاء والمنظمات الكنسيّة وجمعيات التجار (فى المجتمع الاقطاعى) وشتى ضروب المنظمات النقابية لاصحاب الملكية الخاصة والرأسماليين (اتحادات الصناعيين وكبار المزارعين وما شابه ذلك) فى المجتمع الرأسمالى .

ومع نمو واشتداد الصراع الطبقي وتنامي الوعى الطبقي يشكل الكادحون ايضا منظمات اجتماعية لغرض الدفاع عن مصالحهم . وابرز هذه المنظمات فى المجتمع الرأسمالى الاتحادات النقابية التى يتمثل هدفها الاساسى فى تنظيم نضال الطبقة العاملة من اجل تحسين وضعها الاقتصادى والاجتماعى . ويتوقف طابع نشاط النقابات فى الكثير على الاحزاب السياسية التى تقع هذه النقابات تحت تأثيرها . وقد اكد لينين مرارا اهمية العمل الفكرى التربوى والسياسى والتنظيمى بين النقابات . ويسعى مؤدجوا البرجوازية والاصلاحيون والتحريفيون الى اخضاع الحركة النقابية لاهداف البرجوازية وجرها من طريق النضال الثورى الى طريق النضال من اجل الاصلاحات الاقتصادية الصغيرة التى لا تقوض اركان الرأسمالية . لهذا تعتبر ابرز مهمة للاحزاب الشيوعية والعمالية فى البلدان الرأسمالية هى تقوية نفوذها فى الحركة النقابية .

وتتضم منظومة البناء الفوقى للمجتمع البرجوازى المعاصر ، فضلا عن النقابات ، عددا غفيرا من المنظمات والدوائر الشبابية والنسائية والابداعية والرياضية والمنظمات المناهضة للحرب وغيرها . وهى اذ تعبر عن مختلف المصالح

الاجتماعية والفئوية والمهنية ، تتخذ مواقف مختلفة ازاء هذه او تلك من الظواهر الاجتماعية ، وتؤثر تأثيرا متبايناً في البناء التحتي للمجتمع . ولكن اذا كان نشاطها يشكل مساسا مباشرا او ضمنيا بالمصالح الجذرية للبرجوازية ، فسوف يواجه مقاومة حازمة من قبل الدولة البرجوازية والاحزاب البرجوازية .

وفي المجتمع الاشتراكي يتنامى باستمرار دور المنظمات الاجتماعية المعبرة عن مصالح الكادحين . فهي تمارس نشاطها تحت قيادة الحزب الشيوعي الفكرية والسياسية المباشرة ، وتضع هدفا لها التعزيز الشامل للاقتصاد الاشتراكي وتنمية الثقافة وتطوير اشكال وظروف الحياة الاجتماعية . ويشمل نشاط المنظمات الاجتماعية - النقابات ، اتحاد الشبيبة الشيوعية ، الجمعيات الرياضية ، جمعيات حماية البيئة ومختلف المنظمات التعاونية - كل السكان عمليا ، وبذا تتحدد في الكثير مكانتها المتنامية الاهمية في البناء الفوقي الاشتراكي . ويجدر بصفة خاصة توكيد دور مختلف اشكال الحركة التعاونية - الكولخوزات والتعاونيات الاستهلاكية وتعاونيات بناء المساكن والمنظمات والاتحادات التعاونية التي تعتبر شكلا مهما من اشكال الادارة الذاتية الاشتراكية ووسيلة فعالة لتنمية الاقتصاد . والصفة المميزة لتفاعل المنظمات الاجتماعية فيما بينها ، وكذلك تفاعلها مع الحزب الشيوعي والدولة السوفييتية هي التناسق المنسجم لاهدافها وكذلك كون هذه المنظمات تعتمد على دعم الدولة والحزب باعتبارهما اهم عناصر البناء الفوقي . ومرد ذلك الى غياب التناقضات التنافسية (٤٠٦ ، ٤٠٧) في البناء التحتي للمجتمع الاشتراكي بحد ذاته وفي بنية المنظمات الاجتماعية التي تنمو على اساس هذا البناء التحتي .

ومع تقدم المجتمع نحو الشيوعية واستمرار نمو الديمقراطية الاشتراكية سوف تؤدي منظمات الكادحين الاجتماعية وظائف اعقد واشمل فيما يتعلق بادارة شؤون المجتمع ، وسيتنامى دورها باطراد في بنائه الفوقي . والمهم

من الناحية الفلسفية ان نفهم كيف تنسجس وتتجلى فى هذا النشاط العوامل الذاتية والموضوعية ، وما هو الحاسم فى اداء وظائف كل الدوائر والمنظمات الاجتماعية ، وهل يمكن ان نجد فى نشاطها سننا وقوانين موضوعية . وهنا نكون قد اشرقنا على اهم مقولات المادية التاريخية ، وهى «الوجود الاجتماعى» و«الوعى الاجتماعى» .

٢١٠

الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى . يتجلى فى نشاط العناصر الاساسية للبناء الفوقى - اى الدولة والاحزاب والمنظمات الاجتماعية - بوضوح تفاعل جانبيين اثنين هما الروحى والمادى . ولجل صياغة القانون الاعم الذى يتحكم بترابطهما وتفاعلهما فى جميع انواع النشاط الاجتماعى طوال عملية تطور المجتمع يجب تناول بعض مقولات المادية التاريخية كـ«الوجود الاجتماعى» و«الوعى الاجتماعى» . ان الوجود الاجتماعى يضم مجموع العلاقات الاجتماعية التطبيقية الموضوعية ، التى تنشأ على اساس العلاقات الانتاجية ، والعناصر المادية للقوى المنتجة .

والوعى الاجتماعى يضم مجموع التعاليم والاراء والمعارف والهموم لدى اعضاء المجتمع المعنى ، التى تنشأ كنتيجة لانعكاس الوجود الاجتماعى . وليس الوعى الاجتماعى مجرد مجموع من الوعى الفردى للناس الذين يعيشون فى وقت معين داخل مجتمع معين ، انما هو ذلك العام الذى يتضمنه وعى اعضاء المجتمع والطبقات والفئات الاجتماعية خلال هذا العصر التاريخى او ذاك .

هاتان المقولتان تعتبران المقولتين المركزيتين فى المادية التاريخية . وقد ذكر لينين : «ان الوعى الاجتماعى يعكس الوجود الاجتماعى - وهذا هو صلب تعليم ماركس» * . وقد اتهمه خصوم المادية التاريخية غير مرة بادعاء انه يستخرج الوعى الاجتماعى من الاقتصاد مباشرة ، ويحصر كل

* لينين . المجلد ١٨ ، ص ٣٤٣ .

جوانب الحياة الاجتماعية في النشاط الاقتصادي الانتاجي وحده . اما في الواقع فان العلماء البرجوازيين هم انفسهم المذنبون بمثل هذه «المادية الاقتصادية» الساذجة . فعالم الاجتماع والاقتصاد الامريكى روستاو الذى تقدم بنظرية مراحل النمو ادعى ، مثلا ، ان كل تطور المجتمع يرتفع بمستوى تطور الصناعة ، وان كل التناقضات الاجتماعية ، بما فيها الطبقية ، يمكن ان تحل عن طريق التحسين البسيط للنشاط الاقتصادي وتوفير الخيرات المادية بغزارة . ورغم ان الحياة تدحض وجهة النظر هذه ، ذلك ان الثروات الهائلة التى تنتج في البلدان الرأسمالية غير متاحة للكادحين ، نجد مثل هذه الاراء تحظى رغم ذلك ببعض الانتشار . ولاجل تشخيص الفهم المادى حقا لجوهر الوعى الاجتماعى سنتناول بعض الامثلة .

بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى والحرب الاهلية في روسيا كانت قوى البلد المنتجة مخربة ، ومعظم المصانع والمعامل معطلة ، وتدهورت انتاجية القطاع الزراعى . وكان الاقتصاد يعانى وضعا عصيبا . بيد ان وعى الجماهير كان ثوريا ومفعما بالتفاؤل التاريخى والايمان بامكانية بناء الاشتراكية والتطلع الى اقامة المجتمع الجديد . فى الوقت ذاته كان اقتصاد كبريات البلدان الرأسمالية كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى وضع افضل . وكان مستوى قواها المنتجة مرتفعا نسبيا . غير ان الوعى الاجتماعى فى هذه البلدان كان يتسم بصبغة تشاؤمية عامة وبأزمة فى مجمل الثقافة الروحية . ولو كانت حالة الوعى الاجتماعى ومضمونه لا يتحددان الا بحالة القوى المنتجة والاقتصاد لكان الوضع معاكسا .

مثال آخر . فى الاقطار التى سلكت طريق الاشتراكية ، كذلك فى الاقطار التى تخوض النضال الوطنى التحررى والمناهض للاستعمار يتسم الوعى الاجتماعى بنمو الروح الثورية باطراد وبتنامى وحدة الصف فى فهم الاهداف الاجتماعية والمهام العامة وطرق تنفيذها .

كان من المفترض ان يتسم الوعي الاجتماعى والامزجة الاجتماعية فى بلدان الغرب الصناعية الاكثر تطورا بصفاء التفاؤل العام حين تسنى تخطى ظواهر التآزم وتقليص وتائر التضخم جزئيا وتقليص نمو البطالة وتحقيق بعض النهوض الاقتصادى . بيد ان الامر لم يكن كذلك فى واقع الحال . فالثورة العلمية التكنولوجية النشيطة والمتسارعة ونماء حجم الاعلام فى المجتمع يؤديان الى عدم استقرار ملموس وانعدام الثقة بالغد لدى بعض اوساط السكان والفئات المهنية . اذ يحذر بالمستخدمين والعمال الصناعيين خطر دائم هو خطر البطالة المرتبط بالاتمة وشيوع استعمال الروبوتات والكمبيوترات فى الانتاج . وحتى حقيقة ان التكنولوجيات الجديدة توفر فرص عمل اضافية لا تعطى ضمانا ان عددا كبيرا من المواطنين لن يفقد عمله ، ولن يغدو من عداد «الفائضين عن اللزوم» فى البنية الاجتماعية المقصودة . لهذا لا يندر ان تطفى النبرات التشاؤمية فى الوعي الاجتماعى لهذه البلدان على النبرات التفاؤلية . .

يستدل من هذه الامثلة ان من المتعذر استخلاص كل الآراء الاجتماعية ، وكل التعاليم والمثل والنظريات السياسية بشكل مباشر من البناء التحتى ، اى من العلاقات الانتاجية . وبديهي ان هذه العلاقات وما يناسبها من نشاط تطبيقى محدد الاغراض تندرج فى اساس سائر العلاقات وانواع النشاط والعمليات الاجتماعية . بيد ان هذا يعنى ان الوعي الاجتماعى هو الآخر يعكس ويتوصل الى معرفة ليس فقط العلاقات الانتاجية والنشاط الانتاجى ، بل وسائر العلاقات الاجتماعية الموضوعية وانواع النشاط وما يتعلق بها من ظواهر وعمليات الحياة الاجتماعية ، اى الوجود الاجتماعى . على هذا النحو نجد ان مقولتى «البناء التحتى» و«البناء الفوقى» لا تكفيان بعد لتفسير كيف وماذا يعكس الوعي الاجتماعى ، وكيف يؤثر فى نشاط البشر الاجتماعى . ان مقولة «الوجود الاجتماعى» اوسع من مقولة «البناء التحتى» ، ذلك انها تشمل ليس العلاقات الانتاجية فحسب ، بل والعناصر المادية للقوى المنتجة ،

وكذلك لسائر العلاقات الاجتماعية والدوائر الاجتماعية وانواع النشاط المختلفة . وبالعكس ، فمقولة «الوعى الاجتماعى» اضيق من مقولة «البناء الفوقى» ، لان البناء الفوقى يضم ، فضلا عن الوعى الاجتماعى ، الدولة والاحزاب وباقى الدوائر والمنظمات التى تشارك فى «انتاج» الوعى الاجتماعى ، وفى وضع مختلف النظريات والآراء والتعاليم ، وتناضل من اجل تطبيقها وتجسيدها فى واقع الحياة . غير ان هذه الدوائر والمنظمات بحد ذاتها موجودة موضوعيا ، اى خارج نطاق الوعى ، والوعى الاجتماعى يعكس عناصرها المادية . على هذا النحو ، ليس ترابط الوعى الاجتماعى والوجود الاجتماعى بالامر البسيط ، بل يتم عبر نشاط مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية ، وعبر نشاط المؤسسات الاجتماعية .

ان الوعى الاجتماعى لا يعكس الوجود الاجتماعى فحسب ، بل ويؤثر فيه تأثيرا عكسيا فعلا . ففي منظومة الوعى الاجتماعى ، فى مجموع الآراء والتعاليم خلال عصر تاريخى معين ، كأن يكون عصر الرأسمالية مثلا ، قد تنشأ وتتلور افكار ثورية تعكس ازمة النظام الرأسمالى الداخلى . وبالاستحواذ على عقول الجماهير تكون هذه الافكار قادرة على ان تتجسد فى نشاط ثورى ، وان تؤدى الى تغيير الوجود بحد ذاته . وفى النتيجة ينشأ عوضا عن الوجود الرأسمالى وجود جديد هو وجود المجتمع الاشتراكى . وكلما عكس الوعى الاجتماعى الوجود الاجتماعى بمزيد من الدقة ، كان تأثيره فيه اقوى . ولهذا السبب بالذات تؤثر فيه النظرية الماركسية اللينينية التى تعكس جوهر الوجود الاجتماعى باكبر مدى من العمق والصواب اقوى قدر من التأثير الذى يعمل على تثويره وتغييره .

واجمالا لكل ما قيل نستطيع الان ان نصوغ المبدأ الاساس للمادية التاريخية .

٢١١

المبدأ الاساس للمادية التاريخية . مقولة «الوجود الاجتماعى» هى عبارة عن نتيجة لتعميم لمقولة «المادة» الفلسفية العامة

على الظواهر الاجتماعية . كذلك الحال بالنسبة لمقولة «الوعى الاجتماعى» ، فهي نتيجة لتعميم مقولة «الوعى» الفلسفية الأكثر عمومية على ظواهر الحياة الاجتماعية . ومن خلال حل المسألة الأساسية للفلسفة تؤكد المادية الجدلية ، بالاستناد التام الى العلم المعاصر ، ان المادة هي الاولى والوعى هو الثانوى . وهذا يعنى فى المقام الاول ان المادة تسبق الوعى فى عملية التطور وبامكانها ان توجد قبله وخارج نطاقه وبصورة مستقلة عنه . وبالعكس ، فالوعى لا يمكن ان يوجد بصورة مستقلة عن المادة .

ولكن من الخطأ ان نظن ان الوجود الاجتماعى يمكن ان يوجد قبل الوعى الاجتماعى وبصورة مستقلة عنه تماما . فعلى الرغم من ان العلاقات الاجتماعية والظواهر المادية التى تدخل فى تركيبة الوجود الاجتماعى موجودة موضوعيا ، فهي تقام على يد البشر فى مجرى نشاطهم الهادف . ولا يمكن تصور مجتمع بشرى نشأ فيه وجود اجتماعى ، ولكن لا وجود فيه البتة لوعى اجتماعى . ان مجتمعا كهذا لا يمكن ان يكون له وجود . فكيف يمكن فى مثل هذه الحالة ان يجرى تعميم الحل المادى للمسألة الأساسية فى الفلسفة على الحياة الاجتماعية ؟ لقد رأينا (٢٠٤) ان طريقة انتاج الخيرات المادية هي اساس سائر انواع النشاط البشرى ، بما فيه النشاط الروحى . وعلى غرار ذلك بالضبط يعتبر البناء التحتى الاقتصادى للمجتمع هو ذلك الاساس الذى يقوم عليه البناء الفوقى السياسى والقانونى للمجتمع (٢٠٥) . وطريقة الانتاج التى تملئ سائر انواع وطرائق النشاط تعتبر فى التحصيل الاخير اعظم سبب للتغيرات فى مجمل الحياة الاجتماعية ، وسببا للانتقال من نظام اجتماعى الى آخر ، وبهذا المعنى تلعب الدور الحاسم . كذلك الحال بالنسبة للتغيرات فى البناء التحتى ، فهي تملئ التغيرات فى البناء الفوقى ، كونها علة علل هذه التغيرات ، بصرف النظر عن ان البناء الفوقى بحد ذاته يستطيع ان يؤثر تأثيرا عكسيا فعلا فى البناء التحتى . وهذا ما يتجلى فيه الدور الحاسم للبناء التحتى .

لا يصعب الآن ان نفهم بأى شكل يمكن استخدام المسألة الاساسية للفلسفة بمقتضى الحياة الاجتماعية ، وبأى شكل يمكن اعطاء جواب مادي عنه . فيما يتعلق بالمجتمع تتخذ هذه المسألة الصيغة التالية : «ما هو الحاسم - الوجود الاجتماعي ام الوعي الاجتماعي ؟» ردا على هذا السؤال تؤكد المادية التاريخية ، على الضد من المثالية التاريخية ، ان وعى البشر ليس هو الذى يحدد وجودهم ، بل العكس هو الصحيح ، اى ان وجودهم الاجتماعي هو الذى يحدد وعيهم . وتعتبر هذه الموضوعات تعميما علميا لمجمل تجربة البشر التاريخية ، كما تعتبر الى جانب ذلك القانون الاساس لتطور المجتمع وادائه لوظائفه . فالوجود الاجتماعي مادي واولى ، بمعنى انه هو الذى يحدد تغيير مضمون وشكل الوعي الاجتماعي ، بل وحتى نفس طابع تأثيره العكسي الفعال فى الوجود الاجتماعي . لهذا السبب بالذات تعتبر موضوعة الدور الحاسم للوجود الاجتماعي ازاء الوعي الاجتماعي المبدأ الاساس للمادية التاريخية .

ويستدل من هذا المبدأ : ١ - ان الوجود الاجتماعي موجود موضوعيا ، اى خارج الوعي الاجتماعي ؛ ٢ - ان الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي ؛ ٣ - ان الوجود الاجتماعي ، كونه اوليا ، ماديا ، يقيض ليس فقط مضمون الوعي الاجتماعي ، انما اشكاله ايضا ؛ ٤ - ان كل تغيرات الوعي الاجتماعي تسببها بشكل مباشر او ضمنى التغيرات فى الوجود الاجتماعي ؛ ٥ - ان الوعي الاجتماعي يمكن ان يؤثر تأثيرا فعالا فى تغير وتطور الوجود الاجتماعي ، غير ان هذا التأثير بحد ذاته تحدده فى التحصيل الاخير القوانين الموضوعية لتطور الوجود الاجتماعي وممارسته لوظائفه ؛ ٦ - ان كل قوانين التطور الاجتماعي تركز على المبدأ الاساس للمادية التاريخية ، وتجد فيه ما يفسرها علميا .

ان المبدأ الاساس للمادية التاريخية يؤكد ويعمل صحة النظرة الى تطور المجتمع كعملية طبيعية تاريخية (٢٠٣) . وتتجسد هذه النظرة بأوفى صورة فى التعليق الخاص بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .

التعليم الخاص بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية

٢١٢

الفردى والخاص والعام . يكفى ان نلقى نظرة على الاشياء المحيطة بنا كي نلاحظ انها جميعا تختلف فيما بينها ولو قليلا . فحتى كرتا البليارد المتشابهتان تختلفان فى الوزن بجزء من الالف من الغرام ، اذا ما وزننا دقيقا جدا . وعلى الرغم من ان ميكانيك الكم يؤكد ان الدقائق البسيطة ذات التسمية الواحدة لا تختلف احداها عن الاخرى ، لا ينبغي ان ننسى انها فى كل لحظة بعينها تتواجد فى اماكن مختلفة ، وقد تدخل فى تركيب ذرات مختلفة ، والذرات فى تركيب جزيئات مختلفة ، والجزيئات فى تركيب اشياء مادية مختلفة . واكثر الفوارق بالطبع نجدها بين البشر ، وهى فوارق فى المظهر والطباع والعادات والمصائر والانتماء القومى واللغة ، الخ . وبكلمة ، فان كل الظواهر والعمليات المحيطة بنا تتسم - بهذا القدر او ذاك - بسمات وملامح منفردة تلازمها وحدها دون غيرها ، اى تتسم **بالفردية** . وهذه الصفة التى تتصف بها الظواهر والعمليات المحيطة بنا هى ما تعكسه مقولة «**الفردى**» .

الى جانب ذلك ، ليس ثمة ظواهر وعمليات فردية بحتة لا تشبه سواها من الظواهر والعمليات . على سبيل المثال ، ان لكل الغربان اجنحة سوداء اللون ، وكل السوائل تتسم بصفات سيولة متشابهة . وبرغم كل الفوارق الفردية التى تجعل البشر على هذا القدر من تباين المظهر ، فهم يتسمون بصفات وملامح متشابهة ، او - كما يقال - بخصائص تتيح تصنيفهم فى فئات عدة . اذ يمكن تصنيفهم حسب العمر والجنس ولون البشرة والشعر وفئة الدم والانتماء القومى واللغة ، الخ . ومهما اختلف الاسكندر المقدونى ويوليوس قيصر ونابليون وسوفوروف من حيث المصير والمظهر والتصرفات الملموسة ، فبامكان المرء ان يجد بعض اوجه الشبه فى شخصياتهم . كالارادة والشجاعة والموهبة العسكرية والقابليات التنظيمية وما الى ذلك ، مما اتاح لهم ان يصبحوا

قادة عظماء . على هذا النحو تنطوى الظواهر الفردية على ملامح وصفات لا تميز بعضها عن بعض فحسب ، بل وتجعلها متشابهة مع سواها . وعلى هذا الاساس يمكن تصنيفها وتحديد خصائصها كمجموعات . وعليه فان الملامح والصفات الموضوعية الملازمة لبعض المجموعات او الانساق من الظواهر والعمليات تعكسها مقولة «الخاص» او «التخصصي» . والى جانب الصفات واللامح الملازمة لبعض المجموعات او الانساق من الظواهر والعمليات ، ثمة فى الواقع الموضوعى سمات وصفات وعلاقات تتسم بها كل ظواهر وعمليات ذلك الصنف ، وهى ما تعكسه مقولة «العام» . فالعام بالنسبة لكل العناصر الكيميائية هو ان لذراتها بنية تتكون من نواة وقشرة الكترونية . والعام بالنسبة للبشر كافة ، بصرف النظر عن الجنس واللغة والعرق والانتماء القومى وما الى ذلك ، هو انهم كائنات اجتماعية عاقلة ، قادرة على صنع شتى الاشياء بواسطة ادوات العمل . على هذا النحو نخلص الى استنتاج مهم هو ان مقولات «الفردى» و«الخاص» و«العام» تعكس الصفات الموضوعية للعالم المحيط بنا .

وثمة رابطة جدلية عميقة فى الواقع ذاته بين العام والخاص والفردى . فالعام والخاص يوجدان ويتجليان عبر الفردى . وبالعكس : ان كل عملية او شئ فردى ينطوى على ما هو خاص وعام . وينطبق هذا القول على الطبيعة والمجتمع والفكر سواء بسواء . فكل نبات او حيوان يخضع لقوانين بيولوجية عامة ، كما يخضع فى الوقت ذاته لقوانين خاصة لا يتسم بها الا الصنف المعنى . وعلى غرار ذلك ان كل انسان ، مهما اتصف به من صفات فردية متميزة ، يكشف فى سلوكه وطباعه ونشاطه الاجتماعى عن خصائص تميز شعبه ومهنته وفريق العاملين الذى ينتمى اليه ، وكذلك عن سمات عامة يتسم بها ابناء تلك الثقافة وذلك العصر التاريخى وتلك الطبقة الاجتماعية . فى الوقت ذاته ، ان العام والخاص لا يوجدان لوحدهما ، اى خارج الفردى وبصورة منفصلة عنه .

فالقوانين العامة للمجتمع الاشتراكى تتجلى فى نشاط فرق العاملين المنفردة والافراد الذين يشكلونها .

بعد ان اوضحنا ترابط العام والخاص والفردى وتأكدنا من ان مفعول هذا الترابط يسرى فى الطبيعة والمجتمع على السواء بامكاننا الآن الانتقال الى مسألة القوانين الاعم للتطور الاجتماعى . ويرتبط حل هذه المسألة ارتباطا لا ينفصم مع التعليم عن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .

٢١٣

ما هى التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية ؟ عندما نتأمل مصير الانسان فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ومكانته فى المجتمع ، وموقفه من العالم المحيط ، نصطدم بتنوع هائل فى الاحداث التاريخية والتصرفات البشرية ، وبنشوء وتطور وحتى هلاك دول وشعوب باكملها . فهل يمكن ان نلمح وراء كل ذلك بعض القوانين العامة التى تحمل من الصفة الموضوعية ما تحمله قوانين الطبيعة ؟ قبل ظهور الفلسفة الاجتماعية الماركسية منيت كل محاولات العثور على مثل هذه القوانين بالفشل .

لقد اقتضى الامر انقلابا ثوريا حقا فى فهم المجتمع كيما يتسنى للبشرية ان تستشف من وراء الزهاء الظاهرى والتقلبات السريعة للاحداث التاريخية وافعال البشر ما هو عام ، اى ما من شأنه ان يجمع ويفسر احتمال هذه الاحداث وهذه الانواع من النشاط دون سواها . وهذا العام هو الذى سمي بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية .

يقصد بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية مجموع العلاقات والعمليات الاجتماعية الموضوعية الثابتة والعوائى والقوات الاجتماعية المستقرة ، وكذلك كل انواع واشكال الوعى الاجتماعى التى تظهر وتنمو على اساس طريقة الانتاج (٢٠٤) السائدة فى عصر تاريخى معين .

اذن ، فالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية هى عبارة عن منظومة معقدة غاية التعقيد . وفى كل عصر تاريخى يمكن ان تكون هناك لا طريقة واحدة ، بل بضع طرائق للانتاج . ففى

المجتمع الرأسمالى ، مثلا ، قد يوجد ، الى جانب الطريقة الرأسمالية السائدة ، الانتاج البضاعى الصغير والانتاج الابوى ، اى العينى ، وكذلك بقايا الانتاج الاقطاعى . وتسمى طرائق الانتاج غير السائدة هذه ، عادة ، بالانماط . وهى تتسم بالتنوع بصفة خاصة خلال فترات الانتقال من تشكيلة الى اخرى . الا ان الانماط نفسها تخضع لطريقة الانتاج السائدة وترتھن بها . لهذا فهى التى تقرر كل العلاقات والعمليات الاساسية ودوائر واشكال الوعى التى تشكل البناء التحتى والبناء الفوقى للتشكيلة المعنية (٢٠٥)

يتألف المجتمع ، باعتباره منظومة اجتماعية موحدة ، او كيانا اجتماعيا ، من جملة منظومات ثانوية مترابطة فيما بينها . وتعزى الى عداد هذه المنظومات الثانوية ، مثلا ، الطبقات والاحزاب السياسية والدولة والمنظمات الدينية الكنسية والاسرة ، الخ . غير انها ترتھن فى التحصيل الاخير بطريقة الانتاج (٢٠٤-٢٠٩) . وصلة مختلف المنظومات الثانوية الداخلة ضمن التشكيلة المعنية بطريقة الانتاج ليست بسيطة ، بل معقدة ، وهى تتسم عبر مختلف العلاقات والارتھانات .

ان «التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية» مقولة تعكس السمات والصفات الموضوعية الضرورية الاكثر عمومية التى تحددها طريقة الانتاج السائدة ، لكنها تتجلى باشكال متميزة عن سواها فى مختلف البلدان . وترتھن هذه الخصائص بالظروف الوطنية والتاريخية وكذلك بالوقت والظروف التى نشأت فيها التشكيلة المعنية .

ويوجه التعليم عن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ضربة ماحقة لكل الوان المثالية التاريخية . لهذا يسعى مؤدلجو البرجوازية المعاصرة ، ولا سيما اتباع عالم الاجتماع والفيلسوف والمؤرخ الالمانى فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) الى دحض هذا التعليم ، فيطلقون على التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية نعت «الطراز المثالى» ، اى النموذج المتخيل لمجتمع لا وجود له فى الواقع التاريخى الموضوعى . واعتراضا على ادعاءات

المثاليين كتب لينين ان مفهوم «التشكيكة الاقتصادية الاجتماعية» يوفر امكانية «الانتقال من وصف الظواهر الاجتماعية (وتقويمها من حيث المثال الاسمى) الى تحليلها تحليليا علميا صارما يشخص ، على سبيل المثال ، ما يميز بلدا رأسماليا عن آخر ، ويبحث فيما هو عام لها جميعا» * . وقد تتجلى نفس التشكيكة ، كالأسمالية او الشيوعية مثلا ، وتتطور بصورة مختلفة فى بلدان مختلفة ، غير ان وجود السمات العامة والروابط المستقرة والضرورية يتيح صياغة قوانين عامة (بالنسبة لكل البلدان والشعوب) لاداء هذه التشكيكة او تلك لوظائفها ، كذلك قوانين الانتقال من تشكيكة الى اخرى .

٢١٤

الثورة الاجتماعية . فى سيورة التطور الاجتماعى لا تؤدى التشكيلات وظائفها فحسب ، بل وتحل احداها محل الاخرى ، علما بان هذا يتم بتعاقب معين ، موضوعى ومحكوم بقوانين . وتسمى عملية الانتقال من تشكيكة الى اخرى بالثورة الاجتماعية . فما الذى يحدد هذا القانون ، وبم يرتهن هو نفسه ؟

ان تعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية يتحدد بتعاقب طرائق الانتاج السائدة . وتبعاً لطرائق الانتاج الاساسية الخمس (٢٠٤) يجرى تمييز خمس تشكيلات اقتصادية اجتماعية هى : المشاعية البدائية ، العبودية ، القطاعية ، الرأسمالية والشيوعية .

ويمكن للانتقالات من تشكيكة الى اخرى ان تجرى فى مختلف البلدان وفى مختلف الفترات التاريخية بسبل مختلفة . فقد يمتد امدها احيانا عشرات السنين ، بل وحتى مئات السنين . ومن المهم ان نفهم ان الثورة الاجتماعية تتحدد لا بكونها تجرى بطريق سلمى او مسلح ، ولا بامتداد امدها او

* لينين . المجلد ١ ، ص ١٣٧ .

قصره ، بل تتحدد بحقيقة ان فى سياقها يجرى تبدل طرائق الانتاج وفى المقام الاول الابنية التحتية الاقتصادية . وبالإمكان ، كما ابان ماركس ، اثبات تبدل الابنية التحتية هذا بالدقة المعهودة عن العلوم الطبيعية . ويجرى فى سياق الثورة الاجتماعية ايضا تبدل معقد ووافر الصعوبة لكل طوابق البناء الفوقى الاجتماعى . اذ تتغير تغيرا جذريا بنية المجتمع الطبقيـة (٢٠٦) . لذا يرافق هذا التبدل فى التشكيلات الطبقيـة صراع طبقي ضار . وفى مجرى الانتقال من تشكيلة الى اخرى يتغير ايضا مضمون اشكال الوعى الاجتماعى المختلفة . اذ يشرع الفن والدين والاخلاق والفلسفة ذاتها فى عكس الوجود الاجتماعى الجديد والعلاقات الجديدة بين البشر ، والنظام الجديد لسلطة الدولة والاحزاب السياسية . وتجرى التغيرات فى طريقة الانتاج وفى العلاقات الاجتماعية كافة خلال فترة الثورات اسرع بعشرات ومئات المرات ، فتشمل شرائح الحياة الاجتماعية الاكثر عمقا مما فى فترة التطور الرتيب ضمن اطار التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية السالفة . ويجرى هدم العلاقات التقليدية وطرائق النشاط وانماط التفكير ، وتغير سيكولوجيا المجتمع وايدولوجيته ، وباختصار ، الهدم الجذرى لمجمل الحياة السالفة فى خضم صراع القوى الاجتماعية الضارى ، ممهدا الطريق امام التشكيلة الجديدة . وهذا الهدم هو الذى يشكل اهم مهدة وشرط لتطور هذه الاخيرة . لذا تعتبر الثورات الاجتماعية ضرورة تاريخية موضوعية . والانتقال الى التشكيلة التالية ، الارقى والاكثر تطورا من الناحية التاريخية لا يمكن ان يتم بغير الثورة الاجتماعية .

٢١٥

بنية الثورة الاجتماعية . ان الثورة الاجتماعية التى تنشأ فى نتيجتها تشكيلة اقتصادية اجتماعية جديدة تشمل كل جوانب الحياة الاجتماعية ، ولها بنية معقدة .

وتسمى عملية هدم طريقة الانتاج القديمة ونشوء اخرى جديدة بالثورة الاقتصادية . ومهمتها الاساسية هى الاستعاضة

عن العلاقات الانتاجية القديمة باخرى جديدة تناسب طابع ومستوى تطور القوى المنتجة .

اما عملية تبدل البناء الفوقي القانوني والسياسي ، المتمثلة في كون المؤسسات القانونية والسياسية القديمة الداخلة ضمن تركيب التشكيلة السالفة تستبدل بها اخرى جديدة تناسب البناء التحتي للتشكيلة الجديدة فتسمى بالثورة السياسية . وقد اكد لينين باصرار ان مسألتها الرئيسية هي مسألة الاستيلاء على سلطة الدولة وتبديل ماكنة الدولة القديمة . وبما ان سلطة الدولة (٢٠٧) تعتبر اهم اداة لحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، فان الصراع على سلطة الدولة واقامة الدولة الجديدة يشكل ما يشبه نواة او جوهر كل ثورة اجتماعية . وهذا الجانب من القضية بالذات هو ما حرص خصوم الثورة على تمويهه . فقد حاولوا تصوير الامر وكأن من الممكن حل ابرز واهم قضايا الثورة الاجتماعية ، ولاسيما الثورة الاشتراكية ، دون هدم اركان الدولة القديمة ، عن طريق تحسينها وتطويرها . وبذا طمسوا الطبيعة الطبقية للدولة . ان الدولة البرجوازية التي هي اداة لقمع الكادحين سياسيا لا تستطيع بحكم جوهرها نفسه ان تزيل التناقضات التنافسية ، وان تصفى الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وان تعمل على بناء المجتمع اللاتطبقى . لهذا يعتبر تبديل ماكنة الدولة البرجوازية بدولة الكادحين في ظل الدور القيادي للطبقة العاملة شرطا ضروريا ضرورة تاريخية للثورة الاشتراكية التي هي اعمق ثورة بين الثورات الاجتماعية قاطبة (٢١٩ ، ٢٢٠) .

في سياق الانتقال من تشكيلة الى اخرى تجرى كذلك تغيرات نوعية عميقة في الوعي الاجتماعي وفي مجمل ثقافة المجتمع الروحية ، بما في ذلك التغيرات في الايديولوجيا (٢٢٤ ، ٠٠٥) . فالقانون والاخلاق والفن والفلسفة وما الى ذلك تكتسب مضمونا اجتماعيا وايديولوجيا جديدا يعكس الوجود الاجتماعي الجديد ، ويؤثر تأثيرا فعالا في تطوره . ويتغير وجه المجتمع الثقافي . وتسمى هذه العملية بالثورة

الثقافية . وتجري اعمق التغيرات فى وجه المجتمع الروحى والثقافى بصفة خاصة فى فترة الانتقال الثورى من الرأسمالية الى الاشتراكية . ولكن لا ينبغى الظن بان الثورة الثقافية تعنى القطيعة التامة مع التقاليد الثقافية السالفة او التخلى عنها . ان على الثورة الثقافية الحقيقية ان تقوم بتركيم كل قيم ونفيس انتجته الثقافات الماضية ، وان تجعل ارقى منجزات الثقافة العالمية والقومية ملكا لجميع الفئات الاجتماعية ولاوسع اوساط السكان .

وتعتبر الثورات ، الاقتصادية والسياسية والثقافية ، اهم جوانب وعناصر الثورة الاجتماعية . وهى تطبق بترابط وثيق . فى بعض الاحيان يتقاطع وقت تنفيذها ويتطابق . وقد يسبق بعض هذه العمليات الثورية بعضها الاخر ، تبعا للوضع التاريخى الملموس ، ويمتد امدها لفترة زمنية طويلة الى هذا القدر او ذاك . لكن الثورة الاجتماعية فى كل الظروف لا تكتمل الا بعد ان تنفذ المهام التى طرحها التطور الاجتماعى فى مجال الاقتصاد والحياة الاجتماعية السياسية والثقافة . وتنفيذ هذه المهام هو الذى يعنى قيام التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة .

يعتبر تطور المجتمع عبر تعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية والثورات الاجتماعية العميقة قانونا موضوعيا للتاريخ . وليست الثورات الاجتماعية ضرورية تاريخيا الا فى ظروف معينة . ومع انتفاء هذه الظروف تنتفى الضرورة الموضوعية فى الثورات الاجتماعية كشكل للانتقال من تشكيلة الى اخرى . ولأجل ان نفهم كيف يسرى مفعول القوانين الموضوعية لاداء التشكيلات لوظائفها وتعاقب هذه التشكيلات ينبغى تناول المراحل الاساسية لتطور المجتمع البشرى ، منذ نشوئه حتى العصر الراهن .

٢١٦

نشوء المجتمع البشرى . ان العملية التى تظهر فى سياقها ظاهرة ما وتكون وتكتمل لكنها لم تكن بعد قد تكونت واكتملت نهائيا ، ولم تكتسب سماتها الحقيقية تسمى

بالنشوء . لا يجوز القول بثقة ان الظواهر التى لا تزال فى طور النشوء غير موجودة ، وفى الوقت ذاته ليس صحيحا الادعاء بانها موجودة بشكلها المتطور الكامل . ومفهوم النشوء مقولة فلسفية تستخدم فى دراسة كل الظواهر التى فى طور النمو ، ولا سيما خلال المرحلة الاولى من نشوئها . ولننظر الان فى عملية نشوء المجتمع البشرى .

نحن نعرف بالفترة الاولى من نشوء البشرية بفضل التنقيبات الاثرية . وفى غضون ربع القرن الاخير تم العثور على رفات اقدم اسلاف الانسان ، واتضح انهم كانوا من حيث المواصفات البيولوجية اقرب الى الحيوانات ، لكنهم مع ذلك شرعوا لأول مرة فى استخدام ابسط الادوات الحجرية للحصول على القوت وصنع مختلف الاشياء . ويطلق العلماء على هذه المخلوقات نعت «ما قبل البشر» . اذ كان نمط حياتهم قريبا من نمط حياة قطعان الحيوانات . وكان دماغهم من حيث الحجم والبنية لا يكاد يفوق حجم ارقى القردة الشبيهة بالانسان . ولم تكن قد نشأت بعد فى قطعان «ما قبل البشر» علاقات انتاجية بالمعنى الدقيق للكلمة ، وبالتالي لم تكن هناك ايضا علاقات ودوائر اجتماعية اخرى من تلك التى تميز المجتمع البشرى . وقد ظهر «ما قبل البشر» قبل حوالى ٥,٥ مليون سنة ، ويمكن اعتبار الفترة التالية ، وهى تشكل قرابة ٣,٥ مليون سنة ، عصر نشوء المجتمع البشرى . وعلى مدى هذه الفترة جرى تطور ادوات العمل ونمو النشاط الانتاجى ببطء شديد ، وبصورة عفوية ، وعن طريق التجربة والخطأ . بيد ان قوى المجتمع المنتجة قد نمت حتى اواخر تلك الفترة الى درجة ، بحيث تطلب نموها اللاحق تنظيما معيناً لجميع العمليات التطبيقية والاجتماعية . هكذا جرى بفضل تطور القوى المنتجة توفير الممهّدات اللازمة لنشاط البشر الاقتصادى ، ونشوء العلاقات الاجتماعية ، والانتاجية منها بالدرجة الاولى . وتحول وجود الانسان الى وجود اجتماعى ، وراح يتكون على اساسه الوعى الاجتماعى .

انتهت عملية نشوء المجتمع البشرى قبل حوالى ١-١,٥

مليون سنة ، عندما ظهر اقدم البشر البدائيين - انسان
البيثيكانثروب (الانسان - القرد) . ويطلق عليهم ايضا اسم
البشر الاقدمين او الباليانثروب . وهم من حيث تكوينهم البدني
يختلفون بعد اختلافا ملموسا عن الانسان المعاصر ، لكنهم
اكثر اختلافا عن «ما قبل البشر» والحيوانات . ويختتم نشوء
البشرية بظهور التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الاولى ، وهي
نظام المشاعية البدائية .

٢١٧

التشكيلة المشاعية البدائية . يتمثل اساس التشكيلة المشاعية
البدائية في الملكية العامة الجماعية لادوات الانتاج . فقد
اتاحت ابسط ادوات العمل الحجرية (الفؤوس والسكاكين
ورؤوس السهام والحراش وغيرها المصنوعة من الحجر) ،
والادوات المصنوعة من عظام الحيوانات والقش والمزاريق
الخشبية ، الفرصة للانسان كي ينفصل عن عالم الحيوان .
مع ذلك كانت هذه الادوات تضمن انتاجية عمل منخفضة . ولم
يكن استخدامها فعالا الا في نتيجة نشاط البشر المشترك .
وقد قيض طابع القوى المنتجة هذا نمط العلاقات الانتاجية
ايضا . اذ كانت جميع الادوات ملكا عاما لاعضاء الجماعة
البدائية . وكانت نواة هذه الجماعة هي الفخذ * الذي يرتبط
جميع افرادها فيما بينهم بروابط قرى الدم . ومن مشاعيات
الافخاذ تكونت في وقت لاحق القبائل والاتحادات القبلية .

كان الانسان البدائي ضعيفا جدا في مواجهة قوى الطبيعة
العمياء . ولم يكن بمقدور البشر مجابهتها الا بصورة جماعية .
اذ كانت المواد الغذائية المستحصلة في العمل المشترك توزع
بين جميع افراد الفخذ او القبيلة . على هذا النحو كانت جميع
عناصر العلاقات الانتاجية : الملكية ، التبادل المباشر بالنشاط
والتوزيع تناسب مستوى وطابع تطور القوى المنتجة (٢٠٤) .
وكان لهذه العلاقات الانتاجية بناء فوقى يناسبها هو البناء
الفوقى للتشكيلة المشاعية البدائية . وكان يتزعم الفخذ او

* يقصد به هنا اسرة مؤلفة من عدة اجيال - المترجم .

القبيلة زعماء يمتازون بالقوة والخبرة والحكمة . وكانت السلطة انتخابية ، وتنتقل احيانا بالوراثة ، من الاب الى الابن . وكان كل افراد المشاعية يشاركون حسب طاقتهم فى العمل وجمع القوت والصيد وما الى ذلك . وكان كل الرجال البالغين الاصحاء بدنيا محاربين فى نفس الوقت . لهذا لم تكن هناك ايما تناقضات اجتماعية داخلية بين افراد الجماعة البدائية . وكان وعيهم يتكون فى غمار الصراع ضد الطبيعة القاسية . اما تفسير الظواهر الطبيعية الغامضة والقوى الغاشمة (الرعد ، البرق ، الصواعق ، القيظ ، الزمهرير ، الفيضان ، الخ) فيكتسب شكلا خرافيا . وعلى اساس هذا التفسير للعالم نشأت مختلف اشكال الديانة البدائية المبكرة . الى جانب ذلك كانت تدخل فى الوعى الاجتماعى ابسط اصول وقواعد السلوك الالزامى بالنسبة للجميع . وكانت هذه هى اجنة الاخلاق البدائية . واى خرق لها كان يعاقب عليه بصرامة . وظهر كذلك الفن البدائى . وقد حفظ الزمن لنا قدرا غير قليل من نماذج التصوير على الحجر والرسوم التى تصور مشاهد الصيد والزراعة والاشتباكات القتالية وعناصر العبادة الدينية ، الخ .

وكان استخدام النار خطوة عظمت الى الامام فى تطور التقنية البدائية والانتاج عموما . فبمساعدها تعلم البشر ليس فقط طهى الطعام ، بل وتدفئة المساكن وصنع الادوات الفخارية ، ومن ثم صهر المعادن وصنع ادوات العمل والاسلحة الحديدية والبرونزية . وادى هذا الى قفزة عملاقة فى تطور القوى المنتجة . وكان من نتائج ذلك نزوح البشر السريع من مناطق سكنهم الاولى فى الحزام الاستوائى الدافئ وانتشارهم على سطح الارض باكملة ، بما فى ذلك المناطق المنيعه والقاسية المناخ .

ورافق تطور القوى المنتجة تقسيم العمل . فقد ظهرت قبائل تزاوّل فى الغالب الصيد او جمع القوت النباتى . وجرى تقسيم العمل الذى كان يجمع بين الزراعة وتربية المواشى . وانفرزت الحرف الى صناعات الاسلحة والفخاريات والاحذية

وهلمجرا . وفى نتيجة ذلك نشأ بين المشاعات البدائية المختلفة التبادل بمنتجات العمل .

وقبل حوالى ٦ الاف سنة ارتفع تطور القوى المنتجة للمجتمع البدائى الى مستوى جعل البشر يشرعون لأول مرة فى انتاج سلع اكثر قليلا مما كان ضروريا لتلبية احتياجاتهم المباشرة الى الطعام والملبس والسكن . وظهرت امكانية خزن وادخار هذا الفائض . وصار يتركز فى يد اعيان ووجهاء القبائل . وفى النتيجة نشأت مهادت لادخار الثروات وظهور التباين فى حيازة الملكية . وبات بالامكان توظيف فائض وسائل الانتاج لاستغلال عمل الاخرين ، ومعنى هذا قد ظهرت بوادر علاقات انتاجية جديدة اصبحت قائمة الان لا على الملكية الجماعية ، بل على الملكية الخاصة . واخذت تنشأ طريقة انتاج جديدة . لقد استنفدت التشكيلة المشاعية البدائية القديمة امكانياتها ، وقادت مسيرة التاريخ الموضوعية البشر الى مديات جديدة . وبرز الانقسام الى طبقات ، فانبثق المجتمع الطبقي .

٢١٨

التشكيلة العبودية . اصبحت المجتمع العبودى اول تشكيلة اقتصادية اجتماعية تسود فيها علاقات الملكية الخاصة الانتاجية . وظهرت اقدم المجتمعات العبودية فى حدود الالف الثالث - الالف الثانى ق . م فى مصر القديمة ووادى الرافدين ، وفى الهند والصين ، وفى اواخر الالف الثانى ق . م ظهرت فى بلاد اليونان القديمة ، وفى الالف الاول ق . م ظهرت فى روما القديمة ايضا . وكان مصدر العبودية هو الحروب ، وكذلك اغلال الديون . فلتن كان الاسرى فى المجتمع البدائى يجعلهم آسروهم اعضاء فى قبيلتهم او يقتلونهم او يعيدونهم لقاء فدية ، فقد بات اكثر نفعا فى مجتمع العبودية تحويلهم الى عبيد ، ذلك ان عمل العبيد فى ظل مستوى القوى المنتجة آنذاك كان بمقدوره ان ينتج فائضا من منتجات العمل .

لقد ادى نشوء طريقة الانتاج العبودية الى انقسام المجتمع الى طبقات لامتهادنة هى مالكو العبيد والعبيد . وادى الصراع

فيما بينهم بدوره الى اقامة مؤسسة اجتماعية خاصة هي الدولة العبودية . وكانت هذه الدولة اداة لاضطهاد المستغلين سياسيا ، وفي مقدمتهم العبيد ، لغرض الابقاء على الجبروت الاقتصادي والسياسي لطبقة مالكي العبيد المسيطرة .

ومنذ المراحل المبكرة من المجتمع العبودي اخذت السمات العامة لهذه التشكيلة تتجلى باشكال خاصة ، تبعا للظروف التاريخية الملموسة . ففي مصر وبابل واشور وباقي الدول التي اقتضى الحال فيها انشاء اقنية ارواء وتجفيف عملاقة وضرورية للاغراض الزراعية كان الشكل السائد هو عائلية ملكية العبيد الى الدولة . اذ كان الملك الشرقي المستبد يمارس الحكم الفردي مدافعا عن مصالح الطبقة المسيطرة بمجموعها . الى جانب ذلك ازدهرت ملكية العبيد العائلية ، الابوية . وقد اطلق ماركس على النمط الاقتصادي الاجتماعي الذي كان سائدا في بلدان الشرق القديم نعت «طريقة الانتاج الاسيوية» . وكانت ابرز سمة مميزة له هي القدرة على التكرار الدائم لتكوين نفس النوع من العلاقات الانتاجية والحفاظ على مستوى القوى المنتجة المنخفض بشكل ثابت تقريبا . فمن جهة ، كان ذلك يؤمن استقرارا ورسوخا معينين للمجتمع الذي ما كان ممكنا ان ينهار الا تحت ضغط قوى خارجية . ومن جهة اخرى كانت طريقة الانتاج الاسيوية تؤمن ركود مجمل النظام الاقتصادي الاجتماعي ، الامر الذي كان يترك بصمات معينة على مجمل الحياة الروحية للمجتمع ، وذلك بخفض مبادرة الفرد وحاجته الى الحرية الروحية والاجتماعية الى الحد الادنى ، وبتقوية النظرة التشاؤمية الى العالم والانطوائية والسعي الى الهروب من الجور الاجتماعي الموضوعي الى عالم الانفعالات الداخلية والتهذيب الذاتي ، الى عالم الزهد والحلم الغيبي . لقد عايشت طريقة الانتاج الاسيوية المتسمة بالركود التشكيلة العبودية ، واجتازت في الكثير من اقطار المنطقة الاسيوية كل فترة القرون الوسطى ، مؤدية الى تخلف هذه البلدان (التي خلقت ثقافة روحية رفيعة) في المجالين الاقتصادي والاجتماعي عن بلدان المنطقة الاوربية وامريكا الشمالية الاكثر دينامية .

وعلى العكس من ذلك كانت ملكية العبيد الفردية هي السائدة في اليونان القديمة وروما . وكان العبيد يعملون في الورش الحرفية والمناجم ، ويزاولون اعمال شق الطرق والبناء وما الى ذلك . وفى بعض مراحل التطور انتشرت في اليونان القديمة وروما جمهوريات عبودية ديمقراطية . بيد ان الديمقراطية والمساواة السياسية كانتا تقتصران فيها على المواطنين الاحرار ، دون العبيد .

وبرغم بعض الفوارق بين الدول الاسيوية والاوربية ، كانت دول العالم القديم كافة تتميز بالسمات العامة للتشكيلة العبودية .

لقد حرر عمل العبيد مالكيهم من مزاوله العمل الانتاجى اليومى الشاق . وقد اتاح هذا لمثلئ الطبقة المسيطرة ايلاء الكثير من الاهتمام لتنمية الفن والادب والرسم والفلسفة والعلم وهلمجرا . وكانت الايدولوجيا المسيطرة تبرر العبودية . فالعبيد ، على حد تعبير ارسطو ، مجرد ادوات ناطقة . هنا نرى بوضوح كيف يحدد الوجود الاجتماعى وعى العصر الذى نحن بصددده .

وفى مجتمع العبودية كان النشاط الروحى والادارة امتيازا للطبقة المسيطرة ، بينما كان العمل البدنى من نصيب العبيد والمعدمين . لذا كان العمل البدنى محتقرا ، وما كان يعد لائقا بالانسان الحر سوى النشاط الروحى . واحتقار العمل البدنى ان هو الا ناتج تاريخى لانقسام المجتمع الى مستغليين ومستغليين .

ولقد انتفض العبيد والاوساط المعدمة من السكان مرارا على مضطهديهم ، وقمعت هذه الانتفاضات بقسوة . ولكن حتى فى تلك الحالات النادرة ، حين كانت هذه الانتفاضات تنتهى بانتصار العبيد ، لم يكن ذلك يعنى نهاية العبودية . اذ كان المنتصرون انفسهم يصبحون اسيادا ويحولون خصومهم الى عبيد . ولم يكن هناك احتمال آخر فى ظل مستوى تطور وطابع القوى المنتجة آنذاك .

وفى مجرى التطور البطيء جدا لوسائل الانتاج لم تنشأ

الا بالتدرج الظروف الموضوعية اللازمة لنشوء التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة - التشكيلة القطاعية .

٢١٩

التشكيلة القطاعية . تدرج في اساس العلاقات الانتاجية القطاعية الملكية الخاصة التامة لاهم وسائل الانتاج ، وبالدرجة الرئيسية ، الارض ، والملكية غير الكاملة للفرد المنتج ، اى القرن . وقد بدأ هذا الشكل من الملكية يظهر تدريجيا في اعماق مجتمع العبودية في روما القديمة ، وكذلك في بعض الدول العبودية الشرقية . فلم يكن بإمكان العبيد ان يزاولوا العمل الا بمساعدة ادوات بدائية فظة ، وهو بالاساس عمل بدائي ضئيل الانتاجية . وكانوا يمقتون العمل القسرى ، كما لم تكن لهم مصلحة في نتائجه . ومع تطور وسائل الانتاج بات نافعا ليس استخدام عمل العبيد ، بل عمل المنتجين التابعين . واخذت تنشأ علاقات انتاجية جديدة كان فيها مالك الارض والادوات يسمح للمنتج باستخدامها فيجعله بذلك تابعا له . وكان الاهتمام بالعمل لدى هذا العامل التابع حقوقيا ، ولكنه ليس ملكا تاما لسيدته ، والذي يستطيع حيازة جزء من السلع المنتجة ، اكبر مما لدى العبيد . وما ساعد على تطور العلاقات الانتاجية الجديدة في اوربا هو غزو القبائل الهمجية التى اقلبت من آسيا خلال القرون ٢-٥ للميلاد . وبعد تخريب الامبراطورية الرومانية العبودية اقامت هذه الشعوب على انقاضها جملة من دولها . وكان على رأس هذه الدول قادة عسكريون من ملوك ودوقات وبارونات . وكان هؤلاء في تبعية متبادلة ، وكان رفيعو المقام منهم يوزعون بين جنودهم قطعا من الاراضى (اقطاعيات) ، فيغدو هؤلاء الاخرون تابعين ويتعهدون باداء الخدمة العسكرية . وكانت منظومة هذه التبعية معقدة جدا ومتعددة المراتب او هرمية . فعلى المراتب العليا يقف الابطرة والملوك ، والتابعون لهم هم الدوقات ، وكان هؤلاء الدوقات بدورهم تابعون من الكونتات والبارونات وهلمجرا . والمرتبة الدنيا كانت من نصيب الكادحين والاقنان . كانت الزراعة تشكل اساس النظام القطاعى ، بيد ان العلاقات

الاقطاعية تعززت في المدن ايضا وادت الى تشكل المنظمات الحرفية القروسطية هي الورش . وكانت فيها كذلك علاقات هرمية معقدة .

وشكل الاقطاعيون على اختلاف مستوياتهم طبقة مهيمنة جديدة . اما الفلاحون الاقنان والحرفيون المعدمون فقد شكلوا الطبقة المستغلة . وخاض الفلاحون والحرفيون المعدمون صراعا ضاريا مع الاقطاعيين ، وقاموا غير مرة بانتفاضات مسلحة . وانهت هذه الانتفاضات بهزيمة الكادحين ، وذلك بسبب غياب الظروف الموضوعية اللازمة لانتصارها .

يمتاز المجتمع الاقطاعي بتشتت بالغ في كيان الدولة . وكان كل اقطاعي يسعى الى الاستقلال السياسي . وخاض الاقطاعيون فيما بينهم حروبا لا نهاية لها . كل هذا اعاق نمو القوى المنتجة وتطور العلاقات الانتاجية . وكان المجتمع الاقطاعي يتسم بالركود وبنزعة محافظة للغاية ، وينمو ببطء . ولكن حتى في ذلك الحين لم يكن هناك ركود تام او توقف في التطور الاجتماعي .

وتجلى هذا التطور بالدرجة الاولى في تحسن ادوات العمل والحرف بصورة بطيئة ولكن بلا توقف ، مما اسفر عن توسع نطاق التجارة الداخلية والتجارة بين الدويلات الاقطاعية . وبالتدريج اخذ التشتت الاقطاعي وغياب النظام النقدي الموحد وطرق المواصلات ، وكثرة التشريعات المتضاربة وما الى ذلك ، يعيق تطور الانتاج والتجارة . لهذا تطلب استمرار تطور القوى المنتجة الموضوعي وتكون طريقة الانتاج الجديدة تغييرا جذريا في البناء التحتي للمجتمع وفي الظواهر الفوقية (نسبة الى البناء الفوقي) .

في القرون ١٥-١٧ اخذت تنشأ في دول اوربا الغربية طريقة انتاج جديدة ، هي الطريقة الرأسمالية . فبفضل صنع مختلف المعدات الميكانيكية والمكانن والادوات المطورة وما شابه ذلك ، لم يعد عمل الاقنان وحرفيي الورش نافعا . وتحولت العلاقات الاجتماعية الاقطاعية الى كايح لتطور المجتمع . لهذا تزعمت الطبقة المستغلة الجديدة - البرجوازية

— المعنية باستغلال العمال الاجراء وترسيخ طريقة الانتاج الرأسمالية الجديدة النضال ضد النظام الاقطاعى . وفى نتيجة جملة من الثورات البرجوازية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتى شاركت فيها الجماهير الشعبية مشاركة فعالة ، تم هدم النظام الاجتماعى الاقطاعى فى العديد من بلدان اوربا وامريكا ، واخذت الدولة الاقطاعية مكانها للدولة البرجوازية . واصبحت الغلبة فى منظومة الانتاج للعلاقات الانتاجية القائمة على شكل الملكية الرأسمالى الخاص .

٢٢٠

التشكيكة الرأسمالية . انبثقت طريقة الانتاج الرأسمالية بادی ذى بدء بمثابة نمط خاص فى رحم النظام الاقطاعى . وبتحولها الى اساس للتشكيكة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة ، ادت الى تغير جذرى فى العلاقات الاجتماعية كافة . واصبحت طبقة العمال الاجراء والبرجوازية الطبقتين الاساسيتين . ومع سير التطور يتغير طابع القوى المنتجة . فالانتاج الآلى يتطلب عملا جماعيا مشتركا . ويكتسب التناقض بين طابع القوى المنتجة الاجتماعى والملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج حدة متنامية باطراد . ويتجلى هذا التناقض فى اشتداد الصراع الطبقي . ويؤدى تطور الرأسمالية الى نمو سريع للطبقة العاملة وتعاظم دورها فى حياة المجتمع . وينمو ايضا وعى البروليتاريا الطبقي . ويتطلب الانتاج الصناعى من البروليتاريا مزيدا من التلاحم والتنظيم وتنسيق العمل ، ومستوى رفيعا من المعرفة والاعداد المهني . وقضت الرأسمالية على التشتت الاقطاعى ، والتنظيم الهرمى المعقد للمجتمع ، وعلى غزارة وتضارب التشريعات ، واوجدت سوقا عالمية موحدة للعمل والرأسمال . كل هذا يسر للطبقة العاملة ادراك التعارض الجذرى بين مصالحها ومصالح البرجوازية . ومما ساعد على نمو الوعى الطبقي لدى البروليتاريا قياس ماركس وانجلس بوضع نظرية الشيوعية العلمية ، اى التعليم المتعلق بالتغيير الثورى للنظام القائم وبناء المجتمع اللاطبقى . ويجرى ربط الشيوعية العلمية بالحركة العمالية بمساعدة احزاب الطبقة

العامة . فهي اذ تنقل الشيوعية العلمية الى الجماهير انما تساعد على نمو الوعي الثورى ، الامر الذى يقود بدوره الى توسيع نطاق الصراع الطبقي وتعميقه .

وفى اواخر القرن التاسع عشر واول القرن العشرين ادى التناقض العميق بين العلاقات الانتاجية الرأسمالية الخاصة والقوى المنتجة الاجتماعية من حيث طابعها الى ان هذه الاخيرة اخذت تتطور تطورا ابطأ مما كان يمكن لها ان تنمو فى حالة الغاء الملكية الرأسمالية الخاصة . وحلت مرحلة جديدة من نمو الرأسمالية هي الامبريالية .

تتميز الامبريالية بسيطرة الاحتكارات ومجى ' القمة ائمالية الصناعية (الاوليجاركية) الى السلطة والصراع على اعادة اقتسام المستعمرات واشتداد الصراع الطبقي والامعان فى استغلال الكادحين وتباين التنمية الاقتصادية والاجتماعية وهلمجرا . وقد اظهرت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) ان الرأسمالية فى مرحلة الامبريالية تعجز عن ضمان تطور البشرية التقدمى السلمى . وقد تآزمت تناقضاتها الاجتماعية الى اقصى درجة . وشهدت روسيا التى كانت الحلقة الاكثر ضعفا فى منظومة الامبريالية قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ ، وابتدأ بناء الاشتراكية بقيادة الطبقة العاملة الثورية وطليعتها الحزب الشيوعى . وكانت هذه هى المرحلة الاولى من الازمة العامة للرأسمالية وانفراط عقد المنظومة الرأسمالية العالمية .

وبعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) التى اضرمت نارها اكثر الدول الامبريالية عدوانية ، وهى المانيا الفاشية وايطاليا واليابان العسكرية ، ابتدأت المرحلة الثانية من الازمة العامة للرأسمالية . فتجاوزت الاشتراكية حدود البلد الواحد: اذ اخذت تنشأ المنظومة الاشتراكية التى تضم جملة من دول اوربا وآسيا وامريكا اللاتينية . وبرزت فى نتيجة انهيار النظام الاستعمارى البلدان المتحررة التى راح بعض منها يسلك طريق التوجه الاشتراكى .

ان الرأسمالية المعاصرة تختلف اختلافا جوهريا عما كانت عليه فى اوائل واواسط القرن العشرين . ففى ظروف رأسمالية

الدولة الاحتكارية تزداد باطراد حدة النزاع بين القوى المنتجة التي نمت نموا عملاقا والعلاقات الانتاجية الرأسمالية . وهذا لا يعنى ، بالطبع ، توقف تطور القوى المنتجة ، ولاسيما والتقنية والتكنولوجيا الحديثة . على العكس ، ان فروع انتاجية كالبيوتكنولوجيا والالكترونيات والتكنولوجيا الفضائية والاعلامية تتطور بما يكفى من السرعة . فاين يكمن ، اذن ، هذا التناقض ؟ وكيف تتجلى نتائجه السلبية ؟ القضية هي ان الرأسمال الكبير يطور فى المقام الاول تلك الفروع التى تضمن الحصول على اقصى قدر من الارباح ، وقدرة عالية على المنافسة والسيطرة على السوق الداخلية والعالمية . ويعزى الى هذه الفروع بشكل رئيسى كل ما يساعد على عسكرة المجتمع ويعزز القدرة العسكرية للدول الرأسمالية . والاحتكارات الكبرى لا تراعى مصالح الكادحين فى بلدانها ، مثلما لا تراعى ايضا مصالح شعوب الاقطار النامية . وتؤدى اشاعة استعمال الكمبيوترات والروبوتات فى الانتاج تحت ظل النظام الرأسمالى الى نمو البطالة نموا منقطع النظير . وهذا ما تدل عليه بالذات تخمينات كبار الخبراء الغربيين .

وترتبط النتيجة السلبية الاخرى بكون وتائر تطور القوى المنتجة فى المجتمع الرأسمالى ، بصرف النظر عن بعض النمو الذى تشهده ، ابطأ كثيرا مما كان يمكن ان تكون عليه فى حالة قيام علاقات انتاجية تركز على الملكية الاجتماعية (العامة) . وترافق تطورها حالات هبوط متكررة وازمات دورية وبنىوية ونمو ديون الدولة والعجز فى الميزانية والتضخم المستمر . الى جانب ذلك يجرى تركيز وتدويل الرأسمال وتتقوى الاحتكارات فوق القومية (المتجاوزة لحدود بلدانها) التى تستغل الكادحين على الصعيد العالمى وتسيطر ليس على اقتصاد الاقطار النامية فحسب ، بل وعلى اقتصاد البلدان الرأسمالية المتطورة . لقد كان بالامكان توظيف الثروات الهائلة ومنجزات العلم والتقنية التى حققها المجتمع العصرى لاجل احقاق العدالة الاجتماعية والقضاء على الفقر وتقديم العون للشعوب والبلدان التى تخلفت فى تطورها بحكم اسباب

تاريخية شتى . بيد ان القيام بذلك فى ظروف الرأسمالية امر متعذر .

ويحاول زعماء المجتمع الرأسمالى المعاصر تخفيف حدة هذه التناقضات وتبعاتها السلبية عن طريق اللجوء الى مختلف المناورات الاقتصادية والسياسية . غير ان حل التناقضات التناحرية (٤٠٦) العميقة للنظام الرأسمالى المعاصر يقتضى تطبيق تحويلات اجتماعية عميقة .

٢٢١

التشكيلة الشيوعية . ان كل تشكيلة اقتصادية اجتماعية جديدة هى نتيجة سنن تاريخية موضوعية . بهذا المعنى تحل التشكيلة الشيوعية بنفس القدر من الضرورة التى حلت بها كل التشكيلات السالفة . بيد ان ظهورها يتسم بخاصية مميزة مهمة وهى انه عبارة عن عملية واعية . وهذا لا يعنى ان الوجود الاجتماعى (٢١٠) يفقد دوره الحاسم . فبحكم طابع المجتمع الجديد واختلافه الجذرى عن كل ما سبقه من مجتمعات ، يغدو اهم شرط لقيامه هو ربط الشيوعية العلمية التى تكشف عن القوانين الموضوعية لتطور المجتمع وسبل تغييره بالحركة الثورية للطبقة العاملة والجماهير الكادحة . ويشكل تطبيق هذا الشرط مضمون نشاط الاحزاب الشيوعية والعمالية .

فكيف تنشأ التشكيلة الشيوعية وتتطور ؟ ردا على هذا السؤال ، نوه مؤسسو الماركسية اللينينية بان هذه التشكيلة تمر عبر طورين اساسيين .

الطور الاول هو الاشتراكية . يبرز هذا الطور من التشكيلة الجديدة وينشأ فى نتيجة الثورة الاشتراكية .

ومع انتصار الثورة الاشتراكية تنشأ لأول مرة فى التاريخ دولة الكادحين ، اى دكتاتورية البروليتاريا (٢٠٧) . ويقمع المستغلين المدحورين تركز دكتاتورية البروليتاريا جهودها الاساسية على البناء المبرمج والهادف للبناء التحتى والبناء الفوقى الاشتراكى .

يمر الطور الاول من التشكيلة الشيوعية فى تطوره عبر جملة من المراحل التى تحددها الخصائص التاريخية الملموسة

واصطفاف وتناسب القوى الطبقيّة داخل البلد وخارجه والتقاليد القومية والثقافية .

وقد اشار لينين في هذا الصدد الى ان هناك سبلا واشكالا مختلفة لبناء الاشتراكية في مختلف المناطق والبلدان . الى جانب ذلك يجب على المرء ان يرى وراء الخصائص والمواصفات الفردية القوانين العامة لهذه العملية (٢٠٧) ، ٢١٢-٢١٥) .

ويعزى الى هذه القوانين بالدرجة الاولى ما يلي : قيام سلطة الكادحين في ظل الدور القيادي للطبقة العاملة ، الدور القيادي للحزب الشيوعي والعمالية في تطور المجتمع ، تكريس الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج وتطور الاقتصاد لصالح الشعب ، تطبيق مبدأ «من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله» ، تطور الديمقراطية الاشتراكية ، مساواة وصداقة الامم والشعوب كافة ، حماية الوطن الاشتراكي من الاعداء الطبقيين .

وفي فترة بناء الاشتراكية ينمو نمووا حادا دور العامل الذاتي ، اي الوعي الاشتراكي والايديولوجيا الماركسيّة اللينينية والعمل التربوي . ولذلك يتعزز دور الحزب الشيوعي والعمالية (٦٠٥) القيادي التنظيمي التعبوي .

والاشتراكية هي المجتمع الذي يطبق فيه مبدأ «كل شيء لخير الانسان وكل شيء لاجل الانسان» . وفي هذا المجتمع : - تعتبر وسائل الانتاج ملكا للشعب ، فقد تم القضاء على الاستغلال والاضطهاد والتباين الاقتصادي والاجتماعي . - تنفتح آفاق رحبة لتطور القوى المنتجة السريع ، ويضمن التقدم العلمي التقني رفعا مطردا لرفاهية الشعب بأسره .

- يجري تأمين الحق المتكافئ* للجميع في العمل والاثابة العادلة عنه .

- يترسخ التحالف الذي لا ينقسم بين الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين والمثقفين .

- يجري تأمين المساواة في الحقوق بين الامم والشعوب

كافة ، وبين الرجال والنساء ، وضمان مستقبل امين لجيل الشباب والضمان الاجتماعى للعاملين المسنين ،
- تتطور الديمقراطية الحقيقية وتضمن المشاركة الواسعة للمواطنين فى ادارة الشؤون الانتاجية والاجتماعية وشؤون الدولة .

- تطبق حقوق الانسان بالكامل وتسرى نفس القوانين واصول الاخلاق والضوابط على الجميع وعلى كل فرد .
- تسود الايديولوجيا الماركسية اللينينية الانسانية الحقة ويشيد ويتطور صرح العلم والثقافة التقدميين .
- ينشأ نمط حياة اشتراكى يقوم على العدالة الاجتماعية والروح الجماعية والتعاضد الرفاقى .

يستدل من تجربة الاتحاد السوفييتى ان المجتمع ذا التوجه الاشتراكى يستطيع خلال مواعيد تاريخية قصيرة ان يتخطى التخلف ويقيم قاعدة صناعية تقنية جبارة ويشيد صرح علم عصرى ويحظى بهيبة دولية كبيرة . الى جانب ذلك تظهر هذه التجربة اى دور عملاق فى الحياة الاجتماعية يلعبه العامل الذاتى الذى يمكن ان يكون دوره ايجابيا ، كما يمكن ان يكون سلبيا . على سبيل المثال ، ادت الاخطاء الذاتية التى ارتكبتها ستالين وانصاره الى نقل الاساليب الادارية القائمة على الاوامر والتى نشأت ابان الحرب الاهلية التى اعقبت ثورة اكتوبر الاشتراكية ، وعلى الضد من توجيهات لينين ، الى الصناعة والزراعة ومجال التنمية الاجتماعية خلال الثلاثينات والاربعينات . وقد افضى ذلك الى عمليات قمع جماعية وخروق للقوانين الاشتراكية والاستعاضة عن الديمقراطية الاشتراكية باساليب متسلطة فى القيادة ، والى التخلل عن العلنية ، والى انخفاض شديد فى روح المبادرة والفعالية لدى الجماهير الشعبية الواسعة . وبرغم الانتصار فى الحرب العالمية الثانية واعمار الاقتصاد الوطنى بشكل ناجح ، انعكست هذه الاخطاء على العقود التالية واسفرت عن حالة ركود فى الاقتصاد ، مما جعل البلد مشرفا على ازمة . واتاح ادراك اسباب هذه الظواهر السلبية الفرصة امام القيادة السوفيتية فى

اواسط الثمانينات لطرح برنامج التفكير الجديد واعلان ايديولوجيا التجديد . ويتمثل جوهر هذه الايديولوجيا في مطلب تطبيق البيريسترويك (عملية التغيير) الثورية من حيث الجوهر بحيث تشمل كل ميادين الحياة الاجتماعية بغية جعل الواقع الاجتماعى مسايرا لمبادئ الاشتراكية ، وتأمين اوسع قدر من الغلاسنوست (العلنية) عند مناقشة كل المسائل المهمة اجتماعيا ، وتعزيز الديمقراطية الاشتراكية والمبادئ الانسانية .

وينشأ **الطور الثانى من التشكيلة الشيوعية** عندما تتم اقامة القاعدة المادية التقنية للشيوعية وما يناسبها من اشكال تنظيم الحياة الاجتماعية والوعى . فالشيوعية نظام اجتماعى لاطبقى ذو ملكية شعبية عامة واحدة لوسائل الانتاج ومساواة اجتماعية تامة بين اعضاء المجتمع . وهى مجتمع رفيع التنظيم لكادحين احرار وواعين ، سوف تترسخ فيه الادارة الذاتية الاجتماعية ، ويغدو العمل لما فيه خير المجتمع الحاجة الحياتية الاولى . وهو يتطلب توفير قوى منتجة تفتح آفاقا رحبة لتلبية الاحتياجات المعقولة للمجتمع والفرد تلبية تامة . وسيقوم بمجمل النشاط الانتاجى على استخدام التقنية والتكنولوجيا العالية الفعالية ، كما سيؤمن التفاعل المنسجم بين الانسان والطبيعة . وسيكون مبدأ النشاط والانتاج وتوزيع الخيرات المادية فى هذا الطور هو «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته» . ان الانتقال الى الشيوعية عملية معقدة وطويلة يجب ان يتم خلالها تحقيق انتاجية عمل ارفع كثيرا بالمقارنة مع الرأسمالية ، واقامة مجتمع متجانس اجتماعيا ، وتنفيذ تغييرات عميقة فى المستوى المعنوى والثقافى لكل فرد وللمجتمع عموما .

٢٢٢

مقولة «التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية» والواقع التاريخى .
يتعرض التعليم المتعلق بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية وبالطابع الموضوعى لنشوتها وتطورها وتعاقبها عبر الثورات الاجتماعية لهجمات ضارية يشنها خصوم المادية التاريخية .

فهم يزعمون انه كانت فى العالم ولا تزال ماثت من انظمة المجتمعات والدول يتعذر حصرها فى اطر التشكيلات الخمس المتعاقبة . والنظرية الماركسية من وجهة نظرهم ، تبسط الواقع التاريخى المعقد والمتنوع . فالمجتمع الصينى القروسطى يختلف من حيث اللغة والثقافة ونظام السلطة والتقاليد اختلافا شديدا عن دول اوربا القروسطية . وتطور الرأسمالية فى فرنسا عشية الثورة البرجوازية فى القرن الثامن عشر يختلف اختلافا جوهريا عن تطور الرأسمالية فى روسيا عشية ثورة عام ١٩٠٥ او ثورة عام ١٩١٧ الاشتراكية . لذا فان التعليم المتعلق بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية لا يفى ، على حد زعمهم ، بمقتضيات الواقع التاريخى . عدا عن ذلك ، يصر مؤدجوا البرجوازية على القول بأن ليس جميع المجتمعات والبلدان والشعوب تمر عبر كل مرحلة من مراحل تطور التشكيلات الخمس المتعاقبة ، وهذا يعنى فى رأيهم ان قانون تعاقب التشكيلات التاريخية لا يعكس الضرورة التاريخية ، بل له - فى افضل الحالات - اهمية محدودة بالنسبة لعدد قليل من البلدان المتطورة .

تقوم هذه الاعتراضات على الجهل التام بالصلة الجدلية بين العام والخاص والفردى (٢١٢ ، ٢١٣) . فبمقارنة تطور الرأسمالية فى فرنسا القرن الثامن عشر وفى روسيا اوائل القرن العشرين يتسنى لنا تشخيص سمات عامة هى وجود طريقة الانتاج الرأسمالية المشتركة .

وبامكاننا فى الوقت ذاته تشخيص الخصائص ايضا . فالمقصود فى الحالة الاولى هو نشوء التشكيلة الرأسمالية والاضاع فى عشية الثورة البرجوازية والانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية . اما المقصود فى الحالة الثانية فهو الامبريالية ، اى مرحلة تعفن التشكيلة الرأسمالية ، والثورة الاشتراكية ، رمز الانتقال الى التشكيلة الشيوعية . هذه الفوارق بحد ذاتها لا تكتسب ، على هذا النحو ، مغزى واهمية الا كمراحل فى تطور تشكيلات معينة . وعلى غرار ذلك بالضبط ، وبصرف النظر عن كل الفوارق مثلا بين تاريخ

القرون الوسيطة الصينى والاوربى ، تلك الفوارق التى تتجلى فى نظام الدولة وخصائص التدبير الاقتصادى والثقافة ، نستطيع ان نحدد بهذا القدر او ذاك من الدقة تاريخ تطور العلاقات الاقتصادية الاجتماعية المتشابهة من حيث الجوهر ، وبالتالى عائديتها ايضا الى نفس التشكيلة القطاعية . على هذا النحو يتجلى بطلان حجج خصوم المادية التاريخية .

ولننظر الان فى مسألة تعاقب تطور التشكيلات فى كل بلد . ان المادية التاريخية لا تقول بتاتا بان كل البلدان والشعوب يجب ان تمر على التوالى عبر كل مراحل تعاقب ونشوء التشكيلات . فهذا الادعاء لا يتصف به الا الدوغمائيون ، وهو يتعارض مع الجدلية الماركسية . ان المادية التاريخية تؤكد فقط ان التاريخ العالمى ، اى تطور البشرية جمعا ، يجرى عبر التعاقب الثابت والمحكوم بالقوانين الموضوعية للتشكيلات المشاعية البدائية ، العبودية ، القطاعية ، الرأسمالية فالشيوعية . ولئن تسنى للبلدان والشعوب الاكثر تطورا ان تجسد التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية المعنية فى نشاطها الاجتماعى وانتقلت ، مثلا ، الى المرحلة التالية ، الارقى ، من التطور ، فان بإمكان الشعوب التى تأخرت فى تطورها ، ان «تتخطى» بعض المراتب ، وان تثب بمساعدة الدول الاكثر تطورا الى مستوى هذه الدول . فما هى آلية هذا «الوثوب» ؟ خلاصة القول ان البلدان والشعوب المختلفة بتقاليدها الثقافية والتاريخية ليست منظومات مغلقة ومعزولة . فهى ترتبط مع سواها من المجتمعات ، بما فيها الاكثر تطورا ، بروابط اقتصادية وسياسية وتكنولوجية وثقافية . وبفضل ذلك يتسنى لها الانتفاع من التجربة التاريخية للبلدان الاكثر تطورا ، ومن منجزاتها التقنية والاقتصادية والثقافية والسياسية ، وفى حالة تقديم عون مناسب لها تستطيع تنفيذ تطورها التاريخى بوتائر اسرع . على سبيل المثال ، تمكنت جمهورية منغوليا الشعبية التى كانت فى مستهل القرن الحالى تحيا فى مرحلة النظام القبلى القطاعى المختلط من تخطى مرحلة الرأسمالية والشروع فى بناء المجتمع الاشتراكى بفضل

العون والمساعدة الاخوية التى قدمها لها الاتحاد السوفييتى .
ان طريق التطور هذا يعتبر ممكنا ايضا بالنسبة للبلدان
ال اخرى التى تخلفت فى تطورها - والتى تحررت مؤخرا من
السيطرة والاستغلال الاستعماري . وعلى هذا النحو نجد ان
التعليم عن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية هو الذى يشكل
الاساس النظرى لتخطى التخلف والصعاب الماثلة امام هذه
البلدان .

بعد تناول القوانين العامة لنشوء التشكيلات الاقتصادية
الاجتماعية وتطورها وادائها لوظائفها وتعاقبها ، نستطيع الآن
ان نتناول بالبحث الوظائف والاشكال الاساسية للوعى
الاجتماعى .

وظائف واشكال الوعى الاجتماعى

٢٢٣

الوعى الاجتماعى وتطور المجتمع . الوعى الاجتماعى لا يتحدد
بالوجود الاجتماعى فحسب ، بل ويؤثر هو نفسه تأثيرا فعلا
فى حياة المجتمع (٢١٠ ، ٢١١) . وتختلف فاعلية الوعى
الاجتماعى باختلاف العصور التاريخية . وتنمى هذه الفاعلية
مع تطور المجتمع . فما هو سبب ذلك ؟ القضية هى ان
التغيرات فى الوجود الاجتماعى وظروف الحياة تتبعها تغيرات
فى الوعى الاجتماعى : يزداد حجم المعارف وتتعمق النظرة
الى العالم ، ويتراكم حجم هائل من المعلومات ومن مراس
توظيف المعارف لحل مختلف المشاكل الاجتماعية ، وتعمق
تجربة البشر التاريخية .

ومع نشوء المجتمع الاشتراكى يتنامى دور الوعى
الاجتماعى اكثر فاكثرا . ويتطلب تنفيذ التحويل المبرمج
للمجتمع وتحقيق التوافق التام بين العلاقات الانتاجية وطبيعة
القوى المنتجة وانماء البناء الفوقى الاشتراكى العمل باستمرار
على اعلاء مستوى وعى كل فرد ومستوى وعى المجتمع
الاشتراكى عموما . بيد ان تغير الوعى عملية معقدة جدا .
فالوعى الفردى والاجتماعى بنيتان معقدتان تتسمان ببعض

الاستقرار والنزوع المحافظ . ويستغرق تغييرهما احيانا عشرات بل وحتى مئات السنين . ففي فترات التاريخ الانعطافية الحادة ، عندما يتطلب الامر اعادة استيعاء ثورية جذرية للوضع القائم واعادة تقويمه ، وتغيير القيم الاخلاقية والاجتماعية والجمالية داخل الوعي ، ولاسيما الاجتماعى ، تبرز تناقضات حادة وتتصادم الآليات المحافظة والثورية . أن البشر مخلوقات معقدة غير وحيدة المدلول . والذي يتحكم بسلوكهم هو ليس فقط الاهداف والاصول العقلانية ، بل ومختلف الاهواء الخفية والرغبات والاحكام والترسبات والحالات النفسية المعقدة التي تثير انفعالات وامزجة متناقضة ، كالخوف أو الفرح ، والحماسة أو التشاؤم ، والايمان المتفانى أو فقدان الايمان ، الشعور باليأس أو الطمأنينة التامة . ولجل تغيير الوعي الاجتماعى بشكل هادف ومدرّوس ، وتكوين وتنشئة موقف واع وفعال من العضلات الاجتماعية الملتهبة والحرص على حلها لصالح المجتمع ، لا بد من تحليل فلسفى عميق لجوهر وبنية الوعي الاجتماعى ووظائفه وروابطه مع الوعي الفردى ، الشخصانى .

يتجلى الوعي الاجتماعى فى مختلف العصور التاريخية باشكال مختلفة . فعندما نتناول تاريخ البشرية نجد تنوعا عظيما من مختلف التعاليم الدينية وانواع النشاط السياسى والفنى ، والاصول القانونية والخلقية على قدر كبير من التباين . واستنادا الى هذه الحقيقة يدعى المثاليون أن الوعي الاجتماعى ونشاط البشر الروحى لا يخضعان لاىما سنن عامة ، ويستعصيان على البحث العلمى الموضوعى . وهم يصرون على أن ليس هناك اىما صلة او ترابط موضوعى بين تطور الوجود الاجتماعى والتجليات المتنوعة للوعي الاجتماعى . ولكن حتى فى هذه المسألة لا تصمد طروحاتهم امام النقد . فجدلية العام والخاص والفردى (٢١٢) تساعدنا فى هذه الحالة ايضا على دحض المثالية . انها تظهر لنا أن بالامكان ، رغم كل تنوع تجليات الوعي الاجتماعى الملموسة ، تشخيص اشكاله الاساسية وفهم ماهية الدور الذى تمارسه هذه الاشكال ،

وماهية وظائفها في تطور المجتمع وفي نشاطه الحيوى . أن أهم وأعم أشكال الوعي الاجتماعى هى : السياسى ، الخلقى ، الحقوقى ، الفنى ، الدينى ، الفلسفى ، العلمى . وسنتناول هنا كل أشكال الوعي هذه باستثناء الوعى الفلسفى الذى تحدثنا عنه فى المدخل والوعى العلمى الذى سيأتى الحديث عنه فى الفصل الخامس . ولأجل أن نفهم صحيحا بنية ووظائف مختلف أشكال الوعي الاجتماعى ، لا بد لنا من استيضاح صلتها بالايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية .

٢٢٤

الايديولوجيا فى منظومة الوعي الاجتماعى . تشكّل
الايديولوجيا التى تعبر عن مصالح طبقات معينة من المجتمع وتبرر اهدافها الطبقيّة مستوى متميزا من الوعي الاجتماعى (٠٠٥) . وبما أن السائد فى المجتمع الطبقي هو ايدىولوجيا الطبقات المسيطرة ، فهى تتخلّص وتحدد مضمون اشكال الوعي الاجتماعى كافة . ومن الاهمية بمكان أن نفهم خلال ذلك أن ايدىولوجيا الطبقات المسيطرة فى جميع التشكيلات السابقة للشيعوية تعطى انعكاسا شائها للوعي الاجتماعى ، ذلك أن الطبقات المستغلة معنية بابقاء وضعها الى الابد . وهى تسعى الى تصوير هذا الوضع كما لو كان راسخا ومنزّلا من السماء وموافقا لطبيعة الانسان بحد ذاتها . لذا نراها تسخر لهذا الغرض الدين والاخلاق والفن والسياسة على السواء .

وفى مجرى الصراع الطبقيّ تكون طبقات المجتمع المستغلة هى الاخرى وعبها الطبقي وايدىولوجيتها ومنظومة تقويماتها وفهمها للتطور الاجتماعى . بيد أن الكادحين كانوا حتى نشوء البروليتاريا الصناعية عاجزين عن وضع ايدىولوجيا علمية لهم وفهم صحيح وعميق للمجتمع . ولم تكن ايدىولوجيتهم ثورية على طول الخط . ففى مسعاهم للتحرر من شكل معين من الاستغلال كالعبودية أو الرق ، مثلا ، لم يكن لديهم طموح الى الغاء استغلال الانسان للانسان بوجه عام . كما لم تكن تتوفر لأجل ذلك ظروف تاريخية موضوعية .

لهذا تمخضت ايدولوجيتهم عن الكثير من التصورات المغلوطة والشائنة والخيالية عن الحياة ، وبذا ساعدت على ترسيخ الازواج القائمة خلافا لارادة الكادحين انفسهم . ولا يتغير الوضع جذريا الا بظهور الطبقة العاملة . فالبروليتاريا ، كونها اول طبقة في التاريخ كله ، قادرة موضوعيا على تصفية كل اشكال الاستغلال ، وعلى اقامة المجتمع اللاتبقى ، ولا تسعى لبقاء الازواج القائمة الى الابد ، تطمح الى فهم صحيح للتطور التاريخي . لهذا يقوم مؤدلجوها لاول مرة في التاريخ بوضع وتطوير ايدولوجيا علمية ، أى حقيقية صادقة . ومع انتصار الاشتراكية تشرع هذه الايدولوجيا فى التعبير لا عن آراء وتعاليم ونظريات طبقة واحدة معينة ، بل المجتمع عموما . وبما أن الايدولوجيا الماركسية اللينينية التى تعكس مصالح الطبقة العاملة ومعظم البشر ، وتعارض مبدئيا مع الايدولوجيا البرجوازية ، فإن الصراع الايدولوجي الذى لا تهادن فيه يعتبر قانونا موضوعيا يتجلى فى جميع اشكال الوعى الاجتماعى .

يطرح مؤدلجو البرجوازية المعاصرة نظريات مختلفة يسعىون بواسطتها الى طمس تعارض الايدولوجيا العلمية ، الماركسية اللينينية ، والايدولوجيا اللاعلمية ، البرجوازية . ويدعى انصار نظرية الغاء الادلجة (نزع الايدولوجيا) أن الايدولوجيا ، ايا كانت ، لا حاجة لها ولا يمكن أن يكون لها وجود فى المجتمع المعاصر عموما . فهى ، فى مزاعمهم ، تخلى مكانها للعلم والمعارف التقنية التى يمكن بواسطتها حل كل المشاكل الماثلة امام البشرية . غير أن الواقع يدحض مثل هذه الادعاءات . فنحن نجد نفس المنجزات التقنية تسفر فى ظل مختلف الانظمة الاجتماعية عن نتائج مختلفة (٣١٢) . فتوظيف العلم بحد ذاته ، كذلك دوره فى حياة المجتمع تحددهما فى الكثير احكام ايدولوجية مختلفة . وقد ارغم انهيار نظرية الغاء الادلجة مؤدلجى البرجوازية على طرح نظرية اخرى هى نظرية اعادة الادلجة . ويؤكد انصارها بشتى السبل ضرورة وضع ايدولوجيا واحدة وعامة للبشرية جمعاء .

والمقصود في الواقع هو وضع ايديولوجيا برجوازية واحدة يراد لها أن تحل محل جمع غفير من التيارات المختلفة الموجودة ضمن اطار الايديولوجيا البرجوازية والمتنافسة فيما بينها . وترمي اعادة الادلجة ، شأنها شأن الغاء الادلجة ، في التحصيل الاخير الى الوقوف في وجه الماركسية اللينينية . لذا ينبغي عند تحليل اشكال الوعي الاجتماعي ، ايا كانت ، أن نتذكر باستمرار انها تعتبر حلبة صراع ايديولوجي عنيف . وفي هذا الصراع يتمثل دور الفلسفة الماركسية اللينينية في فضح وتعرية الايديولوجيا البرجوازية نظريا ، مهما ارتدت من لبوس او مظاهر .

٢٢٥

السيكولوجيا الاجتماعية ، الوعي العادي . يجري وضع الايديولوجيا لا من قبل اعضاء المجتمع كافة ، بل من قبل مجموعة خاصة من البشر هي المؤدلجون الذين يقومون بتنفيذ «طلبية اجتماعية» لطبقة معينة . ولكن من أين يستمد المؤدلجون مادتهم الاولى - ان جاز التعبير - وقناعاتهم وتصوراتهم الاولى عن المجتمع والانسان وما الى ذلك ؟ هذه «المادة» تقدمها لهم السيكولوجيا الاجتماعية ، أي الوعي العادي . ففي المجتمع المعاصر ثمة اسهام مهم في تكوين الايديولوجيا يقدمه العلم ، وبالدرجة الاولى تلك الفروع منه التي تزاوّل دراسة المجتمع . لهذا يحظى الترابط بين العلم والايديولوجيا باهتمام خاص لدى الفلسفة الماركسية اللينينية (٥١٥ ، ٠٠٥) .

والسيكولوجيا الاجتماعية هي مجموع الامزجة والمعاناة والانفعالات والآراء التي تنشأ لدى مختلف الفئات الاجتماعية في مجرى نشاطها العيوى المباشر : في العمل ، في الصراع السياسى ، في الاختلاط ، الخ . وهي عبارة عن شكل مباشر لانعكاس الوجود الاجتماعى بصورة عفوية .

أن كل عضو من اعضاء المجتمع ينتمى في آن واحد الى فئات اجتماعية مختلفة كالاسرة وفريق العاملين الانتاجى والمنظمتين النقابية والحزبية والفريق الرياضى ، الخ . وفي

جميع انواع النشاط الفئوى يدخل الناس فى علاقات مختلفة فيما بينهم . وفى نتيجة ذلك تنشأ «سبيكة» معقدة ، «ضفيرة» من التقويمات والامزجة الاجتماعية . فبعضها غير مستقر نسبيا كأمزجة هواة كرة القدم ، وبعضها الآخر أكثر استقرارا . والمثال على الامزجة الاجتماعية المستقرة فى البلدان الرأسمالية هو الخوف الدائم أمام التقنية والتكنولوجيا الجديدة ، وشيوع استخدام الكمبيوترات والروبوتات فى الانتاج . ومما يثير هذا الخوف هو أن المواطنين يخشون فقدان العمل والانضمام الى جيش «الفائضين عن اللزوم» . ونالت المعاناة الناجمة عن الطريقة الرأسمالية فى اعتماد واستثمار التكنولوجيا الاعلامية الجديدة تسمية سيكولوجية خاصة هى «الصدمة التقنية» .

وهناك ايضا أمزجة اجتماعية ايجابية ، يعزى اليها ، مثلا ، مزاج المد الثورى الذى ينشأ لدى المشاركين فى الحركات الثورية الطافرة ، كالثورة الفرنسية العظمى فى القرن الثامن عشر ، وثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا ، أو النضال الوطنى التحررى والمناهض للاستعمار ، الذى تخوضه الآن شعوب طائفة من البلدان . وتعكس هذه الامزجة الاجتماعية مباشرة التغيرات الجارية فى الوجود الاجتماعى ذاته . وترتهن السيكولوجيا الاجتماعية فى الكثير ايضا بالماضى التاريخى للشعب المعنى . ويتجلى ذلك فى السيكولوجيا القومية التى هى عبارة عن انعكاس مستقر نسبيا للطريق التاريخى الملموس لتطور وصيرورة الامة او الشعب المعنى . وتتبدى خصائص السيكولوجيا القومية باوضح صورة فى الثقافة الروحية واللغة والفن التشكيلى ، فى نظام المعيشة والتقاليد القومية والعادات والاذواق وهلمجرا . ولكن لا ينبغي تضخيم وتغليب العناصر القومية فى السيكولوجيا الاجتماعية . ففى التحصيل الاخير ترتهن الصورة السيكولوجية لهذا الشعب او ذاك ، وملامح طابعه القومى ومجمل حياته الروحية بخصائص التطور الاجتماعى ، وبمكانة البلد المعنى ، وبالنزعات المستقرة فى النشاط الحيوى لهذا الشعب او

ذاك . على سبيل المثال ، أن السيكولوجيا القومية للشعب الروسى ولغته وثقافته لم تتعرض قبل ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ وعلى اثرها مباشرة لتغير حاد ، ولكن بعض السمات المهمة لطابعه السيكولوجى الاجتماعى ، كالسلبية والانسحاق والتخلف وانخفاض مستوى الثقافة والاطلاع ، مما كانت سلطة العقارين والرأسماليين فى روسيا ما قبل الثورة تحرص على بقاءه وديمومته ، تبدد ليحل محله نمو فى الوعى والنشاط الاجتماعى وارتفاع المستوى الثقافى الحديث وما الى ذلك . أن مثل هذه الامثلة تدل على ان بعض السمات المستقرة التى تلازم سيكولوجيا وثقافة قومية معينة ، يحددها فى التحصيل الاخير المضمون الموضوعى للعملية التاريخية وظروف حياة المجتمع والاحداث الكبرى التى تؤثر فى المصائر التاريخية للشعوب . ويستدل من ذلك بوضوح تام أن مضمون السيكولوجيا الاجتماعية يتغير مع تطور الوجود الاجتماعى .

أن مستوى الوعى الاجتماعى الاكثر اتقافا يشكل ما يسمى بالوعى العادى او «التفكير السليم» . ويتكون الوعى العادى فى سياق استيعاب الظواهر التى يصطدم بها الانسان فى معيشته وحياته اليومية . وهو نادرا ما يقدم تفسيراً لمثل هذه الظواهر ، ويقتصر على ادخار تجربة يومية معينة . وعلى صعيد الوعى العادى تتكون قواعد السلوك اليومى والاختلاط بين البشر . بيد أن الوعى العادى لا يستطيع تقديم تفسير وفهم علمى عميق للظواهر الاجتماعية . فهو محافظ نسبياً ويتغير تغيراً ابطأ من طوابق الوعى الاجتماعى «العليا» . هنا يتجلى باكبر قدر من الوضوح الفارق بين الوعى العادى والاستيعاء النظرى للوجود الاجتماعى ، أى الاستيعاء الذى يتكون على الصعيد الايديولوجى .

فى سياق التطور التاريخى ينشأ تفاعل معقد بين الايديولوجيا ومختلف مستويات السيكولوجيا الاجتماعية والوعى العادى . فمن جهة تستمد الايديولوجيا منها مضمونها الفعلى . ومن جهة اخرى تؤثر فيها عبر الدعاية ووسائل الاعلام

الجماهيرى . وترتهن التغيرات فى السيكولوجيا الاجتماعية وفى الوعى العادى فى الكثير من النواحي بهوية الايديولوجيا التى تؤثر فيها تأثيرا طائغيا . وتتجسد الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية فى اشكال شتى ، وهذا أمر تنبغى مراعاته باستمرار عند بحث خصائص الوعى الاجتماعى .

٢٢٦

الوعى السياسى والسياسة . يعتبر الوعى السياسى فى المجتمع الطبقي الشكل الاهم والاكثر انتشارا للوعى الاجتماعى . فالصحف والاذاعة والتلفزيون تهيل على الانسان المعاصر سيولا من الاعلام السياسى . فنراه يناقش الاحداث السياسية فى البيت ومقر العمل ، ويشارك شخصا فى الحياة السياسية . فما هى السياسة والوعى السياسى ؟

السياسة هى النوع الاكثر اهمية من انواع النشاط البشرى لارتباطه بالمصالح الاقتصادية الجذرية للطبقات والفئات الاجتماعية . وابرز مهمة للسياسة ، ايا كانت ، هى اقامة سلطة الدولة والاحتفاظ بها وتوظيفها لخدمة مصالح طبقة معينة . ويبلغ النشاط السياسى اقصى مدى من الحدة ابان الثورات الاجتماعية . اذ أن اهم وابرز عنصر بنيوى لهذه الثورات هو الثورة السياسية التى تشكل سلطة الدولة (٢١٥ ، ٢٠٧) مسألتها الرئيسية . ويجرى فى خضم النشاط السياسى حل اعرق تناقضات العصر المعنى . ولهذا السبب بالذات يهتم الناس هذا الاهتمام الكبير بمناقشة المشاكل والاحداث السياسية .

من المعتاد تمييز شطرين للسياسة - داخلية وخارجية . فالسياسة الداخلية عبارة عن مجموع الاجراءات المختلفة التى تطبقها داخل البلد الدولة والاحزاب السياسية التى تتولى السلطة لصالح الطبقة المسيطرة . وهى تشمل الادارة والتمويل واخماد مقاومة الطبقات المستغلة وحفظ النظام العام وما الى ذلك . وبما أن حياة المجتمع المعاصر الداخلية معقدة جدا ، فغالبا ما تكتسب السياسة الداخلية «صبغة متشعبة» . اذ يجرى وضع وتطبيق سياسة زراعية واجتماعية

وعلمية ودفاعية وهلمجرا . اما السياسة الخارجية فتشمل مجموع التدابير الرامية الى الدفاع عن مصالح الدولة المعنية ازاء الدول الاخرى . وتترابط السياسة الخارجية والداخلية ترابطا وثيقا ، وتحدداهما على الدوام الطبيعة التطبيقية للمجتمع المعنى . وتدخل السياسة ، كونها نوعا متميزا من النشاط ، وكذلك المؤسسات الاجتماعية العاملة على تطبيقها كالدولة والحزب فى تركيبة البناء الفوقى . وبما أن السياسة نشاط واع وهادف ، فثمة شكل متميز مناسب لها من الوعى الاجتماعى ، وهو يسمى بالوعى السياسى .

والوعى السياسى عبارة عن انعكاس لبنية المجتمع التطبيقية الموضوعية وما يتسم به من انواع النشاط السياسى ، وكذلك ما يناسبه من الدوائر السياسية . الى جانب ذلك يعتبر هذا الوعى نسقا من النظريات والآراء والتعاليم والاحكام والاساليب السياسية التى يجرى بواسطتها تحليل المهام والمصالح السياسية للطبقة المعنية واحزابها ودولتها ، اذا كانت هى الطبقة المسيطرة . ويعلل الوعى السياسى تنفيذ المهمات الاستراتيجية وتكتيك الصراع السياسى للطبقة المعنية . وهذا ما تتجلى فيه بوضوح صلة السياسة بالايديولوجيا ، تلك الصلة التى تكشف عن الاهداف والاساليب والاحكام السياسية الاساسية .

ويتصف الوعى السياسى للمجتمع البرجوازى المعاصر بتناقضات عميقة . فهو يعكس ليس التناقضات التطبيقية الاساسية بين العمل والرأسمال فحسب ، بل والمصالح المتناقضة لمختلف الاحتكارات الرأسمالية والتكتلات الامبريالية والدول المنفردة . والتناقض فى السياسة الخارجية والداخلية سمة مميزة للمجتمع الرأسمالى فى فترة أزمته العامة (٢٢٠) . فهو يقوض استقرار الوضع الداخلى والخارجى ، ويولد انعدام الثقة والروح العدوانية على صعيد السياسة الخارجية .

أن المجتمع الاشتراكى ليس فيه طبقات وتناقضات تناحرية (٤٠٦) . والسياسة فيه عبارة عن نشاط يتعلق بتعزيز التعاون الطبقي والتقارب بين المصالح التطبيقية وبلوغ الاهداف

الاقتصادية الاجتماعية العامة . وبخلاف السياسة البرجوازية ، تركز السياسة الداخلية والخارجية في المجتمع الاشتراكي على الماركسية اللينينية باعتبارها اساسها الايديولوجي العلمي . وهذه السياسة يتميز بها المجتمع ذو التجانس الطبقي الاجتماعي المتنامي باطراد . وبحكم ذلك ليس ثمة تناقضات تستعصى على الحل في الوعي السياسي للمجتمع الاشتراكي . فمضمون السياسة واهدافها الاساسية تغدو مفتوحة امام اوسع الجماهير الشعبية فتتال دعما فعلا من قبل الشعب بأسره . على هذا النحو تغدو تنمية الوعي السياسي ونشر وتعميق المعارف السياسية أهم وسيلة لتعبئة الجماهير في سبيل تنفيذ المهام الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

مع بناء المجتمع الشيوعي واختفاء الدول الرأسمالية سوف تنتفي ايضا الضرورة الى النشاط السياسي والوعي السياسي . ولكن في فترة تنامي الاشتراكية يتنامى باستمرار دور الوعي السياسي والنشاط السياسي . ويجري ضمن اطار الوعي السياسي وضع وتعليل استراتيجية وتكتيك نشاط الحزب والدولة . وهما يشملان السياسة الاقتصادية والسياسة في مجال البناء الثقافي والسياسة العلمية والسياسة الدفاعية الرامية الى صيانة السلام وتعزيزه ، والى توطيد اركان الاسرة الاشتراكية ، الخ . وبحكم ذلك يؤثر الوعي السياسي تأثيرا شاملا في شتى انواع النشاط الاجتماعي الذي يزاوله المواطنون ، وفي اشكال الوعي الاجتماعي الاخرى على السواء .

٢٢٧

الوعي القانوني والقانون . يمارس الوعي القانوني والقانون دورا مهما في حياة المجتمع . فالبشر يتمسكون في حياتهم الاجتماعية بأصول وقواعد سلوك معينة ، تظهر تاريخيا وتتغير مع تطور المجتمع . ومع نشوء الطبقات تتكون منظومة متميزة من الاصول والقواعد (وكذلك العقوبات المترتبة على انتهاكها) ، تعود بالنفع على الطبقة المسيطرة وترتضيها الدولة وتصادق عليها . وهذه الاصول والقواعد تشكل

القانون . فالقانون ، اذن ، ليس ابديا ؛ ولا يظهر الا فى المجتمع الطبقي ، وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بنشاط الدولة ، وبالسياسة والصراع السياسى . فالقانون هو منظومة ما تقره الدولة من التشريعات المعبرة عن ارادة الطبقة المسيطرة فى المجتمع المعنى . ومع تطور كيان الدولة تظهر هيئات خاصة تقوم بوضع واصدار التشريعات (الهيئات التشريعية) ومتابعة تنفيذها (الادعاء العام) والمعاقبة على خرقها (المحاكم ، اجهزة حماية النظام) والحفاظ على النظام العام المقرر قانونيا . كل هذه الدوائر وما يرتبط بها من نشاط قانونى والقانون نفسه يعكسها ويدركها شكل خاص من اشكال الوعى الاجتماعى هو الوعى القانونى . ويضع الوعى القانونى مفاهيم معينة مثل «العدالة» ، «الشرعية» ، «النظام العام» ، «الجريمة» ، «العقاب» ، وكذلك مختلف الآراء والنظريات القانونية التى يجرى بمساعدتها تحليل ووضع الاصول القانونية والتشريعات ، طبقا للتصورات السائدة فى المجتمع المعنى عن العدالة والشرعية والنظام وما الى ذلك .

ويدخل الوعى القانونى والقانون والدوائر القانونية ضمن البناء الفوقى للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ذات العلاقة ، وهى تساعد على توطيد بنائها التحتى .

كان مؤدجو الطبقات المسيطرة يحاولون باستمرار تصوير القانون وكأنه أبدي لا يتزعزع . فقد كان طرف منهم يؤكد أن القانون يعبر عن الجوهر الثابت للانسان ، وطرف آخر يستند الى المنشأ الالهى للقانون ، والى هيبة الكتاب المقدس ، وطرف ثالث يرى فى القانون تعبيرا عن ارادة الشعب الثابتة والدائمة فى جميع الازمنة . فهل هذا صحيح يا ترى ؟

تجدر الاشارة قبل كل شيء الى أن الآراء المذكورة لا تنطبق مع الواقع الموضوعى والوقائع التاريخية . فمن المعروف ، مثلا ، أن العديد من الشعوب التى تأخرت فى تطورها التاريخى قد تحاشت التقسيم الطبقي . فلم يكن لديها سلطة دولة ، وبالتالى لم يكن لديها قانون ، بل كانت

فى حياتها اليومية تهتدى باصول الاخلاق والعادات والتقاليد . والمعروف ايضا أن التصور عن العدالة والشرعية وما الى ذلك، كان يتغير من عصر الى آخر . ففى المجتمع العبودى كانت تجارة العبيد تعتبر عملية عادلة وشرعية . لكن تجارة البشر فى المجتمع المعاصر تعتبر خرقا غاشما للقانون والعدالة . وكان القانون فى المجتمع الاقطاعى يرتدى طابع المـسراتب الاجتماعية . وكانت فدية قتل القن والفلاح الحر وساكن المدينة اقل من فدية قتل الاقطاعى . هكذا كان القانون الاقطاعى يدافع عن سلطة الملوك والوجهاء . اذن ، فالوعى القانونى والقانون ينشآن فى كل عصر تاريخى على قرابة وجود اجتماعى معين ويعكسانه ، وبفضل ذلك يتسنى لهما أن يؤثرا فيه تأثيرا عكسيا فعلا .

والسمة النمطية للقانون البرجوازى هى شكليته التى تتمثل فى أن القانون البرجوازى ، اذ يجاهر بالمساواة بين المواطنين كافة امام القانون وبحرية الاجتماع والتظاهر والتنقل وحرمة الفرد ، واذا يمنح لمعظم السكان حقوقا انتخابية وما شابه ذلك ، لا يضمن ولا يؤمن بشىء ما يجاهر به من «حقوق» و«حريات» . فاية مساواة فعلية بين المواطنين واية حرية واية حقوق للانسان فى المجتمع المنقسم الى فقراء واغنياء ، فى المجتمع الذى يضم ملايين من العاطلين والمشردين ؟ ! لهذا السبب بالذات يعتبر القانون البرجوازى ضيقا وشكليا . ولكن حتى هذا القانون المحدود فى ظروف الديمقراطية البرجوازية يمكن أن يستخدمه الكادحون للنضال فى سبيل مصالحهم ، ولتشكيل منظماتهم السياسية والنقابية العلنية . لهذا تسعى البرجوازية مع اشتداد الصراع الطبقي واحتدام الموقف الثورى الى فرض دكتاتورية عسكرية بوليسية فاشية الطراز ، متخلفة خلال ذلك عما تم بلوغه من مستوى الوعى القانونى والقانون الديمقراطى البرجوازى . وفى هذه الظروف يغدو النضال من اجل الحقوق الديمقراطية احدى ابرز مهام الطبقة العاملة والكادحين كافة .

مع ظهور المجتمع الاشتراكى يتغير طابع القانون والوعى

القانونى تغيرا جوهريا . اذ يوجه النشاط التشريعى بالدرجة الاولى نحو حماية الملكية الاشتراكية وصيانة النظام العام وحماية حقوق الفرد وكرامته وحرية واستقلاله . ولكن لا ينبغى الظن ان بلوغ الاهداف التى اعلنها النظام القانونى الجديد يجرى تلقائيا . فقيام العلاقات الاجتماعية الاشتراكية يعتبر عملية معقدة وطويلة ومتناقضة جدليا . والدليل على ذلك نجده فى الانتهاكات الخطيرة لحقوق الانسان خلال فترة حكم ستالين . ان انتهاكات حقوق الانسان والانحراف عن الشرعية الاشتراكية تشكل خطرا اجتماعيا كبيرا . ويعتبر ادراك هذه الحقيقة وفهم الاندماج العميق والتداخل التطبيقي بين المبادئ الاخلاقية والقانونية انجازا كبيرا للتفكير الجديد ودليلا على نضوجه وعمقه الفلسفى .

٢٢٨

الاخلاق كشكل للوعى الاجتماعى . يرتبط بالقانون والوعى القانونى ارتباطا وثيقا شكل آخر للوعى الاجتماعى هو الاخلاق . فما هى الاخلاق ؟

سألوا أى شخص هل يليق بالمرء ان يكذب أو يسرق أو يؤذى الضعفاء أو يدهن من هم اعلى منه مرتبة ؟ وسألوه هل تعتبر الخيانة والطفيلية من الافعال الحميدة ؟ وهل يرتضى الرياء والتكبر والجشع والحسد وما الى ذلك ؟ ان معظم البشر يعتبرون مثل هذه الاشكال من السلوك والتصرفات وسمات الطبع سلبية وضارة ومرفوضة رفضا باتا . وعلى العكس ، فحب العمل والنزاهة وحسن الطوية والمجاملة والكرم والمودة والوفاء بالواجب والشعور الوطنى والاهتمام بالمصلحة العامة وما الى ذلك ، يعتبرها الناس من التصرفات وسمات الطبع الايجابية . هذه التقويمات تعتبر اخلاقية وتندرج فى منظومة القيم واصول السلوك الاخلاقية او المعنوية الموجودة فى كل مجتمع ، وفى كل فريق من الناس ، وهى تنشأ اول ما تنشأ فى فترة تكوّن المجتمع البشرى .

اذن ، فالاخلاق هى عبارة عن منظومة القواعد والاصول والتقويمات والمثل التى تتحكم بسلوك البشر فى الحياة

الشخصية والاجتماعية بعضهم ازاء البعض الآخر ، وازاء فريق العاملين الذى ينتمون اليه ، وازاء طبقتهم ودولتهم ومجتمعهم بوجه عام . فما هى اوجه اختلاف الاخلاق عن القانون والوعى القانوني ؟ أن وجه الاختلاف الاول هو أن القانون تضعه وتصونه الدولة ، اما اصول الاخلاق فتعتمد على هيبة الراى العام . والقانون يظهر فى ظروف تاريخية معينة ، ويعبر عن ارادة الطبقة المسيطرة ، ومع بناء المجتمع الشيوعى الكامل سوف ينقرض ، شأنه شأن الدولة . وعلى العكس ، فبغير الاخلاق لا يمكن لاي مجتمع أن يوجد ويتطور لا فى الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، ذلك أن الناس فى كل الظروف يقومون بافعال مختلفة ويتصرفون تصرفات متباينة ويقومون سلوك الآخرين ويحتاجون الى تقويم وتقدير لسلوكهم . ولكن لا ينبغى أن نستنتج من ذلك أن الاخلاق واحكامها ومبادئها الاساسية ثابتة وابدية . فمبادئ الاخلاق وقواعدها واصولها يحددها الوجود الاجتماعى للبشر وتتغير مع تغيره .

أن لبعض المبادئ ، مثل «لا قتل» و«لا تسرق» ، منشأ تاريخيا . ففي ظروف المجتمع البدائى الجماعى ، حيث لا وجود للملكية الشخصية ، كانت السرقات امرا مستحيلا ، لذا لم يكن ثمة معنى لتحريمها . ولدى جملة من الشعوب لم يكن يتعارض مع الاصول الخلقية ردحا طويلا من الزمن ليس فقط قتل العدو ، بل والقتل الطقسى لابن القبيلة وابن الديانة الواحدة ، بل وحتى قتل زعماء القبيلة فى جملة من الحالات . ولكن بصرف النظر عن الفوارق الطبقية والتاريخية التى تتجلى بوضوح فى النظم الخلقية لمختلف العصور والشعوب ، مثلا الادانة الخلقية للتجارة فى منظومة اخلاق نبلاء القرون الوسطى أو تبرير التعامل القاسى مع ابناء الاديان الاخرى ، ثمة قيم واصول واحكام اخلاقية انسانية عامة تتسم بها التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة ، وتتميز بها مختلف الشعوب وطبقات المجتمع .

ويعزى الى هذه القيم فى الوقت الراهن : كرامة الانسان الشخصية ، حرمة الفرد ، حماية صحة الاطفال وأمنهم وعالمهم

العاطفى ، صيانة السلام فى العالم اجمع وتفادى هلاك البشرية فى نتيجة كارثة نووية . أن وجود المصالح الانسانية العامة هو الذى يشكل الاساس اللازم لتعاون البشر فى بلوغ أهم وابرز الاهداف الانسانية العامة . كما أن الاقرار بالطابع الطبقي للاخلاق لا يلغى بتاتا وجود القيم والمصالح الانسانية العامة .

فى المجتمع الطبقي ترتدى المبادئ الاخلاقية طابعا طبقيًا ، اجتماعيا قنويا . ففى نتيجة التعقد والتناقض الداخلى لمواقف الطبقة المستغلة بالدرجة الاولى تغدو الاخلاق بحد ذاتها فى التشكيلات التناحرية متناقضة داخليا . مثلا ، أن مبدأى «لا تقتل» و«العين بالعين والسن بالسن» لا يناقض بعضهما بعضا فحسب ، بل وتضفى عليهما هيبة الكتاب المقدس بنفس القدر مسحة مقدسة . وتتيح الصفة المتناقضة للاخلاق هذه الفرصة امام الطبقة المستغلة لان تبرر الافعال والتصرفات التى تناسب فى ذلك الموقف مصالحها الطبقية افضل تناسب . وأبرز سمة للوعى الاخلاقى لدى الطبقات المسيطرة هى التناقضات والاختلاف العميق بين المبادئ والاصول والتعاليم الاخلاقية من جهة والسلوك الفعلى من جهة اخرى . فالاخلاق البرجوازية ، اذ تجاهر بأن حب العمل ونزاهة التعامل من أسس الفضائل ، نجدها ترضى بيسر حقيقة أن معظم ممثلى البرجوازية قد انغمسوا فى الفساد والغش والمضاربات فى البورصة ، ويعيشون على حساب عمل الآخرين .

وبالعكس ، أن الوحدة المبدئية والانسجام الداخلى للمبادئ الخلقية والسلوك الحميد هما ابرز السمات المميزة للاخلاق الاشتراكية . واذ تنشأ هذه الاخلاق بادية ذى بدء كمنظومة من اصول السلوك والمبادئ الاخلاقية لدى الكادحين ، تكتسب فى ظروف المجتمع الاشتراكى شكلا عموميا . فالعمل باخلاص والنزاهة وحسن النية والاحترام المتبادل وشعور الكرامة الذاتية واحترام حقوق الانسان والشعور الاممى والروح الجماعية واحترام المؤهلات والمواهب الفردية ونبذ النفاق والرياء هى أسس فضائل ومبادئ الاخلاق

الاشتراكية . بيد أن اعلان مثل هذه المبادئ أمر يسير ، لكن تطبيقها العملي فى واقع الحياة المعقد والمتناقض اصعب كثيرا . لهذا تتمثل المهمة المركزية للمجتمع الاشتراكى من جهة فى توفير الظروف الموضوعية لتطبيق هذه الاصول الاخلاقية ، ومن جهة اخرى فى العمل بشكل منتظم على تربية كل فرد بروح الصرامة العالية فى محاسبة النفس ورفض التضارب بين التصرفات الفعلية والمبادئ الاخلاقية .

٢٢٩

الوعى الاقتصادى . منذ نشوء المجتمع البشرى عكف الناس باستمرار على ادخار وتنمية وتطوير معارفهم عن الانتاج المادى والنشاط الاقتصادى . وتشكل هذه المعارف التى تعكس ابرز الجوانب الجوهرية لعملية انتاج وتوزيع الخيرات المادية ، والتى تستخدم لتنظيم وادارة النشاط الاقتصادى الانتاجى ، شكلا خاصا من اشكال الوعى الاجتماعى هو الوعى الاقتصادى . ويرتدى الوعى الاقتصادى فى المجتمع الطبقي طبعا طبقيا واضح المعالم . وهو يرتبط ارتباطا لا ينفصم بالصراع الايديولوجى وبالوعى القانونى والسياسى والاخلاقي . كان مفكر الماضى الكبير ارسطو يرى أن العبيد مجرد ادوات ناطقة . والعمل لا يمكن أن يكون من نصيب الانسان الحر . انه نصيب العبد . وكان ارسطو يفهم جيدا أهمية النشاط الاقتصادى ، ويمعن الفكر فى وظيفة النقود ، الخ . وقد اخذ الوعى الاقتصادى يتطور بسرعة خاصة فى عصر الرأسمالية . وقام مؤسسو الاقتصاد السياسى ، وهو العلم المتعلق بالنشاط الاقتصادى والانتاج وادارته ، وفى مقدمتهم سميث وريكاردو وآخرون ، بوضع نظرية القيمة-العمل التى اشاد بها ماركس وانجلس . وقد اشار لينين الى أن آراء هؤلاء العلماء اصبحت بعد معالجتها نقديا احد مصادر الماركسية . بيد أن الآراء فى الاقتصاد ، التى نشأت فى التشكيلات التنافسية ، كانت تعكس ، عادة ، النشاط الاقتصادى من مواقع الطبقات المسيطرة . وكانت هذه الآراء تبالغ فى دور الملكية الخاصة وتعتبرها ركنا ابديا وضروريا ومقدسا من

أركان المجتمع ، ايا كان . وفي ظروف المجتمع الرأسمالى يعتبر الوعى الاقتصادى البرجوازى اداة جبارة لاخضاع الكادحين لسيطرة المستغلين ووسيلة لتقويض وعيهم الذاتى الطبقي . فالوعى الاقتصادى البرجوازى يعتبر حيازة الملكية الخاصة والثراء الشخصى اساسا وهدفا لمجمل النشاط الاقتصادى ، حتى اذا كان هذا النشاط يؤدى الى تخريب الطبيعة ويعود على الكادحين بما لا يحصى من الويلات والمصائب .

اما الوعى الاقتصادى فى المجتمع الاشتراكى فيرتدى طابعا مغايرا تماما . فهو ، شأن سائر اشكال الوعى الاجتماعى ، يعكس الوجود الاجتماعى وما يجرى فيه من تغيرات . والوعى الاقتصادى خلال ذلك هو بالدرجة الاولى عبارة عن انعكاس وادراك لسنن تطور الاقتصاد الاشتراكى واشكال تنظيمه وادارته . وبما أن الانسان ، الكادح ، هو القوة المنتجة الرئيسية فى المجتمع ، فإن تنمية وعيه الاقتصادى من جميع الجوانب تعتبر عاملا ذاتيا قويا لتنمية القوى المنتجة بوجه عام .

أن بنية اقتصاد المجتمع الاشتراكى المعاصر معقدة جدا . فالى جانب مؤسسات الدولة القائمة بانتاج الحجم الاساسى من المنتجات الضرورية للمجتمع ، هناك المؤسسات التعاونية ، كما تجرى ممارسة النشاط الاقتصادى الفردى . علاوة على ذلك ، هناك مؤسسات مختلطة تشكّلها الشركات السوفييتية والاجنبية . ومن ابرز معايير الجدوى الاقتصادى للمؤسسة ربحيتها وقدرتها على التكيف السريع واعتماد احدث منجزات العلم والتقنية ورفع مستوى انتاجية العمل باستمرار واعتماد احدث التكنولوجيات الموفرة للموارد والمستوعبة لجهد علمى كبير ، مما يتيح انتاج سلع وبضائع تلبى شتى الاحتياجات . وتطبيقا للقوانين السوفييتية يقوم العمال والمستخدمون ، مع رؤسائهم الذين يقومون هم انفسهم بانتخابهم ، برسم السياسة الاقتصادية والتقنية لمؤسستهم . لذا يجب أن

تتوفر لديهم معارف مهنية واقتصادية جيدة وفكر اقتصادى علمى متطور .

كل هذا يحملنا على القاء نظرة جديدة على دور الوعى الاقتصادى فى حياة المجتمع الاشتراكى المعاصر الذى تجرى فيه معالجة المسائل الاقتصادية ومسائل ادارة وتنمية المؤسسة او الشركة او الاتحاد او الفرع الاقتصادى باكملة لا من قبل حفنة من رجال ومدراء الاعمال ، بل من قبل الكادحين كافة . ويجرى حل هذه المسائل على اساس الديمقراطية الاشتراكية الواسعة التى يتحدد فيها دور وأهمية كل فرد لا بحجم ما يحوز من اسهم ، بل بخبرته ومعارفه واسهامه الشخصى فى النشاط العملى .

ان بحث الوعى الاقتصادى ودوره فى الحياة الاجتماعية ، ولاسيما فى ظروف الاشتراكية يعتبر مهما من وجهة النظر الفلسفية لأن التأثير الفعال للوعى الاجتماعى فى الوجود الاجتماعى ، وفى البناء التحدى الاقتصادى للمجتمع ، وفى قواه المنتجة ، يتجلى هنا أفضل من أى مجال آخر . ويكون هذا التأثير ملحوظا وفعالا اكثر كلما كان الوعى الاقتصادى يعكس بصورة ادق واعمق القوانين الاقتصادية الموضوعية ، وكذلك التناقضات والصعاب الفعلية التى تظهر على طريق التنمية الاقتصادية الاجتماعية للمجتمع الاشتراكى ، ويساعد على ايجاد الطرق اللازمة لحلها وسبل تنمية الاقتصاد وتطويره باقصى سرعة وتناسق .

٢٣٠

الدين كشكل من اشكال الوعى الاجتماعى . يشغل الدين مكانة مهمة فى حياة الانسان الروحية باعتباره شكلا من اشكال الوعى الاجتماعى . ففي بعض العصور التاريخية كان الدين الشكل العام والشامل لهذا الوعى . ولكن لا ينبغي ان نستخلص من ذلك أن الدين موجود ازلما . فالعلم المعاصر ينسب ظهوره الى عصر المجتمع البدائى المتأخر . ففي هذه الفترة ظهرت فى المجتمع الحاجة الى فهم وتفسير ظواهر العالم المحيط ونشاط الانسان . وبالنظر لغياب المعارف الضرورية وانخفاض مستوى

التطور الاقتصادى والاجتماعى لم يكن بمقدور البشر تقديم تفسير علمى للعالم المحيط ، فراحوا يفسرونه - أن جاز القول - بالمقارنة مع انفسهم فيضفون عليه صفات خارقة ويعزون اليه قوى روحية خفية . وكان الانسان القديم بسبب ضعفه وعجزه فى الصراع ضد قوى الطبيعة المجابهة له يؤله الظواهر الطبيعية : المطر ، الصواعق ، الرعد ، الانهار ، الجداول ، الاشجار ، الصخور ، النخ . وكان يعبد بعض الاشياء سعيا منه الى كسب رضاها والتمتع بحمايتها . ونشأت بالتدريج تصورات تنسب الى ظواهر الطبيعة وجود الروح والارادة على غرار روح و ارادة الانسان ، لكنهما أكثر رهبة وغموضا واستغلاقا على الفهم .

وفى المجتمع الطبقي اخذ الانسان يجابه ليس قوى الطبيعة فحسب ، بل وقوى الاستغلال الطبقي الغاشمة الاكثر قسوة . وكان الدين الذى يعلن ويقدس ضعف الانسان وعجزه يطالب بالرضوخ لهذه القوى . على هذا النحو تحول الدين الى شكل للوعى يساعد على نشر وتعزيز وتبني ايدولوجيا الطبقات المسيطرة .

وحظيت باوسع انتشار فى ظروف التشكيلات الطبقيّة التناحرية أديان توحيدية كالبوذية والمسيحية والاسلام . وتعتبر الكنيسة * شكل الديانة التنظيمى . أى المؤسسة الاجتماعية التى يجرى بمساعدتها تواصل العبادة الدينية وينتشر الايمان الدينى وتوحد صفوف اتباع هذه او تلك من الديانات . وعلى مدى التاريخ كان دور الدين والكنيسة الاجتماعى يتغير فى مختلف المجتمعات باختلاف مراحل التطور وباختلاف الاوضاع والمواقف الملموسة . وكانت الكنائس المسيطرة تخدم بهذا القدر او ذاك مصالح الطبقات الماسكة بزمam سلطة الدولة والسلطة الاقتصادية . ولكن بحكم تناقض الحياة الاجتماعية العميق وصفتها المتغيرة كان يحدث فى

* المقصود بالكنيسة هنا هو المؤسسة الدينية عموما -
المتروجم .

احيان غير نادرة ان تقف هذه او تلك من التيارات الدينية وما يناسبها من تنظيمات دينية فى وجه الديانة والكنيسة المسيطرة . وكانت هذه التيارات احيانا تعبر عن مصالح المضطهدين او تلك الفئات والطبقات التى تخوض الصراع على السلطة وتناضل من اجل تغيير النظام الاجتماعى القائم ، دون ان يتسنى لها بحكم هذه الاسباب أو تلك أن تعي مصالحها ووضع الشؤون الاجتماعية الموضوعى بشكل علمى . وكانت بعض الحركات الوطنية التحررية أو المناضلون ضد الاستغلال ولا تزال تضيف على طموحاتها الثورية والتحررية صبغة دينية . وكان الصراع الطبقي أو التحررى وما يناسبه من الاحكام الايديولوجية تمارس فى مثل هذه الحالات دور الهرطقة (الردة) الدينية او الحركات الكنسية البديلة ، وتكتسب اشكال الاحتجاج على الديانة والكنيسة المسيطرة ، وتشعر فى النضال من اجل حق حرية المعتقد . ويعتبر ارتداء الاحتجاج السياسى لبوسا دينية ظاهرة تسم كل الشعوب فى مراحل معينة من تطورها . وفى العالم المعاصر المفعم بالتناقضات الاجتماعية الحادة يستطيع الدين والمنظمات الدينية هـى الاخرى أن تمارس دورا متباينا . ويدعو ممثلو الفكر الماركسى لا الى اجتثاث الدين عنفا ، كما يتهمهم خصومهم ، بل الى الحوار مع تلك الشخصيات والتيارات الاجتماعية الدينية التى تشارك فى النضال من اجل السلام وضد خطر الحرب النووية ، وفى حركات التحرر الوطنى ، وفى النضال ضد الانظمة الشمولية والعنف ومن اجل تحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية ، ومن اجل الاستقلال الوطنى والتحرر من الاستعمار الجديد .

٢٣١

الوعى الفنى والفن . يعتبر الفن احد اقدم وأعم انواع النشاط البشرى . ومصطلح «الفن» يعنى ليس النشاط فحسب ، بل ونتائجه ، أى النتائج الفنية . فما هو الفن وما هو دوره فى حياة المجتمع والافراد ؟ يسعى الناس فى نشاطهم الانتاجى اليومى ليس فقط الى

تلبية احتياجاتهم المادية بصنع ما يلزم لذلك من لوازم وطعام ومسكن وما الى ذلك ، بل والى جعلها اكثر ملاءمة وكمالا . وكلما كانت هذه الاشياء اكثر ملاءمة وكمالا ، اقتضى الامر مزيدا من المهارة فى صنعها ، وارتدت عملية الانتاج مزيدا من الطابع الابداعى وتطلب الامر مزيدا من الموهبة والابتكار والمخيلة من صانعيها ، أى الانسان . وفى سياق العمل يتطور عقل الانسان و ارادته وقوته وطاقته التى لا يتسم بها الا الانسان . وكلما ازداد انفصال الانسان عن الطبيعة وتفوقه عليها ، ازداد توافقه مع ذاته ومع مراسه ومعارفه واصول سلوكه ، وبالتالي ، يبلور نفسه ككائن اجتماعى . ككل خصائص الانسان هذه ، وفى المقام الاول جوهره الاجتماعى وقوة ادراكه وقدرة مخيلته وثقافته ، وكذلك رقى ومهارة النشاط تتجسد فيما يصنعه من اشياء ومنشآت وادوات عمل وفى الطبيعة المحولة والمحسنة . وكلما كان هذا التجسد اوفى قدرا كانت نتائج عمله وابداعه ابهى وأروع . وفى نتيجة تقسيم العمل المقيض تاريخيا يجرى فصل انتاج الاشياء المفيدة عن الاشياء الجميلة . وينفصل الفن ، كونه نوعا متميزا من النشاط المتعلق «بانتاج الجميل» ، عن الانتاج المادى . وتظهر مجموعات متميزة من البشر يغدو الفن مهنة لها كالفنانين التشكيليين والنحاتين والمعماريين والكتاب والشعراء والموسيقيين والممثلين وغيرهم .

فى المجتمع الطبقي تعتبر الطبقات المسيطرة المستهلك الاساسى للفن . فهى تمول نشاط الفنانين والكتاب والممثلين ، وتشترى مجهودهم الابداعى ، وترغمهم الى جانب ذلك على خدمة بعض الاهداف الطبقية وتجعلهم دعاة واعين او غير واعين لعقيدة وايدولوجيا معينة . ولكن من الخطأ الظن أن الفن ، أى النشاط الفنى ، ينفصل انفصالا تاما عن الانتاج المادى . ففى عمل الحرفيين والفلاحين وصناع الورش حتى فى المجتمعات الاستغلالية ثمة حضور دائم للسعى الى الكمال ، ويتجلى فيه الاصل الانسانى الابداعى . وبقدر ما ينطوى عليه

العمل من عنصر الحرية والابداع ، يتصف ايضا بصفات فنية .
وكلما كان العمل حرا وابداعيا ازداد اقترابا من الفن .
ان عناصر النشاط الفنى تسم كل مظاهر النشاط
البشرى الذى ينمو على اساس من العمل . فكل وجود الانسان
الاجتماعى الذى هو ثمرة هذا النشاط يتخلله بهذا القدر او
ذاك الاصل الفنى الابداعى . وهذا ما ينعكس فى شكل متميز
من الوعى الاجتماعى هو الوعى الفنى الذى يعكس الواقع
المعيط بنا فى منظومة من الصور الفنية . وتنعكس فيها
السمات والصفات والخصائص النمطية الفردية والعامّة
للطبيعة والمجتمع والعالم الداخلى للانسان . بعد ذلك تتجسد
هذه الصور الفنية فيما يناسبها من اشياء وعمليات مادية :
مؤلفات موسيقية ، لوحات ، منحوتات رخامية ، منشآت
ومجمعات عمارة ، حفلات مسرحية ، افلام سينمائية . وبخلاف
المعرفة العلمية التى تعكس العالم بشكل مفاهيم منطقية
ونظريات معقدة ، نجد الفن عبارة عن تجسيد مادي للتصورات
والصور الفنية التى تؤثر فى حواسنا وتثير رد فعل انفعاليا
معينا . وفى منظومة المعرفة العلمية تشغل الصور الحسية
الايضاحية مكانة تابعة الى درجة معينة . فهى تستخدم لصنع
نماذج ايضاحية (٥١٣) ورسوم ومنحطات وصور للاشياء
موضوعة البحث ، الخ . بيد أن الوسيلة الرئيسية للمعرفة
هى المفاهيم والطروحات العلمية التى تتشكل بمساعدتها
قوانين العلم العامة بصيغة مجردة (٥٠٥) . وتعتبر الظواهر
الفردية خلال ذلك منطلقا للمعرفة ومادة لتطبيق قوانين
العلم المكتشفة والمكتملة الصيغة . اما فى المعرفة الفنية ،
فالصور الحسية الايضاحية - على العكس - تشغل مكانة
مركزية . فهى تتيح عكس السمات الاكثر عمقا واستقرارا
لكل ظاهرة فردية بشكل يمكن تلقيه تلقيا حسيا مباشرا .
وتستخدم المفاهيم ولاحكام خلال ذلك كوسيلة لوصف
وتحليل الصور الفنية . اذن ، فالمعرفة العلمية والفنية لا
تتعارضان ولا يمكن أن تحل احدهما محل الاخرى . ان احدهما
تتم الاخرى فتشكلان لوحة ومنظومة أوفى من المعارف عن

العالم المحيط بنا ، وعن العالم الداخلى للانسان ومعاناته ومزاجه وخصائصه الفردية التى تتجلى فيها ابرز السمات الجوهرية للعصر والمجتمع المعنى . ذلكم هو الترابط العام بين الفن والعلم .

يؤثر الوعى الفنى للعصر المعنى عبر منظومة نتاجات الفن التى تجسد هذا الوعى تأثيرا معيناً فى عالم الانسان الداخلى ، النفسى ، كاشفا امامه عن تلك السمات من الواقع التى تفوت على اشكال الوعى الاجتماعى الاخرى . وبفضل ذلك تجرى تربية الانسان الروحية ويتكون لديه موقف معين من الطبيعة والمجتمع . ويكشف فن كل عصر وكل شعب ، تبعا للمثل والاصول والتصورات الجمالية السائدة فى الوعى الفنى ، فى صور فنية فريدة ، عن تلك الخصائص للحياة والفرد وتفاعل الانسان مع الطبيعة ، التى لا تعكسها ولا تنقلها اشكال الوعى وانواع النشاط الاخرى . وبحكم ذلك تتيح لنا نتاجات الفن الشعبى وفناني الماضى العظماء ومعاصرينا من الفنانين الاطلاع على مجمل الثقافة العالمية ، واستيعاب كل قيم ونقيس ادخرته البشرية على مدى التاريخ . فحين نطلع على الادب الروائى للعصور والشعوب الاخرى ، ونستمع الى الموسيقى ، ونرتاد معارض اللوحات الفنية ، لا نستوعب الخبرة التى اكتنزتها الشعوب الاخرى فحسب ، بل ونطلع على معاناتها وعالمها الداخلى فنغدو نحن انفسنا اغنى روحيا واكثر نبلا ، ونوسع افق مداركنا وفهمنا للعالم . وباطلاعنا على تجربة البشر الحياتية يساعد الفن على «ادخار» القيم الثقافية ويمهد لتفاهم اعمق بين البشر . على هذا النحو يؤثر الفن والوعى الفنى تأثيرا عاطفيا كبيرا فى كل جوانب الحياة الاجتماعية والفردية . ويعكس الفن الواقع على جميع مستويات الوعى الاجتماعى ، بما فى ذلك السيكولوجيا الاجتماعية والوعى العادى . اذ تتجسد فى نتاجات الفن موهبة وفنطازيا ومخيلة الشخصية المبدعة . ويجرى تأثير المجتمع فى الفن وبالعكس عبر جملة من العوامل ، تعزى اليها تقاليد قومية واذواق اجتماعية ، واخيرا ، شخصية الفنان وسماته الفردية التى

لا تتكرر . وتفاعل هذه العوامل هو وحده الذى يتيح لنا ان نفهم فهما صحيحا خصائص الفن والوعى الفنى للعصر الذى نحن بصددده .

وبحكم هذا الامر بالذات ليس هناك ترابط بسيط ومباشر بين الوعى الفنى والفن من جهة ، والوجود الاجتماعى من جهة اخرى . فالفن ليس انعكاسا طبق الاصل للطبيعة والمجتمع فى التصوير الزيتى والادب والتأليف المسرحى وما الى ذلك . والصور الفنية التى يبتكرها الفنانون تنطوى على الاختلاق الفنى والفنطازيا والمعاناة الشخصية والمعضلات الحادة التى تقلق المجتمع ، دون ان تجد فيه حلا فى بعض الاحيان . والفن يؤثر فى حواس الانسان وفى وعيه على السواء . وهو يغنى عالمه العاطفى ويضع امامه فى نفس الوقت معضلات اخلاقية . فقد وضع الفن اليونانى القديم ، مثلا ، فى قصائده هوميروس وتراجيديات استخيليس وسوفوكلس واوريبيدس ، وفى كوميديات ارسطوفانس ، وفى الشعر العاطفى ، مسألة تناسب الخير والشر ، الرفيع والوضيع ، المأسوى والمضحك ، الازلى والعابر فى حياة الانسان . وطرح فن شكسبير ، كونه يعكس واقعا تاريخيا معيناً ، امام البشر السؤال الازلى عن مغزى الحياة (هاملت) وعن مبررات الجريمة (مكبث) وعن الخير والشر والمسؤولية الشخصية ونكران الجميل البشرى (الملك لير) . وطرح سرفانتس العظيم فى مؤلفاته عددا غفيرا من الاسئلة عن مغزى الحياة ، والبحث عن الحقيقة ، والنبل والجنس ، والبطولة الرومانطيقية وبذاءة الحياة العادية . وبالنسبة للثقافة المعاصرة ثمة اهمية عملاقة لمؤلفات الكاتبين الروسين العظيمين ليف تولستوى وفيودور دوستويفسكى اللذين اتاحا لنا أن نطل على اعماق اعماق الروح البشرية وان نفهم آليات السيكولوجيا الانسانية .

ويسهم كل شعب بقسطه المتميز فى الفن العالمى لان مصيره التاريخى وثقافته والمواصفات الشخصية لفنانيه وموسيقييه وكتابه ومسرحيه فريدة لا تتكرر . لهذا يتصف

فن الشعوب كبيرها وصغيرها بقيمة تاريخية ثابتة . وتجدر الإشارة بصفة خاصة الى أن الوعي الفنى والفن يشهدان خلال فترات الانعطافات الحادة فى المصائر التاريخية لهذا الشعب او ذاك ازدهارا عاصفا وشاملا بشكل خاص .

وتتلخص مهمة الفلسفة فى التحليل الدقيق للوعي الفنى والفن عموما ، وفى تبيان وظائفهما الاجتماعية ، وفى الفهم العميق للقيم والاحكام الاخلاقية والجمالية التى ينطوى عليها الفن والوعي الفنى . فنتاجات الفن المعاصر التى تؤكد كرامة الشخصية البشرية تدعو الى النضال من اجل الحرية وتغيير المجتمع لغرض تحقيق العدالة الاجتماعية وتكريس التقاليد الانسانية والمثل الانسانية العامة وتساعد على التقدم التاريخى العام وتعتبر كنزا من كنوز الثقافة العالمية .

٢٣٢

الوعي الفردى والاجتماعى . لقد تناولنا حتى هذا الحين شتى اشكال الوعي الاجتماعى . فما هى صلتها بالوعي الفردى ، اى بوعي الفرد ؟ (٢١٠) .

ان المجتمع يتألف من افراد . ومبدعو اعظم الاعمال الفنية هم شخصيات منفردة : شكسبير ، بوشكين ، ميكيل آنجلو ، ريبين ، بيكاسو ، شوستاكوفيتش ، بروكوفيف ، بروكنير وغيرهم . ويعود فضل اكبر الاكتشافات العلمية واعمق النظريات التى تعكس العالم الى نيوتن وانشتاين وبور ولوباتشيفسكى وفيثر وغيرهم . وليس فى عالم الفن والعلم فحسب ، بل وفى حياتنا اليومية تطالعنا باستمرار تجليات الوعي الفردى ، وكل هذه التجليات متباينة . فلكل فرد طموحاته وهمومه ونظراته الى الحياة وفهمه لمختلف المشكلات والواجبات وهلمجرا . خلاصة القول ، كم هناك من البشر ، هناك نفس القدر من المصائر الفردية والنظرات الشخصية الى الحياة والاهداف وطرائق السلوك . ويخيل للوهلة الاولى أن فى كل تجليات الوعي الفردية ليس هناك سوى القليل من السمات العامة ، وانها لا ترتفع الا بالمصادفات العفوية وبظروف حياة كل فرد . حتى أن الفيلسوف الالماني نيتشه

(١٨٤٤ - ١٩٠٠) كان يدعى أن ليس ثمة وعى اجتماعى أصلا ، انما هناك فقط فكر ووعى شخصية منفردة ، ذلك أن الوعى - فى اعتقاده - ينتجه الدماغ ، والدماغ ملك الفرد لا المجتمع . وكانت هذه وجهة نظر فردية الى اقصى درجة . الى جانب ذلك ، لم يكن الماديون السالفون محقين ايضا حين استخلصوا الوعى الفردى استخلاصا مباشرا من ظروف الحياة الشخصية وملابساتها الفريدة . اذ كان رائد التنوير المادى الفرنسى غيلفيتسى (١٧١٥ - ١٧٧١) يرى أن هذه الملابس والظروف هى التى تربى الانسان . اذ يكفى أن يسلك طفلان من اسرة واحدة اثناء التنزه طريقين مختلفين حتى تشرع نظراتهما الى الحياة وطباعهما الفردية فى الاختلاف والتمايز . كما لا جدال فيه أن المجتمع لا يملك دماغا ، وأن ظروف الحياة وخصائص التربية وسيرة الحياة الشخصية تؤثر فى الوعى الفردى وفى طباع الانسان وسلوكه . ولكن حسبنا أن طرح سؤال : هل كان بإمكان سيمفونية شوستاكوفيتش السابعة المكرسة لنضال الشعب السوفييتى ، ولاسيما أهالى لينينغراد ابان الحصار الفاشى للمدينة (سيمفونية لينينغراد) أن تظهر فى عصر القرون الوسطى ، وهل كان بمقدور فنان العصر الهيلينى أن ينتج لوحات فنية شبيهة بلوحات ريبين ، وهلمجرا ، حتى يتضح لنا أن مضمون هذه النتاجات الفنية يرتعن بخصائص العصر المعنى والشعب المعنى والفترة التاريخية المعنية . على هذا الغرار بالضبط ، وبصرف النظر عن كل الفوارق الفردية ، ما من شخص فى القرن الثامن عشر كان يطمح الى شراء سيارة . كل هذه الفوارق فى سلوك البشر ، بغض النظر عن الخصائص الفردية ، ترتعن من جهة بالوجود الاجتماعى الموضوعى ، ومن جهة اخرى بالوعى الاجتماعى الذى نشأ على اساس هذا الوجود والذى يعكس هذا الوجود الاجتماعى .

أن المادية التاريخية لا تنكر الوعى الفردى او اهداف الفرد وارادته ورغباته ، بل تنطلق من ضرورة دراستها بانتباه وتفسيرها تفسيراً مادياً صحيحاً . فالوعى الاجتماعى هو عبارة

عن ذلك العام الذى ينشأ فى وعى افراد المجتمع المعنى بفضل كونهم يعيشون فى ظروف وجود اجتماعى معين ، ويكونون اهدافهم الشخصية ضمن اطاره وعلى اساسه . ويتكون الوعى الفردى لكل انسان تحت تأثير عوامل عديدة ، يعزى اليها صنف طباع الفرد والخصائص الفردية والجنس والسن والوضع المادى وخصائص الاسرة والجو العام وظروف العمل ، الخ . بيد أن التأثير الحاسم فى مضمون الوعى الفردى ونشاط الانسان يبدية الوسط الاجتماعى الناشئ ضمن اطار وجود اجتماعى معين ، مع وجود وعى اجتماعى معين وباقى عناصر البناء الفوقى . فالبشر فى نشاطهم العملى والانتاجى والمعيشى والاجتماعى يتبادلون دوماً بالآراء والخبرات الانتاجية والاجتماعية السياسية . وفى سياق هذا التبادل تتكون نظرة عامة واحدة وفهم وتقويم مشترك للاحداث وكذلك اهداف مشتركة بالنسبة الى الفئة او الطبقة المعنية . وتحت تأثير هذه النظرة والاهداف المشتركة تتكون الاهداف والنظرات والاحتياجات الفردية . لهذا يكون الوعى الاجتماعى والفردى فى تفاعل معقد دائم . وبفضل هذا التفاعل تضاف الى كنز الثقافة الروحية العام المنجزات الابداعية التى ينتجها ليس المفكرون العظماء فحسب ، بل وكل فرد بسيط ، كل شخصية فردية . وعليه فان فصل الوعى الاجتماعى عن الوعى الفردى ، ناهيك عن جعل احدهما تقيضاً للآخر ، يعتبر خطأ ميتافيزيقياً فظاً يقطع الوشيجة الفعلية بين هاتين الظاهرتين وينكر تفاعلهما .

٢٣٣

بصدد استقلالية الوعى الاجتماعى النسبية . أن جميع التغيرات فى الوعى الاجتماعى وعملية تطوره بحد ذاتها ترتعن ، فى التحصيل الاخير ، بالتغيرات فى الوجود الاجتماعى . ولكن من الخطأ الظن أن هذا الوعى يتخلف دوماً عن الوجود الاجتماعى . فالوعى السياسى والاخلاق والوعى الفنى والدين والفلسفة تعكس نشاط البشر المادى والصراع الطبقي والاحداث المختلفة والتغيرات التدريجية والثورية لا بشكل

سليمي ، لا كنسخة طبق الاصل ، بل تكون مثلا عليا واصولا واحكاما وقواعد سلوك ، وتكون صورة متخيلة عن تنظيم الحياة الاجتماعية الاثير والمفضل اكثر من سواء . وهذا ما تتجلى فيه الاستقلالية النسبية للوعى الاجتماعى وقدرته على ما يسمى بالعكس السبّاق . فنحن نجد فى آثار الماضى الادبية وفى مؤلفات الفلاسفة والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ورجال السياسة قدرا غير قليل من الطروحات التى تبين كيف يجب ان يكون المجتمع المعقول العادل ، وكيف ينبغى تنظيم ادارة شؤون الدولة ، وكيف يجب ان تكون القوانين الاكثر عدلا واصول الاخلاق الاكثر انسانية . وبطبيعة الحال ، تعتبر هذه التصورات محدودة تاريخيا . فمهما سعى مفكرو الماضى الى الاطلاع على المستقبل ، ومهما ابتكروا من صور متخيلة للحياة الاجتماعية ومن مثل عليا واصول ، كانت مادة طروحاتهم وتخميناتهم هذه هى ذلك الوجود الاجتماعى الذى كانوا يتعاملون معه فعليا والذى كان ينعكس فى الوعى الاجتماعى لعصرهم . لذا فالانعكاس السبّاق يرتفع فى نهاية المطاف هو الآخر بالوجود الاجتماعى . وفى عصر التطور العشوائى للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية السالفة غالبا ما كانت الاستقلالية النسبية للوعى الاجتماعى تتجلى فى طرح شتى ضروب الافكار الطوباوية * . ويقصد بالطوباوية التصورات والصور المتخيلة والتأملات النظرية المتعلقة بالتنظيم المقبل ، العادل والمعقول والانسانى ، للمجتمع ، دون أن يكون لها تحليل علمى موضوعى . وغالبا ما كان يطرح هذه الافكار الطوباوية مفكرون يعبرون عن مصالح وامزجة اكثر طبقات المجتمع تعرضا للاضطهاد والاستغلال ، رغم انهم شخصيا كانوا ينتمون احيانا الى الطبقات او المراتب صاحبة الامتيازات . اما هذه الافكار نفسها فقد نالت تسميتها من كتاب للمؤلف الانجليزى توماس مور ، وهو احد كبار رجالات الدولة فى القرن السادس عشر ، بعنوان «الطوباوية» ، وهو يصور

* يقصد بالطوباوية فكرة المدينة الفاضلة - المترجم .

مجتمعا اشتراكيا خياليا تسوده المساواة العامة والعدل والرفاهية .

وعلى مدى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، اخذت الاشتراكية الطوباوية ، مع اشتداد استغلال الكادحين ، تنال مزيدا من الانتشار . وقد اشاد ماركس وانجلس بمؤسسى الاشتراكية الطوباوية فى القرن التاسع عشر ، وهم فورييه وأوين وسان سيمون لقاء سعيهم الى تعليل ضرورة اعادة بناء المجتمع اشتراكيا ، وبالدرجة الرئيسية لقاء نقدهم الشديد للرأسمالية . الى جانب ذلك اكدا الصفة اللاعلمية لهذا الشكل من الاشتراكية ، فقد كانت اشتراكية حاملة يفترض مبتكروها ان المجتمع الجديد سوف ينشأ ليس فى نتيجة صراع طبقي حاد ، بل هو حصيلة السعى الذاتى الاخلاقى نحو الكمال والتنور والنشاط الخيرى . وكان البرهان على الصفة الطوباوية ، اللاعلمية لمثل هذه المشروعات هو انهيار بعض محاولات تنفيذها ، كالتى بذلها اوين مثلا .

وتتجلى استقلالية الوعى الاجتماعى النسبية بوضوح خاص فى وضع نظرية الشيوعية العلمية . اذ لم تكن هذه النظرية التى وضعها ماركس وانجلس وطورها لينين تطورا ابداعيا مجرد انعكاس بسيط لتناقضات النظام الرأسمالى الاقتصادية الاجتماعية العميقة ، بل كانت اول نموذج لانعكاس الوجود الاجتماعى انعكاسا سباقا علميا حقيقيا . ولم تكتف هذه النظرية بالتأسيس العلمى لضرورة تغيير المجتمع ثوريا ، بالقضاء على الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان ، بل وعينت السبل والطرائق الفعلية لهذا التغيير . فمن اين تنشأ امكانية الانعكاس السباق بحد ذاتها ، والاستقلالية النسبية للوعى الاجتماعى عموما ؟

القضية هى أن الوجود الاجتماعى ليس فقط مجموع الاحداث المهمة اجتماعيا التجارية فى الطرف المعنى . فالوجود الاجتماعى ليس امرا جامدا لا يتغير ، انما هو فى تطور مستمر ، وفيه تنشأ وتتنامى باستمرار نزعات شتى . اذن توجد فيه ايضا سنن موضوعية تتحكم بهذه النزعات والعمليات

والتغيرات . وحين يعكس الوعي الاجتماعى هذه النزعات والسنن ، يكتسب ما يكاد يكون قدرة على استقراء المستقبل ، كما لو كان يستبق الزمن . وهذا ما تتجلى فيه بالذات استقلاليته النسبية . وبما أن الوجود الاجتماعى بحد ذاته متناقض وانعكاسه يجرى من مواقع طبقية مختلفة ضمن اطر مختلف الايديولوجيات المتصارعة ، فإن انعكاس الوجود الاجتماعى يكون هو الآخر متناقضا . وكان هذا الانعكاس السباق قبل ظهور الفهم المادى للتاريخ لاعلميا فى اساسه ، وبرغم بعض التخمينات الصحيحة ، كان يحمل سمات الطوباوية . ومع وضع الفلسفة الماركسية اللينينية التى صاغت الفهم المادى للتاريخ ظهرت لأول مرة امكانية الادراك العلمى الصارم لنزعات وسنن التطور الاجتماعى الموضوعية . وفى ظروف المجتمع الاشتراكى تنامى باطراد فاعلية الوعي الاجتماعى واستقلاليته النسبية .

٢٣٤

تنامى دور العامل الذاتى فى ظل الاشتراكية . من خلال مناقشة استقلالية الوعي الاجتماعى النسبية ، وتأکید فاعلية اشكاله المختلفة ، توصلنا الى أن كل هذه الاشكال لا تعكس مختلف جوانب الواقع الاجتماعى فحسب ، بل وتؤثر فيه تأثيرا عكسيا فعلا . فهو يمكن ان يساعد على تطور هذه او تلك من النزعات التقدمية (٤٢٢) ، لكنه يمكن ايضا أن يعرقل تحقيقها . وفى كلتا هاتين الحالتين يتجلى الدور المهم للعامل الذاتى ، البشرى ، فى العملية التاريخية .

فقيم يتلخص هذا الدور ؟ ولماذا يكتسب العامل البشرى مثل هذه الاهمية فى الوقت الراهن ؟ أن تطور المجتمع ، كونه عملية طبيعية تاريخية ، يرتبط على الدوام بادراك الاهداف والمهمات المعينة التى يسعى اليها بعض الناس او الفئات الاجتماعية . ويتوقف تنفيذ هذه المهمات وبلوغ الاهداف على اختيار طريقة النشاط وعلى ماهية القرارات التى يجرى اتخاذها . ونحن هنا امام احتمالين .

الاول يتلخص فى أن البشر يطرحون اهدافا يتعذر

تحقيقها ، ويصوغون المهام صيغة غير صحيحة باتخاذ قرارات غير مدروسة ، ويختارون طريقة نشاط غير فعالة أو غير صالحة لتحقيق الاهداف المرسومة فى الظروف المعنية ، وفى الوقت والمكان والمجتمع المعنى . وبإمكان مثل هذه القرارات والافعال ان تعيق التقدم الاجتماعى وتسبب تردى ظروف الحياة وتؤدى الى نتائج غير مرغوب فيها او حتى وخيمة فى بعض الاحيان . وهذا هو ما يعنى أن سنن التطور الاجتماعى والظروف الموضوعية ، حين تفهم فهما مغلوطا ، تبدو وكأنها «تنتقم» من البشر جراء عدم ادراكهم لها وعدم مراعاتهم وبالتالي عدم عكسهم لها فى نشاطهم . كما أن هذه السنن ، كذلك عواقب ادراكها ادراكا خاطئا ، ترغم البشر عاجلا أو آجلا على تغيير القرارات المغلوطة وايجاد طريقة عمل اخرى أصح وأكثر ملاءمة للواقع الموضوعى . ولكن ريثما لم يحدث ذلك ، يضطر الناس أو الفئات الاجتماعية أو المنظمات الاجتماعية التى اتخذت القرار الخاطى* ووضعت الاهداف غير القابلة للتحقيق الى دفع ثمن باهظ عما ارتكبته من اخطاء .

ويتلخص الاحتمال الثانى فى أن الناس يدركون بما يكفى من العمق والصواب القوانين الموضوعية ويفهمون ظروف الواقع ونزعات الوجود الاجتماعى . وبحكم ذلك يكون بمقدورهم وضع اهداف واقعية معلة علميا وطرح مهمات قابلة للتنفيذ . وبإمكانهم اتخاذ قرارات صائبة واختيار طرائق نشاط فعالة وأمينة . وهذا لا يعنى ، بطبيعة الحال ، أن كل الامور فى مثل هذه الحالات تغدو بسيطة ويسيرة : كأن يظن الناس أن الاهداف يمكن بلوغها بلا نضال ، وأن النشاط المتعلق بذلك لا يصطدم ولا يواجه عقبات . فبحكم تعقد الحياة وتناقضها الموضوعى ، وبحكم وجود عدد غفير من البشر والفئات الاجتماعية والمهنية ، وكذلك مختلف المنظمات الاجتماعية المدافعة عن مصالحها ، وكلها تزاوّل نشاطها فى المجتمع فى آن واحد ، لا بد من أن تنشأ صعاب وعقبات على الطريق المفضى الى الهدف الرئيسى والمشارك .

بيد أن الفارق الجذرى عن الاحتمال الاول يتلخص فى أن

السير نحو الهدف المرسوم يجرى اسرع والاختفاء التى تحدث اقل . فلماذا ، والحالة هذه ، لا يهتدى الناس دائما الى هذا الاحتمال الثانى ؟ (٤٢٠) . القضية هى أن الوعى الاجتماعى فى واقع الحياة يتخلف عن الوجود الاجتماعى . فالادراك العميق والصحيح ، بله الادراك العلمى للواقع ليس دائما سهلا المنال ، ذلك أن الوعى ، أى العامل الذاتى للتطور الاجتماعى يتعرض لتأثير قوى اجتماعية مختلفة : الصراع والتناقضات التطبيقية الاجتماعية ، الترسبات والآراء البالية ، الاحكام الايديولوجية ، الاهواء والامزجة السيكولوجية الاجتماعية ، النقص فى المعلومات ، الخ . ولا يندر أن يكون العائق الذى يعترض صياغة القرارات الصحيحة والادراك الصائب للاهداف واوضاع الواقع هو هذه او تلك من الصفات الشخصية لدى الزعماء والمؤدلين والمفكرين السياسيين . فلتن كان الاشخاص الذين تتوقف عليهم معالجة الاهداف الاجتماعية والايديولوجية يتسمون بخصائص تعيق اتخاذ القرارات الصائبة ، كرفض وجهات نظر الآخرين وما شابه ذلك ، فغالبا ما نجدهم يتوصلون الى فهم خاطئ للاهداف والمهام ذات العلاقة . لهذا السبب قد يمارس العامل الذاتى دورا ملحوظا ، بل وحاسما احيانا فى التطور التاريخى ، رغم أن العامل الموضوعى ، أى الوجود الاجتماعى المتنامى يبقى هو الحاسم فى التحصيل الاخير .

فى ظروف المجتمع الاشتراكى الذى تم فيه تخطى التناقضات التنافسية التطبيقية (٢٠٦ ، ٤٠٦) ، وبحكم هذه الحقيقة بعد ذاتها ، تنشأ مميزات موضوعية لادراك الواقع الاجتماعى بشكل اوفى واعمق ، ولتعيين الاهداف وطرائق بلوغها بشكل علمى . بيد أن هذا لا يعنى أن كل ما يتخذ من قرارات وكل طريقة للعمل الاجتماعى فى المجتمع الاشتراكى يغدو صائبا بشكل تلقائى ، أو أنها تتخذ بلا صراع بين الآراء ، وبلا اصطدام فى المصالح ، وبدون جهود سياسية وروحية جادة . أن دور العامل الذاتى ، دور الانسان الواعى الفعال ذى الفكر المبدع ، الانسان المعنى بالحل الصحيح

للمشاكل الاجتماعية ، يتنامى فى المجتمع الاشتراكى تناميا كبيرا .

يشهد الاتحاد السوفييتى الآن بيرسترويكا (عملية تغيير) عميقة ، ثورية من حيث الجوهر ، تشمل كل ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ومرد ذلك هو أن المرحلة السابقة من التطور شهدت بعض الفتور والتلكؤ فى التقدم الاقتصادى الاجتماعى .

أن منح الحياة الاجتماعية زخما جديدا وتحقيق تسريع حازم للتنمية الاقتصادية الاجتماعية يتطلبان ادراكا اعمق لاهداف المجتمع القريبة وآفاق تطوره المنظورة على السواء ، كما يتطلب فهم ما يعيق التقدم وتشخيص القوى التى يمكن أن تساعد على هذا التقدم . غير أن ادراك قادة الحزب والدولة لكل هذه الامور لا يكفى بمفرده . فمن الاهمية بمكان أن يتغلغل فهم الضرورة التاريخية للتغييرات فى وعى وروح وقلب كل مواطن ، وأن تتبنى هذا الفهم كل فرق العاملين وكل الفئات والمنظمات الاجتماعية .

كل هذا يبين لنا أن نجاح التقدم الاقتصادى الاجتماعى وقضية انماء الاشتراكية فى المجتمع الخالى من التناقضات التناحرية يرتهن الى درجة لا يستهان بها بالعامل الذاتى . لهذا يعتبر تنشيطه مهمة على قدر عظيم من الاهمية . على هذا النحو ، تشكل معالجة المسائل المتعلقة باعلاء دور العامل الذاتى فى المجتمع الاشتراكى اسهاما بالغ الاهمية فى تطوير الفلسفة الاجتماعية الماركسية .

الفصل الثالث الطبيعة والمجتمع

بصدد ترابط الطبيعة والمجتمع

٣٠١

الطبيعة والمجتمع . قبل كل شيء نطرح السؤال التالى : ما هى علاقة البحث فى ترابط الطبيعة والمجتمع بالفلسفة ؟ كيما نفهم جوهر القضية ينبغى لنا بالدرجة الاولى أن نعرف ما هى الطبيعة ، وماذا تقصد بهذا المفهوم . أن الطبيعة هى ليست الكون بأسره ، ليست كل العالم الذى نعرفه ، انما هى ذلك الجزء منه الذى يتعامل الانسان ويتفاعل معه بهذا الشكل او ذاك ، والذى يؤثر بهذا القدر او ذاك تأثيرا ملحوظا فى تطور المجتمع . ويمكن ، بالطبع ، تفسير الطبيعة تفسيراً أرحب ، غير أن المسألة تفقد ابان ذلك صفتها الدقيقة الواضحة . لذا سوف تقصد بالطبيعة فى المقام الاول كل ما يوجد ويجرى على سطح الارض وباطنها والفضاء المحيط بها ، ومن جملته ذلك الجزء من الفضاء الكونى الذى اخذ الانسان يتفاعل معه خلال العقود الاخيرة من السنين ، والذى ارتاده بفضل منجزات العلم والتقنية . بهذا المعنى يعتبر المجتمع البشرى بحد ذاته ناتجا لتطور الطبيعة .

بيد أن هناك فارقا مبدئيا ، جوهريا ، بين الطبيعة والمجتمع ، يتمثل فى كون الطبيعة تتطور وتؤدى وظائفها حسب قوانينها الموضوعية التى يسرى مفعولها خارج نطاق الوعى الفردى والاجتماعى . اما قوانين النشاط الحيوى للمجتمع فهى ، وإن كانت موضوعية ، ترتبط بالوعى ، بنشاط الانسان المفكر . ويساعدنا هذا الفارق ايضا على فهم المغزى الفلسفى لمسألة العلاقة بين الطبيعة والمجتمع .

يعتمد الانسان فى نشاطه على الطبيعة ، ويحيا فى الطبيعة ويتعرض لتأثيرها ويستثمر ثرواتها وما توفره من وسائل الحياة وظروفها . الى جانب ذلك ، يقوم البشر سعيًا وراء غاياتهم بصنع اشياء وادوات ومنشآت وظروف جديدة ليس لها وجود فى الطبيعة بدون الانسان ، ولم يكن لها وجود ، وما كان بمقدورها أن توجد قبل ظهوره .

ليس صعبا أن يلاحظ المرء أن علاقة الانسان بالطبيعة تبدو وكأنما تتجلى فيها من جديد مسألة سبق لنا أن عرفناها هى مسألة علاقة المادة بالوعى . سوى أن تناولها يجرى القضية هى أن البشر حين يغيرون الطبيعة تغييرا شديدا ، الآن من منظور خاص . فما هو هذا المنظور ؟

انما ينتهكون الظروف الطبيعية ، وهذا غالبا ما يؤدى الى تخريب الطبيعة . وهذا التخريب يؤثر بدوره تأثيرا سلبيا ، غير مرغوب فيه ، فى ظروف حياة البشر انفسهم .

لقد اصبح تأثير الانسان فى الوسط الطبيعى المحيط به خلال العقود الاخيرة ، ذلك التأثير الذى تضاعف مرات عديدة بفعل التقنية العصرية الجبارة وبناء المدن العملاقة والطرق والمؤسسات الصناعية وشبكات النقل ، هداما الى درجة جعلت الناس يشعرون فى التحدث عن هلاك الطبيعة وأزمة البيئة . حتى قد ظهر اتجاه خاص هو الإخطارية (alarmism) التى تدعى أن تطور المجتمع سوف يؤدى الى خراب كامل للبيئة ، ومن ثم هلاك البشرية نفسها نتيجة لذلك . وينشأ طريق مسدود لا مخرج منه ، فى اعتقاد الإخطاريين . حتى أن بعض رجال الدين يرون فى ذلك علائم اقتراب نهاية العالم . والإخطارية شكل عصرى للتشاؤم التاريخى . بيد أن هناك فى الوقت الراهن ايضا متفائلين تاريخيين يؤمنون بأن فى مقدور العقل البشرى والارادة الخيرة ، اذا جرى توجيههما الوجهة الصحيحة وتوفير الظروف الاجتماعية اللازمة ، أن يساعدا على صيانة واعمار الطبيعة واقامة علاقات اكثر صوابا وتناسقا بينها وبين المجتمع فى المستقبل .

ويحتدم باطراد الجدل حول مسألة الروابط والتناقضات

بين الطبيعة والمجتمع . وهو يمس اعماق العضلات المتعلقة بموقف الانسان من العالم المحيط . به ، ومن وجود المجتمع البشرى بحد ذاته . وينخرط في هذا الجدل مزيد من اوساط السكان الواسعة في البلدان كافة ، من عمال ومهندسين وفلاحين ورجال سياسة وعلماء وفنانين . وتتعقد مؤتمرات دولية لتدارس هذه المسائل . وتُسن في مختلف البلدان قوانين خاصة تنظم علاقة المجتمع بالطبيعة . كل هذا يبين لنا أن الفلسفة ، كونها خلاصة العصر الروحية ، وتعلّما عن القوانين الاعم لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر ، يجب أن تشارك مشاركة فعالة في وضع الحل المادى العلمى لهذه العضلة المهمة حيويا . ولجل ان نستطلع بصورة افضل مختلف الآراء في العلاقة بين الطبيعة والمجتمع ، وأن نتيقن من صحة رأى المتفائلين التاريخيين ، لنصغى الى هذا الحوار الذى يدور بين شخصين مفترضين احدهما متشائم والآخر متفائل .

٣٠٢

حوار عن الطبيعة والمجتمع .

المتشائم : أن تاريخ البشرية بأسره يشهد أن تطور المجتمع يسفر عن تخريب للطبيعة . وفي آخر الامر سوف يهدم البشر البيئة ويدمرون ظروف وجودهم بحد ذاتهم .

المتفائل : غير أن ما جرى فى الماضى ليس لازما أن يتكرر فى المستقبل . لقد ادخر البشر خبرة هائلة ، وبحوزتهم الآن تقنية جبارة ومعارف علمية جمة يمكن بواسطتها وقف تدهور البيئة .

المتشائم : أن العكس هو الصحيح . فتطور التقنية يسبب نضوب الموارد الطبيعية . ولتحكم بنفسك : أن السيارات والجرارات والمحطات الكهروحرارية والسفن البحرية الضخمة والطائرات تحرق يوميا ملايين البراميل من المشتقات النفطية . وتستخدم مؤسسات الصناعة الكيميائية هي الاخرى النفط لانتاج الاسمدة والادوية والالياف الصناعية والمواد الجديدة ، الخ . ويمكن أن نقول الشئ نفسه عن الفحم الذى

يحرق فى محطات توليد الطاقة الكهربائية ويستخدم لانتاج الفولاذ والحديد الصلب وشتى المنتجات الكيميائية . بينما نعرف جميعا أن احتياطات النفط والفحم محدودة . فماذا سيفعل البشر عندما تنفذ هذه الاحتياطات ؟

المتفائل : ولكن يجرى باستمرار اكتشاف مصادر جديدة لهذه الخامات .

المتشائم : هذا صحيح ، لكنها سوف تنضب هى الأخرى عاجلا أو آجلا . علاوة على ذلك ، أن المعدات التى تحرق المشتقات النفطية تقضى فى الوقت ذاته على الاوكسجين الجوى . فالسيارة الصغيرة وحدها تستهلك خلال ساعة عمل واحدة من الاوكسجين ما تلفظه الى الجو شجرة سنديان معمرة عملاقة خلال يوم كامل . فى حين نقوم نحن على الدوام بقطع مساحات هائلة من الغابات كى نستخدم اخشابها لاغراض التدفئة والبناء ونتاج الورق . كما أن الغابات تفنى بسبب الحرائق التى تزداد حوادثها باطراد فى الوقت الراهن . وتذكر ، علاوة على ذلك ، مئات الألوف من مداخن المصانع التى تلفظ الى الجو غاز اوكسيد الكربون وسواه من النفايات الضارة ، زد على ذلك أن المجموع العام للمساحات الخضراء على سطح الأرض يتقلص تقلصا مفرجا ، لذا عليك أن تفهم أن ما يهددنا هو ليس نضوب الخامات اللازمة لتوليد الطاقة فحسب ، بل والجوع الاوكسيجينى .

المتفائل : انت ترسم صورة قاتمة للغاية .

المتشائم : وليس هذا فحسب . أن سكان الأرض المتنامى عددهم سريعا ، ولاسيما سكان المدن ، يعانون شحة فى مياه الشرب . علاوة على ذلك ، تتلوث مياه الأنهار والبحار على السواء بفضلات المدن والنفايات الصناعية الضارة التى تقضى أيضا على الأسماك والنباتات المائية وما تتغذى به الحيوانات البحرية . ولا بد من أن نضيف الى هذه الصورة الكئيبة الدمار الذى يفتك بخصوبة التربة وبينية التضاريس الطبيعية وما الى ذلك .

المتفائل : وماذا لديك من تخمينات ؟

المتشائم : قبل حوالى ٢٠ سنة جرى فى روما تشكيل منظمة اجتماعية طوعية تدعى «منتدى روما» . وهى تضم عددا غفيرا من كبار العلماء والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ورجال السياسة . وكان اول استنتاج لهم يتلخص فى ضرورة وقف نمو الانتاج وكبح تطور المجتمع وتقليص زيادة السكان السريعة المسببة للجوع فى العديد من بلدان العالم ، ووضع تكنولوجيات انتاج عديمة النفايات ، واعتماد ما يسمى بـ«النمو الصفرى» . بيد أن ممثلى هذه والعديد غيرها من المنظمات المماثلة غيروا فى وقت لاحق ، فى الحقيقة ، آراءهم وباتوا يعتقدون أن التكنولوجيات العصرية الجديدة تستطيع اصلاح الامر ، اذا ما جرى على اساسها انشاء صناعات معتدلة تصون الموارد الطبيعية .

المتفائل : معنى هذا ان بالامكان انقاذ البشرية من الهلاك ووقف خراب الطبيعة ، اذا أصغى البشر لهذه التوصيات ؟ فما هو العائق ، اذن ؟ ما الذى يمنع من تنفيذ هذه التوصيات ؟

المتشائم : اولا ، أنا لم ازمع أن تنفيذ توصيات «منتدى روما» وسواه من منظمات حماية الطبيعة يستطيع انقاذ البشرية . من المستبعد أن يقدم ذلك عوناً للطبيعة . اذ لا سبيل الى استعادة ما أُتلف وأُستهلك وأُحرق . ثانيا ، أن البشرية لم تصنع قط لصوت العقل ، ذلك انها - جريا وراء غاياتها الآنية - لا تفكر بما ينتظرها غدا .

المتفائل : اعتقد انك على خطأ . فجوهر الانسان ليس ثابتا . ان البشر يتصرفون بهذه الطريقة او تلك تبعا للظروف الاجتماعية التى تكتنف حياتهم ، وتبعاً للنظام الاجتماعى وطريقة الانتاج . ولئن جرى تغيير هذه الظروف فسوف يتغير نمط نشاطهم وموقفهم من الطبيعة . عندئذ ، فى اعتقادى ، يمكن اصلاح الكثير وجعل الوضع افضل مما كان عليه فى الماضى ومما هو عليه الآن .

المتشائم : ولكن لماذا لم يحصل شئ كهذا خلال بضعة من الوف السنين الاخيرة ؟

المتفائل : لأن الغلبة كانت طوال هذا الوقت للملكية

الخاصة ، كما كانت المصالح الشخصية او الفئوية او الطبقية ، وفى مقدمتها مصالح رجال الاعمال والاحتكارات الكبرى ، توضع فوق مصالح المجتمع . وكان البشر فى وضع كهذا يسترشدون بآراء واحكام وقيم وايدولوجيا لا تراعى مصالح البشرية جمعاء ، وبالتالي لا تراعى مصالح الموقف العقلانى الحريص والمعقول ازاء الطبيعة .

المتشائم : ولكن ايمكن تغيير هذا الوضع ؟

المتفائل : دون شك .

المتشائم : وكيف يتم ذلك ؟

المتفائل : اعتقد أن خير جواب عن هذا السؤال الذى يمس ابرز مصالح البشر الجذرية ، أى جوهر موقف الانسان من البيئة ، تقدمه الفلسفة المادية الجدلية . فما هو الفارق بينها وبين الاحكام الفلسفية غير الماركسية ، وفيم يتمثل برنامجها الايجابى ، وما هى آفاق تنفيذ هذا البرنامج ؟ سنقوم الآن بمناقشة هذه المسائل .

٣٠٣

النظرات ما قبل الماركسية الى الطبيعة والمجتمع . كانت علاقة الانسان بالطبيعة تتغير مع تطور المجتمع ، الامر الذى كان ينعكس فى مختلف التعاليم عن علاقات المجتمع بالطبيعة . كان البشر البدائيون مستهلكين للثروات الطبيعية . فعلى مدى مئات الوف السنين كانوا يقتاتون على الحيوانات والنباتات وينامون فى الكهوف ويرتدون جلود الحيوانات ويستخدمون الادوات المصنوعة من الخشب والحجر والعظام . وكانوا يكتفون باستثمار مواد الطبيعة ، دون أن يصنعوا بانفسهم ما لم يكن له وجود فى الطبيعة . وكان مستوى تطور القوى المنتجة هذا ينعكس فى منظومة التصورات الدينية والخرافات والاساطير التى تتجسد فيها علاقة الانسان المعقدة والمتناقضة بالعالم المحيط به . فمن جهة كانت الطبيعة تؤمن للانسان الحياة والغذاء ، لهذا كانت هدفا يؤلهه ويتعبد اليه . ومن جهة اخرى كان الانسان يصارع باستمرار قوى الطبيعة الرهيبة والغامضة ويسعى الى التغلب عليها واخضاعها ، ويتعامل فى

احيان غير نادرة تعاملنا عدائيا مع الكثير من الظواهر الطبيعية .
وفى فترة تفسخ المجتمع البدائى ونشوء بواكير الدول
العبودية تعلم البشر فلاحه الارض وزراعة واكثر الغلال وتربية
الحيوانات المدجنة . وبفضل صنع الادوات المعدنية والفخارية
وتعلم الانتفاع من النار اخذ الانسان يصنع اشياء ومواد
غذائية وملابس ومساكن ووسائل تنقل لم يكن لها وجود فى
الطبيعة . وفى نتيجة تطور القوى المنتجة والتقنية ابتدأت
عملية تحويل الطبيعة .

وفى غضون مئات الوف السنين من التاريخ البدائى غير
البشر الطبيعة تغييرا شديدا : قاموا بتقطيع الغابات وابادة
انواع كثيرة من الحيوانات وشق مئات الطرق والدروب
والمسالك . وفى ظل المجتمع الطبقي تسارعت اضعافا مضاعفة
عملية تغيير الطبيعة فى مجرى نشاط البشر العمل والاجتماعى .
غير أن هذا النشاط كان ، فى العادة ، عفويا ونتائجه مفاجئة
تماما وليست كالتى كان يسعى اليها البشر فى بادى الامر .
وهذه سمة مميزة لجميع التشكيلات السالفة وما يناسبها من
ثقافات .

وكانت الفلسفة القديمة ، ولا سيما المادية القديمة ،
ترمى الى معرفة العالم ككل . وعند تناول هذا العالم (الكون)
ككل متكامل ومتنام ، وفى سعى لفهم اصوله ومنشأه ، لم
يكن الفلاسفة القدماء يفهمون الدور الفعال الذى يمارسه
الانسان فى تحويل الطبيعة المحيطة به . اذ كانوا ينظرون الى
هذا الدور كهدف للمراقبة ، وليس كنشاط تحويلى هادف
وواع .

كان الدين واللاهوت المسيحى ، شأن سائر الاديان
العالمية المسيطرة فى عصر القرون الوسطى ، يتميز بموقفه
السلبي من الطبيعة . فالطبيعة ، فى رأى فلاسفة القرون
الوسطى الكلاميين ، خلقها الرب لتكون فى خدمة الانسان ،
ذلك أن الانسان هو وحده الذى يحوز بذرة الروح الالهية ،
اما الطبيعة فتنتوى على اصل خسيس .

ولم يتعاضم الاهتمام بالطبيعة تعاظما حادا الا فى عصر

النهضة وما أعقبه من تطور سريع فى العلوم الطبيعية . بيد أن هذا الاهتمام كانت تعكره روح الطمع البرجوازى والسعى الى ابتزاز الارباح . وقد ذهب فرنسيس بيكون ، وهو احد مؤسسى فلسفة وعلم العصر الحديث الى أن معرفة الطبيعة ضرورية بالنسبة لهناء المجتمع . فكل تدمير فى المجتمع - حسب اعتقاده - سببه الفقر وسوء الادارة . ولا يتسنى تلافى هذين النقصين الا بواسطة العلم . فالمعارف العلمية قوة ، على حد قول بيكون . وهدف العلم هو معرفة الطبيعة وضمان السيطرة عليها . وبإمكان السيطرة على الطبيعة أن تؤدى الى هناء واستقرار المجتمع . وكان المقصود بذلك طبعاً هو المجتمع القائم على الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان . ووجد فى هذه الآراء تعليلاً له الفهم البرجوازى لموقف المجتمع من الطبيعة . فقد أراد البشر أن يأخذوا من الطبيعة أكثر ما يمكن ، لكن احدا لم يطرح امام المجتمع مهمة القيام بأيام نشاط فى سبيل الحفاظ على الطبيعة . واصبحت فكرة السيطرة على الطبيعة حجر الزاوية فى الفلسفة البرجوازية السابقة للماركسية . اذ كانت هذه الفكرة تبرر الموقف الوحشى من الطبيعة واستنزاف الثروات الطبيعية . وباتت ضرورة اعادة النظر جذرياً فى هذا الموقف من الطبيعة وتجاوزه ملحة بصفة خاصة عندما افضى الجرى البرجوازى وراء الارباح ، وهو صفة لصيقة بالراسمالية المعاصرة ، الى أزمة فى البيئة تهدد البشر اجمعين بكارثة .

٣٠٤

المادية الجدلية والعلاقة بين الطبيعة والمجتمع . تنظر الفلسفة الماركسية الى المجتمع كنتيجة لتطور الطبيعة . الى جانب ذلك ، ثمة فارق عميق بين الطبيعة والمجتمع : ففي الطبيعة ليس ثمة مفعول الا لقوى عمياء لاواعية يؤثر بعضها فى بعض وتتجلى فى تفاعلها القوانين العامة . اما فى تاريخ المجتمع ، فعلى العكس ، يكون المفعول للبشر المتمتعين بالوعى والتائقين الى تحقيق اهداف معينة . ولكن مهما كان هذا الفارق مهما ، فهو لا يغير حقيقة ان مجرى التاريخ يخضع لقوانين داخلية عامة .

وتتيح النظرة المادية الى المجتمع الفرصة ايضا لفهم آلية العلاقة بيننا وبين الطبيعة . وتتمثل هذه الآلية فى سيرورة العمل (١٢٥ ، ٢٠٤) . فالبشر فى سيرورة العمل لا يصنعون القيم المادية فحسب ، بل ويكوّنون انفسهم كمخلوقات مفكرة واعية . وتكون الطبيعة بمناسبة موضوع للنشاط الانتاجى المادى ، بمثابة مادته الاولى . اما الانسان الذى يعكس الطبيعة فى وعيه ويضع نصب عينيه اهدافا شخصية واجتماعية معينة ، فيعتبر ذات هذا النشاط . فنشاط الانسان الانتاجى يتيح له فرصة استيعاب وتحويل مادة الطبيعة بشكل معين . ولم يقتصر رواد الماركسية اللينينية على الاشارة الى أن سيرورة العمل هى الآلية الاساسية للترابط بين الانسان والطبيعة وان الانسان ينفصل بفضل العمل عن الطبيعة ، ويضع نفسه فى مواجهتها ، بل كانوا يؤكدون دوما ارتهان تفاعل الانسان والطبيعة باشكل الملكية السائدة وما تملّيه من تنظيم للمجتمع .

ان علاقة الانسان بالطبيعة متناقضة . فمن جهة ، يعتبر الانسان نفسه منتوجا للطبيعة . والطبيعة هى اهم الشروط المادية لنشاطه الحيوى . فالثروات الطبيعية وموارد الطاقة وخصوبة التربة وتوفر المياه ، كذلك الهواء والمناخ وما الى ذلك تؤثر تأثيرا معينا فى تطور المجتمع . ومن جهة اخرى يقوم الانسان فى سيرورة العمل بتغيير الطبيعة . وعندما يضع الناس نصب اعينهم اهدافا محددة ويسعون الى تحقيقها ، يقومون بتغيير الطبيعة بحيث غالبا ما تكون نتائج نشاطهم النهائية مخالفة لاهدافهم ونواياهم الاولى .

والمعروف أن الحيوانات تؤثر فى الاخرى فى الوسط الطبيعى المحيط بها ، محدثة فيه تغيرات ملحوظة الى هذا القدر او ذاك . بيد أن تأثير الانسان اقوى مئات ، بل والوف المرات . ولأجل تفادى عواقب هذا التأثير الوخيمة والمدمرة لا يكفى ادراكها فقط . فهذا الادراك بحد ذاته ، كما نعلم ، يحدده الوجود الاجتماعى ، وهو مرهون به . ويستدل من ذلك بالضرورة أن التفاعل الصحيح المتناسق بين الانسان والطبيعة ،

الذى يضمن التطور التقدمى للمجتمع ولا يؤدى فى الوقت ذاته الى تخريب الطبيعة ، لا يمكن أن يتم الا بشرط تحويل المجتمع بأسره ، وفى المقام الاول تغيير طريقة الانتاج ، بعبارة اخرى ، الا فى حالة الانتقال الى الاشتراكية ومن ثم الى الشيوعية . ولكن لماذا تتيح الشيوعية بالذات حسم وازالة التناقضات بين الطبيعة والمجتمع ، التى ظهرت وتفاقت طوال فترة التشكيلات السالفة كافة ؟ السبب هو أن تصفية الملكية الخاصة تتيح تطبيق الانتاج المبرمج والمعلل علميا للموارد المادية والانتفاع منها لصالح المجتمع بأسره ، لصالح البشرية جمعاء ، وليس لصالح حفنة من الرأسماليين أو الاحتكارات . وعلى الضد من كل النظريات البرجوازية ترى الماركسية اللينينية أن التناقضات بين الطبيعة والمجتمع يجب أن تحل لا على اساس سيطرة الانسان على الطبيعة ، بل على اساس تصفية كل انواع السيطرة . فبالغاء سيطرة الانسان على الانسان تلغى الشيوعية ايضا سيطرة الانسان على الطبيعة ، اذا كان المقصود بـ«السيطرة» الاستثمار المنفصل للثروات الطبيعية من اجل جنى الارباح . وعوضا عن «مبدأ السيطرة» البرجوازي يجب أن يتكرس - بالتعبير المجازي - «مبدأ التعاون» الذى يتم فى ظلّه توفير الظروف الملائمة لتطور المجتمع ولصيانة وأنماء الطبيعة على السواء . واذ توفر الشيوعية الظروف اللازمة لتطور كل فرد ولتطور المجتمع ككل تطورا شاملا ، انما توفر الظروف اللازمة ايضا لتطور الطبيعة المتناسق . **فالتفاعل بين المجتمع والطبيعة فى الظروف الجديدة يجب أن يقوم على اساس مبدأ التطوير والاعناء المتبادل القائم على الفهم العميق للقوانين الموضوعية لتطور الانسان والوسط المحيط به .**

البيئة ، البيولوجى والاجتماعى فى تطور المجتمع

٣٠٥

بنية البيئة . فما هى البيئة ، اذن ؟ ان البيئة منظومة معقدة (١٠٦) . وابرز منظوماتها الثانوية هى الوسط الطبيعى

لمعيشة الانسان ووسط المعيشة الاصطناعي .

الوسط الطبيعي جزء من الطبيعة يتفاعل معه المجتمع في سياق تطوره ونشاطه الحيوى . وفى بداية ظهور البشرية كان وسط معيشتها الطبيعي لا يشتمل الا على جزء صغير من سطح الارض . اما الآن فهو لا يشمل كل سطح الارض فحسب ، بل ايضا بواطنها والمحيط العالمى والمجال الجوى المحيط بالارض ، وكذلك جزءا من منظومتنا الشمسية . ومع تطور التقنية والعلم سوف يتوسع الوسط الطبيعي لمعيشة الانسان .

والوسط الاصطناعي هو ذلك الجزء من البيئة الذى صنعه الانسان فى سياق التطور التاريخى للانتاج المادى ، ويعتبر ناتجا لنشاطه الحيوى ، وليس موجودا بحد ذاته كالطبيعة . فما الذى يدخل ضمن تركيب الوسط الاصطناعي ؟ يضم هذا الوسط مجموع ما شيده الانسان من مساكن ومدن ومراكز حضرية وطرق ووسائل نقل وادوات عمل وعدد ومعدات تقنية ومواد صناعية لا وجود لها فى الطبيعة ومصانع ومعامل ، الخ .

على هذا النحو يجرى تطور المجتمع فى ظروف مادية معقدة تشمل وسط المعيشة الطبيعي والاصطناعي على السواء . وفى مختلف العصور التاريخية كان دور وتناسب هاتين المنظومتين الثانويتين للبيئة مختلفين ، كما كان لهما تأثير مختلف فى نشاط الانسان الحيوى . والانسان نفسه كان له هو الآخر تأثير متباين فى البيئة ، وكان يقوم بتغييرها ، وفى الوقت الراهن يجرى جزء كبير من نشاطه الحيوى فى وسط اصطناعي يعد هو نفسه ناتجا لتحويل وتغيير الوسط الطبيعي .

ولننظر الآن بمزيد من التفصيل كيف كان يجرى ويتغير فى سياق التطور التاريخى تفاعل المجتمع مع مختلف المنظومات الثانوية للبيئة .

٣٠٦

البشرية ووسط المعيشة الطبيعي . ان الوسط الطبيعي الذى

تحيا وتتطور فيه البشرية معقد جدا . وهو يضم : ١ - سطح الارض على اختلاف تربته وجباله وانهاره وبحاره وصحاريه ، الخ : ٢ - المناطق المناخية المختلفة : ٣ - مختلف مجاميع الحيوانات والنباتات ، الخ . كل هذا بمجمله يسمى عادة **بالوسط الجغرافى** . فعلى مدى عشرات ومئات الوف السنين كان البشر يعيشون ويتطورون على سطح الارض ، دون أن يتوغلوا فى بواطنها أو يرتادوا غلافها الجوى ، ناهيك عن أن يتجاوزوا حدود هذا الاخير . وحين لاحظ مفكرو الماضى ان ثمة قبائل وشعوبا وامما مختلفة تحيا فى ظروف جغرافية مختلفة ، وانتبهوا الى اختلاف تنظيمها الاجتماعى ومستوى تطورها ، خلص العديد منهم الى استنتاج مفاده أن الخصائص الاساسية للحياة البشرية وأن تطور الثقافة ، وكذلك النظام الاجتماعى ترتبهن بالوسط الجغرافى . فمتهم من ذهب الى أن العامل الحاسم للتطور الاجتماعى هو المناخ القاسى او المعتدل ، ورأى آخرون أن السبب الرئيسى للتطور هو خصوبة التربة وغزارة النباتات والحيوانات ، وجعل طرف ثالث منهم تطور المجتمع مرهونا بوجود طرق المواصلات المائية والانهار والبحار والبحيرات وما الى ذلك . وكان لمثل هذه الآراء ما يبررها . ففي المراحل الاولى من التطور كان البشر بالفعل يتطورون تطورا أنجح فى البلدان ذات المناخ الاكثر اعتدالا والاغنى من حيث عالمى النبات والحيوان ، فيما بقيت المناطق ذات المناخ القاسى والتربة القليلة الخصوبة غير مأهولة . ولكن لا يجوز أن نعزو تطور البشرية الى تأثير الوسط الجغرافى وحده . ففي ظروف جغرافية واحدة يجرى تعاقب تشكيلات اجتماعية مختلفة على مدى بضعة الوف أو حتى بضع مئات من السنين . ولو كان كل شىء يتوقف على الوسط الجغرافى ، فكيف يمكن تفسير وجود بلدان ذات اقتصاد متخلف ومستوى ثقافة منخفض نسبيا فى امريكا اللاتينية وكذلك فى افريقيا الوسطى الغنيتين بالنباتات والحيوانات والمتسمتين بمناخ دافئ ؟ هذه المسائل تدفع الى الاعتقاد بأن العلاقة بالوسط الجغرافى والارتهان به ليسا

بالامر البسيط والهيّن . علاوة على ذلك ، أن البشرية تتوغل مع تطور المجتمع فى اعماق الارض وتتجاوز حدود غلاف الارض الجوى ، فيغدو مفهوم الوسط الجغرافى ضيقا جدا . فما الوسط الجغرافى ، اذن ، سوى جزء من الوسط الطبيعى لمعيشة البشر .

بامكاننا أن نشخص فى الوسط الطبيعى لمعيشة الانسان مجموعتين من الظواهر هما المصادر الطبيعية لوسائل الحياة (النباتات البرية ، الثمار ، الحيوانات ، الخ) والثروات الطبيعية التى هى مواد العمل (الفحم ، النفط ، طاقة مساقط المياه والرياح ، الخ) . وفى المراحل المبكرة من تطور المجتمع البشرى ، حين كان مستوى تطور القوى المنتجة منخفضا ، كان البشر مرهونين الى درجة كبيرة جدا بالمصادر الطبيعية لوسائل الحياة . وريثما لم يكن بمقدور البشر أن يربسوا النباتات الزراعية والحيوانات المدجنة وأن يشيدوا المساكن المدفأة ، وما الى ذلك ، ما كان بامكانهم أن يعيشوا الا فى البلدان الدافئة المناخ والوافرة النباتات والحيوانات البرية . ومع تطور وتحسن ادوات العمل اخذ يضعف ارتهان البشر بالمصادر الطبيعية . ولكن اخذ ينمو فى الوقت ذاته ارتهانهم بالثروات الطبيعية ، أى المواد الاولية وموارد الطاقة وما الى ذلك . وتتيح الصناعة والتقنية المعاصرة الفرصة امام الانسان لاستثمار مناطق الارض التى كانت منيعة فسى الماضى . وبواسطة الاسمدة الكيماوية نراه يحول التربة الجدياء الى تربة خصبة . وباستخدام المواد الانشائية الجديدة ومنظومات التدفئة راح يستثمر المناطق القطبية . وبالانتفاع من مختلف انواع الطاقة لم تعد حياة الانسان مرهونة بالخشب كمصدر وحيد للتدفئة ، وهلمجرا . فى الوقت ذاته يتنامى ارتهان الصناعة والزراعة بمواد طبيعية اولية كالنفط وخامات الحديد واليورانيوم وغير ذلك . ويندرج فى اساس هذه العملية تطور القوى المنتجة الذى يرتهن فى الكثير هو الآخر بنمط العلاقات الانتاجية ، وفى مقدمتها شكل الملكية السائد .

أن المادية التاريخية التى لا تنكر تأثير وسط المعيشة

الطبيعى فى نشاط البشر الحيوى تبين لنا ان هذا التأثير
يجرى عبر طريقة انتاج الخيرات المادية (٢٠٤) . اذن ،
يتوقف طابع هذا التأثير وتغييراته لا على الطبيعة ذاتها ، بل
على العوامل الاجتماعية ، وبالدرجة الاولى على الانتاج المادى
الذى هو اساس الحياة الاجتماعية بأسرها . مثلا ، أن تأثير
الفضاء الكونى فى حياة المجتمع يغدو ممكنا بفضل تطور
التقنية الفضائية العصرية التى ستنجح فى المستقبل القريب
استثمار احتياطات الطاقة والمواد الاولى المتوفرة فى كواكب
المنظومة الشمسية لتلبية احتياجاتنا الارضية . فكم سيكون
تأثير هذا العامل ؟ ان مدى هذا التأثير يرتهن بالتقنية
وبالنظام الاجتماعى الذى تتطور فيه هذه التقنية وتؤدى
وظائفها . أن الانتفاع السلمى من التقنية الفضائية لصالح
المجتمع بأسره يفترض وجود نظام اجتماعى تسخر فى ظله
ثروات الفضاء الكونى الطبيعية لخدمة البشرية ، فتساعد على
صيانة ونماء الطبيعة الارضية . وبالعكس ، أن عسكرة التقنية
الفضائية يمكن ان تعرقل الانتفاع المعقول من الثروات
الطبيعية المتوفرة فى الفضاء الكونى المحيط بأرضنا . لهذا
السبب يكتسب النضال من اجل الحيلولة دون عسكرة الفضاء
الكونى ، وضد التحضير لما يسمى بـ«حروب النجوم» ، أهمية
تاريخية خاصة . ويخرج هذا النضال على اطر الفعل السياسى
ذى الطابع المحدود والموقت ليتحول الى نشاط عالمى
النطاق .

على هذا النحو يمكن استخلاص الاستنتاجات التالية بشأن
تأثير الوسط الطبيعى فى تطور البشرية . اولا ، أن وسط
المعيشة الطبيعى يعتبر شرطا من أهم الشروط المادية لنشاط
البشر الحيوى . ثانيا ، أن تأثير الوسط الطبيعى ليس هو
التأثير الرئيسى والحاسم . فطابع هذا التأثير يرتهن بمستوى
القوى المنتجة ونمط العلاقات الانتاجية فى المجتمع المعنى .
ثالثا ، أن المصادر الطبيعية لوسائل العيش تؤثر فى المجتمع
على الاغلب خلال المراحل المبكرة من تاريخه ، التى تتسم
بمستوى منخفض نسبيا لتطور القوى المنتجة ، اما تأثير

الثروات الطبيعية فيتنامي مع نمو القوى المنتجة .

٣٠٧

البيولوجى والاجتماعى فى الانسان . يشتمل وسط المعيشة الطبيعى على شتى اشكال الحياة . والانسان نفسه حيوان عاقل رفيع التنظيم تميز عن الطبيعة بفضل العمل . فمن جهة ، أن الانسان كائن حى ويجب أن يخضع للقوانين العامة المتحركة بتطور الطبيعة الحية أو المجال الحيوى (البيوسفير) . وهو ، من جهة اخرى كائن اجتماعى ينتج ادوات معينة ويصنع بواسطتها ما يلزمه من اشياء ومواد غذائية ووسط اصطناعى متميز . ويخضع المجال الحيوى لقوانين التطور البيولوجى . اما الانسان فيحيا حسب قوانين التطور الاجتماعى . إذن ، فالانسان يجمع فى ذاته بين اصلين اثنين هما الطبيعى والاجتماعى ، أى البيولوجى والاجتماعى .

عند تناول تطور المجتمع وتفاعله مع الطبيعة غالبا ما يؤكد الفلاسفة البرجوازيون أن الانسان يخضع بالدرجة الاولى لقوانين النشاط الحيوى البيولوجية . وهم ، بطبيعة الحال ، يدركون ان البشر مخلوقات مفكرة واعية تضع امامها اهدافا مدركة . رغم ذلك ، فالانسان ، فى رأى هؤلاء الفلاسفة ، يتصرف فى الاغلب كالحيوان . ويدعى انصار نظرية التحليل النفسى التى وضعها عالم النفس النمساوى فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) أن الاخلاق والثقافة ليست سوى آليات رادعة اوجدها المجتمع للوقاية من غرائز الانسان الحيوانية . وفى معظم الحالات تلعب هذه الغرائز التى يصفها فرويد بانها «لاواعية» الدور الحاسم فى سلوك الافراد والمجتمع بأسره . ويذهب الفرويديون الى أن سلوك البشر يرتفع فى التحصيل الاخير بالغرائز التى ورثها الانسان من اجداده القدماء . والدافع الحاسم لسلوك البشر هو الغريزة الجنسية . والثقافة بأسرها غشاء رقيق يخفى الغرائز الحيوانية ويتمزق باستمرار تحت ضغط هذه الغرائز . اما بعض اشكال سلوك البشر كالروح العدوانية او التنافس او التعاون فما هى الا امتداد بسيط لنشاط الحيوانات .

لقد انتشرت خلال الاونة الاخيرة في البلدان الرأسمالية ، ولا سيما فى الولايات المتحدة ، نظرية البيولوجيا الاجتماعية التى وضعها عالم الوراثة الأمريكى ويلسون . فهو يدعى أن الثقافة نفسها تخضع لقوانين الوراثة البيولوجية . وتقتضى الضرورة وضع علم وراثة ثقافى يبحث فى تطور الثقافة البشرية من زاوية البيولوجيا . بيد أن ويلسون وانصاره اضطروا تحت تأثير الوقائع العلمية الى الاعتراف بأن الطابع البيولوجى المحض لا يسم فى الواقع الا ١٥ بالمئة من افعال السلوك البشرى . بيد أن القضية لا تنحصر بتاتا فى تدقيق هذه النسبة او التحقق من صحتها ، بل هى فى فهم مغزى هذه الآراء والاهداف التى تخدمها . أن ممثلى نظرية التحليل النفسى وعلم الوراثة الثقافى يحملون وراثة الانسان وغرائزه الحيوانية المسؤولية المترتبة على الحروب العدوانية والنزاعات الاجتماعية المختلفة . وبذا تبذل محاولة لاعطاء تعليل «علمى» لمختلف اشكال الشرور الاجتماعية ولحتمية الحروب وما الى ذلك . فمنذ القرن التاسع عشر ، بعد ظهور نظرية دارون ، انتشر فى المجتمع البرجوازى مذهب الدارونية الاجتماعية الذى قام بنقل قوانين الصراع البيولوجى على البقاء التى اكتشفها دارون ليطبقها على المجتمع . ومن وجهة النظر هذه ، يتجلى فى الصراع الطبقي الصراع داخل الانواع الذى اكتشفه دارون ، والذى يساعد على تطور وارتقاء الانواع البيولوجية . وما دام الامر كذلك فإن الصراع الطبقي سوف يبقى ريشما يبقى البشر . وهنا يمكن بيسر تشخيص محاولة تكريس الرأسمالية والصراع الطبقي الى الابد ، استنادا الى الادعاء بمنشأ البيولوجى .

أن الفهم العلمى الحقيقى لعلاقة الاجتماعى والبيولوجى لا يمكن أن يوفره الا الفهم المادى للطبيعة والمجتمع . فالانسان كائن حى . بيد أن طبيعته البيولوجية بحد ذاتها تغيرت تغيرا جذريا خلال عملية التطور التاريخى تحت تأثير العمل وتطور اشكال الحياة الاجتماعية . وبرغم أن بعض العمليات الطبيعية كالدورة الدموية والتنفس والهضم وما شابه ذلك تخضع

لقوانين بيولوجية عامة ، او بالاحرى للقوانين الفلسفية ،
فحتى هذه العمليات ترتفع الى قدر معين بظروف الحياة
الاجتماعية . وكلما كان شكل سلوك البشر ونشاطهم ارقى
واعقد ، تنامي دور السنن الاجتماعية . فعملية تفاعل البشر
وتطور تفكيرهم وحياتهم الاجتماعية يحددها فى التحصيل الاخير
نشاطهم الانتاجى المادى والاجتماعى . ويفسر انقسام المجتمع
الى طبقات وفئات اجتماعية ، والحروب والتعاون العالمى ،
والتربية العائلية وتطور الثقافة لا بالقوانين البيولوجية ، انما
بالقوانين الاجتماعية .

ان الآليات الاجتماعية فى سلوك الانسان تطفى على
الآليات البيولوجية ، وإن كانت لا تلغيها . ولجل ان ترتدى
هذه الآليات طابعا ابداعيا خلاقا ، وليس هداما ، يقتضى
الامر فى المقام الاول تحويلا جذريا للمجتمع نفسه وليس
اعادة بناء الطبيعة البيولوجية للانسان .

ويتحدد تكون طبع الانسان وقدراته واشكال سلوكه
واهتماماته وميوله بالوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه . ان
قصة كيبلينغ الشهيرة «ماوغلى» تتحدث عن صبي ترعرع بين
الذئاب ثم عاد الى حياة البشر الطبيعية . ويقص بيراوز فى
رواية «طرزان ربيب القردة» شيئا مماثلا عن انسان قامت
احدى اناث القردة بتنشئته ، ثم حقق فى وقت لاحق نجاحات
كبيرة فى عالم اليزنس الراسمالى . اما فى الواقع ، وكما جرى
اثبات ذلك بما لا يقبل الدحض ، فان مثل هذه الوقائع
مستحيلة الحدوث . ففى الحالات التى وجد الاطفال خلالها
انفسهم بالفعل فى كنف الحيوانات البرية ، لم يتسن قط لآى
منهم ان يعود بعدئذ الى حياة البشر الطبيعية . ذلك ان
الانسان لا يتربى ولا يشب انسانا مكتمل القيمة الا فى الوسط
الاجتماعى . ولا يتمكن الا بمساعدة هذا الوسط من امتلاك
ناصية اللغة والوعى والثقافة ومراس السلوك الاجتماعى
والقدرة على العمل وتغيير العالم . وبطبيعة الحال ان الانسان
يتسم بأصول بيولوجية معينة وصفات وراثية بيولوجية ،
كأى كائن حى ، لكنها هى الاخرى تعتبر ليس فقط نتيجة

للارتقاء البيولوجى ، بل وحصيلة لبضعة ملايين السنين من التطور الاجتماعى . لهذا السبب بالذات تبحث الفلسفة الماركسية اللينينية دون أن تنكر الأساس البيولوجى لنشاط الانسان الحيوى عن مفتاح لحل جميع معضلات المجتمع المعاصر لا فى طبيعة الانسان البيولوجية ، بل فى طبيعته الاجتماعية .

٣٠٨

الاعراق والامم . يتيح الفهم الصحيح لعلاقة البيولوجى والاجتماعى الفرصة ايضا لفهم الدور الذى تمارسه فى تطور المجتمع خصائص البشر العرقية والقومية .

أن كل انسان يعرف من تجربته الشخصية أن البشر يتمايزون بصفات متنوعة وسمات طباع مختلفة ، بمستواهم التعليمى وموقفهم من المصالح الاجتماعية ، بلون البشرة وطول القامة وتقاسيم الوجه واللغة وما الى ذلك . فقسم من هذه الصفات سيكولوجى ، وقسم ثان اجتماعى ، وقسم ثالث بيولوجى . ويعزى الى عدد الصفات البيولوجية ما يلى : لون البشرة ، طول القامة ، بعض خصائص الجسم ، وهلمجرا . وعلى اساس هذه الصفات تشخص الانثروبولوجيا ، وهى علم يدرس منشأ وارتقاء وتطور النظام البيولوجى للانسان ، بصفة اعراق . والاعراق هى نسق من الروابط البشرية المختلفة ، أى القبائل والشعوب والامم ، التى يجمع بينها وجود عدد من الصفات البيولوجية العامة . وجرت العادة على تشخيص ثلاثة اعراق اساسية هى : العرق الاوروبى ، أى البشر ذوو البشرة البيضاء ، والعرق الزنجى ، أى البشر ذوو البشرة السوداء ، والعرق المغولى ، أى البشر ذوو البشرة الصفراء والمقل المائلة . وبطبيعة الحال أن كل هذه الصفات اصطلاحية جدا ونسبية ، علاوة على انها ليست واضحة المعالم على الدوام . لهذا تذكر احيانا كذلك اعراق بينية ، غير اساسية . وتحمل خصائص البشر العرقية طابعا بيولوجيا .

وبخلاف الخصائص العرقية تتجلى الخصائص الاثنية (من كلمة ethnos الاغريقية التى تعنى القبيلة او الشعب)

والخصائص القومية فى الملامح الاجتماعية ، وهى تميز روابط
بشر نشأت تاريخيا . وتعزى الى هذه الروابط القبائل
والشعوب والامم . واكثرها تعقيدا هى الامم . انها تنشأ
نتيجة تطور تاريخى طويل فى عصر معين ، هو عصر الانتقال
الى الرأسمالية . اذ يترابط اعضاء القبيلة الواحدة او الشعب
الواحد بعلاقات عائلية معينة وعلاقات قربنى الدم ، وبقدر
معين من وحدة المنشأ . اما الامم فتنشأ نتيجة اتحاد و«تخالط»
و«انصهار» ابناء مختلف القبائل والشعوب (المتقاربة احيانا
من حيث المنشأ) . والبشر الذين ينتمون الى امة واحدة
يتكلمون لغة واحدة .

ويرتبط تكوين الاممة بمرحلة معينة تماما من التطور
الاقتصادى والاجتماعى والتاريخى .
ولنعمل الفكر الآن فى ماهية الصلة بين الاعراق والامم
وماهية علاقة هذه المسألة بتفاعل الطبيعة والمجتمع وتربط
البيولوجى والاجتماعى فى الانسان .

منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الاول
من القرن العشرين ، أى فى فترة ازدهار النظام الاستعمارى
العالمى واصطراع الدول الامبريالية على تقسيم العالم اخذت
تظهر وتنتشر على نطاق واسع نظريات عنصرية متطرفة
مختلفة . فخصائص البشر الاساسية ، فى رأى العنصريين ،
ترتفع بطبيعتهم البيولوجية . والخصائص البيولوجية للاعراق
ازلية وثابتة . وهى تحدد قابليات البشر الذهنية وقدرتهم على
بناء صرح الثقافة والابتكار وممارسة السلطة واخضاع الاعراق
والشعوب الاخرى ، الخ . وهناك اعراق رفيعة واخرى وضيعة .
وكل ما هو قيم فى تاريخ وثقافة البشر انما هو من صنع
الاعراق الرفيعة ، اما الوضيعة فهى غير قادرة حتى على
استيعاب ما صنعتها الاعراق الرفيعة ، لذا يجب عليها ان تخضع
لها . وكان مؤدلجو الفاشية الالمانية يعتبرون الآريين هم
العرق الاسمى ، والالمان هم الامة التى جسدت اكمل تجسيد
الروح الآرية . ولا يزال عنصريو امريكا وجنوب افريقيا
يروجون لتفوق العرق الابيض أى العنصر الاوربى على العرق

الزنجى ذى البشرة السوداء . والاعراق الوضيعة من وجهة نظر المذهب العنصرى تعتبر طفيلية تقوم بتخريب الطبيعة والحضارة ، لذا يجب أن يخضع نشاطها لتحكم الاعراق الرفيعة .

ويرتبط المذهب القومى ارتباطا وثيقا بالعنصرية . فأنصار المذهب القومى يجاهرون بتفوق قومية على اخرى . وبتقسيم الامم ووضع بعضها فى مواجهة البعض الآخر ، يمهّد القوميون فى الواقع لاستغلال الشعوب والامم المبعثرة من قبل الطبقات المسيطرة . أذن يلعب المذهبان العنصرى والقومى دورا ايدىولوجيا رجيا . وهما يواجهان التعليم الماركسى عن الصراع الطبقي من اجل تحرير البشرية من الفقر وغياب الحقوق واستغلال الانسان للانسان بتعليم عن الاسس البيولوجية لتفوق بعض البشر على بعضهم الآخر ، وعن حق بعض الامم فى استعباد الامم الاخرى ، وعن الصفة الازلية للتناقضات القومية والنعرات القومية وتعذر اجتيازها . وهدف هذه الآراء هو تبديد قوى الكادحين واضعاف نضالهم ضد العدو المشترك ومن اجل الاشتراكية والشيوعية . وليس اعتباطا ان يكون الشعار الاول والاساسى للحركة البروليتارية والثورة الاشتراكية هو : «يا عمال العالم ، اتحدوا !» . فما هى الحجج التى تجابه بها الفلسفة الماركسية اللينينية المذهبين العنصرى والقومى ؟

لقد اثبت العلم المعاصر أن جميع الاعراق انحدرت من اجداد مشتركين للانسان . ففي فترة نشوء البشرية (٢١٦) كانت المصادر الطبيعية لوسائل العيش تلعب الدور الحاسم فى منظومة الظروف الطبيعية المحيطة بالبشر . وفى نتيجة تبعثر القبائل والروابط البدائية القديمة ، كذلك فى نتيجة بعض الطفرات البيولوجية (أى التغيرات الوراثية الطارئة) ظهرت ومن ثم ترسخت وتناقلت الاجيال بعض صفات الانسان البيولوجية الثانوية (لون البشرة ، شكل الجمجمة ، فتحة العين ، الخ) . وفى ظروف تاريخية معينة ساعد بعض هذه الصفات على تكيف الانسان بصورة افضل لوسط معيشة طبيعى

معين مكث فيه اعضاء الرابطة القبلية المعنية ردحا طويلا جدا من الزمن . ومع تسارع التطور الاجتماعى ، وتنامى الدور الذى اخذت تلعبه الثروات الطبيعية والموارد الطبيعية الداخلية فقدت الصفات العنصرية ، البيولوجية ، نهائيا اهميتها التكييفية . وفى الوقت الراهن يعيش ابناء جميع الاعراق ويزاولون اعمالهم بنجاح فى جميع قارات الارض وفى كل الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وأثبت ايضا ان لدى ابناء الاعراق المختلفة قدرات ذهنية ومواصفات سيكولوجية متكافئة ، الخ . ويخلف التزاوج بين ابناء مختلف الاعراق والشعوب ذرية مؤهلة تماما للحياة . وعلى مدى ملايين السنين من تطور البشرية كانت الاقوام (والافراد) التى تنتمى الى اعراق مختلفة تغير مئات المرات اماكن معيشتها وتقيم علاقات قربى الدم وعلاقات عائلية وروابط زواج مختلفة . لذا لا سبيل الى الحديث عن اعراق «نقية» . فالاعراق «النقية» اسطورة ايديولوجية من اساطير الدعاية العنصرية والفاشية والقومية . ويدل تطور الحركة التحررية الثورية المعاصرة وظهور عدد غفير من الدول الفتية النامية فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية على أن الشعوب والامم المنتمية الى الاعراق الزنجية والمغولية تستطيع السير بنجاح على طريق التقدم العلمى والتقنى وتطوير علومها وثقافتها واقتصادها دون ان تتخلف بشئ عن ابناء العرق الاوروبى . وهى قادرة على الاستغناء عن سلطة المستعمرين البيض وتقرير مصيرها بنفسها . ومعروف ايضا أن ابناء الاعراق كافة اقاموا على مدى التاريخ غير مرة دولا لهم وشيدوا ثقافة معقدة ومارسوا دورا معيناً فى تقدم البشرية التاريخى . وبامكاننا أن نجد بين ابرز العلماء ورجال السياسة والادب والفلسفة ممثلين لكل الاعراق والشعوب . وبمقدورنا أن نستخلص من الوقائع المذكورة استنتاجين لا جدال فيهما : ١ - أن جميع الاعراق متكافئة القيمة وقادرة على الاسهام بقسطها فى تطور المجتمع وثقافته ، وأن اسطورة التفوق العنصرى باطلة ؛ ٢ - أن الصفات البيولوجية للاعراق ليست

هى الحاسمة بالنسبة الى المصائر التاريخية لمختلف الشعوب والبشر ، وأن هذه الصفات نفسها تنشأ وتتغير فى سياق العملية التاريخية وهى معرضة الى حد كبير لتأثير العوامل الاجتماعية . ويستدل من ذلك بوضوح تام أن علاقة وتفاعل البشر مع الطبيعة لا تحددهما الاعراق ، بل الاسباب والظروف الاجتماعية التاريخية .

اما بخصوص ترابط الاعراق والامم ، فإن الامم - كما اسلفنا - تنشأ فى ظروف تاريخية محددة تماما وتحددها كليا السمات الاجتماعية وليس البيولوجية .

عند الانتقال الى المجتمع الاشتراكى ، وفى فترة تطوره الشامل يتغير ايضا الطابع الاجتماعى للامم . اذ تختفى التناقضات الطبقة فيما بينها وينشأ مستوى رفيع من التجانس الاجتماعى ، وتنشأ امم اشتراكية وتشعر فى تطور سريع .

٣٠٩

دور السكان فى تطور المجتمع . يستند العلماء البرجوازيون ، عادة ، فى مسعاهم الى اثبات أن العامل الحاسم للتطور الاجتماعى هو القوانين البيولوجية وليس الاجتماعية ، الى الدور الخاص الذى يلعبه السكان . فهم يدعون أن حالة المجتمع ترتفع بنمو السكان ، وأن هذا النمو يرتفع هو الآخر بقوانين التكاثر البيولوجية . على هذا النحو يجرى اخضاع النشاط الحيوى للمجتمع وتطوره للقوانين البيولوجية . فهل هذا صحيح ؟ أن هذا السؤال يتطلب تحليلا تاريخيا ملموسا .

كيما نفهم الدور الذى يلعبه السكان وازدياد عددهم فى حياة المجتمع ، سوف نتناول بعض الوقائع . يبلغ عدد سكان العالم الآن اكثر من ٥ مليارات نسمة ، ويستمر نمو عددهم باطراد . ولكى نتصور سرعة هذا النمو نشير الى أن عدد نفوس سكان المعمورة كان قبل ١٠ الاف سنة يبلغ حوالى ٥ ملايين نسمة ، وقبل الف سنة قرابة ٢٠٠ مليون ، وفى عام ١٦٥٠ ما لا يقل عن ٥٠٠ مليون ، وفى عام ١٩٥٠ بلغ ٢,٤ مليار ، وفى مؤتلف عام ١٩٨٥ قرابة ٥ مليارات نسمة . واذا استمرت وتيرة الزيادة هذه فسوف يبلغ عدد

نفوس سكان الارض فى مطلع القرن القادم ، حسب التقديرات ، ما يربو على ٦ مليارات نسمة ، وبعد ١٠٠-٢٠٠ سنة سوف تغدو كتلة البشر العامة مقاربة بقدر ما لكتلة الارض نفسها . وغالبا ما يوصف نمو عدد السكان الجامح الملحوظ خلال السنوات الاخيرة بـ«الانفجار السكانى» . ويرى العلماء البرجوازيون أن كل الموارد الطبيعية لا تكفى لاطعام هذا العدد الجم من البشر وتأمين ما يلزمهم من خيرات الحياة كالمسكن والملبس ومياه الشرب والهواء . لذا فإن البشرية سوف تخرب الطبيعة تخريبا نهائيا ، وستهلك هى نفسها جراء ذلك . هذه الحجج ليست بالجديدة .

لقد تقدم الاقتصادى الانجليزى مالثوس (١٧٦٦-١٨٣٤) فى اواخر القرن الثامن عشر بنظرية تفيد بأن عدد سكان الارض ينمو نموا سريعا جدا - حسب قوانين المتواليات الهندسية ، فى حين يتطور انتاج المواد الغذائية وغيرها من الخيرات المادية الضرورية تطورا أبطأ - حسب قوانين المتواليات العددية . وذهب انصار مالثوس الى أن الحروب والابئة وغيرها من الكوارث التى تؤدى الى تقلص عدد السكان تعتبر وسيلة ضرورية للتحكم بزيادة عدد السكان . ويقترح انصار مالثوس المعاصرون بشكل موه الى هذا القدر او ذاك ايضا وسائل مختلفة للتحكم القسرى بنمو عدد السكان . ويواصلون الاصرار على أن العالم يشهد باستمرار فيضا سكانيا مطلقا ، أى فيضا من البشر «الذين لا لزوم لهم» بأدعاء انهم يعرقلون التطور الاجتماعى ويلتهمون الموارد الطبيعية الشحيحة اصلا . فهل هذا صحيح ؟

تشير المعطيات الأثرية الى أن الزيادة فى عدد نفوس اجداد الانسان واوائل البشر خلال مرحلة نشوء المجتمع كانت بطيئة جدا . اذ كانت تعيقها الظروف الطبيعية القاسية وانخفاض مستوى تطور القوى المنتجة . وكان تسارع نمو عدد السكان يلاحظ كل مرة عند الانتقال الى انتاج اكثر تطورا . فالانتقال من الادوات الحجرية الى المعدنية ومن الصيد وجمع القوت الى تربية المواشى والزراعة قد رافقته طفرات

فى نمو عدد سكان الارض . وعلى الرغم من عدم وجود تناسب دقيق قد حدد مرة والى الابد بين مستوى تطور القوى المنتجة ووتيرة نمو عدد السكان فى مختلف التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ، فان معطيات العلوم التاريخية تتيح البرهنة بشكل قاطع على أن نمو عدد السكان يرتفع فى التحصيل الاخير بتطور طريقة الانتاج (٢٠٤) . وفى ظروف التطور البطيء نسبيا الذى تتسم به طريقة الانتاج الاقطاعية ، تكون الزيادة فى عدد السكان ، عادة ، بطيئة هى الاخرى . وبالعكس ، فالتطور السريع لطريقة الانتاج الرأسمالية القائمة على الصناعة الآلية يكون حافزا لتسريع نمو عدد السكان . وينبغى خلال ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار أن طريقة الانتاج ، كونها العامل الحاسم لنمو عدد السكان ، ليست هى السبب الوحيد لهذا النمو . فزيادة وبنية عدد السكان وتركيبته المهنية والعمرية لا تتأثر بالقوى المنتجة والعلاقات الانتاجية فحسب ، انما تتأثر ايضا بالعديد من التقاليد القومية وبثقافة الشعب المعنى وبمختلف الاحداث التاريخية والحروب والثورات وما الى ذلك . الى جانب ذلك تؤثر وتاثر نمو وبنية عدد السكان تأثيرا عكسيا فى مجمل منظومة الانتاج المادى . فهى فى بعض الحالات قد تساعد على تطور الانتاج ، وفى حالات اخرى على تعويقه . فلماذا تؤثر طريقة الانتاج بالذات والقوانين المتحركة بها تأثيرا حاسما فى قوانين نمو وبنية عدد السكان ؟ أن المادية التاريخية تتيح الفرصة للإجابة عن هذا السؤال . فالقضية هى أن الانسان يعد القوة المنتجة الرئيسية ، وفى كل العصور التاريخية كانت الاغلبية الساحقة من السكان تزاوّل العمل الانتاجى . لهذا كانت كل اشكال النشاط الاجتماعى تبنى تبعا للنشاط الانتاجى الذى كانت تنشأ فى سياقه وتتطور الظروف المادية لوجود البشر بحد ذاتها . بحكم ذلك اصبحت قوانين النشاط الانتاجى فى التحصيل الاخير هى الحاسمة ايضا فيما يتعلق بكل انواع النشاط البشرى الاخرى . وتتجلى فى المجتمع المعاصر بوضوح تام ايضا حقيقة أن طريقة الانتاج

والعلاقات الاجتماعية المرتقبة بها تضطلع بالدور الحاسم
فى نمو عدد السكان وبنيته .

وتفيد التقديرات المتوفرة بأن بالامكان انتاج مواد غذائية
فى الاراضى الزراعية المتوفرة تكفى لاطعام ١٠ مليارات من
البشر فى ظل الحالة الراهنة للتقنية والعلوم الزراعية .

علاوة على ذلك ، أن ما يسمى بالسكان الفائضين ليس
نتيجة نمو السكان السريع جدا ، انما هو حصيلة شكل معين
لتنظيم المجتمع . فمن المعروف ، مثلا ، أن ثمة حضورا دائما
لجيش كبير من العاطلين فى كبريات البلدان الرأسمالية .
وقد أبان رواد الماركسية اللينينية أن البطالة تتحدد لا
بالقوانين البيولوجية لتكاثر البشر ، بل بخصائص نظام
الاقتصاد الرأسمالى .

فى ظروف الاشتراكية المتنامية يطرح تطوير قاعدة الانتاج
تكنولوجيا واعتماد التكنولوجيات الجديدة التى تنطوى على جهد
علمى كبير وما ينجم عن ذلك من تغير فى البنية الاجتماعية
طائفة كاملة من المعضلات الجديدة ، يعزى اليها بالدرجة
الاولى توفير اليد العاملة لمناطق البلد السريعة التطور
والقليلة السكان واعتماد نظام لاعادة التأهيل المهنى للكوادر
التي تسرح فى سياق الاصلاح الاقتصادى الجذرى ، واعتماد
نظام لتشغيل السكان القادرين على العمل ، وما الى ذلك .
ويجرى حفز نمو السكان ، شأن التحكم به ، فى ظروف المجتمع
الاشتراكى على اساس المبادئ الديمقراطية للعدالة الاجتماعية
والشعور الانسانى .

فى الوقت ذاته ينبغى أن نفهم فهما واضحا أن فيض
السكان الكبير جدا قد يعيق نمو الانتاج ويسبب صعابا
اجتماعية كبيرة . وقد تؤثر الزيادة البطيئة فى السكان وشحة
اليد العاملة تأثيرا سلبيا كذلك فى تنمية القوى المنتجة .
لهذا تنشأ فى الظروف الراهنة حاجة موضوعية الى الادارة
العلمية لهذه العملية . فقد كان نمو السكان حتى هذا الحين
يجرى بصورة غير مستوعاة . ورغم أن هذا النمو كان يخضع
فى التحصيل الاخير ليس للقوانين البيولوجية ، بل لقوانين

الانتاج الاجتماعى والتطور الاجتماعى عموماً ، كانت هذه القوانين تشق طريقها بشكل عفوى . وتتوفر الآن ظروف وحاجة موضوعية الى التحكم الواعى بنمو السكان . والمقصود بذلك هو ليس تقييد الولادات على طريقة مalthus القسرية ، بل هو طائفة كاملة من التدابير المدروسة يمكن بفضلها لنمو السكان أن يتنامى فى بعض المناطق والبلاد ، وأن يتباطأ فى بعضها الآخر . وعلى هذا التحكم أن يستند بالدرجة الاولى الى مستوى رفيع من الثقافة والوعى لدى الاغلبية الساحقة من البشر . وهذا أمر لا يمكن أن يتم الا بحضور الانتفاع المبرمج من كل الموارد البشرية لصالح المجتمع بأسره . إذن ، فالجواب عن سؤال كيف يؤثر الانفجار السكانى الراهن فى العلاقات بين الطبيعة والمجتمع وكيف يمكن تحاشي آثاره الخطرة ، ينبغى البحث عنه ليس فى قوانين البيولوجيا ، بل فى القوانين الموضوعية لتطور المجتمع وقيامه بوظائفه .

٣١٠

وسط المعيشة الاصطناعى . هكذا نرى أن وسط المعيشة الطبيعى وقوانين الطبيعة ، ومن جملتها القوانين البيولوجية تؤثر فى المجتمع ليس تأثيراً مباشراً ، بل عبر طريقة الانتاج وما ينشأ على اساسها من علاقات اجتماعية . ومع تطور الانتاج المادى يغير الانسان الطبيعة المحيطة به ويخلق وسط معيشة اصطناعيا هو ثمرة نشاطه الحيوى . وينطوى وسط المعيشة الاصطناعى ليس فقط على الاشياء التى صنعها الانسان ولا وجود لها فى الطبيعة ، بل وعلى الكائنات الحية من نباتات وحيوانات اصطناعها او اشتقها الانسان بفضل الاصطفاء الصناعى او الهندسة الجينية (الوراثية) . بيد أن وسط المعيشة الاصطناعى لا ينحصر فى هذا الاساس الشئى . فالانسان لا يستطيع العيش والعمل الا ضمن منظومة علاقات اجتماعية معينة . وتجرى ممارسة هذه العلاقات الاجتماعية فى ظروف مادية معينة ومن ضمنها الظروف التى اصطنعها الانسان ، وهى تشكل مع هذه الاخيرة الوسط الاصطناعى لمعيشة الانسان .

ومع تطور المجتمع يتنامى باطراد دور وسط المعيشة الاصطناعى ، ويزداد تأثيره فى حياة البشرية باستمرار . وكما نتأكد من ذلك نسوق الحقيقة التالية : أن كتلة جميع ما اصطنعه الانسان من اشياء واحياء تسمى بالكتلة التقنية . اما كتلة جميع الاحياء الموجودة فى الظروف الطبيعية والتي لم تتعرض بعد لعملية اضافة الصفة الانسانية عليها تسمى بالكتلة البيولوجية . وتدل التقديرات على أن الكتلة التقنية التى تنتجها البشرية المعاصرة خلال عام واحد تبلغ قرابة ١٢١٠-١٤١٠ طن ، اما الكتلة البيولوجية الجارى انتاجها على اليابسة فتبلغ ١٢١٠ طن . ويستدل من ذلك ان البشرية قد اوجدت منذ الآن وسط معيشة اصطناعيا ذا مردود يزيد عشرات ومئات المرات على مردود الوسط الطبيعى . وهذا لا يعنى ، بطبيعة الحال ، أن البشر يستطيعون الاستغناء عن الطبيعة وعن وسط المعيشة الطبيعى . فالطبيعة تبقى الى الابد ممهدة وأساسا للمجتمع البشرى . ولا يمكن لوسط المعيشة الاصطناعى أن يبقى ويتطور الا بوجود الوسط الطبيعى . بيد أن البشرية تلبى فى الوقت الراهن جزءا كبيرا من احتياجاتها المادية والروحية على حساب وسط المعيشة الاصطناعى .

ومن الاهمية بمكان أن نفهم أن نمو وتطور وسط المعيشة الاصطناعى يرتبطان ارتباطا وثيقا بنمو وتطور العلاقات الاجتماعية وتنظيم المجتمع بأكمله . فاذا كان المجتمع قائما على الملكية الخاصة وليس له هدف واحد وتتناهشه التناقضات التنافسية ولا يستطيع بحكم ذلك أن يتطور تطورا مبرمجا ، فإن اقامة وسط المعيشة الاصطناعى يؤدى بالحثم الى تخريب الوسط الطبيعى ، ذلك أن الوسط الاصطناعى فى هذه الظروف يشيد عن طريق تخريب واستغلال الطبيعة بلا رحمة . وعلى الضد من ذلك ، فى ظل المجتمع الاشتراكى الذى يتمثل هدفه النهائى فى توفير اكثر الظروف ملاءمة لتطور كل فرد ولتطور المجتمع بأكمله يجب أن يتطور الوسط الاصطناعى ويتغير بما يناسب هذا الهدف . ويقتضى هذا التطور صيانة وتحسين

وسط المعيشة الطبيعي ايضا ، ذلك أن من دونه يتعذر تطور الفرد تطورا شاملا ومتناسقا . إذن ، فالتناقض بين الطبيعة والمجتمع ، وهو الذى يتجلى فى التناقض بين الوسط الطبيعي والاصطناعى لمعيشة الانسان لا يمكن فحسب ، بل ويجب حله وتجاوزه . ويرتبط حل وتجاوز هذا التناقض بالتحويل الثورى الجذرى للمجتمع نفسه .

أن التطوير الشامل لوسط المعيشة الاصطناعى ، بحيث يحول هذا الوسط الى منظومة من اكثر الظروف ملائمة لتطور الفرد والمجتمع ، يفترض ويقتضى تقدما علميا تقنيا جبارا . اما كيف يجب أن تحل المشكلات الاقتصادية والتقنية والاجتماعية وغيرها فتلك قضية تضطلع بها العلوم الطبيعية والتقنية والاجتماعية الخاصة . اما الجانب الفلسفى من القضية فيتلخص فى أن نفهم أن تجاوز التناقض بين الطبيعة والمجتمع ، بين وسط المعيشة الطبيعي والصناعى واشاعة الانسجام بينهما لا يمكن ان يتما الا فى حالة توفر ثلاثة شروط موضوعية : ١ - القيادة والادارة الواعية والمبرمجة والجارية فى صالح الجميع لعملية تطور المجتمع وقيامه بوظائفه ؛ ٢ - التغيير الجذرى للنظام الاجتماعى بحيث لا تكون مصالح البرجوازية والاحتكارات الوطنية والمتعددة الجنسيات متعارضة ومتضاربة مع مصالح الاغلبية الساحقة من البشر ؛ ٣ - العمل بشتى السبل على توسيع وتعميق التقدم العلمى التقنى ، ذلك انه لا يتسنى الا على اساسه تخطى الصعاب التى نشأت خلال المراحل السالفة من العملية التاريخية العفوية .

الطبيعة والمجتمع فى عصر التقدم العلمى التقنى

٣١١

ما هو التقدم العلمى التقنى او الثورة العلمية التقنية ؟ يجرى تطور انتاج الخيرات المادية ومجال الخدمات فى الوقت الراهن بوتيرة جامعة بحيث تتغير على مدى حياة جيل واحد انواع السلع المنتجة والمعدات التقنية اللازمة لصنعها ومراس البشر

الانتاجى على السواء . وفى مجرى كثير من العصور السالفة كان الامر يختلف تماما . اذ كانت نفس المعدات التقنية يستخدمها العديد من الاجيال لانتاج نفس المنتجات وتستخدم من جيل الى جيل نفس اشكال تنظيم العمل . وبخلاف هذا الشكل التقليدى من تطور الانتاج ، يمكن وصف شكله الراهن الذى يتسم بسرعة تغيير المعدات التقنية والمنتجات بأنه ثورة علمية تقنية دائمة . ولا يندر أن يطلق عليها نعت التقدم العلمى التقنى . فما هى خصوصية هذا التقدم ؟ وما هى ابرز خواصه الاساسية ؟

ينبغى بالدرجة الاولى أن نستوضح ان العلم يغدو القوة الحاسمة والعامل الحاسم للانتاج . صحيح أن معارف البشر وخبراتهم التى تدخل فى تركيبة القوى المنتجة (٢٠٤) كانت احد ابرز حوافز تطوير ادوات العمل والنشاط الانتاجى . لكنها كانت هى نفسها عبارة عن تعميم لاشكال واساليب الانتاج القائمة والمعمول بها . وكانت الاكتشافات والابتكارات ظاهرة نادرة . وحتى حين بدأت تظهر المعارف العلمية المعاصرة كان الدور الحاسم للانتاج المادى ، أى للصناعة والزراعة . وكان العلم فى الاغلب يسعى الى اعطاء رد على متطلبات الممارسة ، لكنه لم يكن قادرا باستمرار على تلبيتها ، ذلك أن ادخار وتطوير المعارف العلمية خلال المراحل المبكرة من تطور العلم كانا يعجيان ببطء شديد . وفى اواسط القرن العشرين تغير الوضع جذريا . فقد ازداد حجم المعارف العلمية ازديادا عظيما ولا يزال يتنامى باطراد . وفى اواخر الستينات - اوائل السبعينات كان حجم المعارف العلمية يتضاعف كل ٥-٧ سنوات . اما الآن فهو يتضاعف كل ٢٠ شهرا ، وفى العقد القادم سوف يتضاعف سنويا ، حسب التقديرات المتوفرة . وبفضل ذلك اصبح العلم يحد ذاته أهم قوة محركة للانتاج . وهذه هى السمة المميزة الاولى للتقدم العلمى التقنى .

وتتمثل سمته المميزة الثانية فى التنامى المستمر لدور الابحاث العلمية الاساسية .

والسمة الثالثة هي أن الفترة الفاصلة بين الاختراع والاكتشاف العلمى وبين اعتماده وتصنيعه تغدو اقصر فاقصر . ولئن كان انتشار واعتماد الافكار العلمية والتقنية الجديدة يستغرقان فى الماضى عشرات السنين ، بل وحتى مئات السنين احيانا ، فان هذا الموعد الآن يقاس بسنوات قليلة ، بل وحتى ببضعة اشهر .

وأخيرا ، ترتبط السمة المميزة الرابعة بالانتقال خلال السنوات القلائل الاخيرة الى مرحلة جديدة من التطور العلمى التقنى تتوفر كل المسوغات لوصفها بالمرحلة العلمية التكنولوجية .

فما هي التكنولوجيا فى الانتاج التقليدى ؟ أن كل عملية انتاج تقتضى ليس فقط توفر الادوات والمكان والعدد المختلفة وحيازة ما يناسب ذلك من المراس والمعارف ، انما يتطلب كذلك تنظيم عملية الانتاج بشكل صحيح . وهذا يتطلب بدوره قدرة على أن يحدد المرء متى وأية عملية ينبغي القيام بها ، وبأى تعاقب ، وبأية سرعة يجب القيام بالعمليات المختلفة ، وما هي المتطلبات التى يجب أن تلبىها مختلف الادوات والآليات والمراحل البينية فى صنع هذه او تلك من المنتجات . كل هذا مجتمعا ، بما فى ذلك ما يناسبه من معارف ، يسمى بالتكنولوجيا .

غير أن التكنولوجيا بالمعنى الراهن للكلمة شئ آخر . فما هي خاصيتها ؟ لقد تم خلال العقود الاخيرة ادراك محدودية كل الموارد ، عمليا ، التى كان الانسان يتعامل معها من قبل . فبالامكان استنفاد او تخريب الموارد الطبيعية والتقنية وموارد الطاقة والغذاء والتربة والموارد البشرية والمالية فى حالة استثمارها بشكل مفرط . علاوة على ذلك ، اخذت تتطور منظومات انتاج جديدة جبارة تستخدم كمية هائلة من الطاقة والخامات والتقنية العالية القدرة . واتضح أن كل انواع الانتاج الجديدة هذه قد تؤدى الى جانب صنع السلع المفيدة والضرورية للانسان الى عواقب كبيرة ضارة وغير مرغوب فيها . فانشاء المحطات الكهروذرية يتيح فرصة الحصول على

كميات كبيرة من الطاقة الكهربائية الرخيصة والاقتصاد في استهلاك النفط والفحم . لكنه يؤدي في الوقت ذاته الى تـكـوّن النفايات المشعة وارتفاع النشاط الاشعاعي ، مما يشكل خطرا على الانسان والطبيعة . وتنتج مؤسسات الصناعة الكيميائية الجبارة مواد ومستحضرات قيمة تيسر حياة الانسان ، بيد ان النفايات المتكوّنه خلال ذلك تلقى في مزابل هائلة او تـلـفـظ الى الانهار فتؤدى الى تسمم الارض والمياه ، الامر الذى يهدد البشر والحيوانات بويلات ومصائب جسيمة . ان تحاشى هذه وغيرها من العواقب الوخيمة الاخرى ، وجعل الانتاج بلا نفايات وتحويل النفايات الصناعية نفسها الى خامات مكررة واستخدامها فى الدورات الانتاجية الجديدة يتطلب تغيير التكنولوجيا بحد ذاتها . لهذا جرت العادة الآن على الحديث عن تكنولوجيات عصرية جديدة ، وليس عن مجرد التقنية الجديدة . وابرز انواع هذه التكنولوجيات هى تكنولوجيا الطاقة وتكنولوجيا الفضاء وتكنولوجيا المواد الجديدة والبيوتكنولوجيا والهندسة الجينية وتكنولوجيا العقاقير ، الخ . وليس المقصود هنا هو الجمع البسيط بين العلم والتقنية ، بل اندماجهما ، لأن التكنولوجيا نفسها تغدو بالكامل علمية قائمة على منظومة (١٠٦) .

أن تطوير التكنولوجيات الجديدة حلقة مهمة فى اقامة العلاقات المنسجمة بين المجتمع والانتاج على اساس ارفع درجات الاقتصاد فى استهلاك أنواع الموارد الطبيعية والاجتماعية كافة . وابرز هذه التكنولوجيات التى تؤثر تأثيرا حاسما فى سائر التكنولوجيات الاخرى هى التكنولوجيا الاعلامية التى تشمل تصميم وصنع الكمبيوترات العصرية القادرة على القيام بمليارات العمليات فى الثانية والمتمتعة بذاكرة عملاقة ، وصنع الجديد من الاجزاء الدقيقة التى تجعل الكمبيوترات صغيرة الحجم ، ووضع كل انواع البرامج واللغات الخاصة للبرمجة ، التى تؤمن حل اعقد المسائل المتعلقة بخزن وتحليل وتقصى ونشر المعلومات . وبفعل ذلك تغدو التكنولوجيا الاعلامية محور وحافز مرحلة تكنولوجية

جديدة ، فيما يتحول الاعلام (ولاسيما العلمى) الى عامل تثوير جبار لتسريع التنمية التقنية والاقتصادية الاجتماعية . أن أهميتها تتنامى باستمرار لانها نوع الموارد الوحيد الذى لا تبذره البشرية فى سياق تطورها التاريخى ، بل - على العكس - تعمل على تنميته وزيادته . علاوة على ذلك ، أن زيادة حجم المعلومات العلمية التى تشمل كل انواع المعرفة التقنية والانسانية ومعارف العلوم الطبيعية توفر الاساس اللازم لازالة المخاطر التى جرى الحديث عنها فى حوار المتشائم والمتفائل (٣٠٢) . حتى لتنشأ امكانية ليس مجرد صيانة بعض انواع الموارد التى كانت البشرية حتى الوقت الراهن تبذرهما دون تحفظ . أو محاذير ، بل ايضا اعمار هذه الموارد وزيادتها . بيد أن هذه الامكانية تحتاج لاجل تحولها الى واقع (٤٢٠) الى ظروف معينة ونمط معين من التطور الاجتماعى .

ان التطور العلمى التقنى ، شأن سائر العمليات المهمة اجتماعيا ، معقد ومتناقض . فالحلول البسيطة والوحيدة المدلول لا تنشأ فيه تلقائيا . وهو يرمز الى مرحلة جديدة فى العلاقات بين الطبيعة والمجتمع . وفى ظروف الثورة العلمية التقنية ينخرط فى عملية الانتاج الجديد والجديد من الثروات الطبيعية ، ومصادر الطاقة ، والقطاعات غير المستثمرة بعد من سطح الارض ، والمحيط العالمى وحتى الفضاء الكونى . لهذا ينشأ احتمالان متعارضان كل التعارض (٤٢٠ ، ٤٢٢) ، قد يقود احدهما الى تشديد وطأة التناقضات بين الطبيعة والمجتمع ، وقد يقضى الآخر الى حلول تفاعل جديد مبدئيا بين الطبيعة والمجتمع ، والى شيوع الانسجام بينهما وتبديد اكثر التناقضات حدة . وتتوقف مسألة أى من هذين الاحتمالين سوف تكون له الغلبة فيتحول الى واقع على تطبيق التحويلات الاجتماعية الجذرية فى المجتمع على الصعيد العالمى .

٣١٢

التقدم العلمى التقنى وتبعاته فى ظل الرأسمالية والاشتراكية .
الآن ، بعد أن عرفنا الملامح والمواصفات العامة للتقدم العلمى التقنى ، بإمكاننا أن نطرح السؤال التالى : هل يرتفع تفاعل

الطبيعة والمجتمع بالتقدم العلمى التقنى العصرى ، وإذا كان مرتتها فكيف ، وما هى تبعاته ونتائجه فى مختلف المنظومات الاقتصادية الاجتماعية ؟

أن تطور القوى المنتجة الجامع والناجم عن تنامى التقدم العلمى التقنى يؤدى الى ازدياد قدرة الانسان . ولكن كيف يجرى توظيف هذه القدرة ؟ ولأجل أى غرض ؟ ومن ذا الذى يجنى النفع من تنامى جبروت الانسان باطراد ؟ لأجل جعل مناقشتنا للموضوع أكثر تركيزا ، علينا أن نراجع الاتجاهات الاساسية ، الخطوط الاساسية ، التى يجرى عليها التطور العلمى التقنى .

١ - لقد اسلفنا فى الفقرة أعلاه أن الدور الحاسم لحافز النشاط الانتاجى والادارى خلال المرحلة العلمية التكنولوجية الراهنة من التطور العلمى التقنى تضطلع به تكنولوجيا خاصة هى التكنولوجيا الاعلامية التى اخذت تتطور تطورا حثيثا منذ اربعينات القرن الحالى وبلغت خلال نصف قرن تقريبا ابعادا مدهشة وحقت نتائج تقنية لم يكن بوسع البشرية حتى أن تحلم بها قبل بضعة عقود من السنين . كانت بواكير الكمبيوترات العملاقة تؤدى بضعة الوف فقط من العمليات فى الثانية . اما السوبركمبيوترات الحديثة فتؤدى الآن مليارات العمليات فى الثانية . وتقلصت مئات المرات كمية ما تستهلكه من الطاقة . وكانت الكمبيوترات الاولى تشغل بضع قاعات كبيرة وتستخدم فيها مئات الكيلومترات من الاسلاك . اما الميكروكمبيوترات العصرية فتوضع على المكاتب . وبالنظر لحدث الابتكارات فى مجال الموصلات الخارقة العالية الحرارة ، بإمكاننا أن نتوقع فى اواسط التسعينات كمبيوترات تؤدى عشرات المليارات من العمليات فى الثانية وتتمتع بذاكرة قادرة على استيعاب المعلومات المحفوظة فى ملايين الكتب ، علما بأن حجمها لن يزيد على حجم جمجمة الانسان . ويجرى العمل الآن على صنع الذهن الاصطناعى . وسيكون باستطاعة الكمبيوترات ذات الذهن الاصطناعى أن تضطلع بطروحات منطقية معقدة جدا ، وسيكون بالإمكان تكليفها بحل

اعقد المسائل المتعلقة بجملة من الابحاث العلمية ، وبتصميم مكائن ومؤسسات كاملة . وسيكون بمقدورها أن تضطلع بادارة حقول الانتاج المرنة اوتوماتيكيا . وبمساعدة الكمبيوترات الشخصية سيتسنى اعتماد حقول انتاج عصرية بيتية واحداث ارتفاع حاد فى مستوى انتاجية العمل وتغيير طابع التعليم . وسينال الاطفال والكبار فرصة استيعاب المعلومات الجديدة على نحو اسرع بعشرات المرات ، فيما ستغدو المعارف العلمية غير المتاحة الآن الا للاختصاصيين مفتوحة امام مئات الملايين من البشر . وسيتغير نمط حياة البشر ومعيشتهم واختلاطهم ، كما ستتهار الحواجز اللغوية . وستضطلع الكمبيوترات بترجمة المراجع العلمية والوثائق من لغة الى اخرى بغير معونة الانسان تقريبا . وفى اواخر القرن سوف يتم اعتماد ملايين الروبوتات من الجيل الجديد ، القادرة على الاستجابة للغة البشرية والمتمتعة ببصر ملون ومجسم . فالام سيؤدى كل هذا ؟

فى ظروف المجتمع الرأسمالى يوجد حتى فى اكثر البلدان تطورا جيش جرار من البشر المعزولين عن مزاولة النشاط الانتاجى بفعل التطور العلمى التقنى . وبالرغم من أن تطور التكنولوجيا الاعلامية يؤدى الى توفير عدد معين من فرص العمل الجديدة ، يتنامى باطراد جيش العاطلين الذى اوجدته البطالة وشيوع استعمال الكمبيوترات فى الانتاج . ومرد ذلك الى أن المؤسسات الرأسمالية ترى فى التكنولوجيا الاعلامية بالدرجة الاولى وسيلة لجنى الارباح . أذن ، فالآثار السلبية لانتشار هذه التكنولوجيا ليست نتيجة استخدام الكمبيوترات والروبوتات بحد ذاتها ، انما هى حسيطة استخدامهما الرأسمالى . وعلى الضد من ذلك ، يرمى تطوير واعتماد التكنولوجيا الاعلامية فى المجتمع الاشتراكى الى تحقيق اهداف أخرى . فأعتماد الكمبيوترات والروبوتات فيه يوظف ليس لجنى الارباح ، بل لخدمة مصالح الانسان . وتجرى فى البلدان الاشتراكية اعادة تأهيل الكادحين بصورة منتظمة ، ويخطط لتطوير التكنولوجيات الجديدة على نحو يوفر لجميع السكان

القادرين على العمل فرص مزاولة العمل المفيد اجتماعيا .
٢ - يعتبر ايجاد واستثمار المصادر الجديدة للطاقة احدى اهم وابرز المعضلات العالمية التى تواجه البشر . فحتى الوقت الراهن كان استخدام الطاقة الذرية هو الانجاز الرئيسى لتكنولوجيا الطاقة . غير انه كان ينطوى على الكثير من المخاطر والتناقضات . فمن جهة ، تتيح الطاقة الذرية الحصول على طاقة كهربائية رخيصة وتوفير الوقود الطبيعى ، ومن جهة اخرى ، تشكل باستمرار تهديدا بتلوث البيئة بالاشعاع . بيد ان افدح المخاطر يكمن فى صنع السلاح النووى .

وتتيح الاكتشافات العلمية الحديثة عقد الامل على أن البشر سوف يتوصلون فى أواخر القرن الحالى الى التفاعل النووى الحرارى القابل للتحكم به ، الامر الذى سيضع تحت تصرفهم موارد طاقة غير قابلة للنضوب عمليا . وسيتيح هذا صيانة الكثير من الخامات وتقييد استخدام النفط والفحم والغاز الطبيعى وحصره فى مجال الصناعة الكيميائية .

٣ - تتيح التكنولوجيا الكيميائية العصرية الحصول على مواد اصطناعية جديدة لا وجود لها فى الطبيعة تحل محل الانواع الطبيعية من الجلود والاششاب والمطاط والصوف وبعض المعادن ، الخ ، وتتيح الكيماة انتاج اسمدة ومستحضرات طبية ووسائل لمكافحة الآفات الزراعية تتسم بفعالية عالية . كل هذا يساعد على الانتفاع الافضل من الثروات الطبيعية وتحسين انتاجية القطاع الزراعى وتقوية حالة البشر الصحية واطالة اعمارهم . الى جانب ذلك تسبب النفايات الكيميائية تلوث البيئة والاحواض المائية والتربة وقيعان البحار . وتخصص فى الاقطار الاشتراكية اموال طائلة لمكافحة تلوث البيئة .

٤ - يتيح التقدم العلمى التقنى وضع تكنولوجيا عديمة النفايات . وباعتماد منجزات العلم سيتسنى للصناعة والزراعة العصريتين تنظيم العملية التكنولوجية على نحو يجعل نفايات الانتاج لا تلوث البيئة ، بل يمكن اعادتها الى الدورة الانتاجية كمواد اولية مكررة . ويجرى هنا فى الوقت ذاته ايضا اعتماد كيمياء الاختزال العصرية والحاسبات الالكترونية التى يتسنى

بفضلها تنظيم عملية الانتاج بحيث تغدو عدية النفايات تقريبا ، وبحيث يجرى الانتفاع من المنتجات باقصى قدر ممكن من التوفير . وفى ظل الاشتراكية تتيح الكيماء والتكنولوجيا العديمة النفايات تنفيذ طائفة كاملة من تدابير حماية البيئة وتحسين الوسط الاصطناعى لمعيشة الانسان تحسينا كبيرا فى الوقت ذاته .

٥- أن تطور البيولوجيا ، وخاصة البيوتكنولوجيا وعلم الوراثة والهندسة الجينية ، يجعل ممكنا منذ الوقت الراهن التحكم بالخواص الوراثية للكائنات الحية . وفى المستقبل القريب سوف يتيح الاستخدام الصناعى للهندسة الجينية احداث زيادة حادة فى انتاجية الحيوانات والنباتات الزراعية . وستوفر المنجزات فى هذا المجال الظروف اللازمة للقضاء على الكثير من الامراض والوقاية منها ، والتحسين العام لصحة البشر وإطالة اعمارهم . ولكن يطرح استمرار تطور البيولوجيا الناجح بالضرورة مسألة مراقبة هذا التطور وأدارته من قبل المجتمع لصالح الاغلبية .

٦- تضطلع التكنولوجيا الزراعية العلمية فى المجتمع المعاصر بدور على قدر كبير من الاهمية . فقد ادخر البشر خبرة هائلة فى الزراعة وتربية الحيوان على مدى بضعة الوف من السنين ، وهى خبرة تؤمن لهم ما يلزم من المواد الغذائية . ولكن فى ظروف ما يسمى بالانفجار السكانى لم تعد احتياطات الغذاء التى تنتج بالطريقة التقليدية تكفى الآن الكثير من البلدان والشعوب ، لا سيما تلك التى تحررت مؤخرا من ربقة الاستعمار . ولقد وضع العلم المعاصر كثيرا من الطرائق الفعالة فى التنمية العمودية للزراعة . وهذه الطرائق مجتمعة تشكل التكنولوجيا الزراعية الحديثة . ويعزى اليها استخدام الاسمدة العالية الفعالية والالكترونيات والتقنية الزراعية الحديثة والقيام باعمال معقدة للارواء واصلاح الاراضى ، واخيرا ، اصطفاء واشتقاق الانسال العالية الانتاجية من الحيوانات والدواجن والانواع الجديدة من النباتات الزراعية .

بيد أن تبعات كل هذه المستجدات تختلف باختلاف الأنظمة الاجتماعية .

نحن لم نتناول هنا سوى التبعات الأساسية للتقدم العلمي التقنى والتكنولوجيات العصرية المختلفة فى الأنظمة الاقتصادية الاجتماعية المختلفة . ونستخلص من ذلك أن طابع آثار التقدم العلمى التقنى الراهن لا يرتفع بالتقنية والتكنولوجيا بحد ذاتهما ، ولا بالنتائج العلمية المنفردة ، بل بالظروف التى تستخدمان فيها وبالأهداف المنشودة منهما . أن المغزى الفلسفى لتحليلنا يتلخص فى كون موقف الإنسان من العالم المحيط به أو المجتمع بالطبيعة يتم عبر ظروف اجتماعية معينة . وإذا كنا نروم جعل هذه العلاقة منسجمة وبناءة لا تؤدى الى تخريب الطبيعة ، وتوفر فى الوقت ذاته الظروف الملائمة لتطور البشرية ، فلا بد قبل كل شيء من توفير الظروف الاجتماعية المناسبة .

٣١٣

الوعى الايكولوجى والصراع الايديولوجى . يسرى مفعول قوانين تطور الطبيعة موضوعيا ، وقوانين تطور المجتمع موضوعية هى الاخرى ، لكن مفعولها يسرى عبر نشاط البشر حائزى الوعى . وتفاعل الطبيعة والمجتمع يجب أن يجرى بمراعاة قوانين تطور الطبيعة وقوانين التطور الاجتماعى على السواء ، أى فى شكل خاص من الوعى الاجتماعى هو الوعى الايكولوجى .

لقد جرى ادراك اهمية الطبيعة بالنسبة للإنسان والمجتمع بصورة تدريجية ، على مدى قرون عديدة . بيد أن الوعى الايكولوجى نشأ وتكوّن منذ وقت قريب نسبيا ، وفى مجرى بضعة عقود فقط . وتتلخص خاصية هذا الوعى فى انه عبارة عن شكل من اشكال الوعى الاجتماعى الجماهيرى الذى يعكس واقعا معقدا ومتناقضا وخطرا للغاية نشأ فى العالم المعاصر نتيجة اختلال التوازن الايكولوجى وتلوث البيئة ومخاطر نفاد الموارد الطبيعية واحتمالات انحطاط البشر اجتماعيا فى نتيجة آثار التقدم العلمى التقنى الهدامة . وبعد أن نشأ الوعى

الايكولوجى ، بادی ذى بدء ، كشكل من اشكال الاحتجاج على هذه الآثار لدى بعض الجماعات من العلماء والمهندسين والاطباء والمثقفين ومختلف الفئات العرقية الخ ، بات فى الوقت الراهن يستولى على عقول مئات الملايين من البشر فى بلدان العالم كافة . وابرز نتيجة لتطوره هى أن استعادة التوازن الايكولوجى وصيانة الطبيعة و«رد الاعتبار» لها باتت هدفا انسانيا عاما وقيمة انسانية عامة . بيد أن هذا لا يلغى حقيقة أن ثمة صراعا ايديولوجيا حادا جرى ويجرى ضمن اطار الوعى الايكولوجى . فالمدافعون عن التقدم العلمى التقنى فى البلدان الرأسمالية المتطورة ، رغم اعترافهم بخطر الكارثة الايكولوجية ، يسعون الى القاء جريرتها على شعوب الاقطار النامية وعلى جماهير الكادحين الواسعة ، بادعاء انها لم تبد اهتماما بصيانة الوسط الطبيعى المحيط بها . وبخلاف هؤلاء ، يتهم مؤدجوا من يسمون اليوم بـ«الخضر» الصناعة الثقيلة والتكنولوجيا العصرية والتقدم العلمى التقنى عموما ، بكل المصائب الايكولوجية ، ويتهمون بذلك ايضا الرأسمال الاحتكارى المهتم اهتماما مغرضا بتسريع التطور العلمى التقنى بأى ثمن ، حتى اذا أدى ذلك الى تخريب الطبيعة . على هذا الاساس ينشأ ويتطور اتجاه فلسفى اجتماعى متميز اطلق عليه اسم النزوع المناهض للعلم والمناهض للتقنية . ويميل زعماءه الى اعتبار تطور العلم والتقنية مصدرا لكل مصائب المجتمع المعاصر . ويؤدى تضخيم دور هذه العوامل تلقائيا الى نزع الصفة الانسانية عن الانتاج وتخريب الطبيعة . وهم يرون المخرج من هذا الوضع فى التخلي عن التطور العلمى التقنى والعودة الى الانتاج ما قبل الصناعى ، ما قبل التقليدى ، أى الى ما يسمى بـ«التكنولوجيات البديلة» التى يقصد بها العمل الحرفى وفلاحة الارض القائمة على استعمال المحراث البدائى ، الخ . بيد أن هناك فى الواقع احكاما ايديولوجية تكمن وراء هذه الدعوات الرومانطيقية الى العودة للماضى . فحين يرى ممثلو هذا الاتجاه فى العلم والتقنية مصدرا لجميع مصائب البشر ، انما يتركون فى الظل ، عن ارادة او عن غير ارادة منهم ، الناحية الرئيسية ،

وهى ان آثار التقدم العلمى التقنى الهدامة لا ترتفع بالعلم والتقنية بحد ذاتهما ، بل بطريقة توظيفهما ، وبالنظام الاجتماعى الذى يقومان بوظائفهما فى ظله .

ومن العوامل البالغة الاهمية فى الوعى الايكولوجى فهم حقيقة ان الطبيعة ليست مجرد منظومة من الموارد المفيدة اقتصاديا ، وليست مجرد شرط لبقاء البشر على قيد الحياة ، بل هى ايضا عامل قوى للتربية الجمالية والخلقية ، وعامل لاشاعة النزعة الانسانية فى المجتمع .

أن وضع التدابير الفعالة والعقلانية والمعللة لحماية البيئة لا يتطلب التخلي عن التقدم العلمى التقنى ، ولا يؤدى الى توقف المعرفة العلمية والتطور التكنولوجى . ففى ظروف الاشتراكية المتنامية تتوفر كل الامكانيات لدعم التقدم العلمى التقنى وتكوينه مستقبلا بحيث ينسجم عضويا مع التوازن الايكولوجى ومع صيانة وحدة الوسط الطبيعى . فالآثار السلبية لاستخدام العلم واعتماد التكنولوجيات الجديدة لا يمكن تخطيها الا بواسطة العلم نفسه والتكنولوجيا نفسها . بيد ان هذا يتطلب أن يتم قيامهما بوظائفهما فى مجتمع يتجه بالدرجة الاولى نحو بلوغ اسمى عدالة اجتماعية .

الفصل الرابع القوانين الاساسية للجدلية

لقد تطرقنا خلال الفصول السابقة غير مرة الى اشكال وانواع التطور المختلفة . فالمجتمع هو ناتج تطور الطبيعة ، والوعى نتيجة للتطور الاجتماعى ، وبالدرجة الاولى لتطور النشاط العملى . وليس للشيوعية أن تظهر الا فى نتيجة التطور التاريخى المشروط بقوانينه . والتطور يعتبر أهم نوع من الحركة ، لذا فهو يستقطب جل الاهتمام بالنسبة للعلم والفلسفة المعاصرين . وفى هذا الفصل سوف نتناول الجدلية المادية كونها تعليما عن القوانين الاعم للحركة والتطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر . .

مصادر التطور

٤٠١

فكرة التطور . نحن نعلم أن الحركة صفة ملازمة للمادة وشكل وطريقة لوجودها (١٠٩ ، ١١٢) . وبخلاف الميتافيزيقا التى تحصر الحركة فى الانتقال البسيط فى المكان ، تقصد الجدلية بالحركة التغيرات ، أيا كانت . فالثورة الاجتماعية ودوران الكواكب حول الشمس والتفاعل الكيميائى وتغير مزاج الانسان وانفعالاته — كل هذه امثلة مختلفة عن الحركة . ونحن نصادف باستمرار فى حياتنا اليومية ، وفى حقول الانتاج والصراع السياسى شتى التغيرات ، منها ما لا يحظى باهتمامنا ، ويبدو قليل الشأن ، ومنها ما قد تكون له آثار خطيرة بالنسبة لبعض الناس والدول والبشرية جمعاء والطبيعة ، لذا فهى تثير لدينا اهتماما كبيرا . ومن خلال دراسة مختلف انواع واشكال

حركة المادة لاحظ البشر منذ وقت طويل أن بعض التغيرات يتكرر ويعتبر قابلا للارتكاس وبعضها غير قابل للارتكاس ولا يتكرر . وفى سياق بعض التغيرات قد ينشأ ما هو جديد ولم يكن له وجود من قبل . وهذه التغيرات هى التى تستأثر باكبر قدر من الاهتمام .

والعمليات التى تجرى فيها تغيرات غير ارتدادية وينشأ ما هو جديد هى التى تسمى بعمليات التطور . اما مختلف اشكال التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر فتضطلع بدراستها علوم خاصة كالفيزياء وعلم الفلك والبيولوجيا والتاريخ وعلم النفس وعلم اللغة الخ . بينما تتمثل مهمة الفلسفة الماركسية اللينينية ، مهمة الجدلية المادية ، فى دراسة وتشخيص المواصفات والخصائص والصفات الاشمل للتطور ، مهما كان الشكل الذى يتجلى فيه .

أن الفكرة القائلة فى العلم والفلسفة بأن كل شئ فى العالم يتطور ، بله فهم ما هو التطور وما هى مصادره ، لم تظهر على الفور بشكل جاهز . صحيح أن فلاسفة اليونان القديمة ، ومنهم هيرقليطس مثلا ، كانوا يعتقدون أن الطبيعة والمجتمع يتطوران ، بيد ان فهمهم كان ساذجا ، لانه لم يكن يركز على معطيات علمية صارمة . ورغم الاعتراف بالتطور فى العالم المحيط كان مفكرو اليهود القديمة (٠١٥) يعتبرون الدوران العالمى المتكرر بلانهاية شكلا رئيسيا للحركة . وكانت العلوم الطبيعية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تعطى الاولوية فى الدراسة الى الاشكال الميكانيكية للتنقل فى المكان ، كما كانت بعيدة جدا عن ادراك أن الكون بأكمله ، ومن جملته الارض والمجتمع البشرى ، فى تطور مستمر . صحيح ان الفيلسوف الالماني كانط قد اعرب فى القرن الثامن عشر عن فكرة تفترض تطور المنظومة الشمسية ، وقام فيلسوف الماني آخر ، هو هيغل ، فى اوائل القرن التاسع عشر بوضع جدليته كتعليم عن تطور الفكر والمجتمع ، بيد أن آراءه لم تجد من يقبل بها بين معظم علماء الطبيعيات ، لانه لم يكن يعترف بالتطور فى الطبيعة ، ويتبنى عقيدة مثالية .

أن الفكرة القائلة بأن التطور هو أهم انواع الحركة فى الطبيعة والمجتمع والفكر ، وبأن من المتعذر فهم العالم المحيط بنا بغير ادراك فحوى التطور ، لم تشرع فى الاستيلاء اوسع فأوسع على عقول العلماء ورجال المجتمع التقدميين الا فى اواسط القرن التاسع عشر ، ولاسيما فى القرن العشرين . وقد حدث ذلك تحت تأثير الكم الهائل من الوقائع العلمية المدخرة التى قوضت التصورات الدينية التى تفيد بأن الرب قد خلق العالم مرة والى الابد جاهزا لا يقبل التغير . فقد برهن دارون على وجود التطور فى الطبيعة الحية ، وأبان ان الانسان نفسه هو حصيلة تطور أرقى الحيوانات اللبونة . وجرت دراسة قوانين تطور بعض الكائنات الحية والخلية الحية . ووضعت الفيزياء وعلم الفلك فى القرن العشرين تعليمات عن نشوء وتطور الكون . ويتوافق هذا التعليم توافقا جيدا مع احدث الارصاد والمعطيات التجريبية . وانتقل علم التاريخ تحت تأثير المادية التاريخية الى دراسة تطور المجتمع بصورة منتظمة . وتتوفر بحوزة الجيولوجيا والجغرافيا معطيات لا ريب فيها تؤكد أن الارض نفسها ، سطحها ، وبواطنها ، تتعرض لتطور دائم . وتم اكتشاف قوانين تطور اللغات المختلفة وقوانين تطور نفسية الانسان . على هذا النحو دخلت وترسخت فكرة التطور الشامل أو فكرة التطور فى العلم والفلسفة المعاصرين وفى الوعى الاجتماعى كله .

واتاحت الجدلية المادية تعميم وتعليل تعاليم مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية عن تطور حركة المادة (١١٢) بأشكال مختلفة . ومن خلال مقارنة وتحليل التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر تكشف الجدلية المادية عن سمات التطور الاعم والاشمل التى تميزه عن باقى انواع الحركة . وهذه السمات هى ما يلى : ١ - أن للتطور اتجاها فى الزمن ، وهو من الماضى الى المستقبل مرورا بالحاضر ؛ ٢ - أن عملية التطور لا ارتداد فيها ؛ ٣ - يتجلى فى سياق التطور ، أيا كان ، ما هو جديد ، ولم يسبق له وجود من قبل ؛ ٤ - أن عملية التطور ترتدى طابعا منطقيا ومشروعا ، وثمة قوانين

موضوعية لكل نوع من التطور (تضطلع بدراستها العلوم الخاصة) وقوانين للتطور بوجه عام (تضطلع بأستقصائها الجدلية المادية) . وهذه السمات تحدد مغزى مقولة فلسفية بالغة الاهمية - هي «التطور» - تعزى الى كل ظواهر الطبيعة والمجتمع والفكر . وبوسعنا الآن ان نطرح ونناقش سؤال لماذا يجرى التطور وما هي مصادره .

٤٠٢

ما هي مصادر التطور؟ (حوار) . يجيب الجدليون والميتافيزيقيون (٠١٢) جوابا مختلفا عن السؤال المتعلق بمصادر التطور . ولأجل فهم آرائهم وحججهم بصورة افضل ، نورد حوار شخصين مفترضين يعبران عن الفهم الجدلي والفهم الميتافيزيقي للتطور .
الجدلي (ج) : انا اجزم بأن وراء كل ظاهرة فى حيز التطور سببا خاصا ، أى مصدرا للتطور .

الميتافيزيقي (م) : باعتقادى أن سبب كل عملية تطور هو دافع او محرك او حالة او ظرف خارجى ، كأن يكون تغير البيئة او تأثير قوى خارجية ، الخ .
ج : علام يقوم رأيك هذا ؟

م : على المراقبات . فلكى تتحرك العربة ، لا بد من دفعها . ولئن كفَّ الانسان عن انفاق جهده على تحريكها فسوف تتوقف . كما أن تطور الكائن الحي بحاجة الى ظروف خارجية كضوء الشمس والغذاء والماء ودرجة معينة من الحرارة ، الخ . كذلك الحال بالنسبة للدولة ، فهى تتطور نتيجة تفاعلها مع الدول الاخرى .

ج : باختصار ، أن موقفك هو الآتى : «ان وراء كل تغير وكل حالة تطور فى الطبيعة والمجتمع قوى خارجية» . أليس كذلك ؟

م : أجل ، بالضبط .

ج : أذن ، كيف يمكن تفسير تطور الكون عموما ؟ لقد اثبت علم الفلك المعاصر هذه الحقيقة اثباتا لا يرقى اليه الشك . معنى هذا أن ثمة من يشكل هذا الدافع أو المحرك للعالم بأسره ، وأن هذا المحرك يجب أن يكون خارج الكون .

م : ربما .

ج : فى هذه الحالة سوف يفضى بك الامر بالحتم الى فكرة الرب كمصدر للتطور العالمى .

م : أنا لم أتحدث عن الكون ، بل عن حالات بعينها .

ج : لنناقش الامثلة التى اوردتها . أن مثال العربية لا يدل الا على مجرد انتقال ميكانيكى ، لا على تطور . فحركة العربية قابلة للارتداد ، ولا يظهر فيها ما هو جديد مبدئيا ، وهى لا تناسب صفات التطور (٤٠١) . لذا فالاستنتاج المبني على مثال العربية لا يجوز استخدامه فيما يتعلق بوقائع التطور الحقيقى .

م : وكيف تفسر انت سببها ؟

ج : أن الظروف الخارجية كالضوء والهواء والمغذيات ضرورية ، مثلا ، لتطور النبات . غير أن المصدر الرئيس للتطور يكمن فى النبات نفسه . فإذا كانت عملية الايض ، أى التمثيل الغذائى وفرز نواتج النشاط الحيوى ، تجرى داخله بصورة صحيحة ، فإن التطور يجرى بصورة صحيحة . أما اذا اختل التمثيل الغذائى فقد يتباطأ النمو أو يتوقف عموما . إذن ، فالمصدر الرئيس للتطور يكمن داخل جسم الكائن الحى . كذلك الحال مع تطور الدولة .

ان هذا الحوار يتضمن سردا للفهم الميتافيزيقى والفهم الجدلى لمصادر التطور . ولأجل أن نفهم بصورة افضل مزايا المفهوم الجدلى للتطور ، علينا أن نبحث فى أهم مقولات الجدلية المادية ، وهى مقولتا «التضاد» و«التناقض» اللتان تتيحان لنا فرصة صياغة القانون الجدلى الأكثر عموما الذى يتيح لنا بدوره معرفة مصادر التطور ، أيا كان .

٤٠٣

مقولتا «التضاد» و«التناقض» . بالامكان تناول كل ظاهرة معقدة ، ايا كان قدر تعقيدها ، فى الطبيعة والمجتمع والفكر كمنظومة (١٠٦) . ولأجل ان يتسنى لهذه المنظومة ان تؤدي عملها ، أى ان تقوم بوظائفها ، وان تتطور لابد من أن يجرى بين اجزائها ، أى بين منظوماتها الثانوية وعناصرها

تفاعل معين وأن يكون هناك ترابط وتوافق . فالذرة أو الجسم الحى أو المجتمع منظومات معقدة . فالشحنة الاجمالية لنواة الذرة يجب ان تتوازن مع الشحنة الاجمالية لالكترونات غلاف الذرة ، وعلى غرار ذلك بالضبط يجب ان يكون هناك توافق معين بين عمليتى التمثل والافراز فى جسم الكائن الحى . والمجتمع يغدو مستقرا اذا كانت علاقاته الانتاجية تناسب قواه المنتجة ، وبنائوه الفوقى يناسب بناءه التحتى وهلمجرا . من هنا يكاد يفصح عن نفسه الاستنتاج التالى : كلما كان التناسب والتوافق بين العناصر والمنظومات الثانوية داخل المنظومة المعنية اكثر ، كان اداؤها لوظائفها افضل وتطورها اسرع . بيد ان الامر فى الحقيقة اعقد كثيرا ، وهذا الاستنتاج لا يبدو صحيحا الا للوهلة الاولى ، الا للنظرة السطحية .

فى الواقع ، ليس فى أى موضوع فعلى او ظاهرة او عملية ولا يمكن ان يكون هناك البتة توافق تام دائم ومستقر بصورة مطلقة بين كل العناصر والمنظومات الثانوية . علاوة على ذلك ، لابد وأن يكون بينها قدر كبير او ضئيل من التمايز ، وهذا - كما يظهر لنا العلم المعاصر - هو احد اهم شروط عمل وتطور كل ظاهرة او عملية . على سبيل المثال ، تختلف الالكترونات الذرة عن نواتها بعلامة الشحنة الكهربائية وبالكتلة وغيرها من المواصفات الفيزيائية . وتؤدى عملية التمثل فى اجسام الكائنات الحية وظيفة مغايرة تماما لما تؤديه عملية الافراز . مثلا ، يتلقى النبات من الجو المحيط به غاز نائى اوكسيد الكربون ويلفظ اليه غاز الاوكسجين . اما الحيوانات فعلى العكس تتلقى الاوكسجين وتلفظ ثنائى اوكسيد الكربون . وفى عملية تطور الانتاج ، كما نعلم ، تتطور القوى المنتجة اسرع من العلاقات الانتاجية (٢٠٤) ، لهذا ينشأ بينهما باستمرار ويتنامى قدر معين من التمايز . وينشأ تمايز مماثل ايضا بين عناصر القوى المنتجة ذاتها . ففى عصر التقدم العلمى التقنى نجد أن احدى القوى المنتجة الرئيسية هى العلم الذى يتقدم فى تطوره على التقنية وعلى

مراس البشر الانتاجى (٣١١) . وفى نتيجة ذلك تنشأ بين عناصر القوى المنتجة هذه تمايزات كبيرة او صغيرة . كما ان نشوء ووجود مثل هذه التمايزات ليسا طارئين ، بل هما عملية موضوعية ، ضرورية ومشروعة لكل حركة وتطور .

واذا كان التمايز بين المنظومات الثانوية او الجوانب المترابطة من الظاهرة (العملية) المعنية طفيفا وغير ذى اهمية ، قالوا عن وجود فوارق . اما اذا كان التمايز جوهريا وكبير الشأن حتى ليبلغ الحد الاقصى ، فسوف تعتبر هذه الجوانب والمنظومات الثانوية متضادة . ومقولة «التضاد» الفلسفية هي التى تعكس وجود بعض التمايز والتباين بين الاجزاء المترابطة والخواص وما الى ذلك داخل الظواهر الموضوعية .

ان العلاقة بين الازداد ، بين الاجزاء والصفات والمنظومات الثانوية (الخ) المتضادة تسمى بالتناقض . هنا يكون من الاهمية بمكان أن نفهم ما يلى : ليس كل الظواهر فى العالم يتخذ بعضها ازاء بعض صفة الازداد ، بل تلك منها فقط التى تترابط وتتفاعل فيما بينها على هذا النحو او ذاك خلال سيرورة قيامها بوظائفها وتطورها . فالالكترونات السلبية الشحنة ، مثلا ، تعتبر دقائق مضادة من حيث الشحنة نسبة الى البوزيترونات الموجبة او نسبة الى نواة الذرة الموجبة الشحنة . ويخضع تفاعل هذه الدقائق المتضادة لقوانين فيزيائية معينة ويولد ظواهر فيزيائية جديدة . فى الوقت ذاته ليس هناك ، ولا يمكن ان يكون عموما ، ايما توافق بين اية جزيئة فيزيائية وبطولة العالم بالشطرنج . ومن العبث عزو هاتين الظاهرتين الى الازداد ، ذلك انهما لا تخضعان لايما قوانين عامة ، ولا تتفاعلان ، ولا تؤثر احدهما فى الاخرى ايما تأثير ، ولا تشتركان فى اية عملية واحدة من عمليات اداء الوظائف او التطور . وليس بين هاتين الظاهرتين ولا يمكن ان تكون هناك اية تناقضات . ويتضح من هذا القول أن مقولتي «التضاد» و«التناقض» تعكسان ليس فقط التمايز بين بعض جوانب الظاهرة والعلاقة بين هذه

الجوانب المتضادة ، بل وتسجلان الى جانب ذلك الترابط والتفاعل والارتهان المتبادل بين هذه الاضداد .

ان الاعتراف بوجود وحدة وترابط وتناقض في آن واحد بين الاضداد داخل كل ظاهرة وعملية بعينها يعتبر ابرز وأهم موضوعة في الجدلية المادية ومفتاحا لفهم جوهر كل عملية من عمليات التطور . ففي المجتمع الطبقي مثلا تعتبر مصالح المستغلين والمستغلين متضادة ، ومتضادة ايضا الادوار التي تضطلع بها هذه المصالح في تنظيم الانتاج ، مثلما تعتبر متضادة العلاقة بملكية أهم وسائل الانتاج . ولكن الى جانب ذلك نجد هذه الطبقات مترابطة . فأحداها تقيض الاخرى ضمن اطار طريقة الانتاج المعنية ، وفي منظومة التشكيلية الاقتصادية الاجتماعية المعنية . ومع تصفية احدى الطبقات ، كطبقة الرأسماليين مثلا ، تختفى الطبقة المضادة لها ، أي العمال الاجراء . ويبرز مجتمع جديد هو المجتمع الاشتراكي الذي تختلف طبقته العاملة اختلافا جذريا عن طبقة العمال الاجراء البروليتاريين في ظل الرأسمالية . وهذا الاختلاف الجذري لا يلحظه التحريفيون الاصلاحيون . فهم يشوهون التعليم الجدلي عن ترابط ووحدة الاضداد عندما ينكرون الفوارق الجذرية بين مكانة الطبقة العاملة وطبيعتها الطبقيّة في المجتمع الرأسمالي وبين مكانتها وطبيعتها الطبقيّة في المجتمع الاشتراكي . ويتضح من هذا المثال أن تصور الجدلية المادية الماركسية عن وحدة الاضداد يحمل ليس أهمية فلسفية علمية عامة فحسب ، بل وسياسية تطبيقية ، لان الجدلية هي الاساس لفهم العمليات والتغيرات المعقدة والمتناقضة الجارية في المجتمع ، والاساس الذي يتيح اعطاء تقويم صائب لها . بعد أن حددنا ماذا تقصد الجدلية المادية بالتضاد والتناقض والوحدة ، نستطيع الآن ان نخطو خطوة اخرى في استقصاء مصادر التطور .

٤٠٤

وحدة الاضداد وتحول بعضها الى بعض . ان الجوانب المتضادة للمواضيع المختلفة لا تتعاضد فحسب ، بل تتفاعل

تفاعلا جدليا خاصا . وهذا التفاعل عبارة عن عملية تحول متبادل للاضداد احدها الى الآخر . وهى عملية معقدة لا ينبغي فهمها فهما مبسطة . ولناخذ بادىء بدء بعض الامثلة .

ان الالكترون والبوزيترون من الدقائق الفيزيائية البسيطة التى تتسم بكتلة سكون متساوية وشحنة كهربائية متضادة ، وحجومها محدودة فى المكان . وعلى الضد من ذلك ، أن الحقول الكهرومغناطيسية ليس لها شكل هندسى أو حجم دقيقة أو حدود أو كتلة سكون . بهذا المعنى تكون الدقائق والحقول متضادة من حيث الصفات الفيزيائية ، بيد أن الفيزياء العصرية اثبتت أن فى بعض الظروف المعينة يجرى تحول متبادل فيما بينها ، مثلا عند تصادم الكترون وبوزيترون بطاقة معينة يجرى ما يسمى بعملية التحول الى الضد (تحول الدقائق الى اضدادها) التى تسفر عن تحول الدقائق الى حقول ، الى فوتونات ، أى الى ما يشبه دقات من الضوء .

فى فترة ازدهار الرأسمالية الصناعية أمنت العلاقات الانتاجية الرأسمالية تطورا سريعا للقوى المنتجة . ومع تطور الرأسمالية تكتسب القوى المنتجة طابعا اجتماعيا (عاما) فتدخل فى تناقض مع الملكية الرأسمالية الخاصة . وتشعر العلاقات الانتاجية القائمة على هذا الشكل من الملكية فى عرقلة تطور القوى المنتجة ، وعلى هذا النحو تتحول الى ضدها (٢٠٤ ، ٢٢٠) .

وبوسعنا أن نلاحظ عملية مماثلة فى تطور العلم ايضا . فعندما يخفى أمر ما على العلماء يقومون بوضع مسائل وقضايا جديدة . وتدلنا هذه المسائل على ما نجهله وعلى ما يجب علينا أن نعرفه . وفى نتيجة الابحاث الطويلة والمعقدة تتكشف وقائع علمية جديدة وتطرح فرضيات وتوضع نظريات جديدة . وهذا يعنى ظهور معارف تتيح حل المسألة المعنية . ف«المجهول» الذى صيغ بشكل مسألة يتحول ، على هذا النحو ، الى معرفة جديدة ، أى الى ضده . غير أن القضية لا تتوقف عند هذا الحد . فالمعارف الجديدة تظهر أننا لسنا نعرف بعد كل الامور . فتظهر مسائل وقضايا جديدة ،

بعبارة اخرى ، يظهر ما هو ضد المستوى الذى بلغناه من المعرفة ، وتبتدى من جديد عملية الابحاث العلمية المفضية الى مستوى ارقى فى معرفة ما يهمنا من ظواهر . وعن طريق مقارنة هذه الامثلة المستمدة من مختلف ميادين الطبيعة والمجتمع والمعرفة يتسنى لنا استخلاص استنتاجات محددة تماما .

اولها ينص على أن الجوانب المتضادة من الظواهر والعمليات ليست مجرد مترابطة ، أى تدخل فى وحدة معينة ، بل تنتقل ويتحول بعضها الى البعض الآخر . فالجديون يختلفون عن الميثافيزيقيين لا بأنهم - أى الجديون - يعترفون بوجود جوانب وصفات متضادة فى هذه او تلك من الظواهر او العمليات ، وبأن خصومهم ينكرونها ، بل يكون الميثافيزيقيين يعتبرون الاضداد أمرا جامدا ، متحجرا ، معطى مرة والى الابد ، فى حين أن الجديين اذ يعترفون بالاضداد ، انما يرون تحولاتها المتبادلة وتنقلاتها وتغير الادوار التى تمارسها فى تطور العمليات المعنية وقيامها بوظائفها .

والاستنتاج الثانى هو أن تحولات الاضداد المتبادلة نفسها تنقسم الى نوعين ، اولهما تحزى اليه تحولات الاضداد الارتدادية المتبادلة . فالنقطة العليا من عجلة العربة تغدو ، فى اثناء حركة العربة ، النقطة السفلى ثم تعود الى موقعها من جديد كنقطة عليا وهلمجرا . هذا نوع من الحركة الميكانيكية ، ولكن ليس فى هذا الامر تطور حقيقى ، لان موقع النقطة قابل للارتداد ، وهو يتكرر باستمرار . وعلى العكس من ذلك ، أن تحول العلاقات الانتاجية الرأسمالية من شكل وحافز لتطور القوى المنتجة الى عائق لهذا التطور هو نموذج للتحول غير الارتدادى . اذ لم يعد بمقدور العلاقات الانتاجية الرأسمالية أن تغدو مرة اخرى شكلا لتطور الانتاج . فهذا يقتضى هدم هذه العلاقات واقامة علاقات جديدة هى العلاقات الاشتراكية . وهذه عملية اجتماعية اعقد واعمق بما لا يقاس . وهنا يطالعنا ايضا حضور عملية تحول الاضداد ، بيد أن المقصود هنا لم يعد هو أن دور هذه

العلاقات الانتاجية الرأسمالية ووظائفها تتغير ، انما هو انها يجب أن تترك مكانها لضدها ، اى للعلاقات الانتاجية الاشتراكية .

فى سيرة الانتقال المتبادل للاضداد وتحول احدها الى الآخر تنشأ وتحل بينها تناقضات مختلفة تتميز بها الظواهر والعمليات المعنية . وتقودنا دراسة عملية نشوء وتنامي وحل التناقضات الى فهم مصادر التطور الحقيقية .

٤٠٥

صراع الاضداد وحل التناقضات مصدرا للتطور . كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) احد افجع احداث التاريخ العالمى واكثرها خطورة . فقد خاضت الصراع فيها ، من جهة ، قوى الامبريالية والرجعية متمثلة فى الفاشية الالمانية والعسكرية اليابانية ، ومن جهة اخرى ، قوى الاشتراكية والديمقراطية ممثلة بالدرجة الاولى فى شخص الاتحاد السوفيتى . وفى هذه الحرب ، كما هو معروف ، احزمت قوى التقدم بضمن باهظ من الضحايا والجهود الانتصار على قوى الرجعية . وبعد الحرب نشأ فى العالم اجمع موقف جديد : فقد ظهرت المنظومة العالمية للدول الاشتراكية ، وابتدأ الانهيار السريع للنظام الاستعماري العالمى ، وتقلص مجال نفوذ الرأسمالية .

وعندما نتأمل تاريخ المجتمع عموما ، ونتمعن التفكير بقواه المحركة ، يتسنى لنا أن نلاحظ أن فى هذا التشابك الزاخر من الحروب والثورات والعلاقات الثقافية والاقتصادية وحالات الركود والنهوض الصناعية يتجلى باستمرار تصادم مختلف الفئات الاجتماعية والسياسية وشتى الطبقات والدول ، ويدور صراع دائم يخبو اواره تارة ، ويتأجج تارة اخرى . وفى نتيجة هذا الصراع تنشأ علاقات اجتماعية وسياسية جديدة ، وتحل دول قديمة وتنشأ اخرى جديدة ، وتولد وتشعب وتبلغ طور الازدهار تشكيلات اقتصادية واجتماعية جديدة . لهذا السبب بالذات كان مؤسسو الماركسية اللينينية يؤكدون باستمرار أن صراع مختلف القوى الاجتماعية ، ولا

سيما الطبقات ، يعتبر أهم وابرز قوة محرك للتاريخ ومصدرا حقيقيا لتطوره .

بيد أن تصادم وصراع القوى المتضادة والجوانب المتضادة ليسا صفة خاصة ينفرد بها التطور الاجتماعى . فالصراع والتصادم ، الاحتراب وتخطى الاضداد صفات لا تنفصل عن التطور بوجه عام . لهذا يمكن اعتبار مفهوم «صراع الاضداد» بمثابة مقولة فلسفية عمومية تصلح للاستخدام حيال كل اشكال حركة المادة . ولا ينبغى فهم كلمة «صراع» بالمعنى الحرفى الصرف .

وليس صحيحا الظن أن حل المسائل الرياضية «تتصارع» خلاله عمليات الجمع والطرح والرفع الى الأس واستخراج الجذر ، وأن عملية التمثيل الغذائى «يتصارع» فيها تمثيل وافراز المواد ، وأن الذرة تشهد «صراع» النواة ذات الشحنة الموجبة والالكترونات السلبية الشحنة . ولئن جرى فى الجدلية استخدام مقولة «صراع الاضداد» للتدليل على تفاعل الجوانب المتضادة ، فلأن لذلك مسوغات خاصة ، اذ يضاف على هذه المقولة مغزى جدلى خاص . فما هى هذه المسوغات ؟ وما هو هذا المغزى ؟

القضية تنحصر فى احتمال حدوث انواع مختلفة من تصادم الظواهر المتضادة . فإذا اصطدمت سيارتان تنطلقان باتجاهين متضادين فلن تكون نتيجة الاصطدام تطورا ، بل تكون تحطما وكارثة . وعلى العكس من ذلك ، اذا كان اعضاء فريق واحد يتبنون آراء وافكارا مختلفة بشأن كيفية رفع انتاجية العمل وتحسين نوعية المنتج الخ ، ففى مجرى مناقشة مختلف وجهات النظر ، أى فى سياق تصادم وصراع الآراء يكون بمقدورهم التوصل الى وجهة نظر جديدة مشتركة اكثر صوابا تساعد على رفع الانتاج بأسره الى مستوى جديد ، وبالتالي يتسنى حل التناقضات بين وجهات النظر . وهذا هو ما سيعنى التطور فى تفهمه مهماته الانتاجية . ففى مثال السيارتين كنا بصدد ظاهرتين متضادتين (من حيث اتجاه الحركة) لا تربط بينهما روابط داخلية مرهونة

بقوانين . أن اصطدام مثل هذه الاضداد لا يمكن أن يكون مصدرا للتطور . أما في مثال اصطراع الآراء فقد رأينا وجهات نظر مترابطة . أذ تنشأ لدى أعضاء فريق العمل الواحد بالضرورة وجهات نظر مختلفة بشأن حل مسألة واحدة ، ذلك أنهم يحوزون خبرات حياتية وإنتاجية مختلفة ومستوى تأهيلها مختلفا ومواقف مختلفة إزاء حل المسائل الماثلة أمامهم . ومن تصادم واصطراع الآراء المتضادة في بعض النواحي ، ولكن المترابطة في وحدة داخلية ضرورية ينشأ منطقيا فهم مشترك بالنسبة لجميع أعضاء فريق العمل ، فهم أكثر عمقا للمهام الماثلة . على هذا النحو ، نجد أن مقولة «صراع الاضداد» الجدلية تعكس وتشخص تفاعل وتصادم وتجاوز ليس كل الظواهر المختلف بعضها عن بعض والمتضادة فيما بينها من حيث المظهر فقط ، وكذلك تنقلاتها المتبادلة ، بل تلك الظواهر منها فقط التي تترابط فيما بينها بروابط داخلية ضرورية ومشروعة . وتوجد بين مثل هذه الاضداد على الدوام تناقضات حادة بهذا القدر أو ذاك . وهذه التناقضات هي التي ينبغي اعتبارها مصدرا للتطور .

ومن المهم بصفة خاصة إدراك أن التناقضات نفسها لا تراوح في مكانها . فالتناقضات الجامدة والراسخة التي تجتاح الجوانب المتضادة ، الثابتة ، «المتحجرة» — ان جاز القول — لا يمكن أن تكون مصدرا للتطور . وغالبا ما يساق قطبا المغناطيس الشمالي والجنوبي مثلا على الاضداد المترابطة . فمهما قطعنا عمود المغناطيس الى نصفين ، يغدو لكل نصف منه من جديد قطبان شمالي وجنوبي . بيد ان العلاقة بين هذين القطبين تبقى كما هي . لهذا لا ينتج قطبا المغناطيس بحد ذاتهما أيما صفة جديدة ، وأيما تطور لارتدادى وذى اتجاه في الزمان . والامر يختلف مع التناقضات المتغيرة ، المتحركة . مثلا ، تنشأ بين عمليتي التمثل والافراز في جسم الكائن الحي تناقضات تتنامى وتتطور باستمرار . فجسم الكائن الحي ، حيوانا كان أو نباتا ، يستهلك ويهضم في مختلف فترات حياته هذه المواد قارة ،

وتلك تارة أخرى . وبالمقابل يلفظ الى الوسط المحيط به ايضا مختلف نواتج نشاطه الحيوى . واذا كانت كل من العمليتين تعادل الاخرى ، فان النشاط الحيوى يجرى بصورة طبيعية . بيد ان هذا التوازن يختل باستمرار ، وفى نتيجة ذلك تحدث فى الجسم عمليات شتى كالنمو والتغيرات الفسلجية والتغيرات فى النشاط الوظيفى وتغيرات الشكل والمقاسات وهلمجرا . وكل هذه التغيرات تحمل طابعا موجها لارتداديا . ويرتبط بها ايضا نشوء صفات ووظائف الجسم الجديدة مبدئيا ، بالتالى يجرى تطوره .

ونحن نلاحظ عملية مماثلة - من حيث الجوهر - فى تطور الفكر ايضا .

ان لكل شىء عددا لا نهاية له من الصفات والجوانب وما الى ذلك . ومن المتعذر معرفتها جميعا وبالكامل وبنفس القدر من الدقة . وعندما نتأمل الشىء ، نستقصى ونتعرف هذا الجانب تارة وذاك تارة أخرى . فالمفاهيم والاحكام التى تعكس هذه الجوانب لا يناسب بعضها بعضا على الدوام . وتنشأ بينها تناقضات معينة . وكلما تراكم فى معارفنا قدر اكبر من التناقضات ، اكتسبت مزيدا من الالاحاح الحاجة الى توحيدها وربطها فى كل واحد من المعرفة الاكثر دقة وعمقا عن الظاهرة او العملية موضوع البحث . ولا يتسنى ذلك الا عن طريق حل وانهاء التناقضات القائمة . وحيلة هذا الحل هى المعرفة الجديدة عن الشىء باكملـه ، وعن الروابط العرونة بالقوانين بين جوانبه وصفاته المتفرقة . وهذا ما يتجلى فيه تطور الفكر . على هذا النحو يكون «تصادم» مختلف المفاهيم والطروحات وحل التمايزات والتناقضات فيما بينها المصدر الحقيقى لتطور معرفتنا .

بامكاننا الآن عرض الاستنتاجات : توجد بين الجوانب والمنظومات الثانوية (٤٠٣) المترابطة ، ولكن المتضادة ، للظواهر او العمليات علاقات لا تقتصر على التحولات المتبادلة والانتقال المتبادل ، بل تشمل ايضا صراع الازداد . وهذه العلاقات تؤدى الى نشوء وتفاقم التناقضات ، الامر الذى يغدو

مستحيلا فى نتيجته خلال مرحلة معينة وجود الشيء المعنى او قيامه بوظائفه بالشكل القديم . وتبرز ضرورة موضوعية لحل هذه التناقضات ، ومن هنا تنشأ ظاهرة جديدة ، شىء جديد ، صفة جديدة ، الخ . وهذا هو ما يعنى ان صراع الازداد ، وظهور ونمو التناقضات القائمة بينها ، ولاسيما حل هذه التناقضات ، هى المصدر الحقيقى لكل تطور ، اينما جرى وبأى شكل كان .

٤٠٦

انواع التناقضات . فى العالم عدد عملاق من التناقضات المختلفة التى تؤثر تأثيرا مختلفا فى عملية التطور وتتطلب اشكالا وطرائق شتى لحلها . وسنكتفى بتناول أهم وابرز انواع التناقضات التى يرتدى فهمها أهمية تطبيقية وعلمية واجتماعية سياسية كبيرة .

١ - التناقضات الداخلية والخارجية

طالما نصادف فى حياتنا تناقضات داخلية وخارجية على السواء . وهذه وتلك تؤثر تأثيرا معيناً فى مجرى تطور الظواهر المختلفة .

ثمة تناقضات اقتصادية واجتماعية وايدولوجية يبين أسرة الدول الاشتراكية ومنظومة الدول الرأسمالية المتطورة صناعيا . وهذه التناقضات تعتبر خارجية بالنسبة الى الاسرة الاشتراكية . بيد أنها تؤثر رغم ذلك بشكل معين فى تطور هذه الاسرة . ولكن هل بإمكان هذه التناقضات الخارجية وقف التنمية وكبح عملية تطور وارتقاء النظام الاشتراكي ؟ كلا طبعاً . وللمجتمع الاشتراكي تناقضاته الداخلية ، مثلاً بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . وتتسم بمثل هذا التناقض (٢٠٤ ، ٢١٣) التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية كافة . لذا فالتنويه البسيط بوجوده لا يقربنا من فهم القوى المحركة والتناقضات الداخلية لكل تشكيلة بعينها . أن القضية تغير جذريا ، اذا انتقلنا من مجرد تثبيت السُنّة العامة والتناقض

العام الى الاشكال الخاصة لتجليات هذا التناقض فى التشكيلة المعنوية او فى طور معين من تطورها وادائها لوظائفها . ففى كل مرحلة من تطور الاشتراكية كانت هذه التناقضات تحل بطريقة معينة ، مما أدى الى تطور الانتاج والمجتمع عموما . مثلا ، فى السنوات الاولى من الحكم السوفييتى اقيمت علاقات انتاجية اشتراكية فى الصناعة ، اما مستوى القوى المنتجة التى نال منها الخراب ابان الحرب العالمية الاولى والحرب الاهلية فقد كان منخفضا نسبيا . فبرز تناقض بين العلاقات الانتاجية والقوى المنتجة . وجرى حل هذا التناقض على اساس التصنيع . ونسوق مثالا آخر على تناسب التناقضات الداخلية والخارجية . أن التناقضات بين الطبيعة والمجتمع تعتبر خارجية بالنسبة الى المجتمع . وكلما كانت هذه التناقضات اكثر شدة ، كان تأثيرها فى تطور المجتمع اكثر سلبية . رغم ذلك ، وكما بينا فى الفصل الفات ، ان حل التناقض بين الانسان والطبيعة يقتضى من المجتمع نفسه ، بالدرجة الاولى ، ان يحل تناقضاته الاقتصادية الاجتماعية الداخلية ، وذلك بالانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية .

أذن ، فبالرغم من أن التناقضات الخارجية والداخلية تؤثر تأثيرا معينا فى عملية التطور ، تعتبر عملية حل التناقضات الداخلية مصدرا رئيسيا للتطور . ولهذه الموضوعات من موضوعات الجدلية الماركسية أهمية تطبيقية عظيمة : فعندما نصطدم بهذه او تلك من المعضلات ينبغى لنا بالدرجة الاولى تبيان التناقضات الداخلية وايجاد الطريقة الاصبوب لحلها . الى جانب ذلك ، من المهم ألا ننسى أن التناقضات الداخلية والخارجية نفسها تخضع لجدلية تناقضات الاضداد وتحولاتها المتبادلة . فالتناقضات التى تكون خارجية فى حالة معينة يمكن أن تغلو داخلية فى حالة اخرى . على سبيل المثال ، أن التناقض بين الاشتراكية والرأسمالية ، كونه خارجيا بالنسبة الى المجتمع الاشتراكي ، يعتبر أهم وأبرز تناقض داخلي للبشرية جمعا خلال المرحلة الراهنة من التاريخ العالمى . لهذا يقتضى تطور البشرية اللاحق بالضرورة

الموضوعية حل هذا التناقض عن طريق إقامة نظام اجتماعى عادل يخلو من التناقضات التناحرية . وعلى هذا النحو بالضبط يمكن للتناقضات الداخلية فى ظروف معينة أن تتحول الى تناقضات خارجية ، وأن تؤثر فى حلها . على سبيل المثال ، أن التناقضات الداخلية للرأسمالية التى تزداد تأزما بفعل الازمة العامة للنظام الرأسمالى تؤدى الى استثمار غاشم للموارد الطبيعية ، فيشتد جراء ذلك التناقض بين المجتمع والطبيعة .

٢ - التناقضات الاساسية وغير الاساسية

الى جانب التناقضات الداخلية والخارجية ينبغى تمييز التناقضات الاساسية وغير الاساسية . فالتناقضات التى تؤثر تأثيرا حاسما فى عملية التطور ، والتى يؤدى حلها الى نشوء ظواهر وعمليات جديدة مبدئيا تسمى بالتناقضات الاساسية . أما سائر التناقضات فتعتبر ثانوية ، غير اساسية . وثمة جم كبير من التناقضات المختلفة بين المنظومات الاقتصادية الاجتماعية فى العالم المعاصر ، ومن ابرزها التناقض المتعلق بمسألة صيانة السلام وتفادى الحرب النووية العالمية . اذ يتوقف على هذا التناقض وجود البشرية بحد ذاته ، وبالتالى مضيتها قدما فى مسيرة تطورها . لهذا السبب بالذات تفرد الاحزاب الماركسية اللينينية لبرنامج السلام مكانة حازمة فى نشاطها السياسى . وهذا هو ما يفسر لماذا تلتف كل قوى البشر التقدمية المحبة للسلام حول هذا البرنامج .

ان التناقض الاساس لكل طريقة انتاج ، اى الذى يحدد طابع تطورها ، هو التناقض بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . فهما جانبان لعملية واحدة هى عملية الانتاج ، وثمة رابطة داخلية فيما بينهما . وهذه الرابطة التى تجرى ضمنها وحدة جوانب الانتاج المتضادة يتحكم بها قانون ملاءمة العلاقات الانتاجية لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة (٢٠٤) . وقد سبق أن رأينا كيف يسرى مفعول هذا القانون

فى التطور التاريخى ويحدد تعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية (٢١٧-٢٢١) وقيامها بوظائفها . ويمكن ، بطبيعة الحال ، أن تنشأ خلال عملية الانتاج تناقضات اخرى ، مثلا بين مختلف عناصر القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . بيد أنها جميعا ترتفع ، فى التحصيل الاخير ، بالتناقض الاساس لطريقة الانتاج . وتخطيها يتوقف على حل هذا التناقض الاساس .

أن الاهمية التطبيقية لما قيل تتمثل فيما يلى : عندما نقوم بحل هذه او تلك من المسائل الاجتماعية السياسية او الانتاجية او الايدولوجية او العلمية المعرفية ، علينا أن نحدد قبل كل شئ التناقضات الاساسية للعملية موضوع البحث . وبعد تحديدها يصبح بإمكاننا أن نختار الوسائل والاشكال والطرائق اللازمة لحلها .

٣ - التناقضات التناحرية وغير التناحرية

جرت العادة على تقسيم التناقضات الاجتماعية ، حسب مستوى شدتها وطريقة حلها ، الى تناحرية وغير تناحرية . وقد سبق غير مرة فيما مضى من النص (انظر الفصلين الثانى والثالث) أن تطرقنا الى مثل هذه التناقضات . أن الصفة المميزة للتناقضات التناحرية هى مستوى حدتها الاقصى وتعذر التوفيق بين المصالح المتضادة ، وبين أهداف ومواقف هذه او تلك من الطبقات والفئات الاجتماعية ضمن اطار المجتمع المعنى . لهذا يجرى حل التناقضات التناحرية فى صراع ضار وعنيف ينتهى ، عادة ، بالقضاء على أحد الطرفين المتصارعين . فالتناقضات التناحرية بين الطبقة العاملة والبرجوازية ، مثلا ، تحل خلال الثورة الاشتراكية عن طريق القضاء على البرجوازية كطبقة . علما بأن «القضاء عليها» لا ينبغى فهمه فهما مبسطا جدا . فالمقصود هو ليس الابداء الجسدية لآبناء هذه الطبقة ، انما هو تصفية الاسس الاقتصادية والسياسية لسيطرة البرجوازية فى المجتمع ودحر

مقاومتها السياسية عموما كطبقة ، وتصفية الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج . كما أن اشكال حل هذا التناقض التناحرى بحد ذاتها يمكن أن تكون متباينة جدا ، تبعاً للظروف التاريخية الملموسة فى كل بلد بعينه خلال مرحلة معينة من تطوره . والمثال الآخر على التناقضات التناحرية يمكن ان نجده فى التناقضات بين الايديولوجيتين البرجوازية والشيوعية . فحل هذه التناقضات لا يمكن أن يتم الا عن طريق التصدى الثابت للايديولوجيا البرجوازية وفضحها والتغلب عليها . ويجرى هذا التغلب لا بمجرد نبذها وشطبها او نكرانها دونما تمييز ، انما يجرى كنتيجة لتحليل نظرى مبدئى جدى يوفر الاساس اللازم لسوق حجج وبراهين علمية ضد الايديولوجيا البرجوازية . فلولا هذه الحجج والبراهين لما كان بالامكان اقناع احد بصحة الايديولوجيا العلمية التقدمية واثبات افضليتها وقدرتها على الادراك الاصول والاعمق لنزعات العصر وعملياته الاساسية ، وعلى تقديم تقويم لها اكثر صحة وصوابا .

وتمتاز التناقضات غير التناحرية ليس بانخفاض مستوى شدتها فحسب ، بل ايضا بطريقة حلها . أن مثل هذه التناقضات تعتبر مميزة للمجتمع الاشتراكى . فالتناقضات فيه لا يمكن الغاؤها مرة والى الابد . أن التناقضات غير التناحرية الملازمة للاشتراكية تعتبر مصدرا لتطورها وراقيها . وبخلاف حل التناقضات التناحرية ، لا يتطلب حل التناقضات غير التناحرية تصفية احد من الاضداد . أذ يجرى حل هذه التناقضات ، عادة ، بطريق سلمى على اساس التقارب الواعى الدائم والثابت بين مواقف ومصالح مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية . غير أن هذا «التقارب» لا يمكن ان يجرى بلا صراع الاضداد . فقانون وحدة وصراع الاضداد لا يفقد مفعوله بمجرد تصفية التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية التناحرية وما تتسم به من تناقضات . وللمجتمع اللاتناحرى تناقضاته المتميزة التى يتمخض عنها تطوره ، والتى تؤثر فى هذا التطور . علاوة على ذلك ، أن التناحرات ، أيا كانت ، اذا

لم يصر الى حلها فى الوقت المناسب ، قد تبلغ درجة كبيرة من العدة وتشعر فى عرقلة تطور المجتمع . على سبيل المثال ، ان الطرائق الادارية البيروقراطية القائمة على الاوامر والاياعازات فى تسيير الاقتصاد الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى ، وهى الطرائق التى نشأت خلال الثلاثينيات والاربعينيات تحولت خلال العقود التالية الى تناقضات حادة مع مستلزمات التطور الاجتماعى . وعلى الرغم من عدم وجود مصالح تناحرية طبقية وراء هذه التناقضات ، يرتبط حلها بمصادمات بين وجهات النظر المحافظة (المتزمتة) والتقدمية وما يناسبها من طرائق القيادة ومختلف اهداف الفئات الاجتماعية . لهذا لا يمكن حل التناقضات اللاتناحرية بالقوالب الجامدة او الوصفات الجاهزة ، انه يتطلب موقفا جدليا ابداعيا ازاء الظواهر الجديدة .

٤٠٧

حل التناقضات فى المجتمع الاشتراكى . تختلف التناقضات التى تنشأ وتحل فى ظل الاشتراكية عن التناقضات التى تتسم بها التشكيلات التناحرية السالفة .

ليس فى المجتمع الاشتراكى أساس اجتماعى للتناقضات التناحرية بين الطبقات والفئات الاجتماعية . بيد أن هذا لا يلغى وجود تناقضات بين المصالح الشخصية والاجتماعية ، بين الافراد وفرق العاملين ، بين المسؤولين وفرق العاملين ، بين مختلف المشاركين فى العملية الانتاجية الواحدة . ويحتمل كذلك ان يكون هناك تناقض بين آليات الحوافز المعنوية والمادية ، بين مؤسسات منفردة وفروع انتاجية كاملة ، بين مجهزى السلع الصناعية ومستهلكيها ، الخ . وهناك ايضا انتهاكات وخروق للقوانين ، ومحاولات للعيش على حساب الآخرين ، وحوادث سرقة الممتلكات الاشتراكية ، ومظاهر للبيروقراطية والروتين وما الى ذلك . كل هذه الظواهر تناقض مبادئ الاشتراكية . ولكن لا ينبغى اصفاء صفة مأسوية عليها ، مثلما لا ينبغى التقليل من مخاطرها السلبية . ويتسنى حل وتجاوز هذه التناقضات اذا ما جرى رصد

وبحثها فى الوقت المناسب . والمثال على حل تناقضات المجتمع الاشتراكى فى المرحلة الراهنة هو البيريسترويكا ، أى عملية التغيير العميقة والثورية من حيث الجوهر ، الجارية الآن فى الاتحاد السوفيتى والتى تشمل كل جوانب الحياة الاجتماعية . فالذى املى عملية البيريسترويكا هو أن ثمة ظواهر ركود اخذت ترتسم فى المجتمع السوفيتى واسط السبعينات نتيجة جملة من الاسباب الموضوعية والهيئات الذاتية . فقد تباطأت وتيرة التنمية الاقتصادية وراحت تتخلف بعض فروع الصناعة والزراعة ، ولم تجر تلبية احتياجات السكان المادية والروحية بالقدر الوافى . الى جانب ذلك لم يجز الانتفاع على الوجه الاوفى من افضليات ومنجزات الاشتراكية : فقد اشتدت النزعات البيروقراطية ، ولم يجز بالقدر الكامل استخدام آليّة الديمقراطية الاشتراكية والغلاسنوست (العلنية) فى مناقشة المعضلات الاجتماعية الملتهبة . كل هذا كان يناقض سنن المجتمع الاشتراكى واهدافه الاساسية . وعندما بلغت التناقضات مستوى معيناً أدركها الحزب الذى اهاب بكل الكادحين الشروع فى تجديد المجتمع ، وفى اعادة بناء كل الآلية الاقتصادية والاجتماعية ، وفى دعم وتوسيع نطاق الديمقراطية والغلاسنوست . بيد أن هذه التناقضات لا تعتبر تناحرية ، ذلك انها لم تكن وليدة مجابهة بين قوى طبقية لا تتهاون ، بل تكمن وراءها اسباب لا تتطلب ازالتها تصفية هذه او تلك من الطبقات او الفئات الاجتماعية . وتتوفر لدى المجتمع الاشتراكى جملة كاملة من التدابير التربوية السياسية والوسائل الادارية والقانونية والتنظيمية والاقتصادية التى يمكن ويجب بواسطتها ان تحل هذه وغيرها من التناقضات . وفى سياق تطور المجتمع تبرز باستمرار مهمات تقنية وادارية وتكنولوجية جديدة . وتنفيذها يتطلب فى بعض الحالات تطويراً سريعاً للقوى المنتجة ، ويقتضى فى حالات اخرى تحسين العلاقات الانتاجية ونظام الادارة . وفى غضون ذلك تتخلف بعض عناصر طريقة الانتاج و«تشينخ» ، فيما تتطور عناصرها الاخرى سريعاً وتمضى

الى الامام . وهذا النوع من التناقضات بين الجديد والقديم لا يمكن أن تحل مرة والى الابد وفي كل ميادين حياتنا . انها موجودة دائما ، تحل وتبرز من جديد . وهذه نتيجة طبيعية لتقدم المجتمع وتطور كل جوانب حياته باطراد .

أن المجتمع الاشتراكي يسير الى الامام على طريق التقدم الاجتماعي (٤٢٢) ، لهذا تبرز باستمرار تناقضات تسم التطور الاجتماعي ، ومن جملتها التناقضات بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي ، ييسن البناء التحتي والبناء الفوقي . ويجرى حل مثل هذه التناقضات على اساس العمل بشتى الوسائل على رفع مستوى القيادة السياسية للمجتمع من قبل الحزب والدولة الاشتراكية .

وفي سياق تطور الاشتراكية يجب ان يجرى توليف مبرمج وتطوير متوازن لكل ميادين الحياة الاجتماعية . لذا ، فأى جانب الوسائل الخاصة لحل كل نوع محدد من انواع التناقضات ، هناك ايضا اشكال وطرائق عامة ، بالنسبة للنظام الاشتراكي ، لحل التناقضات التنافسية ، ويعزى اليها : ١ - القيادة السياسية للمجتمع من قبل الحزب الذي يقوم بوضع أعمق وأصوب استراتيجية وتكتيك لتنفيذ المهام الاجتماعية ؛ ٢ - الادارة المعللة علميا للاقتصاد الوطنى من قبل الدولة الاشتراكية وهيئاتها ، والعمل بشكل منتظم على ازالة وتخطى كل انواع البيروقراطية والنزعات المكتبية والمحلية الضيقة ؛ ٣ - النقد والنقد الذاتى كطريقة للكشف عن النواقص وتلافيها ؛ ٤ - المباراة الاشتراكية كشكل لتنفيذ المهمات التطبيقية الماثلة أمام كل فريق من فرق العاملين وأمام المجتمع بوجه عام ، وتطوير نشاط فرق العاملين وتشجيع روح المبادرة لديها ؛ ٥ - تنمية الادارة الذاتية الاشتراكية ، وتطوير الديمقراطية الاشتراكية ؛ ٦ - تطوير علاقات التوزيع التى تؤثر تأثيرا كبيرا فى نمو الاهتمام الجماعى والشخصى بأثناء الانتاج الاجتماعى وفى مستوى ونمط الحياة ؛ ٧ - تشديد الرقابة على كمية العمل ونوعيته ، والاستخدام العادل للحوافز المادية والمعنوية ؛

٨ - توطيد اركان الشرعية والنظام القانونى الاشتراكى والتقييد الصارم بأصول الحياة الاشتراكية ؛ ٩ - العمل التربوى السياسى والايدىولوجى كوسيلة لبلورة صيغة العقيدة الشيوعية وكأساس لبلوغ اقصى قدر من التوافق التام بين عاملى التطور الذاتى والموضوعى فى ظل الاشتراكية ؛ ١٠ - العلنية التامة فى مناقشة المشاكل والتناقضات القائمة .

٤٠٨

قانون وحدة وصراع الاضداد - جوهر ونواة الجدلية . اجمالا
لما ذكرنا آنفا يمكن ان نضع صيغة لاحد أهم وأبرز قوانين الجدلية ، الا وهو قانون وحدة وصراع الاضداد . ومنطوق هذا القانون هو الآتى :

١ - أن كل ظاهرة فى الطبيعة والمجتمع والفكر تنطوى على جوانب وصفات ومميزات ومنظومات ثانوية (عناصر) متضادة تتفاعل أو تترابط فيما بينها ترابطا ضروريا ، أى انها تندرج فى وحدة .

٢ - هناك علاقة تناقض جدلى بين الاضداد المندرجة فى وحدة .

٣ - أن مصدر الحركة ، أيا كانت ، ولا سيما مصدر التطور ، هو نشوء التناقضات الداخلية الاساسية واستفحالها وحلها . ويعتبر حل التناقضات العامل الحاسم والسبب الرئيسى للتطور .

٤ - يجرى فى سياق التطور انتقال بعض الاضداد الى بعضها الآخر انتقالا جدليا . ويجرى تصادم الاضداد وتفاعلها وتداخلها ،

٥ - فى نتيجة صراع الاضداد وتحولها المتبادل وتناقلاتها المتبادلة ، وفى حيلة حل التناقضات تنشأ ظواهر او عمليات او مميزات الخ . جديدة لارتدادية ، لم يكن وجود لها من قبل .

ويرتدى قانون وحدة وصراع الاضداد طابعا عاما متعدد

الاغراض . ولفهم هذا القانون أهمية عقائدية ومنهجية وايدولوجية كبيرة .

عندما يصطدم الانسان ذو التفكير الميترفيزيقي بالتناقضات فى الحياة الشخصية والاجتماعية او فى الصراع السياسى او فى حقل الانتاج او فى العلم ، يسعى الى التنصل منها وتحاشيها وتذليلها و«لمس معالمها» وهلمجرا . وهو لا يبحث فى كل ظاهرة جديدة ، وخاصة الظواهر المفاجئة ، الا عن الاسباب الخارجية . ان كل هذا لا يعيق فهم الاسباب الحقيقية للتغيرات فى العالم المحيط بنا فحسب ، بل ويعرقل المساهمة الفعالة فى تغييره تغييرا هادفا وواعيا لما فيه خير البشر . وعلى الضد من ذلك نجد الانسان ذا التفكير الجدلى يعرف ان مصدر التطور ، ايا كان ، هو صراع الاضداد وحل التناقضات الداخلية . ولهذا فهو لا يقر بوجود التناقضات الموضوعية فى الطبيعة والمجتمع والفكر فحسب ، انما يسعى كذلك الى استقصائها ودراستها ، وفصل الداخلية منها عن الخارجية ، والاساسية عن الثانوية ، والتناحرية عن اللاتناحرية ، وايجاد الرابطة والعلاقة فيما بينها وتبيان الوسائل والاشكال والطرائق اللازمة للتغلب على هذه التناقضات وحلها . وبطبيعة الحال ، ليس دائما وليس فى كل وقت يمكن التأثير فى عمليات التطور الموضوعية ، مثلا على نطاق الكون بأسره او حتى على صعيد منظومتنا الشمسية . ولكن حيثما يتسنى ادراج ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية فى نشاط الانسان الملموس ، تتيح القدرة على استخدام قانون وحدة وصراع الاضداد فرصا كبيرة لان يؤثر الانسان تأثيرا معقولا فى العمليات الطبيعية وفى سير التطور التاريخى .

اشكال التطور

٤٠٩

بصدد شكل التطور ، يصف كتاب الكاتب الامريكى الشهير جون ريد «عشرة ايام هزت العالم» بحماسة وتلهف كيف قامت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى . فالاحداث التى وصفها ريد

كانت قد هزت العالم بالفعل ، وبدأت للكثيرين قفزة مفاجئة وعلاقة في التطور التاريخي . وكانت هذه القفزة التي جاءت كأنما لتشطر مجرى التاريخ الى عصرين تاريخيين مختلفين تماما ، ثمرة للتطور السالف الطويل الامد ، وهو الصراع الطبقي الذي خاضته البروليتاريا قسوى روسيا ، والنشاط الثورى لحزب البلاشفة بزعامة لينين .

حين نتأمل عمليات التطور في الطبيعة والمجتمع والفكر ، بإمكاننا أن نلاحظ أنها تتصف جميعا بحلول فترات التغيرات المتوالية ، أى ما يسمى بانقطاعات التدريج ، محل فترات التغيرات التدريجية الانسيابية . فهل هذا وليد المصادفة ؟ أم ان هناك سُنّة ما ، صلة موضوعية بين مثل هذه الفترات ؟ الجواب عن هذه الاسئلة يقدمه التعليم الجدلى عن شكل التطور .

أن لكل ظاهرة وعملية شكلها ومضمونها (١١١) . وقد اوضحنا فى القسم السابق أن مضمون التطور ومصدره يشكلهما صراع الاضداد الداخلية الاساسية وحل التناقضات القائمة بينهما . والتغيرات الناجمة عن ذلك يمكن أن تكون تدريجية ، متواصلة او متقطعة ، متوالية . والصلة بين هذين النمطين من التغيرات هى التى تحدد شكل عملية التطور ، أيا كانت . لهذا يجب علينا حين نتطرق الى عملية التطور ان ندرس شكلها بانتباه ، أى ان ندرس ترابط المتواصل والمتقطع ، التدريجى والمتوالب خلال جميع تجلياته قسوى الطبيعة والمجتمع والفكر . وهدف هذه الدراسة هو ايجاد وصياغة القانون الموضوعى الذى يحدد شكل التطور أيا كان .

٤١٠

حوار حول المتواصل والمتقطع ، التدريجى والمتوالب فى عملية التطور . نشأ فى تاريخ الفلسفة موقفان متضادان ونظرتان متعارضتان الى شكل التطور . ولأجل فهم ذلك بشكل افضل ، نعود مرة اخرى الى الحوار بين الجدلى والميتافيزيقى .
الجدلى (ج) : أملى منك ألا تنكر أننا نصادف فى العالم المحيط بنا باستمرار تغيرات تدريجية وأخرى متوالية .

الميتافيزيقي (م) : هذا ، على اقل تقدير ، ما نستدله من رصدنا للظواهر ومن تجربتنا الحياتية ، ان امكن الاعتماد عليها .

ج : ما الذى يثير الشك لديك ؟

م : مسألة ما هو نمط التغيرات الموجود فى الواقع ، وای الانماط هو السائد والاساسى . أفبالامكان أن تجرى فى كل ظاهرة متنامية تغيرات متواصلة ومتقطعة تدريجية ومتواثبة فى آن واحد ؟

ج : لماذا ترفض هذا الاحتمال ؟ أفلا يمكن ابدا اجتماع المتقطع والمتواصل ؟

م : لان الطبيعة نفسها والمادة نفسها يجب فى هذه الحالة ان تكون متقطعة ومتواصلة فى آن واحد ، بينما هما امران متعارضان . وقد لفتت هذه الصعاب انظار مفكرى الماضى . فى سبيل المثال ، كان هيراقليطس يقر بتواصل التغيرات عندما يقول ان كل شىء يجرى وكل شىء يتغير . لهذا كان يقول ان من المتعذر على المرء ان يسبح فى نفس النهر مرتين : فعندما يشب المرء الى النهر فى المرة الثانية يكون الماء قد جرى والنهر قد تغير . وذهب تلميذه قراتيلس الى ابعد من ذلك حين قال ان من المتعذر على المرء ان يسبح فى نفس النهر حتى ولو مرة واحدة . ذلك ان مجرى النهر يتغير كل لحظة ، وبالتالي فهو ليس النهر نفسه . وكان هذا وانصاره يعتقدون ان كل الاشياء والظواهر تبدو وكأنها تغدو فى كل لحظة أشياء وظواهر اخرى ، وما دام الامر كذلك فليس بالمقدور أن نقول عنها شيئا دقيقا ومحددا : فريثما ندلى باقوالنا يكون الشىء قد تغير .

ج : ولكن كانت هناك آراء اخرى .

م : هذا صحيح . فالفيلسوف اليونانى زينون (حوالى ٤٩٠ - ٤٣٠ ق . م) كان له الرأى التالى : أن السهم المنطلق يكون كل لحظة فى نقطة معينة ، وفى اللحظة التالية يكون فى نقطة اخرى ، وهذا يعنى أن الحركة متقطعة وتجري بشكل قفزات . غير أن السهم الى جانب ذلك ينتقل من

نقطة الى نقطة تدريجيا ، ويتجاوز في الوقت ذاته عددا كبيرا من النقاط في كل قطاع من مساره . اذن ، فالحركة متواصلة ، تدريجية . وكل ادعاء ، كما نرى ، يناقض الآخر .
ج : وماذا تستنتج من ذلك ؟

م : لقد توصل زينون واتباعه الى استنتاجات بعيدة المرامي . وما دامت هذه الادعاءات متناقضة ، فليس ثمة ما يدعو الى الحديث عن الحركة والتطور . فالحركة ليست سوى ترثاء . أن كل الاشياء الواقعية ثابتة ودائمة ومكافئة لذاتها . اذن ، فالحركة لا وجود لها أصلا . وعليه فلا داعي للتخمين : أهى تدريجية أم متواصلة هذه أو تلك من تجليات الحركة .

ج : ينبغي أن نضيف الى ذلك أن الجدل حول المتواصل والمتقطع ، التدريجي والمتوالب ، قد استمر في الفلسفة والعلوم الطبيعية ابان العصر الحديث ايضا . مثلا ، كان ديكارت يعتقد أن المادة تتألف من دقائق منفردة ، وهى فى حركة متواصلة . اما سبينوزا فقد ذهب الى ان اصل العالم ينطوى على اصل مادي لجميع الاشياء ، واحد لا يقبل التجزئة ، هو الجوهر . وكان علماء الفيزياء يقرّون حتى حلول القرن العشرين بوجود وسط عالمى متواصل هو الاثير وبوجود دقائق معزولة لا علاقة لها بالاثير بتاتا هى الجزيئات والذرات الخ .

م : وما هى وجهة النظر الى تتبناها أنت ؟ هل تعتقد أن الحركة والتطور ينحصران فى التغيرات المتواصلة والتدريجىة أم فى التغيرات المتوالبية والمتقطعة ؟ وهل يعتبر العالم المادى نفسه «متواسلا» بلا انقطاعات أم هو متقطع ومتجزى ؟

ج : انا واثق من أن كلتا وجهتى النظر هاتين مغلوطنان . فهما تقطعان الرابطة الموضوعية الواقعية بين مختلف انماط التغيرات وتضعان بعضها نقيضا للآخر . وهذا ما يتمثل فيه النقص الرئيسى لمنهج التفكير الميتافيزيقى . أما الجدلية فتسعى الى ايجاد الوحدة الحقيقية بين المتقطع والمتواصل ، بين التدريجى والمتوالب . وبلاستناد الى قانون وحدة

وصراع الاضداد تتوجه الجدلية الى الواقع ذاته وتبحث كيف تترابط انماط التغيرات هذه فيما بينها .

ليس من اليسير بتاتا فهم الترابط الجدلي بين التدريجي والمتواكب ، بين المتقطع والمتواصل . فامتلاك ناصية الموقف الجدلي من هذه المسألة يقتضى النظر فى جملة من المقولات الفلسفية الجديدة واستيعاب الترابط العميق فيما بينها وتبيان صلتها بالعلم المعاصر والممارسة الاجتماعية . آنئذ فقط تغدو افضلية النظرة الجدلية امرا لا جدال فيه .

٤١١

الكمية والكيفية والحد والقفزة . لقد تعلم البشر من خلال ما يصادفونه من اشياء وعمليات مختلفة فى الحياة اليومية والاجتماعية وفى حقل الانتاج تمييز هذه الاشياء بعضها عن بعض والمماهة بينها وجعل بعضها نقيضا للآخر . ويغدو هذا ممكنا لان مختلف الظواهر فى الواقع الموضوعى ذاته تتسم بنوع من الاستقرار . فعلى امتداد فترة طويلة او قصيرة من الزمن تبقى تلك السمات التى تميزها عن سائر الظواهر والعمليات ثابتة ، أى مكافئة لذاتها . ويرمز لهذه الخاصية التى تسم ظواهر العالم الموضوعى ، عادة ، بواسطة مفهوم «الكيفية» (النوعية ، الكيف) . وقد تتغير نفس تلك الظواهر والعمليات ، كونها دائمة وثابتة الى درجة ما ، دون أن تتحول الى ما هو مغاير لها ، أى تبقى مثلما كانت فى الماضى . ويرمز لخاصيتها هذه بمفهوم «الكمية» (الكم) . مثلا ، يتعرض مظهر الانسان على امتداد حياته لتغيرات مختلفة : اذ يتغير لون بشرته ، يشيب أو يتساقط شعره ، يتغير وزنه وعدد وتوزع التجاعيد على وجهه ، الخ . وهذه التغيرات يمكن وصفها بالكمية . ورغم ذلك ، عندما نتفحص هذا الانسان او صورته الفوتوغرافية الملتقطة فى اوقات مختلفة ، نستطيع القول بأننا نرى نفس الوجه ونفس الشخص ، وبالتالي بأن مواصفاته الكيفية تبقى فى الاساس كما هى .

يمارس مفهوما «الكيفية» و«الكمية» دورا حاسما بالنسبة

لدراسة كل اشكال الحركة والتطور ، ولهذا فهما يندرجان فى عداد أهم المقولات الفلسفية . بيد أن الفلسفة ما كان لها ان تكون اختصاصا علميا لو كانت تقتصر على اقتباس مقولاتها من الحياة اليومية دون أن تعمقها وتمحصها . فما هو المغزى الفلسفى لهذه المقولات ؟

أن كل ظاهرة نصادفها يمكن تناولها كمنظومة (١٠٦) . فالمنظومة بالنسبة للطبيب هى جسم الانسان المؤلف من عشرات الاعضاء واجزائها ومختلف الروابط والعلاقات فيما بينها . والمنظومة بالنسبة للعمال والمهندسين هى المؤسسة المعنية التى تضم عددا من الورش والفرق وخطوط التجميع ومكائن الانتاج وما يجمع بينها من علاقات وروابط تكنولوجية . وعلى مدى فترة معينة من الزمن تبقى المنظومات الثانوية الاساسية والعناصر والروابط التى تؤمن وجود كل منظومة من هذه المنظومات ونشاطها الحيوى مستقرة الى هذا القدر او ذاك ، وتحفظ بسماتها ومواصفاتها الاساسية فتضمن بذلك وحدتها المتكاملة وتكافؤها مع ذاتها . وعليه فإن مجموع العناصر الاساسية والروابط والعلاقات التى تؤمن خلال فترة معينة من الوقت استقرار المنظومة المعنية ووجودها وتطابقها مع ذاتها ، والتى تميزها فى عين الوقت عن سواها من المنظومات ، تعكسه مقولة «الكيفية» او «التعيين الكيفى» .

وتسمى بعض تجليات الكيفية بالخواص ، لهذا لا يندر القول أن الكيفية هى نسق مستقر من الخواص المعينة . مثلا ، أن مادة «السكر» العضوية عبارة عن كيفية محددة تماما ، اما اللون الابيض الذى يتسم به السكر او قدرته على استثارة المذاق الحلو وقابليته على الذوبان فى الماء وما الى ذلك هى خواص منفردة له .

من المعروف جيدا ان كل الظواهر والعمليات تتعرض بمرور الوقت لهذا القدر أو ذاك من التغيرات الملحوظة . فبتقدم السن يتغير تركيب دم الانسان ، وتظهر وتتلاشى وظائف فسلجية مختلفة ، وتتغير مقاسات الاعضاء المختلفة

وهلمجرا . وفى المؤسسة الصناعية تختفى مكائن الانتاج القديمة وتظهر اخرى جديدة ، وكذلك الحال بالنسبة لخطوط التجميع والورش وفرق العمل . ويحتفظ الانسان والمؤسسة على السواء خلال ذلك بتعيئته الكيفى . لذا فان تلك الروابط والعلاقات التى يؤدى تغييرها فى حدود معينة الى تغير بعض خواص ومواصفات المنظومة المعنية ، لكنه لا يخل بتعيينها الكيفى ، تسمى بالكمية ، اما المقولة التى تعكسها فتسمى بالكم او التعين الكمى .

والتعين الكمى موضوعى ، شأنه شأن التعين الكيفى . وقد تحدث داخل الكيفية المعنية تغيرات كمية تدريجية فى بعض السمات او المواصفات . ويمكن قياس هذه التغيرات ومقارنتها حسب درجة او فاعلية تناميها او ضمورها . ويمكن على الدوام التعبير عن نتائج التغيرات بمساعدة الارقام ، لذا يمكن استخدام الرياضيات لدراسة ووصف التغيرات الكمية . وتشكل دراسة التغيرات الكمية اساسا لاستخدام الرياضيات فيما يتعلق بشتى العمليات الجارية فى الطبيعة والمجتمع والفكر (٥١٤) .

فى تعريف الكمية الذى اوردناه نصادف التعبير المهم التالى : «الحدود المعينة» ، وهو جدير باهتمام خاص ، ذلك أن التغيرات الكمية ، أى تغيرات الروابط والعناصر والمنظومات الثانوية التى لا تخل بالتعين الكيفى للظاهرة المعنية ، لا يمكن ان تجرى الا لحدود معينة . وبتجاوز هذه الحدود تؤدى التغيرات الكمية الى انقطاع الصلات والعلاقات الكيفية ، والى تهدم المنظومات الثانوية والعناصر الاساسية . وهذه الحدود تسمى بالحد * . ولكل ظاهرة تتمتع بكيفية خاصة وتنماز عن سواها من الظواهر حدها الخاص . والاخلال بالحد يؤدى الى تهدم الكيفية المعنية . فالروابط والعلاقات

* مصطلح الحد لا يعبر تعبيرا وافيا عن كلمة «mère» التى تعنى ايضا المعيار ، المعدل ، الكيل ، المقياس ، الخ - المترجم .

القديمة تنقطع وتتلاشى جزئيا او كليا ، وتتهدم وتتغير العناصر والمنظومات الثانوية السالفة . وتقوم فى محلها روابط وعلاقات وعناصر ومنظومات ثانوية اساسية جديدة ، وبالتالي تنشأ كيفية جديدة . وهذا الانقطاع فى الروابط والعلاقات الكيفية القديمة ، وتهدم او تبدل العناصر والمنظومات الثانوية المعنية باخرى جديدة يسمى بالقفزة (الطفرة) . ومفهوم «القفزة» مقتبس هو الآخر من الحياة اليومية ، لكنه يكتسب فى الفلسفة مغزى خاصا . والمغزى الفلسفى الرئيس لهذا المفهوم هو ليس حدوث انتقال سريع او تغير مواقع او وثبة فى المكان ، انما هو انقطاع وتحول الروابط والعناصر والمنظومات الثانوية الكيفية الاساسية المستقرة للظاهرة المعنية . وبطبيعة الحال ، أن مثل هذا الانقطاع غالبا ما يجرى بصورة سريعة نسبيا ، اذا قورن بالفترة السالفة من التغيرات الكمية . لهذا تبدو لنا التغيرات الكمية انسيابية ، تدريجية ، «رتيبة» او بطيئة ، بينما تبدو القفزات او التغيرات الكيفية وكأنها انقطاع التدرج ، كأنها تغير فوري او «انفجاري» . اما فى الواقع فإن القفزة فى هذه الحالة قد تكون طويلة الامد ومعقدة الى هذا القدر او ذاك . وما «قصر امدها» سوى امر اصطلاحى ، ولا يجوز التحدث عنه الا بالمقارنة مع التغيرات الكيفية السالفة . فمن المعروف ، مثلا ، أن التغيرات الكيفية عند الانتقال من عصر جيولوجى فى تاريخ الارض الى عصر آخر كانت تستغرق ملايين السنين . ولا يمكن ان تبدو قصيرة الامد وفورية الا بالمقارنة مع المراحل السالفة من التغيرات الجيولوجية الكمية البطيئة نسبيا والتي استغرقت مئات ملايين السنين . فالاكتشافات العلمية الكبرى كالاكتشاف كم الفعل الفيزيائى على يد عالم الفيزياء الالماني بلانك ، تبدو فى بعض الاحيان وكأنها استبصار فوري ، او قفزة خاطفة فى المعرفة العلمية . وبالفعل ، فقد استغرقت صياغة فكرة الكم بحد ذاتها بضعة أيام ، وهذه المدة لا تبدو قصيرة الا بالمقارنة مع السنين الطويلة من العمل الدؤوب السالف الذى خلص بلانك خلاله الى صيغة

هذه الفكرة الجديدة مبدئيا ونوعيا فى الفيزياء المعاصرة .
ويبدو اقصر امدا كذلك التفجير الذرى الذى يجرى خلاله
تحول كفى لطاقة الرابطة الداخلية لنواة الذرة الى طاقة
اشعاعية وحرارية . ولكن من الامة بمكان من الناحية
الفلسفية أن نفهم أن الصفة الرئيسية للعمليات التى تعكسها
مقولاتا «التغيرات الكمية» و«التغيرات الكيفية» («القفزة») هى
ليست المدة التى تستغرقها العملية ، بل مضمونها ، أى
جوهرها ، ذلك أنه لا يجرى فى الحالة الاولى سوى تغيير
بعض روابط العناصر والمنظومات الثانوية ضمن اطار الكيفية
المعنية ، أما فى الحالة الثانية ، فهى تهدم وتتقطع ، وتنشأ
كيفية جديدة . ويرتدى هذا الاستنتاج اهمة خاصة بالنسبة
للتغيرات الكمية والكيفية فى المجتمع .

٤١٢

الارتقاء والثورة . للوهلة الاولى لا يبدو أن ثمة علاقة ما
بين الاكتشاف العلمى وتبدل العصور الجيولوجية والثورة
الاجتماعية . ولكن للوهلة الاولى فقط . فعند تمحيص
العمليات المعنية بمزيد من الانتباه يمكن ادراك انها جميعا
عبارة عن قفزات كيفية وانقطاعات معينة فى سير الاحداث
التدرىجى ، انقطاع فى العملية المتواصلة . هنا يبرز السؤال
التالى : هل ثمة رابطة موضوعية مشروعة بين التغيرات
الكمية والكيفية ، بين سير الاحداث الانسيابى التدرىجى
المتواصل وتغيراتها المتوالية ؟ لقد اعطيت اجابات متباينة عن
هذا السؤال .

ان الله ، حسب المعتقدات الدينية ، خلق العالم مرة والى
الابد جاهزا ومكتملا . لهذا لا تحدث فيه اىما تغيرات عميقة
حقا . وتعتبر شتى ضروب التغيرات الكيفية والقفزات فى
الطبيعة والمجتمع مجرد ظواهر طارئة يستعصى فهم مغزاها
على الانسان . وقد تعزى هذه القفزات والكوارث الى مكائد
الشيطان . اما فى الواقع فليس هناك تحولات كيفية ولا يمكن
ان تكون ثمة ظواهر جديدة كىفيا .

ومع تطور العلم تراكمت وقائع غير قابلة للدحض تثبت

أن سطح الأرض بحد ذاته كان يتغير كيفيا على مدى تاريخ الأرض . اذ ظهرت قارات جديدة وجزر وجبال جديدة ، وتغيرت امام انظار البشر احيانا مجارى الانهار وتضاريس سواحل البحار . واكتشف البشر أن العهود القديمة شهدت انواعا من الحيوانات والنباتات ليس لها وجود فى الوقت الراهن . ليس هذا فحسب ، بل وتعلموا كيف يمكنهم اشتقاق فصائل جديدة من الحيوانات والنباتات . على هذا النحو جرى تقويض ودحض الفكرة القائلة بعدم تغير العالم كيفيا . وحلت محلها وجهتا نظر متضادتان بشأن عملية التطور .

اطلق على الاولى نعت «الكارثية» ، وهى تتجلى باوضح صورة فى اراء عالم الحيوان الفرنسى ج . كوفيه (١٧٦٩ - ١٨٣٢) . ففى مسعى منه الى تفسير انقراض بعض الانواع البيولوجية وظهور غيرها ، تقدم بفرضية مفادها ان تاريخ الارض تتعاقب فيه على الدوام فترات تكون حالة الطبيعة فيها ساكنة وثابتة واخرى تحدث فيها كوارث مروعة هى الجوائح . وفى الفترة الزمنية بين الجوائح لا تحدث تغيرات فى الحيوانات والنباتات . اما فى سياق الجائحة فيهلك كل الاحياء تقريبا وتظهر فى الظروف الجديدة انواع جديدة من الحيوانات والنباتات لا علاقة لها بتاتا بالانواع السالفة . وتعذر على فرضية كوفيه الاجابة عن سؤال لماذا يوجد هذا العدد الكبير من اوجه الشبه فى بنية اجسام الكائنات الحية التى كانت على قيد الحياة قبل الجائحة وبعدها . عدا عن ذلك ، اظهرت دراسة تاريخ الارض ان «الانقلابات الجيولوجية» نفسها غالبا ما كانت تستغرق فترات امدها آلاف ومئات آلاف وحتى ملايين السنين وأن الحياة على الارض لم تنقطع خلال هذا الوقت . وبالرغم من أن اراء كوفيه قد دحضت على هذا النحو ، انتشرت وجهة النظر القائلة بأن التطور يتألف من مراحل غير مترابطة فيما بينها من السكون والكوارث انتشارا معينا فى فهم العمليات الاجتماعية . وتجسدت فى نظريات الفوضويين والمتطرفين السياسيين ونشاطهم السياسى . اذ كان هؤلاء جميعا مزهوين بشوريتهم

المتطرفة ويعتقدون ان بإمكانهم فى اية لحظة وفى اية مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى القيام بانقلاب ثورى والقضاء على سلطة الدولة وتصفية الملكية الخاصة بلمح البصر واقامة نظام اجتماعى جديد . وقد اثبت لينين بطلان هذه «الثورية» الكامل . ان الفوضوية والتطرف والارهاب فى الواقع تعبير عن تذبذب البرجوازية الصغيرة وافتقارها الى التنظيم وعدم ثقتها بطاقتها . وابانت ممارسات الحركة الثورية العالمية ان الثورات الاجتماعية العميقة والجادة لا يمكن ان تحدث الا حين يحضرها كل مجرى الاحداث التاريخية الموضوعى السالف . فاستلام سلطة الدولة وتصفية الطبقات التناحرية وبناء الاشتراكية مرحلة منطقية ومشروعة من مراحل تطور المجتمع .

واطلق على وجهة النظر الثانية نعت «الارتقائية» . ففى اواسط القرن التاسع عشر وضع دارون نظريته الارتقائية على اساس تعميمات مادة وراثية غزيرة . وحاول الدارونيون الاجتماعيون نقل نظرية الارتقاء البيولوجى وتطبيقها على المجتمع (٣٠٧) . وهذا هو الذى افضى الى ظهور المذهب الارتقائى . ولا يجوز الخلط بينه وبين نظرية الارتقاء . فالارتقاء هو مجرى عملية تسوده التغيرات الكمية التدريجية . والارتقائية تحصر التطور كليا فى الارتقاء وتنكر دور التغيرات الكيفية الثورية . وتقضى الارتقائية فى مجال فهم العمليات الاجتماعية الى الاصلاحية والتحريفية . فالاصلاحيون السياسيون والتحريفيون هم من حيث الجوهر مطايا الايديولوجيا البرجوازية داخل الحركة العمالية . وفى رأيهم ان الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية هو عملية ارتقائية رتيبة بلا قفزات ولا هزات ثورية . وهو يتم بواسطة الاصلاحيات السلمية المفضية الى تغيرات كمية محضه فى مجال دفع اتعاب العمل وعدد ساعات العمل اليومى . وتعرض على العمال كمية معينة من اسهم المؤسسات التى يعملون فيها ، وبذا - كما يدعى الاصلاحيون والتحريفيون - ينمى بالتدريج الخط الفاصل بين العمال والرأسماليين ، اما الرأسمالية «فتتطور الى

اشتراكية» بلا صراع طبقي وبلا ثورة . واذا اخذنا بالاعتبار ان نمو الاجور لا يغطى نمو الغلاء ، وان تقليص ساعات العمل يقترن بتكثيف العمل ، وأن الرأسمالية عندما تقدم الاسهم لعشرات او مئات العمال تحكم على الملايين بالبطالة ، فسوف يتضح بجلاء المغزى الحقيقى للاصلاحية والتحريفية . وبطرح الارتقائية البرجوازية بديلا للماركسية اللينينية الثورية يكرس الاصلاحيون المعاصرون فى الواقع استغلال الانسان للانسان ويسعون الى اطفاء جذوة الصراع الطبقي وتفادى التحويل الفعلى للمجتمع .

على هذا النحو نجد ان الفهم الميتافيزيقى الوحيد الجانب للتغيرات الكمية والكيفية فى عملية التطور يندرج فى اساس مختلف النظرات اللاماركسية الى عملية التطور . فأحدى النظرتين (الكارثية) لا ترى ان التغيرات الكيفية الجذرية تمهد لها وتسببها التغيرات الكمية التدريجية . والنظرة الاخرى (الارتقائية) تحصر كل التطور فى التغيرات الكمية وتنكر اهمية التغيرات الكيفية وبالتالي تعجز عن تفسير من أين تنشأ الظواهر الجديدة فى الحياة الاجتماعية . اذن فالفهم الصحيح للتطور يتمثل فى اكتشاف ودراسة الترابط الفعلى بين هذين النمطين من التغيرات . أن الجدلية المادية تؤكد بالاستناد الى تجربة التطور التاريخى وبالتطابق التام مع معطيات العلم الحديث ان التغيرات الكمية التدريجية لاية ظاهرة او عملية تؤدي بالضرورة وبحكم قوانين التطور ، عند المرور عبر حد معين ، الى تغيرات كيفية جذرية تنشأ فى نتيجتها كيفية جديدة وظاهرة او عملية جديدة . بعبارة اخرى ، أن الارتقاء ، ايا كان ، يوفر عاجلا أو آجلا الظروف اللازمة للثورة . كما ان العملية الثورية الناجزة توفر بدورها الممهدات اللازمة للتطور الارتقائى الجارى على اساس كيفى جديد . وهذا ما تتجلى فيه الوحدة الجدلية الحقيقية للكمية والكيفية ، بصفتها جانبين متضادين ، ولكن مترابطين ، لعملية التطور .

الترايط الجلى للتغيرات الكمية والكيفية . كما نتيقن من العلايع العام والمشروع للترايط الجلى الذى وضعنا صيغته توا بين التغيرات الكمية والكيفية ، بين المرحلتين الارتقائية والثورية لعملية التطور ، سوف نتناول بعض الامثلة :

١ - من المعروف أن المواد الكيميائية تغير حالتها التركيبية تبعاً لتغير طاقة الترايط بين الجزيئات والذرات . فى سبيل المثال ، أن للماء فى حالة الضغط الجوى الطبيعى والحرارة دون درجة الصفر المئوية بنية بلورية ويعتبر جسماً صلباً هو الجليد . ومع تغير درجات الحرارة تتغير بعض غات الجليد ، لكن مواصفاته الكيفية المتعلقة بالبنية البلورية وبقدرة كل جسم صلب على الاحتفاظ بشكله الهندسى تبقى كما كانت . وعند التسخين الى ما فوق درجة الصفر يبتدىء ذوبان الجليد . فالطاقة المكتسبة عند التسخين تقطع الروابط التى توحد جزيئات الماء فى بلورات . وتسمى هذه العملية من وجهة نظر الفيزياء بالانتقال الطورى . وقد تستغرق هذه العملية وقتاً طويلاً أو قصيراً حسب سرعة التسخين . اما من وجهة النظر الجدية فهى قفزة كيفية : اذ تقطع بعض الروابط الكيفية وينشأ غيرها . وفى نتيجة ذوبان الجليد ينتقل الماء الى حالة تركيبية جديدة هى السيولة . فجزيئات H_2O فى البلورات تراوح فى مكان محدود قرب نقاط بعينها هى العقد البلورية . وفى الحالة السائلة تتحرك الجزيئات حركة فوضوية خاضعة لقوانين الحركة البراونية . وترتبط بالحالة الكيفية الجديدة مواصفات كمية جديدة ايضاً . فالماء السائل لا يخضع لقوانين فيزيائية اخرى فحسب ، بل وتغدو صفاته الكيميائية والفيزيائية مغايرة ايضاً . مثلاً ، انه مادة مذيبة جيدة للعديد من المواد الكيميائية علماً بأن قدرته على اذابة المواد تتنامى عند التسخين تدريجياً ، بلا قفزات . وللماء فى درجة $+1$ ودرجة $+99$ مئوية صفات مختلفة . وفى الحالة الاولى تشعر اليد المغمورة فيه بالبرد وفى الحالة الثانية تصاب بحروق . رغم ذلك انه اختلاف كمى ، ذلك ان

الماء لا يتغير من حيث صفاته الفيزيائية الكيميائية وحالته التركيبية ، اى من الناحية الكيفية . ويجرى تسخين الماء بشكل رتيب ، بلا انقطاع فى الصفات الكيفية الفيزيائية ، وترتفع النتائج التى تسببها هذه العملية بتغير طاقة وسرعة حركة الجزيئات . ولكن عند تجاوز حد درجة ١٠٠ مئوية يختل حد وحدة التعينات الكمية والكيفية للحالة التركيبية السائلة ، ويبتدىء انتقال طورى جديد هو الغليان . وهذا يعتبر من وجهة النظر الجدلية قفزة كيفية جديدة . ونتيجته هى مرة اخرى انقطاع الروابط والصفات الفيزيائية القديمة وظهور اخرى جديدة . فالماء فى حالته التركيبية الغازية لم يعد خاضعا لقوانين الهيدروديناميك بل لقوانين الديناميك الغازى . مثلا ، أن الماء لا ينضغط تقريبا فى حين تتقبل الغازات بيسر الضغط القوى . وهذا بالمناسبة ، هو الاساس الذى يقوم عليه عمل المحركات البخارية . اذن ، فالحالة الكيفية الجديدة تتسم ايضا بمواصفات كمية جديدة لا تتسم بها حالة الماء الصلبة ولا حالته السائلة .

٢ - أن تبدل التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية (٢١٧) - (٢٢١) ليس عملية فيزيائية بل تاريخية ، ولكن يتجلى فيها بوضوح ايضا الترابط الجدلى بين التغيرات الكمية والكيفية . ان نظام المشاعية البدائية يتغير تدريجيا تحت تأثير تطور ورقى القوى المنتجة البطيء للغاية : ادوات العمل الحجرية ، ومن ثم المعدنية وما يناسبها من مراس البشر . وتتنامى ببطء انتاجية العمل وكمية المنتجات . وابتداء من ظرف معين ، حين تُستنفد امكانيات العلائق الانتاجية الجماعية ، تبلغ التغيرات الكمية حدا معيناً وينشأ تضارب بين العلائقات الانتاجية والقوى المنتجة . ويغدو استمرار تطور الانتاج مستحيلا ، فتبتدىء عملية التغير الكيفى لطريقة الانتاج ، وهذا - كما نعلم - يؤدى الى تهدم كل الروابط والعلاقات الاجتماعية للنظام المشاعى القبلى . ويتهدم البناء التحتى القديم وما يقوم عليه من بناء فوقى ، وتجري تغيرات كيفية عميقة فى المجتمع بأسره . وهذه ، من الناحية التاريخية ،

هى اول ثورة اجتماعية (٢١٤) . وتختلف التشكيلة العبودية الحديثة العهد اختلافا كبيرا عن التشكيلة السالفة بتكون علاقات الملكية الخاصة الانتاجية ونشوء الطبقات التنافسية وظهور الدولة والقانون وهلمجرا . ولحالة المجتمع الكيفية الجديدة ما يناسبها من الموصفات الكمية الجديدة والثوابت الجديدة . وبالفعل فالنظام المشاعى البدائى يتطور على مدى عشرات الاف السنين . ويشمل تاريخ المجتمع العبودى قرابة اربعة الاف سنة . وكمية المنتوجات المادية التى انتجت خلال عصر العبودية ، بما فى ذلك الابنية والطرق ومنشآت الرى وادوات العمل والاسلحة وما الى ذلك ، تفوق ما صنع على نفس تلك البقعة الجغرافية طوال فترة التشكيلة السالفة . وينمو نموا حادا عدد السكان ويتسارع تطور الثقافة التى تكتسب طابعا مغايرا كما وكيفا ، وتظهر ايضا موصفات لم يكن لها وجود فى المجتمع السابق كعنف وحدة النزاعات الطبقة .

وعندما تبلغ قوى المجتمع العبودى المنتجة حدا معيناً تدخل مرة اخرى فى تناقض مع العلاقات الانتاجية . وتبتدى ثورة اجتماعية جديدة ، قفزة كيفية جديدة . ولكن حتى هذه الثورة لا تجرى بلمح البصر ، بل تستغرق عشرات ومئات السنين . وهى تسفر عن نشوء المجتمع الاقطاعى بموصفاته الكيفية . وفى اوربا تستنفذ التشكيلة الاقطاعية نفسها بالنظر لتصاعد الصراع الطبقي ، وفى المرحلة المتأخرة بالنظر ايضا لتسارع تطور الاقتصاد الذى يؤدى الى نشوء القوى المنتجة الرأسمالية . وبالتدريج يشمل اشتداد وتصاعد التناقضات فى منظومة العلاقات الانتاجية والقوى المنتجة كل المجتمع الاقطاعى ، وتكرر مرة اخرى عملية انتقال التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية جذرية . وتتجلى هذه الاخيرة فى شكل ثورات برجوازية تفضى الى تكوين التشكيلة الرأسمالية . ويتسم المجتمع الرأسمالى ايضا بموصفات كمية خاصة . اذ تزداد سرعة العملية التاريخية زيادة حادة . ولا يفصل بين الثورات البرجوازية الاولى والثورة الاشتراكية الاولى فى

اكتوبر عام ١٩١٧ سوى اقل من اربعة قرون . فالقوى المنتجة تتطور بوتيرة متسارعة . وكمية السلع التى ينتجها الانسان ، مثلا فى مجرى سنة واحدة ، تتساوى تدريجيا مع انتاجية كل الطبيعة «غير المتحضرة» ، ومن ثم تتفوق عليها . ويغدو تكثف الاستغلال الرأسمالى للطبقة العاملة المؤشر الكمي الاساسى . ويسبب التصاعد الكمي لتناقضات المجتمع الرأسمالى انتقالاتا ثوريا ، أى كيفيا ، الى التشكيلة الجديدة ، وهى التشكيلة الشيوعية .

سوف نتوقف فى ادناه (٤١٦) عند كيفية تجلى الترابط الجدلى بين التغيرات الكمية والكيفية فى ظل الاشتراكية ، ولكن حتى فى المثال الذى اوردناه يتضح بجلاء ان التغيرات الكمية تؤدى عند تجاوز حد معين الى قفزة كيفية ، ويتسم ظهور الكيفية الجديدة هو الآخر بثوابت كيفية جديدة وبنمط جديد من التغيرات الكمية .

٣ - لقد دار الحديث فى المثال الاول حول التغيرات الكمية والكيفية فى ظاهرة طبيعية ، وفى المثال الثانى حول هذه التغيرات فى التطور الاجتماعى . وسنرى الآن كيف تترابط الكمية والكيفية فى تطور الفكر ذاته وتطور الوعى . ان الطفل الوليد لا يحوز القدرة على الكلام ، أى القدرة على التفكير والتعبير عن فكرة بلغة مفهومة . وفى مجرى السنة الاولى من حياته يجرى تراكم كمي تدريجى للمراس الذى له علاقة بذلك . وتجرى القفزة الكيفية الاولى فى اواخر هذه الفترة وتتجلى فى الكلام المفهوم : اذ يشرع الطفل فى تلفظ كلمات منفردة . ويؤدى استمرار توسع احتياطي المفاهيم الاولى والمفردات المعبرة عنها الى قفزة كيفية جديدة هى ان الطفل يشرع فى تلفظ جمل منفردة . بعد ذلك يتغير تفكير الطفل الى درجة تجعله قادرا على تكوين طروحات او استنتاجات منطقية معقدة الى هذا القدر او ذاك ، وعلى التعبير بشكل مترابط ومتواصل عن رغباته واحاسيسه ومعارفه عن العالم المحيط به ، وبذا تحل مرحلة جديدة مبدئيا فى تكون الفكر . على هذا النحو نرى هنا ايضا نفس جدلية الترابط والانتقالات

المتبادلة للتغيرات الكمية الى كيفية وبالعكس . ومن خلال اجمال ما اوردناه من امثلة وتبيان سماتها العامة يتسنى لنا تبيان وصياغة قانون الجدلية الذى يحدد شكل التطور .

٤١٤

قانون تحول التغيرات الكمية الى كيفية والكيفية الى كمية .
يسمى القانون الذى يحدد الشكل العام للتطور بقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية والتغيرات الكيفية الى كمية . ويمكن ان يصاغ هذا القانون بشكل الموضوعات التالية :

١ - ان كل ظاهرة او عملية هى عبارة عن وحدة كمية وكيفية ، بعبارة اخرى ، انها تتسم بتعين كفى وكمى يميزها هى وحدها .

٢ - ان التغيرات الكمية تجرى بصورة تدريجية ، رتيبة ، متواصلة الى حد معين . وفى نطاق هذا الحد لا تسبب تغيرات فى الكيفية المعنية . والتغيرات الكمية ، عادة ، ارتدادية . وهى تتسم بالحجم والدرجة والكثافة ويمكن قياسها والتعبير عنها برقم معين بواسطة وحدات قياس مناسبة .

٣ - عند تجاوز الحد الذى يسم الموضوع المعنى (المنظومة المعنية) تسبب التغيرات الكمية تغيرات كيفية جذرية تفضى الى تشكل كيفية جديدة .

٤ - تجرى التغيرات الكيفية بشكل قفزة ، اى انقطاع فى التدرج . وليس لازما أن تجرى القفزات بشكل انقطاع خاطف ، بل يمكن أن تستغرق فترة زمنية طويلة او قصيرة .

٥ - تتسم الكيفية الجديدة الناشئة فى نتيجة القفزة بخواص او ثوابت كمية جديدة ، وكذلك بحد جديد من وحدة الكمية والكيفية .

٦ - ان مصدر تحول التغيرات الكمية الى كيفية والكيفية الى كمية هو وحدة وصراع الاضداد وتنامى التناقضات وحلها .

ويسرى مفعول قانون الجدلية الذى اوردنا هنا صيغته على الطبيعة والمجتمع والفكر . وهو يتجلى تجليا خاصا فى كل

حالة بعينها . ولهذا يتطلب استخدامه فيما يتعلق بتنفيذ المهمات التطبيقية المتسمة بتفرد كبير القدرة على استخدام الموضوعات العامة للمجدلية مع مراعاة المواصفات الفردية لكل حالة بعينها وكل مهمة بعينها . وسنوضح هذه الموضوعات بمثال تحليل بنية الثورة الاشتراكية خلال المرحلة الراهنة من تطور الاشتراكية .

٤١٥

التغيرات الكمية والكيفية في بنية الثورة الاشتراكية . كانت الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ قفزة كيفية كبرى في تاريخ البشرية . فهي لم تكن رمزا للانتقال من تشكيلة الى اخرى فحسب ، بل كانت ايضا رمزا للانتقال العام من مرحلة «تشكيلات» التطور الى التطور الاجتماعى الجارى بلا تعاقب تشكيلات . وكان على هذه الثورة أن تطبق تحويلات كيفية في مجمل حياة المجتمع : فى السياسة والاقتصاد والثقافة . ولهذا يمكننا أن نشخص ضمن اطارها بضع عمليات ثورية مترابطة هى : الاستيلاء على السلطة ، اقامة دكتاتورية البروليتاريا كأداة لبناء المجتمع الاشتراكى ، تكوين العلاقات الانتاجية الاشتراكية والبناء التحدى الاشتراكى للمجتمع ، الثورة الثقافية التى تتمثل فى بناء ثقافة جديدة ، اشتراكية ، على اساس تحويل الايديولوجيا العلمية للطبقة العاملة الى اساس ايديولوجى للمجتمع الاشتراكى ، والتى تحدد تطور الوعى الاجتماعى بأكمله . لقد كانت الثورة الاشتراكية فى روسيا بمقياس التاريخ العالمى فترة قصيرة الامد من الهدم الجذرى للعلاقات الاجتماعية القديمة واقامة المجتمع الجديد نوعيا . وانجزت بعد مضى عقدين تقريبا على انقلاب اكتوبر الثورى عام ١٩١٧ بانتصار الاشتراكية ، أى بتكون الطور الاول من المجتمع الشيوعى . ولئن قارنا هذا ببضعة قرون من التطور السالف للرأسمالية ، فسوف نجد أن الثورة كانت عملية قصيرة الامد ومكثفة الاحداث الى اقصى درجة . يبدو انها كانت تنطوى على عمليات معقدة ومديدة الى هذا القدر او ذاك ، هى عمليات التحويلات الاجتماعية .

لم تكن انتفاضة أكتوبر المسلحة التي تكللت بالاستيلاء على السلطة سوى خطوة أولى ، واقتضى الامر فترة زمنية لا يستهان بها ، من ضمنها سنوات الحرب الاهلية كي تتم اقامة السلطة السوفيتية على كل اراضى البلد . وعلى مدى فترة زمنية معينة جرى هدم ماكنة الدولة القديمة (٢٠٧) والاستعاضة عنها بأجهزة دكتاتورية البروليتاريا . وتطلب هذا تشكيل منظومة كاملة من منظمات العمال والفلاحين الكادحين الجماهيرية ، وتوطيد وتعميق التحالف فيما بينهم ، وتأليف منظمات شبابية ونسائية ونقابية وغيرها من المنظمات التي شاركت تحت قيادة الحزب الشيوعى فى البناء الاشتراكى ، وفى نتيجة هدم ماكنة الدولة القديمة واخماد مقاومة الطبقات المستغلة المدحورة جرى تكوين البناء الفوقى السياسى للمجتمع الاشتراكى (٢٠٥) ، ونشأت منظومة سياسية جديدة كفىا وبنية طبقية جديدة كفىا للمجتمع تضم الطبقة العاملة وفلاحى الكولخوزات - وهما الطبقتان الاساسيتان اللاتناحريتان - ومثقفى الشعب الذين يشكلون شريحة اجتماعية .

يعتبر الاستيلاء على سلطة الدولة وتوظيفها لحمل التناقضات التناحرية اهم وأبرز شرط لتطبيق التحويلات الاشتراكية فى الاقتصاد ، وهدف هذه التحويلات هو اقامة العلاقات الانتاجية الاشتراكية وجعلها مناسبة لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة التى نشأت على اساس الانتاج الآلى الكبير . ان مثل هذه العلاقات الانتاجية لا يمكن أن تنشأ فى رحم النظام الرأسمالى ، علما بأن تكونها فى الصناعة والزراعة هو عبارة عن عملية معقدة ومديدة كفاية . فقد اخذت المؤسسات الصناعية الكبيرة تتحول الى ملكية دولة الشعب بأسره فى اواخر عام ١٩١٧ وطوال عام ١٩١٨ ، كما انجز كليا تأميم المؤسسات المتوسطة والصغيرة ، وجرى تطبيق التحويلات الاشتراكية فى الاقتصاد خلال عملية التصنيع واشاعة المزارع الجماعية فى الريف . أن هذا الطريق لبناء المجتمع الاشتراكى لا يجوز بتاتا اعتباره

الطريق العام والوحيد الممكن ، بل قررته الظروف الملموسة التي حدثت فيها الثورة الاشتراكية فى روسيا بقاعدتها الصناعية الضعيفة التطور وزراعتها المتخلفة . اما فى البلدان الاخرى الاكثـر تطورا ، التي تسلك طريق التحويلات الاشتراكية ، فيمكن تطبيق نماذج اخرى لبناء الاشتراكية واعتماد اشكال ووتائر اخرى للتحويلات الاقتصادية والاجتماعية . فطريقة بناء الاقتصاد الاشتراكي التي اعتمدت فى الاتحاد السوفيتي كانت ترتبط ببعض الانحرافات عن مبادئ البناء الاشتراكي التي وضعها لينين ، فعلى الرغم من توجيهاته القاضية بتطوير الحركة التعاونية على نطاق واسع جرى تقييد النشاط الاقتصادي والفردى والتعاونى ، وقلصت الادارة الذاتية للمؤسسات الى الحد الأدنى ، وكانت عملية اشاعة المزارع الجماعية تقتصر فى احيان غير نادرة باجراءات قسرية ، وطبقت عملية التصنيع بطرائق ادارية تقوم على الاوامر والاياعازات ، وكانت وتائر تطبيقها تنتهك موازنات الاقتصاد الوطنى . وعلى الرغم من أن عمليتي اشاعة المزارع الجماعية والتصنيع قد اتاحتا للبلد فى السنوات التي سبقت الحرب أن يشيد قاعدة تقنية لاعلاء قدرته الدفاعية ، أدت كل هذه النواقص فى وقت لاحق ، ولا سيما طرائق القيادة الفردية الادارية القائمة على اصدار الاوامر الى كبح مسيرة التقدم ومن ثم الى الركود . ويستدل من ذلك أن عملية البناء الاشتراكي لا توجد ولا يمكن أن تكون فيها قوالب ومساطر جاهزة .

ان ما تناولناه هنا من توالى وترايط التغيرات الثورية فى بنية الثورة الاشتراكية يعكس قبل كل شىء التجربة التاريخية للاتحاد السوفيتي . اما فى البلدان الاخرى التي سلكت طريق التحويلات الاشتراكية فى ظروف تاريخية مغايرة ، وأفادت من تجربة الاتحاد السوفيتي التاريخية ما يناسب ظروفها وخصائصها ، فإن المراحل والاشكال الملموسة لهذه التحويلات تنماز بـقدر كبير او قليل من التفرد . وهذا أمر يسهل فهمه ، ذلك أن بعض هذه البلدان

كان قبيل بدء الثورة الاشتراكية يتمتع بصناعة وزراعة ريفية التطور . وكان بعضها الآخر يشغل مراتب اوطأ من التطور الاجتماعى والاقتصادى . والعديد من هذه البلدان لم يتحرر من التبعية الاستعمارية الا منذ وقت قريب ، لذا كان عليه ان يجتاز مرحلة الثورات الوطنية التحررية والتحويلات الديمقراطية . لذا فالاشكال الملموسة لمجرى التحويلات الاشتراكية فى مختلف البلدان تمتاز بتنوع كبير ، بيد ان هناك سمات مشتركة وسننا عامة (٢١٢) تميز ذلك المضمون الواحد الذى يلزم كل الثورات الاشتراكية ، ايا كان الشكل الملموس الذى تتجلى فيه .

وهذا هو ما يجعل لموضوعة تناسب التغيرات الكمية والكيفية فى عملية الثورة الاشتراكية أهمية عامة . حين نتأمل بنسبة الثورة الاشتراكية نلاحظ ان هذه الثورة ، بصفتها قفزة كيفية من وجهة نظر التطور وتعاقب التشكيلات ، تتألف هى نفسها من طائفة عمليات متنامية تدريجيا تختتم كل منها بتحويلة كيفية جذرية فى أهم ميادين النشاط البشرى : السياسى والاقتصادى والثقافى . على هذا النحو ، ليس ثمة فاصل منيع بين التغيرات الكمية التدريجية والتغيرات الكيفية الجذرية ، انما هى مترابطة فيما بينهما ترابطا وثيقا .

٤١٦

جدلية الكمية والكيفية خلال المرحلة الراهنة من تطور الاشتراكية . لننظر الان كيف هى الحال مع التغيرات الكمية والكيفية خلال المرحلة الراهنة من تطور المجتمع الاشتراكى . عند التطرق الى التغيرات فى حياة هذه او تلك من التشكيلات الاجتماعية او حياة دولة بعينها او نظام اقتصادى اجتماعى بعينه ، ينبغى لنا أن نتذكر ان التغيرات الكمية التدريجية لا تمس الظواهر الايجابية فحسب ، ولا تقتصر على كونها توطد المجتمع وتساعد على تطوره . انما يمكن ان تمس أيضا الظواهر السلبية ، ذلك اننا نلاحظ فى جميع ميادين الحياة الاجتماعية نزعات متناقضة . ونلاحظ كيف يسرى مفعول

قانون وحدة وصراع الاضداد (٤٠٥ ، ٤٠٨) . ويستدل من ذلك أن التغيرات الكمية التدريجية تشمل في آن واحد الظواهر والعمليات الايجابية والسلبية على السواء . ويتلخص السؤال في تحديد أى من العمليات والنزعات والآليات الاجتماعية هى الحاسمة التى تقرر النزعة الاجتماعية العامة . ففي المجتمع الاشتراكى الذى تطور فى ظروف تاريخية معقدة جدا كان المطلوب فى المقام الاول هو تنفيذ المهمات الاقتصادية الاجتماعية الاساسية ، أى اعتماد طريقة انتاج جديدة وتحقيق مواءمة بين البناء الفوقى والبناء التحتى الاشتراكى وتوطيد كيان الدولة الاشتراكى وحماية الوطن الاشتراكى من تطاولات الاعداء الخارجيين والتغلب على مقاومة المستغلين المدحورين . لقد جرى تنفيذ كل هذه المهمات ، بيد ان هذا تطلب اعداد جهاز دولة جبار واحلال نظام قانونى اشتراكى متميز ، ولكن ابتداء من اواسط السبعينات اخذت تتجلى اكثر فاكثر ، الى جانب النزعات الايجابية السائدة فى حياة المجتمع السوفيتى ، اخطاء ذاتية تتعلق باعادة تقويم البرمجة المركزية وبالتخلى عن تنمية العلاقات البضاعية النقدية وباشتداد الطرائق «الارادية» غير الاقتصادية فى ادارة نشاط المؤسسات والدوائر الاشتراكية . فلماذا تسنى لكل هذه الامور أن تحدث ؟ وهل تنسجم هذه الظواهر السلبية مع المبدأ نفسه ، مع روح الاشتراكية ؟

لقد حذر لينين فى بداية الثورة من أن البيروقراطية والتخلى عن اشراك الجماهير فى ادارة شؤون المجتمع يشكلان خطرا كبيرا على الاشتراكية . ولكن على خلفية النجاحات الكبيرة التى تم تحقيقها خلال العقود القلائل التى اعقبت الحرب اشتدت بين اوساط جزء من القادة الحكوميين والحزبيين امزجة الرضا عن النفس والاطمئنان غير المبرر ، ونشأ اعتقاد بأن المضى قدما بتطوير ادارة شؤون الحياة الاجتماعية والبحث عن اشكال اكثر حداثة للتنظيم والقيادة أمر فائض عن اللزوم . وتطلب الامر وقتا معينا كيما يصار الى ادراك الآثار السلبية للاطمئنان غير المبرر والاطمئنان

الذاتية . وتمثلت حصيلة هذا الادراك فى البيريسترويك
المبدئية ، الثورية من حيث الجوهر ، الجارية الآن فى الاتحاد
السوفييتى وباقي بلدان الاسرة الاشتراكية .

والمهم من الناحية الفلسفية أن نستوضح ان هذه القفزة
الاجتماعية المتميزة فى نوعها والتي تؤمن الانتقال الى حالة
جديدة نوعيا للمجتمع . فهى تشمل : ١ - تحديث القوى
المنتجة وتنميتها السريعة استنادا الى منجزات التقدم العلمى
التقنى ؛ ٢ - ضمان تلبية عادلة اوفى على هذا الاساس
لاحتياجات اعضاء المجتمع كافة ، المادية منها والروحية ؛
٣ - تحقيق الانسجام بين العلاقات الانتاجية والقوى المنتجة عن
طريق تحسينها ؛ ٤ - التجاوز التام للبيروقراطية وتطوير
الاشكال الديمقراطية لاتخاذ القرارات والادارة على جميع
المستويات ، ابتداء من المؤسسة المنفردة وانتهاء بالدولة
ككل ؛ ٥ - تنشيط العامل البشرى باعتباره القوة الحاسمة
لتسريع التقدم الاقتصادى الاجتماعى ؛ ٦ - تطوير جميع
المؤسسات الثقافية والاجتماعية والتشريعات والقضاء وحماية
النظام العام .

على هذا النحو ، تجرى خلال المرحلة الراهنة ايضا ، الى
جانب التغيرات الكمية الكبيرة الشأن ، تغيرات كيفية جذرية
ايضا . وهى ، بخلاف الثورة الاجتماعية عند الانتقال من
الراسمالية الى الاشتراكية ، لا تهدم النظام الاجتماعى القائم ،
بل - على العكس - توطد اركان النظام الاجتماعى الاشتراكى .
ويتيح التحليل الفلسفى ايضا فهم جانب مهم آخر تمتاز
به الاشتراكية ، وهو ان غياب التناقضات التناحرية يمكن
المجتمع من أن يدرك بشكل نشيط ويصحح بشكل فعال
اخطائه ونواقصه وهفواته التى لا يمكن بدونها ان تكون هناك
تحولات تاريخية كبيرة تطبق لأول مرة .

وللمجتمع الرأسمالى كذلك اخطاؤه وهفواته . وهو قادر
كذلك فى بعض الاحيان على الارتقاء الى مستوى ادراكها ، فى
اقل تقدير ، على يد بعض ممثليه التقدميين . غير ان
التغيرات الجذرية لا يمكن ان تحدث فى ظل الرأسمالية دون

صراع طبقي ودون مقاومة ضارية من قبل القوى التي تشكل التحولات الكيفية في المجتمع البرجوازي تهديدا لسيطرتها . ولهذا يمكن القول بان القدرة على التطور الذاتي والتحولات الكيفية سمة مميزة للمجتمع الخالي من التناقضات التنافسية (٤٠٦) .

اتجاه التطور

٤١٧

حوار حول اتجاه التطور . يتسم التطور ، بصفته نوعا متميزا من انواع الحركة ، لا بشكله ومصادره الداخلية فحسب ، بل وباتجاهه . وكما نفهم بأى معنى يمكن الحديث عن اتجاه التطور ، نعود ثانية الى اجراء حوار بين شخص جدلي وآخر ميتافيزيقي .

الميتافيزيقي (م) : ان الجدلية المادية تتحدث عن اتجاه التطور . ولكن يبقى غامضا المغزى الذي يستخدم فيه هذا المصطلح .

الجدلي (ج) : ما هو وجه هذا الغموض ؟

م : ان الاتجاه صفة مميزة لانتقال الاجسام فى المكان . وهو نسبى ويرتفع بموقع المراقب . مثلا ، لو وقفنا ظهرا الى ظهر ، فالسيارة التى تمر من امامنا تسير الى الامام من وجهة نظرك والى الخلف من وجهة نظرى . لهذا لا يصلح استخدام مفهوم «الاتجاه» بخصوص التطور ، لذا اعتقد بأن من غير الجائز الحديث عن اتجاه التطور .

ج : ان المثال الذى اوردته لا يصور سوى قيمة واحدة لمفهوم «الاتجاه» . وهى غير صالحة للاستخدام بخصوص الاشكال الاكثر تعقيدا لحركة المادة . فنحن نسمع ، مثلا ، باتجاه التفاعلات الكيميائية التى تنشأ فى سياقها مواد كيميائية جديدة . ونسمع كذلك باتجاه الارتقاء البيولوجى الذى تنشأ فى سياقه انواع جديدة . وهناك ايضا اتجاه التاريخ الذى يتجلى فى نشوء قوى منتجة جديدة وعلاقات انتاجية جديدة وطبقات جديدة وتشكيلات اقتصادية اجتماعية جديدة .

م : فكيف ينبغي ، اذن ، ان نفهم المقصود من اتجاه التطور ؟

ج : ان الجدلية تقصد باتجاه التطور ليس الانتقال المكانى ، بل تشكل ظواهر جديدة نوعيا . وعليه فان اتجاه التطور هو الحركة من القديم الى الجديد . وهذه العملية غير قابلة للارتداد ، وبالتالي فالجديد لا يمكن ان يتحول مرة اخرى الى ظواهر قديمة سالفة .

م : ان آرائى تختلف مع آرائك . فهل يمكن القول ان النباتات تنمو ، اذا كانت نبتة من نبات الهندياء البرية ، مثلا ، تكرر اساسا نفس المراحل من النمو ؟ وكل شئ يتكرر ايضا فى تاريخ الدول المختلفة . فالدول تنشأ وتتطور وتزول . وتمر الدول الجديدة التى تنشأ على انقاض الدول القديمة - باستثناء بعض التفاصيل - عبر نفس المراحل . انه تداور محض . اما اذا تخيلنا عن فكرة التداور ، فينبغى الا نتحدث عن الجديد والقديم ، بل عن ظواهر او مراحل للحركة متباينة وغير مترابطة فيما بينها . اذن ، لا يمكن الحديث اصلا عن أى اتجاه للتطور ، انما يمكن فقط الحديث عن بعض التغيرات ، لكنها عديمة الاتجاه ولا تفضى الى شئ .

ج : انت تفهم ترابط القديم والجديد فهما مبسطين جدا . انت تتصور ان الجديد هو اما تكرار بسيط للقديم واما هناك انقطاع تام بين هذا وذاك . اما الجدلية فتنتطلق من وحدة الازداد ، من تطابق واختلاف القديم والجديد فى آن واحد ، وتؤكد ان الانتقال من القديم الى الجديد يخضع لقانون خاص . وهذا القانون هو الذى يحدد اتجاه اية عملية تطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر . وكما نفهم هذا القانون يجب ان نتعرف جملة من المقولات الجديدة وان ندرس ترابطها الداخلى .

٤١٨

الطابع اللولبى للتطور . كيما نستوضح بشكل افضل التضاد الجذرى بين الفهم الجدلى والفهم الميتافيزيقى لطابع واتجاه التطور سوف نتناول المثال التالى :

نعين على دائرة نقطة ما ونباشر منها بالحركة باتجاه عقرب

الساعة . اننا سنعود عاجلا او آجلا الى نفس النقطة مرة اخرى . ولئن كررنا حركتنا الدائرية فسوف نمر مرارا عبر كل نقاط الدائرة . بهذا المعنى يتكرر كل شئ في الحركة الدائرية تكررنا تاما ، ولن تكون هناك أية نقطة جديدة لم نمر عبرها من قبل . وبالعكس ، اذا اخترنا نقطة ما على خط مستقيم وباشرنا بالتحرك منها بأحد الاتجاهين فلن نعود اليها ابدا . عندئذ سوف نفقد كليا الصلة بمنطلق الحركة القديم أى نقطة البداية . وتصلح هاتان الطريقتان الهندسيتان للحركة نموذجين يعبران عن الفهم الميتافيزيقى للتطور . فالتطور من وجهة النظر الميتافيزيقية يشبه اما الحركة الدائرية التى تتكرر فيها كل المراحل ، وأما الحركة بخط مستقيم ، التى يغيب فيها التكرر غيابا تاما ، ولكن يغيب فيها كذلك الارتهان المتبادل لهذه المراحل . بمعنى ان الصلة بين القديم والجديد مقطوعة ، والماضى والحاضر لا يرتبطان بالمستقبل .

ان خير ما يصور لنا المفهوم الجدلى للتطور هو الحركة بخط لولبى صاعد . فلنعين على احدى لفات اللولب منطلقا ، ولنقم بتحريك النقطة (أ) منه على اللولب باتجاه صاعد . فمن جهة ، سوف تبتعد النقطة (أ) خلال انتقالها من لفة الى لفة عن موقع الانطلاق وكأنها تسير بخط مستقيم ولن تعود الى الورا مطلقا . ومن جهة اخرى ، نجدها فى كل لفة تمر بموقع يعتبر مسقطا لموقع الانطلاق ، كما لو كانت النقطة (أ) تكرر المرور عبره ولكن على مستوى آخر ، أى كما لو كانت تعود الى الورا ولكن ليس كليا بل جزئيا . على هذا النحو يحمل التطور طابعا لولبيا ، وهو ينطوى باستمرار على ما هو جديد ، الى جانب ذلك يبلو وكأنه عودة الى القديم . هكذا بالذات يجرى التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر .

ويعتبر النفى والتوارث الجدليان أهم مفهومين يسمان وحدة الضدين اللذين هما ظهور الجديد وبقاء بعض خواص ومواصفات القديم .

٤١٩

النفى والتوارث الجدليان . كان هيغل اكثر من تعمق فى بحث

مسألة دور النفي خلال عملية التطور في الفلسفة ما قبل الماركسية . فبصفته مثاليا ، تناول هيغل عملية تطور الافكار . فالفكرة العالمية المطلقة ، لدى هيغل ، تشرع في طورها من منطلق معين اسماء بالاطروحة . وبالنظر لتعرض هذه الاطروحة لتغيرات كمية دائمة تتحول في آخر الامر الى نقيضها ، اى الى اطروحة مضادة . هذه قفزة كيفية ، لكنها في الوقت ذاته نفى جدلي للمنطلق . والاطروحة المضادة لا تكتفى بشطب والغاء المنطلق ، اى الاطروحة ، بل وتستوعب كل ما كانت الاطروحة تنطوى عليه من امور قيمة . ويؤدي التغير اللاحق للاطروحة المضادة مرة اخرى الى قفزة كيفية ، ويجرى نفى جديد او نفى النفي كما اسماء هيغل . وفي نتيجة هذا النفي الثاني تحل مرحلة ثالثة في تطور الفكرة المطلقة او الروح العالمية . وتبدو الفكرة وكأنها تعود الى نقطة الانطلاق ، لكنها ليست بالعودة البسيطة . لقد اسمى هيغل ما حصل في نتيجة النفي الثاني بالمركب او الاطروحة المركبة . اذ تبدو الفكرة المطلقة وكأنها قد اغتنت بكل ما كان قيما ونفيسا في مراحل التطور السالفة . ويبدو هذا وكأنه عودة الى القديم ، بيد ان المركب ينطوى الى جانب ذلك على كل ذلك الجديد الذي لم يكن له وجود في نقطة بداية التطور .

ان هذا الطرح الهيجلي المبجرد ينطوى على ثلاثة اخطاء مبدئية . أولا ، ان المقصود يقتصر على تطور الافكار ، اما التطور في الطبيعة فلا يحظى عموما بالاعتراف . ثانيا ، ان كل انواع التطور تدرج في ثلاث مراحل الزامية هي : الاطروحة ، الاطروحة المضادة ، الاطروحة المركبة ، رغم ان التطور الفعلي أعقد كثيرا ويمكن أن ينطوى على العديد من المراحل وحالات النفي المتعاقبة . ثالثا ، ان التطور يتوقف عندما يبلغ مرحلته الختامية . وبما ان تطور الروح المطلقة يعتبر نموذجا لكل انواع التطور الاخرى ، فقد اقحمت جدلية هيغل المثالية عنوة كل تنوع العمليات المتنامية في صيغة مثالية مطلقة

تتألف من ثلاث مراحل وقد اطلق عليها نعت الثالث (او المثلث) .

فمن اين جاء هذا المخطط الهيجلي للتطور ، وهل كان ينطوى على ما هو قيم ؟ ان المخطط الهيجلي للتطور هو - فى واقع الحال - عبارة عن تصوير مثالى مجرد لعملية التفكير الفعلية . فقد شهد كل فرد منا عشرات العرات كيف يتجادل الاشخاص المعنيون بالتوصل الى معرفة صحيحة وصادقة فى موضوع ما . اذ نرى شخصا يتقدم بنقطة بداية او فرضية او لغز . ونرى اخر يعترض ويجادل ويسوق براهينه وحججه . وفى آخر المطاف ، يغدو بإمكان المتجادلين من خلال معارضة احدهما للآخر ، ومن خلال سعيهما فى الوقت ذاته الى تبيان كل ما هو قيم فى آراء وحجج محدثه ، ان يتوصلا عن طريق افعال النفى المتعاقبة لما يطرحانه من وجهات نظر الى استنتاج مشترك ينطوى على كل ما هو قيم وصحيح قد تم الكشف عنه واقاراره فى سياق النقاش . ان طريقة التفكير والمعرفة هذه هى التى انعكست انعكاسا مثاليا فى ثالث هيجل .

لقد نبذ مؤسسو الماركسية اللينينية مثالية هيجل ومعها تعليمه المثالى عن الثالث . لكنهم تمكنوا خلال ذلك من تبيان وصيانة كل ما كان قيما فى تعليم النفى الجدلى ، ومن اخضاعه لمعالجة مادية .

فما هو ، يا ترى ، النفى الجدلى ؟

انه عملية لا تتعرض خلالها الكيفية القديمة للالغاء التام ، بل يبقى الجوهرى الاكثر قيمة والقادر على ضمان استمرار تطور الظاهرة المعنية ، ويدخل ضمن تركيب الكيفية الجديدة . على هذا النحو يجرى النفى الجدلى خلال عملية الانتقال الكيفى . وهو يختلف جذريا عن الالغاء الميكانيكى . فحبة القمح التى تجد ظروفها ملائمة ، مثلا ، تنبت وتتحول الى نبتة نامية . وهذا نفى ، لكن حبة القمح فى نتيجة هذا النفى لم تتلاش ، ذلك ان كل عناصرها القادرة على التطور ، مثلا جزيئات حامض الديزوكسيريبونوكلين الذى يتحكم بالصفات الوراثية وبآليات النمو ، قد حفظت وانتقلت الى النبتة ، الى خلاياها ، وانخرطت

فى عملية النشاط الحيوى الفعالة . وبالعكس ، فحبة القمح التى تقع تحت رحى المطحنة تتحول الى طحين وتعرض لهدم ميكانيكى فتتعدر عليها المشاركة فى عملية تطور النبات اللاحقة . كذلك الحال مع النفى الجدلى فى المجتمع والفكر . ففى سياق الثورة الاشتراكية فى روسيا ، مثلا ، جرى كذلك تطبيق الثورة الثقافية التى جاءت فى نتيجتها ثقافة المجتمع الاشتراكى لتحل محل الثقافة البرجوازية . وعلى الرغم من ان هذه الثقافة الجديدة تختلف من حيث المضمون اختلافا نوعيا عن الثقافة البرجوازية ، فقد نشأت ليس على اساس الالغاء التام لكل منجزات الماضى الثقافية ، بل على اساس صيانة كل ما هو قيم وتقدمى وحيوى انتجته الثقافة على مدى التشكيلات السالفة . لقد ادرجت ارقى منجزات الادب والموسيقى والفن التشكيلى والفكر الاجتماعى فى الماضى ضمن تركيب الثقافة الاشتراكية الجديدة ، ونالت فيها مزيدا من التطور . بيد ان التاريخ قد شهد ايضا حالات هدم ميكانيكى للثقافات . على سبيل المثال ، عندما قام المستعمرون الاسبان بالقضاء التام على الدول القديمة لقبائل الاينكيين والاتزتيكيين ، اقدموا ايضا على هدم ثقافة هذه القبائل حتى توقف تطورها توقفا تاما . نجد المثال على النفى الجدلى فى الفكر العلمى متمثلا فى الانتقال من الهندسة الاقليدية الى الهندسة غير الاقليدية (١١٥) . فهذه الاخيرة تنفى جملة كاملة من احكام الهندسة الاقليدية كالتعليم المتعلق بالخطوط المتوازية ، و«استقامة» الفضاء وما الى ذلك ، لكنها الى جانب ذلك لا تنبذها كليا ولا تلغيها ولا تعتبرها خاطئة ، بل تضم جزءا من احكامها وبديهياتها الاساسية كمطلقات اساسية بالغة الاهمية .

ان كل عملية تطور تشهد ليس حالة واحدة بل حالات عديدة متعاقبة من النفى الجدلى . فمن حيث الجوهر ان كل انتقال جديد من حالة كيفية الى اخرى هو عبارة عن نفى جدلى للمرحلة السالفة يبقى ويدوم فى ظله كل ما هو قيم وحيوى ويندرج بشكل متحول الى الكيفية الجديدة . وقد جرت العادة على تسمية هذا البقاء والديمومة بالتوارث . ويمكن وصف كل

نفى جدلى جديد وصفا مجازيا بأنه لفة جديدة من لفات لولب التطور (٤١٨) . اذن ، فالتوارث ليس تكرارا بسيطا للقديم وليس هدمًا ميكانيكيا له . انه يعنى وحدة صفتين متضادتين هما بقاء القيم والحيوى ونبذ ما عفى عليه الزمن وبات يعيق التطور . وعليه فإن مفهوم «التوارث» مقولة فلسفية مهمة تعكس ترابط واختلاف القديم والجديد فى كل ظاهرة متنامية . وحقيقة كون النفى الجدلى عملية متكررة مرارا يمكن ان نلاحظها بجلاء فى جميع عمليات التطور الطويلة الاجل كفاية .

انظروا ، مثلا ، الى جدول مندلييف الشهير ، جدول العناصر الكيميائية . انها موزعة فى العديد من السطور والاعمدة . والرقم التسلسلى للعنصر تحده الشحنة الموجبة لنواة ذرة العنصر المعنى . وابتداء من السطر الثانى نلاحظ السُنة التالية : عند التحرك من اليسار الى اليمين ، من عنصر الليثيوم الى الفلور مع ازدياد الرقم الذرى للعناصر الواقعة فى هذا السطر تتضاءل الصفات الفلزية ، وبالتالى تتضاءل القدرة على تكوين القلويات ، وتتنامى الصفات الهالوجينية ، وبالتالى تتنامى القدرة على تكوين الحوامض . اى يجرى ما يشبه نفى بعض الصفات وتنامى بعضها الآخر . والعنصر الاخير فى هذا السطر هو النيون ، وهو غاز خامل لا يدخل فى التفاعلات الكيميائية فى الظروف الاعتيادية ، بل يبدو وكأنه نفى تام للفاعلية الكيميائية . والسطر التالى يبتدىء مرة اخرى بفلز واضح المعالم هو الصوديوم ، اى يبتدىء بنفى الخمول الكيميائى ، وبعد ذلك يجرى من جديد نفى متتال للصفات الفلزية وتنامى للصفات الهالوجينية . ويختتم السطر مرة اخرى بعنصر خامل هو الارغون . وتستمر عملية تعاقب الصفات الكيميائية هذه مع بعض التلاوين .

ويطالعنا النفى المتكرر فى العملية التاريخية ايضا . فكل تشكيلة اقتصادية اجتماعية هي عبارة عن نفى جدلى للتشكيلة السالفة . وفى مجرى الثورات الاجتماعية تنهدم العلاقات الاجتماعية القديمة والنظام الاقتصادى والبناء الفوقى القديمان ، ولكن يبقى الى جانب ذلك بعض من عناصرها كالتقنية وبعض

عناصر القانون والثقافة والعلم والفن ، الخ ، التى تندرج بشكل محول ضمن بنية التشكيلة الجديدة .

على هذا النحو نجد ان كل لفة من لفات لولب تطور اية ظاهرة او عملية متنامية تشهد ظهور الجديد وتهدم القديم ، ولكن تجرى الى جانب ذلك اعادة انتاج جدلية ، اى توارث لكل ما هو قيم انتجه التطور السالف ، وتؤمن استمرار السير الى الامام . وهذا ما تتجلى فيه وحدة النفى والتوارث الجدلية وتنكشف الوظيفة الابداعية للنفى الجدلى .

٤٢٠

الامكانية والواقع . ان الظواهر او العمليات الجديدة التى تنشأ فى نتيجة النفى الجدلى للقديم لا تتكون فى فراغ . فمهداتها واسسها وظروفها تنبثق ويستمر وجودها فى الظواهر والعمليات السالفة . ويرمز عادة لمجموع هذه المهدات والظروف التى لم تؤد بعد الى تشكل ظاهرة جديدة ، اى الى نشوئها ، بمفهوم «الامكانية» . اما العملية نفسها ، التى نشأت وبات لها وجود وراحت تؤدى وظائفها وتتنامى فيرمز لها بمفهوم «الواقع» . وعليه فان الامكانية والواقع مفهومان مترابطان ترابطا وثيقا واحدهما يتمم الآخر ، وهما يميزان خاصية بالغة الاهمية لاية عملية تطور ، ولهذا يعتبران مقولتين متزاوجتين من مقولات المادية الجدلية .

ولاجل ان تتحول هذه الامكانية او تلك الى واقع يقتضى الامر ان تكون عملية هذا التحول مناسبة لقوانين موضوعية معينة من قوانين الواقع ، وأن تتوفر كل الظروف اللازمة لهذا التحول . واذا كانت هذه الظروف غير كافية ، فسوف تعتبر الامكانية مجردة وشكلية . ويقدر توفر الظروف اللازمة لتحول الامكانية المجردة ، او الشكلية ، الى امكانية ملموسة او واقعية .

ان معظم النباتات تنتج كمية كبيرة من البذور . ولكن لا تتوفر الا امكانية شكلية بأن كل بذور النبتة المعنية ، كالهندباء البرية مثلا ، سوف تنبت وتعطى بدورها بذورا جديدة . وهذه الامكانية تناسب كليا قوانين التكاثر

البيولوجية ، ولكن الظروف اللازمة لتحويلها الى واقع غير متوفرة . فالبذور لا تجد تربة ملائمة أو تلتهمها الطيور والحشرات أو تقضى عليها السموم الكيميائية ، الخ . ولو توفرت كل الظروف اللازمة لغطت ذرية نبتة هندباء بريّة واحدة كل الكرة الارضية خلال بضعة سنوات .

ان تحول الامكانية الى واقع هو عبارة عن عملية حالات نفى جدلية متعاقبة . فالامكانية المجردة ، الشكلية ، تتحول الى امكانية واقعية ملموسة ، ثم تتحول هذه الاخيرة الى واقع . والواقع بدوره يتمخض خـلال عملية تطوره عن امكانيات جديدة ، مجردة فى بادىء الامر ، ومن ثم ملموسة يمكن فى حالة توفر ظروف واسباب معينة أن تتطور الى واقع جديد وهكذا دواليك . ويتجلى هذا الامر بوضوح حتى فى مثال التطور البيولوجى وظهور علم الهندسة الوراثية . فالجينات (المورثات) الداخلة فى تركيب جزيئات الديزوكسيريبونوكليين التى تتحكم بالصفات الوراثية للكائنات الحية يمكن ان تتوالف بطرائق شتى . ولهذا تتوفر فى الطبيعة على الدوام امكانية نشوء وترسخ صفات وراثية جديدة ، وبالتالى نشوء انواع جديدة . بيد أن تحول هذه الامكانية الى واقع يتطلب مجموعة كاملة من الظروف . وهى تتكون فى سياق الارتقاء البيولوجى ، فى سياق الاصطفاء الطبيعى والصراع على البقاء . ان التوليفة الكاملة للظروف اللازمة لنشوء الانواع الجديدة ليست متوفرة دائما . ولهذا قلما تظهر فى الطبيعة انواع جديدة . ولكن مع نشوء الهندسة الوراثية تعلم البشر التحكم بالوراثة ، بل وحتى استحداث انواع جديدة . وفى الوقت الراهن تتحول امكانية «تصميم» الانواع الجديدة الى واقع . ويجرى الآن وسيجرى مستقبلا استحداث كائنات حية مجهرية جديدة ونباتات جديدة وانواع وفصائل جديدة من الحيوانات . وهذا يفتح امكانيات جديدة منقطعة النظير . وتبدو طريقة تكون الانواع القديمة التى كانت قائمة منذ ملايين السنين وكأنها تتعرض بنفسها للنفى ، لكن هذا النفى ليس تاما ، أى لا يشكل الغاء او هدماً لهذه الطريقة . انه نفى جدلى لأنه يضم فى اساسه آلية تكونت

فى سياق عملية تطور الطبيعة هى آلية توليف العناصر الداخلة فى تركيب الديزوكسيريبونوكلين .

وتتجلى جدلية الممكن والواقعى بوضوح خاص فى التطور الاجتماعى . فتحول الامكانية الى واقع وايجاد امكانيات جديدة على اساسه مرتبطان هنا بنشاط البشر الواقعى . فلنتناول هذا الامر من خلال مثال التحليل الذى قدمه لينين للوضع الثورى .

٤٢١

جدلية الممكن والواقعى فى الوضع الثورى . ان امكانية الثورة الاشتراكية يملئها تطور واشتداد التناقضات الداخلية للراسمالية ، وبالدرجة الاولى التناقضات بين الملكية الراسمالية الخاصة والطابع الاجتماعى للقوى المنتجة . وعندما يبلغ هذا التناقض اقصى درجة من الحدة تترتب الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية . وتتجلى هذه الشروط فى اشتداد استغلال الكادحين وتردى ظروف حياة سكان البلد المعنى ، وفى التآزم الشديد للتناقضات الطبقيّة ونشوء شتى الصعاب الاقتصادية وتفاقم ظواهر الازمات فى مجمل حياة المجتمع الروحية . كل هذا يؤدى الى تصاعد الروح الثورية لدى الجماهير واقترائه بمد شديد فى نشاطها السياسى . ويدل مجموع كل هذه الشروط الموضوعية على ظهور امكانية واقعية ملموسة لقيام الثورة الاشتراكية . وتسمى هذه الامكانية بالوضع الثورى . غير ان الشروط الموضوعية لتحول امكانية الثورة الى واقع ثورى لا تكفى وحدها ، ذلك أن تحول الوضع الثورى ، أى تحول امكانية الثورة الى ثورة واقعية يقتضى وجود وعى ثورى متطور وفعل ثورى يناسب هذا الوعى . وهذا يعنى ليس فقط ادراك الاسباب المؤدية الى الوضع الثورى ، وادراك أن تطور المجتمع لا يمكن ان يتم بغير الثورة كما لا يمكن بدونها تحسين حياة الكادحين ، بل - والاكثر اهمية من ذلك - وضع برنامج ايجابى يبين ما الذى ينبغى القيام به وكيف يجب بناء الحياة الجديدة وما هى الاسس التى يجب ان يشيد عليها صرح المجتمع الجديد . على هذا النحو يجب رقد العامل الموضوعى للوضع الثورى بالعامل الذاتى ، أى

الوعى الثورى والنشاط التنظيمى الثورى . ان تكوين مثل هذا الوعى وممارسة مثل هذا النشاط التنظيمى خلال عملية نضوج الثورة الاشتراكية امر لا يمكن ان تضطلع به سوى الاحزاب الماركسية اللينينية الجديدة الطراز . واول حزب من هذه الاحزاب ، وهو حزب البلاشفة ، اسسه لينين وانصاره .

لقد تمكن حزب البلاشفة الذى تزعم النضال الثورى للبروليتاريا والفلاحين الكادحين فى روسيا ، مستغلا الوضع الثورى الملموس ، من أن يحول فى اكتوبر عام ١٩١٧ امكانية الثورة الى ثورة اشتراكية واقعية اصبحت فاتحة مرحلة جديدة فى تطور البشرية . وتعتبر هذه العملية الثورية مثالا ساطعا على جدلية الامكانية والواقع فى التطور الاجتماعى .

٤٢٢

ما هو التقدم الاجتماعى ؟ هكذا نرى أن فسى عملية التطور الاجتماعى ينشأ باستمرار شىء ما جديد ويفنى القديم . وما كان فى الماضى مجرد امكانية يتحول الى واقع ، وبالعكس ، فإن ما كان فى الماضى واقعا يتغير او ينقرض بمرور الوقت فاسحا فى المجال للامكانيات الجديدة . وتعاقب كل هذه الحالات هو ما يسمى عادة بتطور المجتمع . وخلال ذلك يبرز السؤال التالى : هل يحمل هذا التطور معه تحسينا ما لحياة البشر أم لا يجلب سوى الويل والثبور ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال الذى يبدو للوهلة الاولى بسيطا ليست بالامر الهين بتاتا . وبالفعل ، فحين نتساءل هل يحسن تطور المجتمع حياة الانسان ، يجب أن تكون فى حوزتنا معايير دقيقة وتعريف واضحة وفهم عام لما نعتبره جيدا وما نعتبره رديئا ، وفيما تتمثل السعادة وفيما تتمثل التعاسة ، وما هو الهدف الذى يجب أن نسعى اليه وما هو الامر الذى يجب أن تقاومه فى حياتنا الشخصية والعامة .

فى سبيل المثال ، لقد نادى شاعر الماضى القديم المعروف هسيودس (القرن ٨ - القرن ٧ ق . م) بأسى أن عصر البشرية الذهبى قد مضى . كما مضى عصرها الفضى وحل محله عصر

قاس هو العصر الحديدي . وكان هذا الشاعر يردد أن كل شيء يسير نحو الاسوأ . اذ يزداد العنف والشر والجور . فكرماء الناس يفلسون والارذال يغتنون . الشرفاء يتعرضون للملاحقات والظلم والاندال يستولون على مقاليد الحكم . وليس من الصعب علينا أن نفهم تشاؤم هسيودس ، فقد عاش في عصر خراب العلاقات القبلية القديمة ، حين راح الافلاس يطارد وجهاء القبائل السابقين ، والكثير من الناس الاحرار وغير التابعين يتحولون الى تابعين ، ذلك أن الملكية الخاصة قد فتحت الطريق الى ذرى السلطة لا أمام اكارم الناس بل امام اكثرهم ثروة وحبا للسلطة .

وكلما يصيب الانحطاط هذا النظام لاجتماعى او ذاك ترى مؤدلجيه والمدافعين عنه ينكرون التقدم ويصرون على أن كل شيء يسير نحو اسوأ . ولكن من الخطأ الظن بأن ممثلى الطبقات والقوى الاجتماعية المعنية بأقامة النظام الاجتماعى الجديد كانوا على الدوام مبشرين بالتقدم الاجتماعى . فقد كان رائد التنوير الفرنسى الشهير جان جاك روسو مؤدلجا وممثلا للبرجوازية الفرنسية الصغيرة ، وبحكم ذلك كان أحد ابرز المنظرين للثورة البرجوازية والمبشرين بها . فى الوقت ذاته نراه يقول فى رده على سؤال : هل يساعد تقدم العلم على تطور الاخلاق ، أن النمو السريع للمعارف العلمية لا يساعد على تعزيز الوجه الاخلاقى للمجتمع . فلماذا كان يظن هذا الظن بالذات ؟ ذلك انه لم يكن قادرا ، وهو الذى عاصر النمو السريع للمعلم وانتشار افكار التنوير ، على التغاضى عن حقيقة ان عليّة المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر كانت نهبا للانحلال الشديد والتقلبات المعنوية والخلقية . ومن خلال الربط بين هذين الامرين وجد روسو المسوغات للاعتقاد بأن التقدم فى مجال معين لا يلغى احتمال الانحطاط ، أى التقهقر فى مجال آخر . وهذا ما تجلت فيه بالضبط تلك الجدلية فى طروحاته ، التى اشاد بها مؤسسو الماركسية .

وبالفعل ، فالتطور الاجتماعى ينطوى على تصاعد واشتداد دائم لبعض النزعات ، أى عناصر التقدم ، وعلى انخفاض دائم

بنفس القدر ، بل وحتى على تلاشي نزعات اخرى ، أى عناصر التقهقر . وفى كل مرحلة بعينها نجد عمليات تقديمية واخرى تقهقرية فى نفس الوقت . على سبيل المثال ، أن عملية أتمتة الانتاج الصناعى واشاعة استعمال الروبوتات فيه تؤديان ، من جهة ، الى ازدياد انتاجية العمل ، وتحرران جزءا من اليد العاملة ، وتتيحان إعادة توجيه الانتاج بسرعة ، وتغنى الناس عن عناء العمل الشاق والرتيب . بهذا المعنى تعتبر الاتمته واشاعة الروبوتات ظاهرة تقديمية . بيد أن نفس هذه العملية ، من جهة اخرى ، تؤدى الى انقراض جملة من المهارات الانتاجية والى اختفاء طائفة من المهن ، كما تؤدى فى ظروف الرأسمالية الى اشتداد وطأة البطالة . وبهذا المعنى تبدو هذه العملية نفسها تقهقرية .

فما هى معايير التقديمية ؟ يقال احيانا أن المعيار هو انتاجية العمل أو غزارة الخيرات المادية أو حرية التنقل داخل حدود الدولة وحرية مغادرتها . غير ان ايا من هذه الملامح ، اذا اخذ بمفرده ، لا يعتبر معيارا وشرطا لتقدمية المجتمع المعنى والتطور الاجتماعى بعامه . فلئن ترافق تكثيف العمل مع اشتداد الاستغلال ، واقتربت البطالة الجماعية بالخوف من فقدان العمل ، فليس فى هذه العملية ما يمكن وصفه بالتقدمية . واذا كانت الثروات المادية الهائلة متاحة لبعض اعضاء المجتمع وكان الآخرون محكوما عليهم بالجوع والفقر ، فإن انتاج هذه الثروات لا يعتبر - هو الآخر - معيارا للتقدمية . واذا كان بمقدور العاطل او المشرد ان يجوب الآفاق بحثا عن عمل او مسكن ، فليس هذا الامر دليلا على حريته .

ان معيار التقدم الاجتماعى من وجهة نظر المادية التاريخية يجب أن يتمثل فى تطور الانتاج المادى وتحسن ظروف حياة الناس والازدهار الشامل لكل شخصية مبدعة ونهضة الثقافة الروحية والطابع الابداعى للعمل . وعليه فان كل النزعات والعمليات فى التطور الاجتماعى التى تناسب هذا المعيار تعتبر تقدمية موضوعيا . أما تلك الجوانب والعمليات من

التطور الاجتماعى التى تعرقل تحقيق الاهداف التاريخية المذكورة ولا تناسب معايير التقدم الاجتماعى فتعتبر تقهقرية .
وثمة مراحل تقدمية وتقهرية داخل كل تشكيلة اقتصادية اجتماعية . وفى كل مرحلة توجد وتتفاعل نزعات تقدمية وتقهرية . ولكن بوجه عام ، اذا اخذنا مدى تاريخيا على ما يكفى من الاتساع ، فسوف نجد ان البشرية تسير على طريق تحقيق قدر اكبر من الحرية ، وبلوغ درجة اوفى واشمل من تطور الفرد . صحيح ان هذا الطريق معقد ومتناقض ودراماتيكي . ولكن البشرية حين تحقق الانتقال الى الاشتراكية والشيوعية سوف توفر الظروف اللازمة للتطور التقدمى المستمر الذى تطبق فيه القوانين التاريخية الموضوعية (٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩) .

٤٢٣

قانون نفى النفى الجدلى . لنضع الآن صيغة الاحكام الاساسية للقانون الجدلى الذى يحدد اتجاه التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر .

لقد جرت العادة على تسمية هذا القانون ، حسب التقليد الذى يرتقى الى هيغل (٤١٩) بقانون نفى النفى . ويجدر بنا ان نتذكر خلال ذلك ان الجدلية المادية تتناول ليس حالتين من حالات النفى المتضادة . بل عملية التطور اللامحدودة التى تفتح فيها حالات النفى الجدلى الطريق من القديم الى الجديد وتضمن الى جانب ذلك ترابط الجديد والقديم والتوارث فيما بينهما . والاحكام الاساسية لهذا القانون هى ما يلى :

١ - فى عملية التطور ينشأ باستمرار شئ جديد لم يكن له وجود فى الماضى ، وهو عبارة عن نفى جدلى للقديم .

٢ - فى عملية النفى يبقى كل ما هو قيم وحيوى ويندرج فى الجديد بشكل محول . ولا يتعرض للفناء الا جزء معين من القديم هو الجزء الذى عفى عليه الزمن وبات يعرقل التطور .

٣ - ينطوى التطور على ما يشبه العودة الى المراحل المقطوعة وتكرارها ، ولكن على مستوى جديد اكثر رقيا ،

ولهذا يتسم بطابع لولبى وليس دائرى أو مستقيم .
٤ - فى عملية التطور توجد موضوعيا نزعات تقديمية
واخرى تقهقرية عند الانتقال من القديم الى الجديد . ويتحدد
النمط التقدمى او التقهقرى للتغيرات الجارية فى الظاهرة
المعنية عموما تبعا للنزعة التى تكون لها الغلبة من هذه
النزعات المترابطة جدليا .

وعند مقارنة قانون نفى النفى بباقي قوانين الجدلية
الاساسية يتيسر لنا أن نلاحظ الترابط العميق فيما بينها .
ويتجلى هذا الامر بوضوح خاص عند مقارنة بعض المقولات مثل
«حل التناقضات» و«القفزة الكيفية» و«النفى الجدلى» . فكل قفزة
كيفية ، من حيث الجوهر ، هى عبارة عن حل للتناقضات
الداخلية الاساسية للظاهرة المعنية . وعلى هذا النحو بالضبط
يبين لنا النفى الجدلى أن عملية الانتقال المتوالت من الكيفية
القديمة الى الكيفية الجديدة تنطوى على عامل بقاء او توارث
الى جانب عامل الفناء والهدم . وتترابط المقولات التى يصاغ
بمساعدها قانون وحدة وصراع الازداد وقانون تحول التغيرات
الكمية الى كيفية وقانون نفى النفى اعمق ترابط فيما بينها
لأنها تعكس من جوانب مختلفة ومن زوايا مختلفة ابرز السمات
والخصائص التى تتصف بها كل ظاهرة متنامية .

وتقدم القوانين الاساسية للجدلية معارف وافية عن مصادر
وشكل واتجاه التطور وبذا تتحدد وحدتها الداخلية .

ولكون الجدلية تعليما عن القوانين الاعلى للتطور فى
الطبيعة والمجتمع والفكر ، فهى تحمل كذلك أهمية اجتماعية
سياسية تطبيقية عظيمة . لذا فان امتلاك ناصية الجدلية يعنى
تناول كل الظواهر فى ترابطها الداخلى وارتهاؤها السببى
المتبادل . فمن يتناول ما ينشأ فى الحياة التطبيقية من
قضايا بصورة معزولة انما يتعامل معها كميثافيزيقى . ويجدر
تناول القضايا والمسائل المترابطة كذلك فى حركتها وتطورها
المستمرين لأن الحياة نفسها والواقع الذى يتمخض عنها بحد
ذاته يتغيران ويتطوران . وتعلمنا الجدلية الا نتجاهل تناقضات
الحياة ، بل أن نشخصها ونكشف عنها ونعمل على حلها ، ذلك

أن حل التناقضات الداخلية الأساسية هو المصدر الحقيقي لكل تطور . وعندما نصطدم بتغيرات كمية دائمة وغير ملحوظة في بعض الأحيان ينبغي أن نراعى باستمرار أنها ستؤدي عاجلا أو آجلا الى تحولات كيفية جذرية . الى جانب ذلك أن نشوء الظواهر الجديدة نوعيا لا يعنى القضاء كليا على الظواهر القديمة . فكل ما هو قيم وحيوى انتجه التطور السالف فسي سياق القفزة والنفي الجدلى يبقى وينال ما يشبه «حق الديمومة» . ولقد علمنا لينين أن احدى ابرز وأهم مسائل قيادة المجتمع السياسية العلمية الصحيحة هي القدرة على رؤية براعم الجديد فى القديم واسناد هذه البراعم فى الوقت المناسب ومساعدتها على التطور والانتصار .

الفصل الخامس نظرية المعرفة

لقد تناولنا فى الفصول السالفة الحل المادى للجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة ، واوضحنا كيف ظهر الوعى وما هى خصائصه وكيف يتجلى تفاعل الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى فى التطور التاريخى . والآن ينبغى لنا ان ننتقل الى الجانب الثانى من المسألة الاساسية للفلسفة الا وهو مسألة كيف يعرف الانسان العالم المحيط به وكيف يمكن التأكد من صحة معارفنا عن الطبيعة والمجتمع والفكر البشرى بحد ذاته .

جدلية عملية المعرفة

٥٠١

ماذا يعنى ان نعرف ؟ تتوفر لدى الانسان المعاصر معارف واسعة ومراس متنوع للغاية . فبعض الناس يعرفون كيف يمكن تشغيل مكائن الانتاج الاتوماتيكية ، وفريق آخر يجيد صنع مركبات الفضاء واستخدامها فى الرحلات الفضائية ، وفريق ثالث يتمكن من فلق نواة الذرة واستثمار طاقتها . وبالمقارنة ، مثلاً ، مع اواخر القرن الماضى نمت معارفنا عشرات المرات اذا اكتفينا حتى ولو بالحكم على عدد ما نشر من الكتب والمقالات فى المجالات العلمية . ويعلم كل فرد منا جيداً ان المعارف ، ولا سيما العلمية ، تعتبر قوة مهمة محركة للانتاج . فلا يتسنى الا على اساسها فقط تذليل التناقضات العادية بين الطبيعة والمجتمع ، وتحويل هذا المجتمع نفسه بشكل معقول ، وجعل حياة البشر اكثر نقاء ومعقولة ومتعة . ولكن ليس بإمكان كل فرد ان يجيب عن سؤال ما هى المعرفة وكيف تنشأ واين يكمن مصدرها وكيف يمكن تمييز المعرفة

الصحيحة عن المعرفة الخاطئة ، وهل لدينا ما يضمن كوننا قادرين عموما على معرفة ذاتنا والعالم المحيط بنا .
قبل ٥٠٠ سنة كان الناس يعتقدون ان الارض هي مركز العالم ، والشمس والكواكب تدور حولها . اما الآن فكل تلميذ يعرف ان الارض والكواكب الاخرى تدور حول الشمس . بيد ان مراقباتنا اليومية لا تزال تدل على ان الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب . وكان العلماء حتى اواخر القرن التاسع عشر يعتقدون ان الذرات هي اصغر دقائق المادة وغير قابلة للانشطار . وقبل ثلاثين سنة كانوا يعتقدون ان الدقائق البسيطة هي التي تعتبر غير قابلة للانشطار . ونحن نعلم الآن (١٠٤) ان هذه التصورات غير صحيحة هي الاخرى . فللدقائق البسيطة بنيتها الداخلية . وقبل الرحلات الى القمر كان العديد من العلماء يعتقدون ان القمر تكون نتيجة انفصال قطعة كبيرة من كتلة الارض الحامية تحت تأثير جسم سماوي عملاق مرق بمحاذاتها . ولكن المعطيات المستحصلة من القمر اظهرت ان الفرضيات السالفة غير صالحة ، وان الامر يتطلب ابحاثا اضافية كي يتسنى تكوين تصور اصح عن نشأة القمر . كل هذا يرغمنا على التفكير بالسؤال التالي : هل هناك معارف راسخة وموثوق منها ؟ نحن نعتقد الآن اننا نعرف جيدا ظاهرة ما من الظواهر ، وغدا يتضح ، مثلما حدث في الماضي غير مرة ، ان معارفنا خاطئة . فالجواب عن سؤال ما هي المعرفة ليس بالامر الهين ، وقد صاغ غيوته هذه الفكرة بوضوح على لسان فاوست :

ماذا يعنى ان نعرف ؟ هذا هو السؤال يا صديقى .
بهذا الشأن ليست الامور لدينا على ما يرام .
اما قلة الناس التي تغفلت في جوهر الاشياء ،
وكشفت للجميع الواح الروح المحفوظة ،
فقد تعرضت للقتل حرقا او صلبا ،
كما تعرف مذ اقدم العهود . *

* غيوته . المؤلفات . موسكو ، ١٩٧٦ ، المجلد ٦ ، ص ٢٨ .

هذه الاسطر توضح توضيحا صائبا ان المعارف ، ولا سيما اذا كانت تزعزع المعتقدات البالية وتناقض ايدولوجيا الطبقات المسيطرة في المجتمع التناحرى وتناقض العقيدة الدينية او تعلل ضرورة التحويلات الاجتماعية ، لا يندر ان تستقبل بأسنة الحراب وتثير مقاومة شديدة لدى خصوم التقدم الاجتماعى . فنحن نعلم ان رجال الكنيسة اعدوا حرقا كلا من جوردانو برونو الذى كان يدعو الى نظرية كوبرنيكوس ، وسيرفيت الذى اكتشف الدورة الدموية ، كما كان الرجعيون على اختلاف مشاربهم يلاحقون نظرية دارون عن منشأ الانسان ، واقترن مجيء الفاشية الهتلرية الى السلطة بملاحقة العلماء التقدميين .

ما هى المعرفة ، وكيف تنشأ ، وكيف تتغير وتتطور ، وكيف يقوم توافقها مع الواقع الموضوعى - كل هذا ليس مجرد اسئلة جوفاء . فحلها يعتبر احدى ابرز المهمات المتميزة للفلسفة ، ذلك ان المواد العلمية الاخرى لا تضطلع بدراسة خصائص عملية المعرفة . ان نظرية المعرفة (١١) هى التى تشكل ذلك القسم من الفلسفة الذى يجيب عن المسائل التى طرحناها توا .

٥٠٢

المعرفة كانعكاس . ينطلق الماديون جميعا من ان المعرفة هى عبارة عن شكل متميز لانعكاس الواقع . فقيم تتمثل هذه الخاصية ؟ نحن نعلم الآن (١١٨) ان الانعكاس صفة عامة للمادة . بيد ان هذا لا يوفر المسوغات للاعتقاد بان المعرفة موجودة على جميع مستويات الانعكاس . فهى لا تنشأ الا مع نشأة الانسان .

ان جميع المعارف المتوفرة لدينا تعزى اما الى ظواهر وعمليات معينة واما الى افعال معينة وانواع معينة من نشاط الانسان . فعند الحديث عن ضرورة جمع او ضرب عددين من الاعداد يجب علينا ان نعرف ليس فقط ما هو العدد ، بل وكيف تجرى عمليتا الجمع والضرب . وحين نشرع فى انشاء مبنى يجب علينا ان نعرف ليس فقط ما هو الاجر وهيكل

البناء وما الى ذلك ، بل وكيف يجرى تنفيذ الاعمال الانشائية .

وتعبر المعارف على الدوام فى اللغة بهيئة مفردات او مجاميع من المفردات تصاغ بواسطتها المفاهيم ، وكذلك بهيئة جمل توصف بواسطتها صفات الاشياء والعلاقات فيما بينها او مختلف انواع النشاط البشرى . وبامكان هذه او تلك من الجمل ان تصف كذلك انفعالات الانسان الداخلية او العمليات النفسية . وبما انه لا يوجد بين المفردات او مجاميع المفردات او الجمل من جهة ، وبين ظواهر العالم المحيط بنا من جهة اخرى ايما شبه خارجى او تماثل يمكن تحديده بواسطة الحواس ، فنحن حين نقول ان معارفنا تعكس الواقع انما نقصد بذلك وجود توافق متميز بين المفاهيم والطروحات (الاقوال) وبين ظواهر العالم المحيط بنا والافعال المعينة التى يقوم بها الانسان . وهذا يعنى ان هناك ظواهر او عمليات او انواع نشاط معينة تماما توافق مفاهيم معينة . وهذا يعنى ايضا اننا نستطيع بواسطة طروحات معينة ان نصف ونشخص صفات وعلاقات معينة تماما بين ظواهر وعمليات الواقع الموضوعى . وهذا يعنى ، اخيرا ، اننا حين نصوغ قواعد نشاط معينة ونصدر او نتلقى اوامر وتوجيهات ، انما نعرف (ندرك) اية افعال وتصرفات ينبغى او لا ينبغى القيام بها بغية تحقيق هذه او تلك من الاهداف . وهذا بالذات هو مغزى القول بان معارفنا تعتبر انعكاسا للواقع الموضوعى .

والمعارف لا توجد بحد ذاتها ، انما هى نتيجة لعملية متميزة هى عملية المعرفة او نشاط الانسان المعرفى . وعليه فلاجل ان نفهم فهما اصح واعمق جوهر المعارف وان نجيب عن سؤال ماذا يعنى ان نعرف ، لابد من دراسة عملية المعرفة ومصادرها ومراحلها الاساسية التى تتكون خلالها المعرفة البشرية . ومن المهم كذلك ان نفهم باى شكل يجرى التاكيد والتثبت من توافق معارفنا مع الواقع الموضوعى وماذا يجب القيام به لاجل جعل هذا التوافق اوفى واعمق .

حوار حول مصادر المعرفة . لقد نوقشت مسألة مصادر معارفنا ومم تبتدى معرفة الواقع فى تاريخ الفلسفة منذ عهود سحيفة . اذ كان الماديون ، كديموقريطس وابيقور مثلاً ، يعتقدون ان المعارف تنشأ نتيجة تأثير الذرات المادية فى حواسنا . وكان المثالى افلاطون يرى الانسان وكأنه نزيل كهف تسبح امام مدخله اخيلة تلقى ظلالها على جداره الخلفى . وحين نتفحص هذه الظلال التى كان افلاطون يماهى بينها وبين الاشياء المادية ، انما نحاول ان نتذكر ونستحضر الاخيلة التى القت هذه الظلال ، اى الافكار . والافكار الازلية والثابتة هى التى تعتبر - فى رأيه - مصدرا للمعرفة . وفى العصر الحديث تكون بوضوح اتجاهان هما التجريبية والعقلانية . وكان انصار التجريبية يذهبون الى ان مصدر المعرفة هو الاحاسيس وما يقوم عليها من تجربة . اما انصار العقلانية فكانوا يعتقدون بان المعارف يولدها العقل البشرى نفسه ، والقدرة على التفكير بحد ذاتها بادعاء انها كانت صفة ملازمة للانسان منذ البدء . وترتبط بالتجريبية ارتباطا وثيقا النزعة الحسية . وغالبا ما كان ممثلو النزعة الحسية ينكرون اهمية الاشكال النظرية والمجردة للمعرفة ويحصرون المعارف كليا فى المجال الحسى . وكان من بين انصار النزعة الحسية عدد لا يستهان به من الماديين الذين كانوا يعتقدون بان منشأ الاحاسيس هو العالم الخارجى ، بيد ان الاشكال المتطرفة للنزعة الحسية ، التى تنطلق من ان الواقع الوحيد هو الاحاسيس ، كانت تؤدى مباشرة الى المثالية الذاتية واللاأدرية (١٠ ، ١١) . ولأجل الاطلاع على حجج التجريبيين والعقلانيين يجدر بنا ان نصغى لحوار يجرى بين ثلاثة اشخاص يعبرون عن مواقف العقلانية والتجريبية والمادية الجدلية .

التجريبى (ت) : ان كل انسان سوي حين يجيب عن سؤال من اين له ان يعرف ان الوردة حمراء وشذية ، يستند الى احاسيسه ويقول اننى ارى زهرة حمراء واشم شذاها . اذن فالاحاسيس هى المصدر الحقيقى للمعرفة .

العقلاني (ع) : لكننا لا نواجه ما يمكن تحسسه ومراقبته فحسب . فمن اين ، مثلا ، تأتي المعارف عن ان مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين ، او المعارف المتعلقة بالدقائق البسيطة او المعارف عن قوانين التطور الاجتماعى ؟ اننا لا نستطيع رؤيتها وشمها ولمسها .

ت : بإمكاننا ان نرسم عددا من المثلثات المختلفة وان نقيس زواياها بضع مرات ثم نقوم بتعميم وصياغة النظرية المتعلقة بمجموع الزوايا الداخلية . اما بخصوص الدقائق البسيطة فنحن نرى مؤشرات الاجهزة المختلفة ونطلق على نسق هذه المؤشرات تارة اسم الكترون ، وتارة اخرى بروتون ، وتارة ثالثة بوزيترون وهلمجرا . ولا يوجد واقعا سوى الانطباعات الحسية عن عقارب الجهاز ، وما مفاهيم «الالكترون» و«البروتون» الخ . سوى مفردات ترمز لهذه الاحاسيس . اما بخصوص قوانين التطور الاجتماعى (كالصراع الطبقي ، مثلا) فهي ايضا مفاهيم ترمز لانطباعات حسية متباينة . فالناس يقيمون المتاريس وينظمون الاضرابات والمظاهرات ، ويشعرون خلال ذلك باحاسيس وانطباعات يطلقون عليها اسم «الصراع الطبقي» وما الى ذلك . وليس هناك اى واقع آخر وراء هذه الكلمات ، وهذا امر ينبغى الاقرار به صراحة .

ع : لكننا والحالة هذه نجد انفسنا اسرى مختلف الاحاسيس ، وبينها عدد كبير من الاحاسيس الخاطئة . فالمعروف ان هناك حالات مختلفة من الهلوسة وخداع البصر او السمع الخ . واذا صدقنا بكل هذه الامور فسوف تقع دائما فى تناقضات . فكيف يتسنى لنا التمييز بين الاحاسيس الصحيحة والخاطئة ؟ نحن نعلم ان من غير الجائز التاكيد من بعض الاحاسيس بواسطة بعضها الآخر الذى لا يمكن التعويل عليه هو ايضا .

المادى الجدلى (م . ج) (مشاركاً فى الجدل) : ينبغى ان نضيف الى ذلك ان العلم وحتى الحياة اليومية تحتوى على قدر لا يستهان به من المفاهيم والآراء التى لا يجوز حصرها بطريقة بسيطة فى الاحاسيس والانطباعات الشعورية . ففى

الفيزياء ، مثلا ، يقال ان سرعة الضوء تساوى ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانية . ونحن نستطيع ان نفهم معنى ذلك لكننا نعجز عن الاحساس بهذه السرعة لان حواسنا غير مؤهلة لذلك . والمعروف ان المصابين بعمى الالوان لا يستطيعون التمييز بين اللون الاحمر واللون الاخضر ، فى حين نستطيع نحن التمييز بينهما . فباحاسيس من يجب أن نصدق ؟ فى الرياضيات تجرى البرهنة على نظرية الاجسام فى الفضاء المتعدد الاحداثيات . وعلى الرغم من ان هذه النظريات دقيقة الى درجة لا يرقى اليها الشك ، فمن غير الممكن تكوين صورة حسية لمثل هذا الفضاء .

ت : ولكن ما اهمية هذه النظريات اذا كانت غير قابلة لان تعزى الى الاحاسيس ؟

م . ج : اننا نستطيع بواسطتها وبواسطة الكثير من الطروحات الاخرى غير المنسوبة الى الاحاسيس ان نحصل على نتائج تطبيقية مهمة وان نتعلم التحكم بالعمليات الفيزيائية والكيميائية . والشئ نفسه يجرى فى العلوم الاجتماعية ايضا . فلو كانت مفاهيم «الصراع الطبقي» و«قوانين التطور الاجتماعى» مجرد تسميات بسيطة لنسق من الاحاسيس ، لكان بالامكان التخلص منها بيسر وذلك بتغيير الانطباعات والاحاسيس . لكن القضية هى ان الصراع الطبقي وتطور المجتمع يجرىان بصورة مستقلة عن ارادة البشر ووعيهم واحاسيسهم وانطباعاتهم .

ع : فى هذه الحالة اقترح اعتبار العقل البشرى مصدرا لمعارفنا .

ت : ما معنى ذلك ؟

ع : ينبغى الاقرار بان الانسان يتسم بقدرة فطرية على التفكير . فهو قادر على استجلاء المعارف الاساسية العميقة عن العالم التى غرسها الله او الطبيعة فى روحه . لقد كان ديكارت ، مثلا ، يعتقد بان الله هو الذى خلق هذه المعارف ، والمادى سبينوزا يعتبرها وليدة جوهر مادى . ولكن مهما يكن من امر نحن نستطيع حين نجد او نبتر أو نكتشف هذه المعارف ان نستنبط منها كل الامور الاخرى عملا بقوانين

المنطق ، بعد ذلك فقط نستطيع بواسطة التجربة او المراقبة ان نتأكد من مدى صلاحها للاستخدام فيما يتعلق بالعالم . المهم هو استنباط المعارف بعضها من بعض ، وخطوة فخطوة ، على التوالي ، دون تفويت اى منها .

ت : ولكن بهذه الصورة يمكن تمرير اية حكاية كما لو كانت علما من العلوم . اذ يكفى التحدث بصورة مرتبة ومنطقية عن المشعوذين والساحرات وما الى ذلك والقول بانكم وجدتم المعارف الاولى فى ارواحكم لكى تصدقوا بأية فرية .
ع : لكننى ذكرت ايضا التاكيد بواسطة التجربة والمراقبة .

ت : هذا هو الدليل على تضارب افكارك . فقد ذكرت انت نفسك ان الاحاسيس وبالتالى المراقبات المبنية عليها يمكن ان تكون خادعة . انا لا ارى اية مزايا تقدمها العقلانية .
م . ج : ان كلتا وجهتى نظركما وحيدة الجانب ، وكلتاهما يمكن ان تقود عاجلا او آجلا الى المثالية . فالتجريبية حين تدعى ان المصدر الوحيد للمعرفة هو الاحساس تنزلق الى المثالية الذاتية واللاأدرية (١٠) . معنى هذا ان لا شئ يمكن وراء الاحاسيس ويتلاشى العالم المادى . اما العقلانية فتفضى الى المثالية الموضوعية لانها تعترف بوجود معارف فطرية ازلية لا علاقة لها بالظروف الاجتماعية الواقعية ولا علاقة لها بالتجربة السالفة ونشاط البشر التطبيقى .
ت : وماذا تقترح ؟

م . ج : ان كلتا وجهتى النظر نتيجة للفصل الميتافيزيقى بين المعرفة الحسية (التجريبية) والمعرفة العقلانية وجعل احدهما نقيضة للآخرى . لكن الخطأ الرئيس هو انكما تضيفان على المعرفة كلها شكلا مبسطا ثنائى الحدين هو : «الانسان - العالم المواجه له» ولا تريان ايما ترابط بين هذين الحدين . اما فى الواقع فهناك ترابط معقد بين الانسان والعالم الخارجى . وهو يتجلى فى نشاط بشرى متميز هو الممارسة (التطبيق) التى يتكون اساسها من الانتاج المادى والنشاط الشئى - الادواتى . فالممارسة هى التى تعتبر اساس ومصدر

معرفتنا ووسيلة التأكد من صحتها . والتيقن من صحة وجهة النظر هذه يتطلب منا ان نستجلى بمزيد من التفصيل كيف تجرى عملية المعرفة : ما هو الدور الذى تلعبه فيها الاحاسيس وكيف تنشأ المفاهيم والمعارف المجردة وما هو دور نشاط البشر المادى فى هذه العملية .

٥٠٤

دور الاحاسيس فى عملية المعرفة . تنشأ الاحاسيس فى نتيجة تأثير موضوعات العالم الخارجى فى حواسنا . وسنتناول هذه العملية من خلال مثال تكون الاحاسيس البصرية .

ان ضوء الشمس الذى يتألف من سيول حقول كهرومغناطيسية (فوتونات) تحوز طاقة معينة ، حين يقع على شىء ما ، وليكن تفاحة مثلا ، ينعكس جزئيا عن سطحها ، وتمتصه التفاحة جزئيا . وتقع الاشعة المنعكسة (المرتدة) عن سطح التفاحة فى عين الانسان . وتبعا لبنية السطح الفيزيائية والكيميائية تتغير طاقة الاشعة المرتدة . وفى عين الانسان تتعرض الاشعة لجملة من التحولات والتحورات . وعندما تنكسر الموجات الضوئية فى بلورة العين ، حسب قوانين البصر ، تترك على شبكية العين صورة مصغرة ماث بل وحتى الوف المرات للاشياء التى ارتدت عنها . وتقوم خلايا الشبكية عبر الالياف العصبية بنقل النبضات البيوكهربائية التى تسبب فى خلايا المركز البصرى فى الدماغ تحولا خاصا تتمثل نتيجته فى شتى الاحاسيس البصرية باللون والشكل . وتتحده هذه الاحاسيس فى كل واحد او - كما يقولون - تتركب فى ما نسميه بصورة الشىء البصرية (التفاحة ، مثلا) .

ومن خلال استجلاء عملية نشوء الصورة البصرية نخلص الى الاستنتاجات التالية : ان الصورة البصرية موجودة فى دماغ الانسان ، اذن فهى ذاتية . وهى تنشأ فى نتيجة تحولات وتحورات عديدة للموجات الضوئية المادية المرتدة عن سطح الشىء . وتتبار الامواج فى نبضات بيوكهربائية خاصة تتحول مرة اخرى الى احاسيس لونية وهندسية مجسمة فى خلايا الدماغ . وفى النتيجة تكون الصورة المستحصلة فى الدماغ

مطابقة تماما للشيء المعنى بالذات ، وتساعد على تمييزه عن
سواه من الاشياء الاخرى كافة . بهذا المعنى نقول ان الاحساس
البصرى هو انعكاس للشيء الموضوعى . وقد نوه لينين واصفا
دور الاحاسيس فى عملية المعرفة بان الاحاسيس هى «صورة
ذاتية للعالم الموضوعى» وهى الى جانب ذلك «تحول طاقة
المؤثر الخارجى الى واقع الوعى» * .

والاستنتاج المهم الآخر هو ان طابع الاحاسيس يرتفع
ليس فقط بتركيب الجهاز البصرى ، اى عين الانسان ، وليس
فقط بخصائص الشيء ، بل وبتفاعلهما . اما هذا التفاعل نفسه
فيجرى بشكل نشاط مادى تطبيقي ومن دونه لا يودى بوجه
عام الى تكوين صورة صحيحة للشيء المعنى . فصورة العمارة
الشاهقة فى شبكية العين لا تشغل سوى بضعة مليمترات ،
فى حين يقوم دماغنا ، عندما يكون الصورة البصرية لهذا المبنى
العملاق ، بمقارنته اوتوماتيكيا وبلا وعى بالاشياء الاخرى
فنحصل على تصور صائب عن حجمه . ان قدرة العقل هذه ليست
فطرية ؛ فالاطفال الحديثو الولادة لا يحوزون هذه القدرة ،
بل تتكون خلال عملية تدريب تطبيقي طويل على اساس التجربة
الشخصية والممارسة الاجتماعية . واليكم مثالا آخر . فى
غرفة مظلمة تعرض على شخص دون سابق انذار ، وبمساعدة
شريط سينمائى مقلوب ، شمعة مشتعلة . لسان النار
والدخان متجهان الى الاسفل ، غير ان الدماغ الذى زودته
حياتنا التطبيقية سلفا بالمعلومات اللازمة يصحح تلقائيا «خطأ»
مشغل العارضة السينمائية فنرى الصورة الاعتيادية المألوفة
للشمعة ذات الشعلة المتجهة الى الاعلى . والمعروف ان عمال
التراكيب العالية والاشخاص الذين يصعدون لأول مرة مرتفعات
شاهقة يقدرّون تقديرا متباينا حجم الاشياء الموجودة على
الارض . وسكان الغابات والسهوب يرون المنظور المكاني
رؤية متباينة . وهذا يرتفع لا بتركيب اجهزتهم البصرية بل
بتلك الممارسة الشخصية والاجتماعية وبمستوى التلقى الذى
يستوعبونه مع التربية وفى سياق الحياة .

* لينين . المجلد ١٨ ، ص ١٢٠ ، ٤٦ .

ما الذى يمكن قوله الآن عن دور الاحاسيس فى المعرفة ؟
ان الاحاسيس عبارة عن صورة ذاتية تعكس العالم الموضوعى .
غير انها ليست عملية انعكاس بسيطة كما فى المرأة ، مثلما
يعتقد التجريبيون ، بل عملية انعكاس معقدة جدا تنطوى على
جملة من التحويلات الكيفية وحالات النفى الجدلية . والاحاسيس
تقدم لنا المعلومات الاولى عن الاشياء المنعكسة . بيد ان
هذه المعلومات لا تتوقف على خصائص الاشياء وجهازنا العصبى
فحسب ، بل هناك قسط مهم فى تكوين الاحاسيس تسهم به
تجربة الانسان والممارسة الاجتماعية ومجمل الثقافة الناشئة
تاريخيا والتي تعم التطور التاريخى . ولهذه الموضوعات فى
المادية الجدلية اهمية اساسية بالنسبة لفهم دور الاحاسيس
فى عملية المعرفة .

٥٠٥

**دور التجريدات فى عملية المعرفة . منهج الارتقاء من المجرد
الى المحدد .** ليس بمقدور الانسان ان يكتفى فى نشاطه
بالاحاسيس والصور الشعورية وحدها ، ذلك انها غير كافية
لفهم العالم ، ناهيك عن تغييره . ولكن لماذا ؟ اولا ، لاننا
لا نستطيع ان ننقل للآخرين احاسيسنا وان كان بإمكاننا
ان نتحدث عنها ، كما لا نستطيع ان نتحسس الصور الموجودة
فى ادمغة الآخرين ، رغم اننا نستطيع ان نعلم بها خلال الحديث
او مطالعة الكتب . ثانيا ، نحن نصادف فى الحياة اليومية وفى
العلم على السواء معارف يتعذر الحصول عليها او تكوينها
بواسطة التلقى الحسى اى عملية الاحساس . مثلا ، لا يمكن
رؤية او سماع او شم او لمس العدد او العملية التاريخية او
المادة الخ ، رغم امكانية رؤية تفاحتين او حضور احداث
تاريخية كالحرب او اطلاق اول قمر صناعى او لمس وشم شئ
مادى معين كالزهرة او فنجان القهوة . فلاجل تكوين معارف
معقدة عن العالم ككل وعما يجرى فيه من عمليات ، وللاجل
نقل وخزن وتكوين معارف جديدة لابد لنا من المفاهيم (١٠١)
وما يرتبط بها من عمليات منطقية . فما هى علاقة هذه الانواع
من المعارف بالاحساس ؟ وكيف تنشأ ؟

غالباً ما تسمى عملية تكوين المفاهيم بعملية التجريد ولهذا يسمى المفهوم كذلك بالتجريد . وتتم عملية التجريد عبر بضع مراحل . خلال المرحلة الاولى يجرى ما يشبه تصنيف الاشياء المختلفة التى تشير لدينا احساسيس وصورا شعورية متشابهة . على سبيل المثال ، ان للتفاح الناضجة وزهرة القرنفل والجزرة ودم الحيوان اللبون صفة مشتركة ، ورغم كل الفوارق ، وبفضل هذه الصفة تثير هذه الاشياء لدينا احساسا لونيا متشابها هو اللون الاحمر . فنحن نسهو عما يميز هذا الشئ عن سواه ، اى نتجرد وكأننا ننبد كل الفوارق . وفى المرحلة الثانية نبدو وكأننا نطابق ونماهى بين مختلف تلاوين او بدائل الصفة التى نحن بصدها . فنحن نستطيع ، مثلا ، ان نماهى بين كل تلاوين وظلال لون واحد بعينه . وعندما نقارن بين العامل جون وصاحب المصنع سميث ، بين المؤجر فرانس ومالك الارض السيد ميولر ، بين صياد السمك الفقير عبود وصاحب مصنع التعليب الشيخ محسن ، نستطيع التغافل عن الفوارق فى العمر والطباع والانتماء القومى واللغة الخ ، وفرد الصفة المشتركة وهى ان شخصا يبنى الارباح من مجهود الآخر . ونحن لا نعنى خلال ذلك بحجم وشكل الربح وكذلك بباقي التفاصيل ، بل نقارن ونطابق فحسب نمط العلاقات الاجتماعية . وفى المرحلة التالية نبدو وكأننا نثبت الصفات والعلاقات التى افردناها بالشكل المثالى «الخالص» الذى ربما لا نصادفها فيه فى الطبيعة نفسها وفى المجتمع . ولهذا السبب يسمى هذا النمط احيانا بعملية اضافة الصفة المثالية . واخيرا ، اى فى المرحلة الرابعة ، يجرى تثبيت الصفات التى افردناها فى اللغة . وهذه هى مرحلة التسمية . اذ تعطى للصفة المعنية بواسطة مفردة او مجموعة مفردات تسمية معينة . هكذا ينشأ المفهوم المعبر عنه فى اللغة . ويشكل نسق الاشياء الذى يتسبب اليه المفهوم معناه ، فى حين تشكل الصفة او العلاقة المثبتة والمنعكسة فى المفهوم مغزاه . فمغزى مفهوم «اللون الاحمر» هو قدرة الاشعة الضوئية لطاقة معينة على ان تثير لدينا احساسا لونيا محددا

تماما . ومعنى هذا المفهوم هو الاشياء التى تعكس اشعة الطاقة المعنية . ان مغزى مفهوم «الاستغلال» هو جنى المنفعة من مجهود الآخرين ، اما معناه فهو نمط معين من العلاقات الانتاجية .

والتجريد ، شأنه شأن الاحاسيس ، عبارة عن انعكاس للواقع الموضوعى . وهما فى واقع الحياة يتكونا ويدققان خلال فترة زمنية طويلة . ومنطلقهما هو الاحاسيس والصور الشعرية . بيد ان التجريدات ، بخلاف الاحاسيس ، تعكس ليس فقط الجانب الخارجى المدرك حسيا للعمليات والاشياء المادية ، ولا تعكسه بقدر ما تعكس علاقاتها وروابطها الداخلية غير المتاحة للادراك الحسى المباشر . لهذا السبب قال لينين ان التجريدات تعكس الواقع بصورة اوفى وادق واعمق . وهذا ما كان يرى فيه الغرض الرئيس منها .

فباى صورة تساعد التجريدات او المفاهيم المجردة على فهم الروابط الداخلية العميقة لما يحيط بنا من ظواهر وعمليات ؟

ان للاشياء فى عالم الواقع المادى عددا غفيرا من الصفات والالوجه والروابط . وكل تجريد يؤخذ بمفرده يعكس رابطة ما او صفة من الصفات كاللون والشكل والارتهان السببى لظاهرة ما بظاهرة اخرى الخ . الا ان هذه الصفات او الروابط المأخوذة على انفراد تنعكس باقصى قدر من الدقة والكمال . ولاجل التعمق فى معرفة الاشياء الواقعية المحددة ذات الروابط والصفات غير المحدودة العدد ، اى انعكاسها فى وعينا ، يجب جمع وربط التجريدات المنفردة بشكل معين فى مفهوم جديد محدد يعطى اوفى معرفة بالنسبة للزمن المعنى والعصر المعنى عن الشئ المحدد . اذن ، فالمفهوم المحدد هو اشبه بمجموع او نسق من التجريدات المختلفة او المفاهيم المجردة التى تعكس صفات واولجها وروابط معينة للشئ المعنى . ومع تطور معرفتنا تغدو المفاهيم التى تعكس العالم الموضوعى اكثر تحديدا . على سبيل المثال كان مفهوم القمر فى عصر علم الخلك القديم مجردا جدا . وكان ينطوى على بضعة ملامح .

فالقمر يدور حول الارض وقرص القمر اكبر قليلا من كف اليد . والقمر يضى ليلا . وبفضل تطور علم الفلك وصنم التلسكوبات البصرية بات معروفا فى القرن التاسع عشر وجود الجبال على القمر ووجود فوهات البراكين القمرية ، كما جرى استخراج قياسات القمر الحقيقية ، وتحديد بعده عن الارض ، واثبات تأثيره فى حالات المد والجزر البحرية وما الى ذلك . وفى الوقت الراهن ازدادت زيادة عظيمة المعلومات عن تربة القمر وتركيبه الكيمايى ومعادنه والكثير من الخصائص الاخرى لتابع الارض الطبيعى بفضل هبوط المركبات الاوتوماتيكية والانسان على القمر . واصبح مفهوم القمر غنيا جدا ووفير المضمون واكثر تحديدا مما كان عليه قبل ١٠٠ سنة ، بل وحتى قبل ٢٠ عاما . فتطور العلم يقترب على الدوام بتنامي تحدد المفاهيم العلمية .

ويجب التمييز بين الاشياء المحددة والمفاهيم المحددة وعدم الخلط بينها . فالاولى موجودة فى الواقع الموضوعى ذاته خارج الوعى وبصورة مستقلة عنه ، اما الثانية فهى نتيجة نشاط البشر المعرفى . وتنشأ المفاهيم المحددة فى نتيجة اضافة وتصويب وتوسيع وتركيب التجريدات المنفردة التى تعكس مختلف اوجه وروابط الاشياء المحددة . ويسمى الانتقال من التجريدات المنفردة الى المفاهيم المحددة **بمنهج الارتقاء من المجرد الى المحدد** . وهذا الارتقاء لا يجرى كيفما اتفق ، بل حسب قواعد وقوانين معينة ، ابرزها هو ان يعكس الترابط بين التجريدات المنفردة المندرجة فى المفهوم المحدد الاوفى والادق الترابط الواقعى الموضوعى بين صفات واوجه وخواص الظواهر والعمليات المنعكسة فى المفهوم المحدد . واذا كان ترابط التجريدات داخل المفهوم المحدد مسائرا للترابط الواقعى بين صفات وخواص الظاهرة او العملية موضوعة البحث فسوف نحصل على اصح واعمق معرفة تناسب الواقع الموضوعى ذاته .

اذن ، فالمفاهيم ليست متصلة فى الانسان من الطبيعة ولم يخلقها الرب ، انما تنشأ تاريخيا وتتكون فى سياق عملية

التجريد . ومنطلقها هو الاحاسيس ، اما وسيلة التعبير المادى عنها فهى اللغة . وتنطوى عملية التجريد ايضا على عناصر معينة من التخيل والابداع . فالانسان حين يسهو عن بعض الملامح ويفرد ويجمع بعضها الآخر انما يبدى موقفا معينا فعلا تجاه الواقع . وهو يسترشد خلال ذلك بالاهداف والمهمات التى تضعها الحياة امامه ، وبالاحتياجات الموضوعية التى تظهر فى سياق نشاطه الانتاجى والمعيشى والاجتماعى . لذا فالمفهوم لا يعكس الواقع الموضوعى فحسب ، بل ويعكس آثار فعالية البشر ونشاطهم الابداعى . واذا دخلت الفعالية الابداعية القدرة على تكوين المفهوم فى تناقض مع الصفات والروابط الموضوعية للاشياء ، فقد تظهر فى عملية التجريد ايضا مفاهيم خاطئة تعكس الواقع الموضوعى بصورة شائثة ومحرقة . وثمة حضور دائم لاحتمال ظهور مثل هذه المفاهيم ، وهذا يمكن فى ظروف معينة ان يفضى الى المثالية .

٥٠٦

الجدور المعرفية للمثالية . بطبيعة الحال ليس كل مفهوم خاطئ وليس كل خطأ فى عملية التجريد يفضى الى المثالية . على سبيل المثال ، ان مفهوم «القطعة الخضراء» او «المثلث الطيب» مجرد ضرب من السخافة . اذ ليس فى الواقع ما يوافقهما من اشياء . فقد جرى فيهما بشكل غير صحيح جمع و«لصق» صفات وملامح غير مترابطة بتاتا فى الواقع الموضوعى . ان ما يؤدى الى المثالية هو تلك المفاهيم التى تنشأ فى نتيجة الفصل الميتافيزيقى لبعض الصفات الموجودة فى الواقع الموضوعى عن هذا الواقع بحد ذاته . فقد يكون عمر الانسان طويلا او قصيرا ، وقد يكون هو نفسه جيد او سيئ الاطلاع على مختلف الاشياء ، او يتمتع بقوة بدنية معينة الخ . ولكن يكفى ان نفصل صفة الاطلاع والقوة وامتداد العمر عن الاشخاص الموجودين فى الواقع ، ويكفى ان نبالغ بها ونضخمها ، كى ينشأ مفهوم خيالى عن كائن عليم وجبار وخالد هو الرب . وعلى نفس المنوال يكفى عند دراسة المادة المتحركة فصل الحركة عن الاجسام المادية ، ووضع الطاقة نقيضا للمادة ، وفصل الزمان

عن المكان ، كى ينشأ مفهوم الحركة والطاقة الموجودتين بصورة مستقلة عن المادة والمناقضتين لها ، وهذه خطوة مباشرة نحو المثالية «الفيزيائية» ، نحو تعليم يدعى ان العالم المادى يمكن ان يتلاشى او ان لا يكون له وجود بوجه عام فى حالة خلود الطاقة ، الامر الذى يستنتج منه ان الطاقة غير مادية ، اى مثالية .

تتلخص الجذور المعرفية للمثالية فى احتمال ان تظهر فى عملية المعرفة الجدلية المعقدة تحورات خاطئة ومبسطة تؤدي الى نشوء مفاهيم تعكس الواقع بشكل شائه وتبيح الظن بان الافكار والمفاهيم نفسها موجودة بصورة مستقلة عن المادة او سابقة لها .

ولكن ليس لزما ان تؤدي الجذور المعرفية بحد ذاتها الى المثالية . انها مجرد امكانية ظهور المثالية . فلاجل ان تظهر المثالية وتتوطد بالفعل ، لابد من توفر ظروف اجتماعية معينة ، وطبقات وفئات معينة لها مصلحة فى العقيدة المثالية كأساس لسيطرتها الطبقية . وتسمى هذه الظروف بالجذور الاجتماعية للمثالية . وبتعبير مجازى ان المثالية هى زهرة عاقر على شجرة المعرفة الحية ، وبالتالي فهى بحاجة الى جذور اجتماعية ومعرفية . وبما ان الجذور الاجتماعية للمثالية فى ظل الاشتراكية تختفى فى نتيجة تحويل الحياة الاجتماعية ، فان ما يطرح فى المقام الاول هو مكافحة جذورها الاجتماعية . وهذا يقتضى امتلاك ناصية الجدلية المادية ونظرية المعرفة الماركسية اللينينية بشكل واع وفعال .

٥٠٧

ما هى الحقيقة ؟ اننا نستخدم فى سياق عملية المعرفة مفاهيم مترابطة وليست معزولة . ويجرى هذا الترابط بواسطة الاحكام والاستدلالات . فنحن نثبت او ننكر بواسطة الاحكام والاستدلالات امرا ما بشأن الصفات او الترابطات او التفاعلات فى العالم المحيط بنا . ان مفاهيم «البيت» و«الموقع» و«الجبل» المنفردة لا تكاد تبلغنا بشيء عن موقع البيت المطلوب . وعلى الضد من ذلك ان الحكم او القول بان «البيت يقع على الجبل»

يقدم لنا المعلومة المطلوبة . والاستدلال هو سلسلة من الاحكام المبنية بحيث يستدل على كل منها ، حسب قوانين المنطق ، من الاحكام الاخرى . مثلاً ، حين نعرف العنـوان المطلوب نستطيع الاستدلال : «اذا كان البيت الذى نطلبه يقع على الجبل ، فالمطلوب منا ان نرتقى هذا الجبل» . بيد ان الاحكام والاستدلالات التى يكون الانسان بواسطتها اهم واثمن المعلومات عن العالم المحيط يمكن كذلك ان تعكس هذا العالم بصورة صحيحة او غير صحيحة . ولـاجل تمييز الاحكام التى تعكس العالم بشكل صحيح عن تلك التى تعكسه بشكل خاطئ ، نستخدم مفهومين خاصتين هما : «الحقيقة» و«الكذب» . فما هى الحقيقة ؟

ان هذا السؤال معقد جدا ويعتبر احدى القضايا المركزية فى نظرية المعرفة . وهو يعالج معالجات متباينة فى الفلسفة المثالية والمادية .

كان ارسطو يعتقد ان الحقيقة هى المعارف التى يحكم فيها حكما صحيحا على العالم المحيط . وفى وقت لاحق وافق العديد من العلماء على ان الحقيقة هى توافق الفكر مع الواقع ، وتوافق المعارف مع ما نعرفه . بيد ان هذه الصيغة اخذ بها المثاليون والماديون على السواء لانهم كانوا فى ردهم المتباين على المسألة الاساسية للفلسفة يفهمون فهما متباينا ايضا توافق الفكر مع الواقع . فالمثالى الموضوعى افلاطون ، مثلاً ، كان يرى ان الحقيقة تتلخص فى توافق معارفنا مع الافكار الازلية الثابتة . فمعرفة العالم المادى ، فى رأيه ، لا يمكن ان تكون حقيقية لان العالم المادى متغير . اما الحقيقة فيجب ان تعزى الى ما هو ازل وثابت . وكان المثالى الموضوعى هيغل يرى ان الحقيقة هى توافق معارفنا مع الروح المطلق ، مع الفكرة المطلقة . وهدف المعرفة البشرية هو التطابق التام مع الفكرة المطلقة . وفى هذا التطابق بالذات ، فى اعتقاده ، تكمن الحقيقة . وكانت اغلبية الماديين ما قبل الماركسية تعتقد ان الحقيقة تتلخص فى توافق معارفنا مع العالم المادى الموضوعى . ولكن فى هذا المضمار بالذات برزت الصعوبة

الرئيسية . كيف يمكن التحقق من هذا التوافق ؟ اذا كانت الوسيلة او المعيار او المقياس هو الاحساس ، فسوف يبرز الكثير من الصعاب . فالاحاسيس نفسها يمكن ان تكون خادعة . اما اذا كان معيار الحقيقة كامنسا فى العقل البشرى نفسه ، فسوف يفضى هذا عاجلا او آجلا الى المثالية (٥٠٣) .

ولم تتمكن الا المادية الجدلية التى حققت انقلابا ثوريا فى نظرية المعرفة من التقدم بتعليم جديد مبدئيا عن الحقيقة واصولها ومعاييرها . فما هو هذا التعليم ؟

ان المفاهيم والاحكام والاستدلالات التى نعبر بواسطتها عن معارفنا بخصوص العالم المحيط بنا وبخصوص انفسنا تعتبر ليس فقط انعكاسا لهذا العالم ، بل وثمرة لنشاطنا . اذن فالمعارف تنطوى على امر ما يرتهن بالانسان الذى ينتج هذه المعارف ، اى بذات المعرفة . وبما انها تعكس العالم الموضوعى ، فهى تنطوى على مضمون لا يرتهن لا بالانسان ولا البشرية ، وبالتالي لا يرتهن الا بالعالم الموضوعى . ويسمى مضمون معارفنا وتصوراتنا هذا ، الذى لا يرتهن لا بانسان بعينه ولا بالبشرية عموما بالحقيقة الموضوعية .

مثلا ، ان القول بان الماء فى ظروف الضغط الجوى الاعتيادى وحرارة + ١٠٠ درجة مئوية يغلى ويتحول الى بخار يعتبر حقيقة موضوعية . وبالرغم من ان كوننا نقيس درجة حرارة الغليان بالمقياس المئوى وليس بالفهرنهايت او مقياس ريومر أمر يتوقف على الانسان ، فان واقع غليان الماء وتحوله الى بخار لا يتوقف لا على الانسان ولا على البشرية .

ان المعرفة اليقينية (الحقيقية) ، شأن العالم الموضوعى نفسه ، تتطور حسب قوانين الجدلية . وكان الناس فى القرون الوسطى يعتقدون بان الشمس والكواكب تدور حول الارض . فهل كان هذا كذبا ام حقيقة ؟ بما ان الانسان كان يراقب حركة الكواكب من «نقطة مراقبة» واحدة هى الارض ، فقد ادى ذلك الى استنتاج خاطئ مفاده ان الشمس والكواكب تدور حول الارض . وهنا يتجلى ارتهان معارفنا بذات المعرفة . غير ان هذا الادعاء كان يحوى كذلك مضمونا لا يرتهن لا بالانسان ولا

بالبشرية ، وهو معرفة ان كواكب المجموعة الشمسية تتحرك .
وكان هذا الامر ينطوى على ذرة من الحقيقة الموضوعية .
وكانت نظرية كوبرنيكوس تقول بان مركز منظومتنا الشمسية
هى الشمس التى تدور حولها الارض والكواكب الاخرى بمدارات
دائرية متراكزة . هنا باتت نسبة المضمون الموضوعى اعلى
كثيرا مما فى التصورات السالفة ، ولكن ليس كل شئ فى
هذه النظرية كان يتفق كليا مع الواقع الموضوعى ، ذلك انه
لم تكن هنا مراقبات فلكية تكفى لذلك . وقد اظهر كيبلر ،
بالاستناد الى مراقبات معلمه تيوخو براغه ، ان الكواكب تدور
حول الشمس لا بمدارات دائرية بل بمدارات اهليلجية .
وكانت هذه معرفة اصح ونسبة الحقيقة فيها اكثر . وقد توصل
علم الفلك المعاصر الى تعيين مدارات وقوانين دوران الكواكب
بمزيد من الدقة . ويتضح من الامثلة التسمى اوردناها ان
**الحقيقة الموضوعية تتطور تاريخيا . واكتمالها يتنامى مع كل
اكتشاف جديد .**

**يسمى شكل التعبير عن الحقيقة الموضوعية ، الذى
يتوقف على الظروف التاريخية الملموسة ، والذى يميز مستوى
دقتها وصرامتها واكتمالها المحقق على مستوى المعرفة المعنى
بالحقيقة النسبية .** على هذا النحو يعتبر كل تطور المعرفة
البشرية ، بما فى ذلك تطور العلم ايضا ، تبديلا دائما لبعض
الحقائق النسبية باخرى تعبر عن الحقيقة الموضوعية بمزيد
من الدقة والاكتمال . وعليه فان عملية المعرفة هى عبارة عن
معرفة اكثر دقة واكتمالا للحقيقة الموضوعية .

**وتسمى المعرفة الدقيقة ، الشاملة ، الوافية ، والكاملة
تماما لظاهرة ما من الظواهر بالحقيقة المطلقة .** وكثيرا ما
يطرح السؤال التالى : هل يستطيع الانسان ان يدرك ويصوغ
الحقيقة المطلقة ؟ ان اللاأدرين (٠١٠) يجيبون عن هذا
السؤال بالنفى . ولايثبات رأيهم يستندون الى اننا لا نتعامل
خلال عملية المعرفة الا مع الحقائق النسبية . ويقولون ان كلا
منها تغدو بمرور الوقت غير مكتملة وغير دقيقة تماما ، مثلما
هى الحال مع مثال المنظومة الشمسية الذى اوردناه . اذن ،

فالمعرفة التامة الوافية لا يمكن بلوغها . ان هذا حكم خاطئ وميتافيزيقى . فالميتافيزيقيون يدعون ان بالامكان معرفة الحقيقة المطلقة والتعبير عنها فى لحظة معينة من نشاطنا مرة والى الابد . وكثيرا ما يبدو ان بالامكان بلوغ المعرفة المطلقة فى الحالات البسيطة جدا . افليست حقيقة مطلقة ان نقول : «ان موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتى» ؟ ولكن هل يعطى هذا القول معرفة وافية عن عدد سكان موسكو ومساحتها وعدد ابنياتها ، ومتى اصبحت موسكو عاصمة للاتحاد السوفييتى وما الى ذلك ؟ وحتى اذا ذكرت هذه المعلومات بواقع يوم ١ كانون الثانى /يناير/ العام الجارى ، فسوف تغدو غير دقيقة بعد مرور عام او عامين . لهذا نرى ان الحقيقة التى تبدو مطلقة للوهلة الاولى هى فى الواقع حقيقة نسبية لانها لا تنطوى على معرفة كاملة ووافية وصحيحة مرة والى الابد عن عاصمة الاتحاد السوفييتى . وكلما كانت هذه الظاهرة او تلك اكثر تعقيدا بات اكثر صعوبة بلوغ الحقيقة المطلقة ، اى المعرفة الكاملة والوافية عنها . رغم ذلك ان الحقيقة المطلقة موجودة وينبغى فهمها بصفتها ذلك الحد ، ذلك الهدف الذى تسعى اليه المعرفة البشرية . وكل حقيقة نسبية هى درجة او خطوة تقربنا من هذا الهدف .

وليس صحيحا الزعم بوجود ثلاثة انواع من الحقيقة هى الموضوعية والنسبية والمطلقة . ففى واقع الحال ليست الحقيقة النسبية والمطلقة سوى مستويين او شكلين مختلفين للحقيقة الموضوعية . ان معرفتنا دائما نسبية لانها تتوقف على مستوى تطور المجتمع والتقنية وحالة العلم الخ . وكلما كان مستوى معرفتنا ارقى ازددنا اقترابا من الحقيقة المطلقة . غير ان هذه العملية يمكن ان تستمر بلا نهاية لاننا نكتشف فى كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى جوانب وصفات جديدة فى العالم المحيط بنا ونصنع فيه معارف اكثر اكتمالا ودقة . وهذه العملية الدائمة ، عملية الانتقال من بعض الاشكال النسبية للحقيقة الموضوعية الى اخرى ، تعتبر اهم مظهر للججدلية فى عملية المعرفة . على هذا النحو نجد ان كل حقيقة نسبية

تنطوى على نصيب من الحقيقة المطلقة . وبالعكس : ان الحقيقة المطلقة هي الحد الاعلى لتوالى الحقائق النسبية الذى لا نهاية له .

ويحق لنا الآن ان نتساءل : كيف يمكن التثبت والتحقق من الحقيقة الموضوعية ومن اين تأتى هذه الحقيقة ، وما الذى يتيح تمييز المعرفة الحقيقية عن الكاذبة ؟

٥٠٨

دور الممارسة فى عملية المعرفة . ان اهم نوع من انواع النشاط البشرى هو الممارسة ، وهى عبارة عن نشاط حسي مادي يرمى الى تحويل العالم المحيط بنا والطبيعة والمجتمع ، ويندرج فى اساس كل الانواع الاخرى من النشاط الاجتماعى والروحى ، بما فيه عملية المعرفة . اذن ، فالممارسة تنطوى ليس على عملية العمل فحسب ، بل على كل نشاط البشر الاجتماعى والتحويلي الثورى . ولئن كنا حتى الآن قد تناولنا الممارسة بالدرجة الرئيسة من حيث كيفية تأثيرها فى تطور وترقى قابليات الفكر البشرى والنشاط الاجتماعى ، فسوف نتناولها الآن من جانب جديد . ان اهم اسهام ثورى للمادية الجدلية فى نظرية المعرفة هو ادراك اللور الاساس للممارسة فى النشاط المعرفى ، واكتشاف ان الممارسة هى التى تجعل هذا النشاط ممكنا وتتيح تمييز المعرفة الحقيقية عن المعرفة الكاذبة .

لم يكن ممثلو جميع المدارس والاتجاهات فى الفلسفة ما قبل الماركسية يفهمون دور الممارسة فى عملية المعرفة . اذ كان بعضهم يعتقد ان مصدر المعرفة هو العقل والافكار والمبادئ التى وهبها الله للانسان او غرسها فى صلبه . وبعضهم الآخر كان يعتبر الاحاسيس المصدر الوحيد للمعارف . وقد رأينا الى اية صعاب وتناقضات مستعصية على الحل كانت تفضى هذه الآراء (٥٠٣) . وحتى ماديو ما قبل الماركسية ، ومنهم فورباخ ، لم يتمكنوا من الارتقاء الى فهم دور الممارسة فى عملية المعرفة . وكانوا يذهبون الى ان المعارف تنشأ على اساس الاحاسيس الشعورية «الخالصة» خلال عملية المراقبة

السلبية وتأمل الواقع . وقد رأى ماركس النقص الرئيس للمادية التأملية في عجزها عن فهم الدور الابداعى الفعال للانسان بصفته ذات المعرفة . فقيم يتمثل هذا الدور ؟ انه يتمثل فى كون الانسان ليس مجرد يراقب او يتأمل العالم المحيط به ، بل يقوم بتغييره فى سياق نشاطه الحيوى ، وبالدرجة الاولى فى العمل . وبفضل هذا بالذات تجرى المعرفة الاكثر عمقا لتلك الصفات والروابط للعالم المادى ، ومن ضمنه المجتمع ، التى ما كان لها ان تكون متاحة للمعرفة البشرية لو اقتصر على التأمل البسيط أو المراقبة السلبية . وبما ان ممارسة الانسان متحركة ومتغيرة وتتطور باطراد ، فان المعارف التى نحصل عليها فى نشاطنا العملى تتعقد وتصوب وتتطور . اذن فالممارسة ليست فقط مصدرا للحصول على المعارف ، بل هى ايضا أساس تطور وترقى هذه المعارف .

عندما ناقشنا دور الاحاسيس فى عملية المعرفة توصلنا الى ان نشوء الصور الحسية للعالم الموضوعى يتوقف بحد ذاته والى درجة كبيرة على نشاط الانسان العملى (٥٠٤) وعلى الثقافة عموما . اذن ، فالممارسة تقتحم عملية المعرفة وتؤثر فيها منذ المراتب الاولى ، اى على المستوى الذى تتكون فيه المعرفة الحسية او التجريبية . ويتجلى بمزيد من الوضوح تأثير الممارسة فى عملية تشكل المفاهيم والاحكام (٥٠٥) . اذ ان مراسيم تصنيف الاشياء فى مجموعات حسب صفات معينة وفرز ومقارنة هذه الصفات ، نقول ان هذه المراسيم بحد ذاتها هى عبارة عن نوع معين من النشاط . صحيح انه نشاط ذهنى او روحى او ثقافى ، لكنه ينشأ ويتطور تحت تأثير النشاط الشيئى المادى ، اى الممارسة . اما حين تنتهى عملية تكوين المفاهيم (التجريدات) والاحكام التى تتضمنها ويتوجب علينا ان نقرر اى من هذه الاحكام حقيقية واى منها كاذبة ، فنحن نعود ثانية الى الممارسة التى تبرز هذه المرة بصفة وسيلة للتحقق من مصداقية معارفنا ، اى كمعيار للحقيقة . لهذا كتب

لينين : «من التأمل الحى الى التفكير المجرد ومنه الى الممارسة — ذلكم هو الطريق الجدلى لمعرفة الحقيقة . . .» *

وتعتبر الممارسة نوعا من النشاط يمتاز به البشر وحدهم . فحتى اعقد نشاط للحيوانات لا يمكن اعتباره ممارسة ، لان العمل (١٢٢ ، ١٢٥) هو اساس وصلب الممارسة . لهذا السبب بالذات لا تتسنى للحيوانات سوى معرفة الروابط الشبئية الاسترشادية السطحية ، بينما لا يتسنى لها معرفة الروابط العميقة ، اى القوانين الموضوعية . فالمعروف ان النمل يتسم بسلوك معقد جدا . فهو ، بالتحديد ، يحصى وحتى يفك اشتباك حشرات اخرى هى قمل النبات ويتغذى بما يفرزه قمل النبات من رحيق غذائى . بيد ان النمل لم يتمكن خلال ملايين عديدة من سننى هذا «التعاوض» الذى يسمى بالتعايش الحيوى من اشتقاق فصائل اكثر ادرارا من قمل النبات الذى يسمى احيانا بـ«بقرات النمل» . اما البشر الذين بدأوا بمزاولة الزراعة وتربية الماشية قبل بضعة الاف عام فقط ، فقد تيقنوا بفضل نشاطهم العملى الفعال وعن طريق الكثير من التجارب والاطفاء والاختبارات من امكانية التأثير فى ادرار الحيوانات الداجنة والنباتات . فاكشفوا وصاغوا قواعد زراعة المحاصيل وتربية الحيوان ، وتعلموا بفضل ذلك اشتقاق فصائل وانواع جديدة تماما لا وجود لها فى الطبيعة العذراء . هكذا جرى خلال الممارسة اكتشاف الحقائق الموضوعية الجديدة المتعلقة بالزراعة وكذلك التحقق منها واستخدامها .

ومهما راقبتم الاجسام الصلبة وخصائص السوائل ، كالماء مثلا ، لن تتيح لكم هذه المراقبة السلبية القول كيف يتغير وزن الجسم المغمور فى الماء . ومن خلال التعامل فى النشاط العملى الوف المرات مع الاجسام المغمورة فى الماء عن قصد او بطريق المصادفة اكتشف الناس فى آخر الامر ان وزنها يغدو اقل كلما ازداد وزن الماء المزاح (قانون ارخميدس) . وقد استخدم هذا الاكتشاف فى وقت لاحق بنجاح كبير فى ممارسة صناعة السفن .

* لينين . المجلد ٢٩ ، ص ١٥٢-١٥٣ .

فى اواسط القرن التاسع عشر خلى ماركس وانجلس من خلال اجمال وتعميم ممارسة الصراع الطبقي طوال قرون عديدة الى استنتاج مفاده ان القانون الموضوعى للتاريخ هو تخطى التناقضات الطبقيّة التناحرية واقامة مجتمع لاطبقي . وحاول خصومهما ان يشككوا ويماروا بالمصادقية الموضوعية لهذا القانون . وكان افضل تأكيد له هو ممارسة البناء الاشتراكي فى الاتحاد السوفييتى التى ادت الى اقامة مجتمع ليست فيه تناحرات طبقيّة .

على هذا النحو تعتبر الممارسة فى معرفة الطبيعة وفى معرفة المجتمع على السواء مصدرا واساسا لتطور المعرفة ومعيارا لمصادقية المعارف المستحصلة .

٥٠٩

الظاهرة والجوهر . جدلية عملية المعرفة . لاجل اجمال ما ذكرناه فى هذا القسم ينبغى لنا ان ننظر فى مقولتين فلسفيتين مهمتين هما «الجوهر» و«الظاهرة» .

عندما يتفحص الانسان تفاحة ويشمها ويلمسها ويدوقها يتلقى احساسيس مختلفة تتكون منها صورة حسية معينة . والهيئة التى يبدو لنا فيها الشئ الموضوعى المعطى لنا فى الاحساس يسمى بظاهرة الشئ المعنى . وتنطوى الظاهرة على معلومات عن الصفات الموضوعية للاشياء والعمليات المحيطة بنا . وترتفع الهيئة التى يبدو ، اى يظهر لنا بها هذا الشئ ، كما اسلفنا (٥٠٤) ليس فقط بالمواصفات الموضوعية ، بل وبتركيب الحواس والجملة العصبية ، ومنها الدماغ ، واخيرا بالنشاط العملى . فعندما نتفحص التفاحة بالبصر نراها حمراء وكروية . وهذه إن صح القول - هى ظاهرة النسق الاول . واذا تفحصنا مقطع التفاحة عبر المجهر فسوف نرى تركيبها الخلوى . وهذه هى ظاهرة النسق الثانى . واذا استخدمنا على التوالى جهاز الاشعة السينية والمكروسكوب الالكترونى وما الى ذلك ، فسنستطيع رؤية التركيب الداخلى لخلايا التفاحة وما يجرى داخلها من عمليات جزيئية . وهذه يمكن ان نسميها بظواهر النسق الثالث والرابع الخ . اذن ، فمقولة «الظاهرة»

تعكس الجانب الخارجى الموضوعى للعمليات والاشياء المحيطة بنا ، وهو الجانب الذى نصادفه فى نشاطنا العمل التجريبي . ونحن نتلقى هذا الجانب الخارجى تلقيا مباشرا او عبر الاجهزة والادوات والمعدات المختلفة الخ . فما الذى تعكسه مقولة «الجوهر» ؟

عندما نحصل على احاسيس بصرية نتعرف على الخصائص الفردية : لون وشكل وحجم التفاحة . فهذه هي السمات التى تميزها عن سواها من الاشياء . بعدئذ نتعرف على التركيب الخلوى الذى تتميز به كل ثمار هذا النوع من النبات . وعندما نواصل البحث نحصل على تصور عن العمليات الفيزيائية والكيميائية الجارية فى الخلايا التى تتميز بها ليس فقط النباتات ، بل والكائنات الحية بوجه عام . وكلما توغلنا اعمق فاعمق فى تركيب التفاحة الداخلى تتسنى لنا معرفة الروابط الضرورية والاكثر استقرارا التى تتحكم بنمو وتطور هذا النوع من الثمار وكذلك بعملياته الفسلجية . بعبارة اخرى ، عندما تنتقل من ظاهرة النسق الاول الى ظاهرة النسق الثانى السخ ، وحين نتعرف على جانبها الداخلى نكتشف السنن الموضوعية للظواهر المعنية ، وهذه السنن هى التى تشكل جوهر الظاهرة . اذن ، فمقولة «الجوهر» تعكس الصفات والروابط الداخلية العميقة التى تتحكم بعمليات تطور الاشياء والعمليات موضوعة البحث وادائها لوظائفها . وهى تعكس كامل مجموع السنن الداخلية للظاهرة او مجموعة الظواهر المعنية . لهذا اكد لينين ان مقولتى «الجوهر» و«القانون» تعتبران مقولتين من نفس النسق . ومن الاهمية بمكان ان نراعى ذلك عند دراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة .

ان الكادحين ينظمون دوما فى المجتمع الرأسمالى المعاصر اضرابات كثيرة . وهى متاحة بصورة مباشرة لمراقبتنا الحسية . وعلى الرغم من تباين المطالب التى تطرح فى مختلف الاضرابات نجدها تتطور باشكال متباينة وتقترب باحداث مختلفة ، غير ان جوهرها هو نضال الطبقة العاملة الاقصادى من اجل مصالحها . وبامكاننا ايضا استجلاء الجوهر الاعم

والاعمق لمختلف اشكال الصراع الطبقي للبروليتاريا ، اى
الاقتصادى والايدىولوجى والسياسى . وهى تؤول فى التحصيل
الاخير الى الضرورة التاريخية الموضوعية للاستعاضة عن طريقة
الانتاج الرأسمالية بالطريقة الاشتراكية . على هذا النحو يكمن
وراء تنوع الظواهر الاجتماعية الخارجية جوهرها الموضوعى
الواحد . وكما نرى فليس هناك حد كؤود فاصل بين الظواهر
والجوهر . فالامر الذى لا تتسنى مراقبته اليوم ويعتبر جوهرها
للشئ المعنى قد يصبح غدا متساحا للمراقبة ويتحول الى
ظاهرة . ان مقولتى «الظاهرة» و«الجوهر» تبدوان ، من جهة ،
وكأنهما متضادتان لانهما تعكسان الجانب الخارجى الاكثر تغيرا
والجانب الداخلى الاكثر استقرارا لكل شئ ، وهما فى الوقت
ذاته مترابطتان جدليا وكل منهما تتحول الى الاخرى . فالظواهر
والجوهر لا يوجدان بصورة منفصلة فى الواقع نفسه . لهذا
نوه لينين بان الجوهر يظهر والظاهرة جوهرية . وقد اراد
بذلك ان الجانب الداخلى الخفى يتجلى على الدوام عبر الجانب
الخارجى المتاح للمراقبة ، والجانب الخارجى يقيضه الجانب
الداخلى الذى يعتبر سببا له . الى جانب ذلك تعبر مقولتسا
«الظاهرة» و«الجوهر» عن اتصال وترايط مراحل المعرفة .
فنحن نتعرف على الظاهرة فى مستوى المعرفة الحسية والتأمل
الحى . اما الجوهر فينكشف فى مرحلة التفكير المجرد بواسطة
المفاهيم والاحكام .

لقد ادعى الفيلسوف الالماني كانط فى محاولة للتوفيق
بين التجريبية والعقلانية (٥٠٣) اننا لا نستطيع بواسطة
حواسنا سوى معرفة الظواهر ، اى كيفما تبدو لنا الاشياء .
اما جوهر الاشياء الذى اطلق عليه نعت «الشئ فى ذاته»
فلا نستطيع معرفته . وباستخدامه لمصطلح «الشئ فى ذاته»
يبدو كانط وكأنه يؤكد ان اشياء العالم الخارجى موجودة
بصورة مستقلة عن معرفتنا . وبذا يكون قد قام بخطوة معينة
باتجاه المادية ، ولكنه حين ادعى ان «الشئ فى ذاته» غير
متاح للمعرفة ، انما قدم تنازلا الى اللادرية والمثالية الذاتية
(١٠) فوق فى تناقض يستعصى على الحل . كيف يا ترى

يمكن القول بان «الشيء فى ذاته» موجود موضوعيا اذا كانت معرفته امرا متعذرا ؟ وللتهرب من هذا التناقض اتجه كانط نحو الايمان ، نحو العقل الاسمى الذى يقف فوق المعرفة الحسية . نحن نعلم بوجود «الاشياء فى ذاتها» لاننا نؤمن بها . وقد تعرض كانط بسبب هذا التذبذب لانتقادات الماديين والمثاليين على السواء . فالماديون انتقدوه لانه كان يعتقد ان «الشيء فى ذاته» غير متاح للمعرفة وبذا يكون قد حفر هوة سحيقة بين الظاهرة والجوهر . ووصف لينين ذلك بـ«النقد من اليسار» . اما المثاليون فقد انحوا باللائمة على كانط لانه يقر بموضوعية «الاشياء فى ذاتها» ، اى الاشياء المادية التى لا ترتفع بالوعى . ووصف لينين ذلك بـ«النقد من اليمين» . ان نظرية المعرفة فى المادية الجدلية ترى - بالاستناد الى تجربة ومنجزات العلوم المعاصرة كافة - ان ليس هناك «اشياء فى ذاتها» غير متاحة للمعرفة ، بل هناك فقط اشياء واحداث وعمليات مختلفة لم تتم معرفتها بشكل واف ، ولكن يمكن ان تتم معرفتها مع تعمق وتوسع نشاطنا العملى والمعرفى . ان جدلية المعرفة الحقيقية تنطلق من ان العالم المتنامى ينعكس فى المعرفة المتنامية بفضل التغير والتطور الدائم لممارستنا الانتاجية الاجتماعية . وفى عملية المعرفة ننتقل دائما من الظاهرة الى الجوهر ، ومن بعض الحقائق النسبية الى بعضها الآخر الاكثر عمقا ، ونتحقق منها دائما خلال الممارسة ، وننبذ بلا رحمة الاحكام او الاستدلالات الخاطئة والكاذبة .

اشكال ومناهج المعرفة العلمية

٥١٠

النظرية والفرضية . العلم هو اسمى شكل للمعرفة . وتأثيره فى جميع جوانب حياة المجتمع يتنامى فى الوقت الراهن بلا انقطاع . واساس هذا التأثير هو استخدام المنجزات العلمية فى الانتاج وفى ادارة شؤون المجتمع ، الذى يفضى الى التقدم العلمى التقنى (٣١١) . فما هى اهم وابرز الخصائص المميزة للمعرفة العلمية ؟

لقد كان منجمو بابل القديمة ، كما تفيد قصص التراث ، يعرفون جيدا مواقع النجوم والكواكب . وتسنت لهم مراقبة العشرات من حالات الكسوف والخسوف . لكنهم لم يتمكنوا من تحديد مساراتها ومن التنبؤ الدقيق بحالات الكسوف والخسوف المقبلة ، ناهيك عن الرد على تساؤلات : لماذا تتحرك الاجرام السماوية ولماذا يحدث الكسوف والخسوف . اما الآن فليس الطلاب فحسب ، بل وحتى تلاميذ الصفوف المتقدمة يستطيعون الاجابة عن هذه التساؤلات بيسر ، اما علماء الفلك فبامكانهم التنبؤ ، وبدقة هائلة ، بحركة ليس الكواكب فحسب ، بل ومنظومات نجمية كاملة ، وبمقدورهم تفسير ما يجرى على النجوم النائية من عمليات فيزيائية . كيف يتسنى ذلك ؟ انه يتسنى بفضل كون العلم المعاصر يستند الى نظريات علمية . وهى التى تتيح تفسير الظواهر القائمة والتنبؤ بالظواهر الجديدة . اما فى عهود منجمي بابل القدماء فلم تكن هناك نظريات علمية ، كما لم يكونوا مؤهلين لوضعها . فما هى النظرية العلمية ؟

ان النظرية العلمية المتطورة هى عبارة عن منظومة او سلسلة من قوانين العلم المترابطة . ويمكن خلال ذلك استخراج بعض القوانين بمساعدة قواعد المنطق والتحويلات الرياضية من بعضها الآخر . وبفضل هذه التحويلات نحصل فى نهاية المطاف على معارف عن هذه او تلك من ظواهر الطبيعة الموجودة فى الظرف الراهن او التى سيكون لها وجود فى المستقبل . وابسط مثال على النظرية العلمية هو نظرية دوران الكواكب حول الشمس التى وضعها كيبلر . وهى تضم ثلاثة قوانين معبر عنها بصيغة رياضية . فعندما يحوز عالم الفلك بعض المعطيات الاولى المستحصلة عن طريق الملاحظات ، لم يعد ملزما باجراء مراقبات جديدة ، كما كان يفعل علماء بابل القدماء ، بل يستطيع ادراج هذه المعطيات فى الصيغ التى تعبر عن قوانين كيبلر ، واجراء حسابات ومن ثم يستطيع القول بدقة اين يقع هذا الكوكب او ذاك فى الوقت المقصود . واذا اضفنا الى قوانين كيبلر قانونى الحركة

والجاذبية الكلاسيكيين اللذين اكتشفهما نيوتن فسوف نحصل على نظرية جديدة اعظم قدرة هي الميكانيك السماوى التى يمكن بواسطتها ليس فقط تفسير مواقع الاجرام السماوية والتنبؤ بها فحسب ، بل وتشخيص اسباب حركاتها الخ . اذن فالنظريات يمكن ان تشمل ميادين واسعة بهذا القدر او ذاك من ظواهر العالم المادى وان تقدم عنها معارف عميقة جدا ويمكن التعويل عليها تتيح لنا الحصول على كل المعلومات اللازمة دون ان نرجع بين فترة واخرى الى المراقبات المعقدة والمضنية .

وللنظريات العلمية مزايا حميدة اخرى . فهى تبدو وكأنها تقدم لنا ارشادات وقواعد يعول عليها لمزاولة النشاط العملى وتتيح لنا تنظيم وتصنيف ظواهر العالم الموضوعى . فبفضل ماذا تحوز القوانين الداخلة فى النظريات العلمية مثل هذه الامكانيات ؟ القضية هى ان **قوانين العلم تعتبر انعكاسا لقوانين الواقع الموضوعى (١٠٨)** . ان قوانين الواقع موجودة موضوعيا بصرف النظر عن كون الانسان قد اكتشفها ام لا . بيد ان الانسان لا يستطيع استخدامها والاعتماد عليها فى نشاطه وتوظيفها لما فيه خير المجتمع الا بعد ان يتم اكتشاف هذه القوانين ومعرفتها وصياغتها بشكل قوانين علمية . ولنوضح ذلك من خلال مثال قانون مندلييف الشهير .

ان جدول العناصر الكيميائية يعكس الترابط الداخلى الضرورى الموضوعى بين التركيب الفيزيائى والصفات الكيميائية لذرات مختلف العناصر . وبالاغتماد على هذا القانون يمكن تفسير الصفات الكيميائية لاي عنصر من خلال معرفة موقعه فى الجدول . وبمساعدة هذا القانون يمكن التنبؤ بصفات عناصر كيميائية لا تزال مجهولة . وبهذه الصورة تنبأ مندلييف نفسه بصفات الالمنيوم الذى كان مجهولا فى عهده . وفى الوقت الراهن تمكنت مجموعة من العلماء السوفييت بالاغتماد على قانون مندلييف ونظرية ميكانيك الكم من صنع عنصر اصطناعى جديد لا وجود له فى الطبيعة اطلق عليه اسم

«كورتشياتوفيوم» * . وكانت صفات هذا العنصر وبنيته قد فسرت وجرى التنبؤ بها سلفا . عدا عن ذلك ، قدمت النظرية العلمية ما يشبه الارشادات لمزاولة النشاط التجريبي فيما يتعلق بتركيب العنصر الكيميائي الجديد . وكان من غير الجائز في هذه الحالة استخدام طريقة التجربة والخطأ التي كان الناس يستخدمونها طوال آلاف السنين عند معالجة المسائل الاعتيادية الاكثر بساطة . اذ لا يمكن التوصل الى الاكتشافات العصرية الا بواسطة نظرية علمية جادة . فمن دون ميكانيك الكم والنظرية النسبية الخاصة لا يجوز استحداث العمليات النووية الحرارية التي يمكن التحكم بها واللازمة لانتاج الطاقة . ومن دون البيولوجيا الجزيئية النظرية يتعذر وضع الهندسة الوراثية واشتقاق الانواع البيولوجية الجديدة .

على هذا النحو نجد ان النظرية العلمية تيسر وتسرع عملية المعرفة عشرات ومئات المرات ، وتجعل معارفنا اعمق واسلم ، وتتيح لنا ان نشيد عليها كاساس كل نشاطنا العملي . لهذا كان لدى بولتسمان ، وهو احد كبار علماء الفيزياء في القرن التاسع عشر ، كل الحق في ان يقول : «ليس هناك ما هو اكثر صلاحا للممارسة والتطبيق من النظرية الجيدة» . فكيف توضع النظريات العلمية وما يشكلها من قوانين العلم ؟

ان اهم شكل لنشوء القوانين والنظريات العلمية هو الفرضية . وتمتاز الفرضية العلمية عن الافتراضات والتخمينات العادية بانها يجب ان تكون معللة تعليلا جيدا بالوقائع الموضوعية والمراقبات والتجارب ، وان تكون مسايمة لما يتوفر من المنجزات العلمية المثبتة اثباتا راسخا . والفرضيات يمكن ان تنشأ بطريقتين . ففي الحالة الاولى تنشأ الفرضية كتعميم لعدد كبير بهذا القدر او ذاك من المراقبات المدخرة التي لا يمكن لسبب ما ايجاد تفسير لها في النظريات السالفة . وتسمى هذه الفرضيات بالتعميمات التجريبية (اي القائمة على التجربة) . فقد تقدم العلماء منذ وقت طويل ، نتيجة الوف

* تكريما لعالم الفيزياء الذريسة السوفييتي كورتشياتوف (١٩٠٢/١٩٠٣) - المترجم .

المراقبات لحالات المد والجزر البحرية ، بفرضية مفادها ان هذه الظاهرة تتوقف على موقع القمر . وفى وقت لاحق جرى على اساس المراقبات والحسابات الدقيقة التأكد من صحة هذه الفرضية فاكتملت صفة القانون العلمى . وفى الحالة الثانية تنشأ الفرضيات كتخمينات عالم ابداعية تراعى القوانين والنظريات الاخرى المثبتة اثباتا راسخا . على سبيل المثال طرحت فى النظرية النسبية العامة فرضية مفادها ان المكان يغير انحناءه تبعا لكتلة الاجسام المتحركة فيه . ولم يتسن التحقق من صحة هذه الفرضية ردحا طويلا ، ذلك انه كان من الصعب فى الفضاء المحيط بالارض قياس تغير انحنائه . بيد ان هبوط المختبرات الفضائية السوفيتية الدقيق على كوكب الزهرة ، والذى وضعت حساباته على اساس هذه الفرضية ، كان من بين الادلة على وجوب اعتبار هذه الفرضية قانونا موضوعيا مثبتا اثباتا راسخا . ونحن نرى ان نشوء الفرضيات بحد ذاته ، والتحقق من صحتها واختيار اكثرها دقة وصوابا تجرى بواسطة المراقبات والتجارب العلمية . فالفرضية التى يتم اثباتها والتحقق منها بالمراقبات والتجارب تكف عن ان تعتبر مجرد تخمين او افتراض محتمل بهذا القدر او ذاك . ويشعر العلماء فى اعتبارها قانونا علميا ، اى حقيقة موضوعية تعكس الروابط المستقرة والضرورية للواقع موضوع البحث بحد ذاته . و«تحول» الفرضية الى قانون علمى مرحلة مهمة من مراحل المعرفة العلمية للعالم . وهذا التحول بحد ذاته لا يمكن ان يتم الا على اساس الممارسة التى تتمثل عناصرها الجوهرية فى التجربة والمراقبات العلمية .

٥١١

التجربة والمراقبة فى المعرفة العلمية . اذا كان عالم الفلك يستطيع بواسطة الراديو تلسكوب اقتناص الامواج اللاسلكية او الاشعة السينية القادمة من اعماق الكون الخفية الغامضة ، فبمقدوره ان يكتشف نجما او تجمعا من النجوم التى لا ترى بالتلسكوب البصرى المألوف . ومن خلال مراقبة سلوك

الحيوانات فى المختبر او الظروف الطبيعية يستطيع عالم البيولوجيا اكتشاف سنن غير معروفة سابقا لهذا السلوك . والمراقبة تقوم على عملية معرفة الانطباعات الشعورية والاحاسيس البصرية والسمعية وغيرها . ويقوم جزء ملموس من المعلومات التى يتلقاها الانسان فى الحياة اليومية ، فى حقل الانتاج او فى البحث العلمى ، على المراقبة . بيد ان المراقبات العلمية تمتاز نوعيا عن المراقبات اليومية . فهى تجرى ، اولا ، بواسطة اجهزة وادوات ومعدات خاصة ، وهى تجرى ، ثانيا ، حسب برنامج خاص ، عادة ، حسب خطة معينة على اشياء معينة سلفا . ثالثا ، انها ترمى الى بلوغ هدف معين بصرامة هو ليس الادخار البسيط لوقائع غير مترابطة ، بل جمع وقائع تبيح التقدم بفرضيات جديدة او التحقق من فرضيات سبق طرحها . رابعا ، انها تجرى غالبا على اشياء وعمليات لا نصادفها ، عادة ، فى الحياة اليومية . خامسا واخيرا ، انها مطالبة بان تكون مماشية لمستلزمات الدقة العالية والتوثيق وما الى ذلك . رغم ذلك لا تتيح حتى اعقد وادق المراقبات العلمية التغلغل فى اعماق اعماق الظاهرة ، اى فى جوهرها . لماذا يا ترى ؟

ان اية مراقبة ، حتى اذا اجريت بواسطة اكثر الاجهزة تطورا ، تترك الظاهرة موضوعة البحث بالشكل الذى كانت عليه فى الطبيعة ، دون ان تغيره او تحوله . ولجل فهم الروابط الداخلية العميقة لهذا الشئ او ذاك ، يجب تحويله وتغييره واستجلاء كيف سيكون سلوكه خلال عملية التحويل . وهذا يقتضى انتزاع الشئ المعنى من الروابط والشروط المألوفة ، ووضعه فى ظروف جديدة ، وتغيير نظام نشاطه ، وتفكيك اجزائه ، وجعله يتصادم مع الاشياء الاخرى ، وحمله على ان يودى وظائفه ونشاطه فى الظروف غير المتوقعة . وهذا هو ما يشكل مضمون التجربة العلمية او البحث التجريبي . اذن فالتجربة هى شكل علمى خاص للممارسة . وفى سياق التجربة تجرى المراقبات لا بصورة سلبية بل بصورة ايجابية

فعالة ، بشكل «تأمل حى» . وبما ان التجربة تجرى حسب قواعد محددة تحديدا دقيقا وبهدف معطى سلفا هو اثبات او دحض هذه او تلك من الفرضيات والحصول على وقائع جديدة لاجل وضع قوانين ونظريات جديدة ، فهي تعتبر اهم وابرز وسيلة للمعرفة العلمية .

ومن المتبع تمييز عدة انواع من التجارب العلمية هي :

١ - تجارب البحث الرامية الى اكتشاف الظواهر الجديدة والصفات الجديدة او الروابط غير المعروفة سابقا بين الظواهر ، ٢ - تجارب التحقق التى يتمثل هدفها فى اثبات او دحض الفرضيات وتقدير دقتها ، ٣ - التجارب التركيبية التى يجرى خلالها صنع او تركيب مواد جديدة او تراكيب جديدة لم يكن لها سابقا وجود فى الطبيعة ، ٤ - تجارب الفحص الرامية الى فحص وضبط الاجهزة والادوات وآلات القياس .

وغالبا ما تتداخل كل هذه الانواع من النشاط التجريبي فى تجربة واحدة . مثلا ، اتاح اطلاق المختبرات الفضائية الى كوكب الزهرة اثبات صحة جملة من بنود النظرية النسبية العامة (تجربة تحقق) ، واكتشاف ظواهر جديدة فى جو الكوكب وعلى سطحه (تجربة بحث) ، وجرى خلال ذلك صنع تراكيب واجهزة جديدة تماما (تجربة تركيب) ، والتأكد من دقة وصلاحيه الاجهزة العاملة (تجربة فحص) .

وتتمثل خاصية العلم المعاصر المميزة فى ان التجربة كمنهج علمى عام للمعرفة تستخدم الآن على نطاق واسع لا فى العلوم الطبيعية والتقنية فحسب ، بل وفى الحياة الاجتماعية .

وفى ظروف التقدم العلمى التقنى تنتشر المناهج التجريبية لمعرفة وتحويل الواقع انتشارا واسعا فى جميع ميادين الصناعة والزراعة والادارة . فالمصانع والمعامل والمجمعات الصناعية الزراعية والاتحادات الانتاجية تجرى المزيد والمزيد من التجارب المنظمة علميا من اجل ايجاد او فحص الاشكال الجديدة لتنظيم العمل والادارة ، واعتماد التقنية الجديدة والتكنولوجيا المتقدمة . وتتجلى فى ذلك احدى

الآليات الجبارة لتأثير العلم فى الممارسة الاجتماعية . وهذا هو ما يفسر لماذا يحتاج كل انسان واع الى فهم دور التجربة فى المعرفة والنشاط العملى .

٥١٢

اضواء على بعض المناهج العلمية العامة للمعرفة . يتطور العلم المعاصر تطورا سريعا . وهو يدرس مختلف الاشياء فى الطبيعة والمجتمع ، ابتداء من الجزيئات البسيطة وانتهاء بالنجوم ، من الكائنات الحية الى الروبوتات ، من نفسية الفرد الى التحويلات الاجتماعية على صعيد المجتمع بأسره . وهذا يؤدى الى استحداث علوم جديدة . وتسمى هذه العملية بتمايز المعرفة العلمية . ويؤدى تمايز العلم الى ظهور عدد كبير من مختلف المناهج العلمية الخاصة للمعرفة . الى جانب ذلك تجرى ايضا عملية معاكسة هى تكامل العلم . وهو يتجلى فى ان القوانين والسنن التى اكتشفتها بعض العلوم تجد مجالا للاستعمال فى العلوم الاخرى . فالمفاهيم التى وضعت صيغها فى اطار الفيزياء او الكيمياء تستخدم عند دراسة الكائنات الحية . وتستخدم السنن الاقتصادية لدراسة تاريخ المجتمع ، كما تراعى منجزات علم النفس عند تصميم الروبوتات وهلمجرا . بيد ان اهم وابرز تجل لتكامل العلم هو تطور وتعمق المناهج العلمية العامة للمعرفة الجارى استخدامها على نطاق واسع فى جميع انواع البحث العلمى . وتعتبر دراستها مهمة كبيرة الشأن فى نظرية المعرفة .

١ - منهج المعرفة الاستدلالي والاستقرائي

تشكل قوانين وفرضيات ونظريات كل علم من العلوم مستوى متميزا من المعرفة يسمى بالنظري . فالمعارف القائمة على المراقبة المباشرة والتجربة ، اى على التلقى الحسى تشكل مستوى آخر هو المستوى التجريبي للمعرفة . وثمة علاقات معقدة للغاية بين المستويين النظرى والتجريبي للمعرفة فى العلم المعاصر . ومرد ذلك هو ان نظريات وفرضيات وقوانين الفيزياء والسيبرنيطيقا والفلك والبيولوجيا

وغيرها من العلوم المعاصرة مجردة ، ولا يمكن التعبير عنها بصور ايضاحية وبمفاهيم واحكام تصلح لان تعزى او تستخدم فيما يتعلق بالظواهر المدركة حسيا . ان كل هذه المعارف يجرى التعبير عنها عادة بشكل رمزي معقد فى هيئة معادلات رياضية وفى صيغ منطقية مجردة . ويقتضى استخدامها فيما يتعلق بالواقع والتحقق من مصداقيتها مقارنة مستوى المعرفة النظرى بمستواها التجريبي . ويستخدم لاجل ذلك منهج المعرفة الاستدلالي . وهو يتلخص فيما يلى : ان القوانين والفرضيات الاولى الاساسية للنظرية المعنية يجرى تحويلها بصورة متواصلة بواسطة قواعد منطقية ورياضية محددة بصراحة . وفى نتيجة هذه التحويلات تظهر سلاسل طويلة او منظومات من الصيغ والافتراضات او التخمينات التى تعبر عن هذه او تلك من السنن او التى تصف خواص وروابط معينة للاشياء موضوعة البحث . وتسمى عملية استنباط مثل هذه المعارف الاشتقاقية من القوانين والفرضيات الاولى الاساسية بالاستدلال ، اما المعارف المستحصلة فتسمى بالاستدلالية (الاستنباطية) .

ويتيح منهج المعرفة الاستدلالي الحصول عن طريق مختلف التحويلات المنطقية والرياضية على عدد هائل من النتائج المستمدة من عدد صغير نسبيا من البنود والقوانين الاساسية للنظرية المعنية . وبخلاف البنود الاولى للنظرية المفترقة الى الصفة الايضاحية تكون النتائج قابلة للاستخدام فيما يخص الواقع المادى المدرك حسيا . ولجل ذلك يضاف عليها مغزى ومعنى تجريبي ، اى مدرك حسيا . على سبيل المثال ، تجرى مقارنة الكميات المتغيرة التى تتضمنها المعادلات الرياضية بمعطيات مؤشرات اجهزة معينة وبمعطيات مختلف الكواشف الكهربائية او بالمراقبات البصرية والصوتية المألوفة الخ . على هذا النحو يجرى بمساعدة المنهج الاستدلالي استنباط ترابط المستوى النظرى للمعارف مع المستوى التجريبي ، وبالتالي مع التجربة والمراقبة والممارسة بالمعنى الاوسع للكلمة . على سبيل المثال ، ان القوانين الاساسية لميكانيك

الكم غير قابلة للاستخدام المباشر فيما يخص الواقع نفسه ، ولا يمكن مقارنتها بنتائج المراقبات التجريبية . وبطبيعة الحال ان النتائج المستحصلة منها بواسطة التحويلات الرياضية يمكن التحقق منها تجريبيا . وبفضل ذلك يتسنى ليس فقط اثبات مصداقية القوانين الاساسية لميكانيك الكم ، بل وايجاد اوسع استعمال تطبيقي لها .

ولئن كان المنهج الاستدلالي يتيح اجراء الانتقال من المستوى النظرى الى التجريبى ، فان المنهج الاستقرائى للمعرفة العلمية يتيح تحقيق الانتقال بالاتجاه المعاكس . ففي سياق الممارسة والمراقبة العلمية والتجربة يدخر العلماء كمية كبيرة من الوقائع المتشابهة ، بهذا القدر او ذاك ، والمنسوبة الى هذه او تلك من ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية . هنا يبرز السؤال التالى : كيف يمكن ان نستخلص من الوقائع المتفرقة المعرضة لتأثيرات وتغيرات طارئة معارف عن القوانين الموضوعية المتحكممة بها ؟ ان المنهج الاستقرائى لبناء المعارف العلمية هو بالضبط عبارة عن مجموع القواعد التى تتيح الانتقال من المراقبات الحسية والمعارف التجريبية عن الوقائع المنفردة الى المعارف النظرية عن القوانين المندرجة فى اساس هذه الوقائع والمكونة لجوهرها (٥٠٩) . ويرتبط استخدام المنهج الاستقرائى بالاستخدام الواسع فى المعرفة العلمية للاحصاء الرياضى ونظرية الاحتمال اللذين يتسنى بواسطتهما اعطاء تقدير كمى لاحتمال وقوع هذا الحدث او ذاك ، واحتمال ظهور هذه الصفة او تلك فى سلسلة كاملة من التجارب النخ . ولئن كان مستوى احتمال ان تكون العملية المعنية او الصفة المعنية مستقرة يعتبر مرتفعا جدا ، فان المعارف عن مثل هذه العمليات او الصفات يمكن تناولها كقوانين علمية . هكذا بالضبط جرى اكتشاف قوانين توزع الطاقة فى المنظومات الفيزيائية المعزولة (القانون الثانى لعلم الحركة الحرارية الكلاسيكى) ، وقانون دارون فى الاصطفاء الطبيعى والكثير غيرها من قوانين العلم المعاصر . واذ يتيح منهج المعرفة الاستقرائى الانتقال من المراقبات الخاصة

المنفردة الى المعارف النظرية الاكثر عموما ، انما يمارس دورا مهما في تطور العلم المعاصر . صحيح ان المنهجين الاستدلالي والاستقرائي للمعرفة متضادان ظاهريا من حيث الاتجاه ، لكنهما يشكلان داخليا وحدة جدلية عميقة تؤمن التطور السريع لمجمل منظومة المعرفة العلمية .

٢ - التحليل والتركيب

حين يشرع العلماء في دراسة شيء جديد لا يكون بحوزتهم ، عادة ، سوى معارف عامة مجردة عنه تعكس بعضا من صفاته وخصائصه . وهذه المعارف غير كافية لفهمه فهما عميقا ، ناهيك عن الاستخدام التطبيقي للظواهر او العمليات موضوعة البحث . ولاجل الحصول على كل المعلومات اللازمة عنها واكتشاف القوانين المتحركة بها ، لا بد من تصور الشيء المعنى بهيئة منظومة متميزة . بعد ذلك يجرى بشكل متواصل تقسيم وتجزئة هذه المنظومة الى جملة من المنظومات الثانوية المختلفة المستويات ، وصولا الى عناصرها المنفردة (١٠٦) . وعملية التجزئة المتواصلة للمنظومة (الكل) الى منظومات ثانوية (الاجزاء) وعناصر ، والدراسة المرحلية لهذه المنظومات الثانوية والعناصر تسمى بالتحليل . وفي مجرى التحليل تتراكم المعلومات عن الخصائص والصفات المنفردة وعن اجزاء وعناصر الشيء موضوع البحث . لكننا نبدو خلال ذلك وكأننا نفقد تصورنا الاولى عن الشيء ككل متكامل . ولاجل الحصول على معرفة جديدة محددة تماما في هذه المرة وغنية المضمون عن الشيء لا بد من القيام بمرحلة جديدة من المعرفة تسمى بالتركيب . فكل المعارف المدخلة في سياق التحليل توحد وتربط حسب قواعد معينة بحيث تعكس بأدق واصح صورة الصفات والخصائص والعلاقات والروابط بين المنظومات الثانوية للشيء موضوع البحث وعناصره . وعندما يتم توحيد او تركيب المعارف نحصل من جديد على تصور متكامل ، على معرفة متكاملة عن الشيء . ولكن بخلاف المعرفة الاولى تكون

هذه المعرفة المتكاملة لا مجردة بل محددة (٥٠٥) ، وتقدم حجما من المعلومات يتيح تغيير وتحويل الاشياء موضوعة البحث واستخدامها فى النشاط العملى لاجل بلوغ الاهداف المرسومة . وقد تتكرر عملية الانتقال من التحليل الى التركيب مرارا . ويؤدى كل تكرار لمراسيم التحليل والتركيب الى ما يشبه لفة جديدة من المعارف . وتتكرر مناهج المعرفة ولكن على مستوى جديد من لولب المعرفة الجدلى .

٣ - منهج المعرفة المنطقى والتاريخى

ان كل منظومة معقدة بقدر ما فى الطبيعة والمجتمع يمكن تناولها من زاويتين . فى الحالة الاولى يجرى تناول موضوع المعرفة كما لو كان ناجزا ومكتمل التكوين بهذه الدرجة او تلك . وفى الحالة الثانية يجرى التركيز على دراسة عملية تطور وصيرورة هذا الموضوع (الشيء) . ويتيح تناول الاول تبين قوانين اداء الشيء موضوع البحث لوظائفه او قوانين نشاطه الحيوى . وفى تناول الثانى يجرى استجلاء ودراسة القوانين الموضوعية لتطوره ونشوئه وصيرورته وتغيره .

ان منهج المعرفة الذى نستخدمه فى الحالة الاولى يسمى عادة بالمنطقى . وهو يتمثل فى تبين السمات والخصائص والمواصفات الاساسية الجوهرية الاكثر اهمية وفى الانتقال المتواصل من المفاهيم الاولى التى تعكس هذه السمات والصفات الى المفاهيم المحددة المتنامية التعقد باطراد والتى تقدم لنا معرفة شاملة اوفى عن الظواهر والعمليات الجارى بحثها . ويتيح لنا استخدام هذا المنهج معرفة الشيء بالشكل الذى يظهر فيه فى سماته الجوهرية الآن ، اى فى اللحظة التى تجرى فيها عملية المعرفة .

وفى الحالة الثانية نقوم خطوة بخطوة باستحضار عملية التطور التاريخى الواقعية التى ليست دائما بسيطة ومستقيمة . ويتمثل المنهج التاريخى للمعرفة فى تناول والوصف المتواصل لجميع مراحل نشوء وتطور وصيرورة الظواهر او

العمليات الجارى بحثها . وهو يتابع كل لفات عملية التطور اللولبية الواقعية المعقدة بكل تعرجاتها وارتكاساتها . لهذا يعتبر منهج المعرفة التاريخي هو المنهج الاكثر اجهادا ويتطلب بذل قدر كبير من الجهود والوقت . الى جانب ذلك انه يتيح الاجابة عن الكثير من الاسئلة التى لا يستطيع منهج المعرفة المنطقى اعطاء اجوبة وافية عنها . وتعزى الى عداد هذه الاسئلة مسألة توالى واتجاه التطور التاريخي للاشياء الجارى بحثها . لذا فان المنهجين المنطقى والتاريخي ليسا متضادين ، بل يتم احدهما الآخر .

على سبيل المثال ، عند دراسة اعراض المرض يفرد الطبيب اهم وابرز ملامح المرض : تغير درجة حرارة الجسم ، التغيرات فى تركيب الدم ، وجود جراثيم معينة ، تغيرات بعض اعضاء الجسم ، وفى الختام يقوم عن طريق الربط المنطقى بين المعطيات المستحصلة بوضع التشخيص ، اى يحصل على معرفة محددة تماما عن حالة المريض الصحية بشكل مرض . بيد ان هذا التشخيص وحده لا يكفى للعلاج الفعال . فالمطلوب هو معرفة تاريخ المرض وتوالى ظهور اعراضه وتطور بعض مظاهر المرض (المضاعفات) وتغير مختلف مواصفات الجسم وحالة المريض الصحية وهلمجرا . فقط بعد رفد المعارف المحصلة سابقا بمثل هذه المعلومات التاريخية يستطيع التحقق نهائيا من صواب التشخيص وتحديد العلاج الفعال . علاوة على ذلك ، تقتضى عملية العلاج نفسها متابعة دائمة لعملية شفاء المريض فى تطورهما وديناميتهما وتغيرهما .

ان منهجى المعرفة المنطقى والتاريخي يرفد احدهما الآخر رفدا جدليا ايضا عند دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة . مثلا ، عندما نبحث فى الاقتصاد المعاصر لبلد من البلدان ، نحرص قبل كل شئ على استجلاء بنيته وتحليل العلاقات الانتاجية الاساسية والنظر فى مقومات الاقتصاد الاساسية (الصناعة ، الزراعة ، التجارة ، مجال الخدمات ، المالية ، نظام الضرائب ، الخ) ، واهم وابرز فروع الاقتصاد الوطنى ، ونصيب التكنولوجيات الجديدة (البيوتكنولوجيا ، التكنولوجيا

الاعلامية وما الى ذلك) . ويجرى هذا البحث ضمن اطار التناول المنطقي الذي يتيح افراد العقد الاساسية للنظام الاقتصادي وترابطاتها وتفاعلها وتأثيراتها المتبادلة ، الخ .

اما لاجل الاجابة عن سؤال : لماذا نشأ في هذا البلد مثل هذا الاقتصاد بالذات ، وما هي نزعات وآفاق تطوره ، ولماذا يختلف في بعض المؤشرات عمن اقتصاد البلدان الاخرى ، فلا بد من القيام بتناول تاريخي واجراء بحث مفصل في نشوء كل مقومات هذا الاقتصاد في سياق ظهور وصيرورة وضعف او تقوى بعض عناصره في المستقبل القريب والبعيد .

ويترابط المنهجان المنطقي والتاريخي ترابطا وثيقا ويتم احدهما الآخر . فالمنهج المنطقي اذ يفرد المقومات والعناصر الاساسية للنظام الاقتصادي المعنى انما يبين لنا اية آليات لهذا النظام ينبغي تناولها بالتحليل التاريخي ، وما هو بالضبط الامر الاكثر اهمية في البحث التاريخي بالنسبة لفهم الوضع الاقتصادي الراهن . اما المنهج التاريخي فحين يتناول توالي المراحل والروابط السببية لنشوء النظام الاقتصادي المعنى وانتقاله من الحالات السالفة الى حالته الراهنة ، يتيح لنا التعمق في فهم السنن التي كشف عنها التحليل المنطقي وتفسير خصوصية وتفرد الوضع الاقتصادي الذي نحن بصددده .

على هذا النحو نجد ثمة ترابطا داخليا عميقا بين منهجي المعرفة المنطقي والتاريخي . فالمنهج المنطقي يتيح لنا تبيان النواحي المفصلية الاساسية المطلوب بحثها بحثا تاريخيا ، اما المنهج التاريخي فيتيح لنا تحديد وتدقيق ورصد نتائج منهج المعرفة المنطقي .

٥١٣

النماذج والنمذجة في المعرفة العلمية . تعتبر النمذجة احد اكثر مناهج المعرفة المستخدمة في العلم المعاصر انتشارا وشيوعا . فما هي النماذج والنمذجة ؟

كثيرا ما نصادف في الحياة ان هذا الشيء او ذاك غير متاح للدراسة والبحث . فقد يكون كبيرا جدا او باهظ الثمن

او بالغ التعقيد او لا وجود له في المكان المعنى الخ . في هذه الحالة يجرى صنع او ايجاد شيء آخر شبيه بالشيء او العملية التي تعيننا من ناحية ما جوهرية . انه شيء - نائب . واذا كان بمقدورنا ان ندرس الشيء - النائب وان نطبق بعدئذ ما حصلنا عليه من نتائج مع تعديلات وتصويبات مناسبة على الشيء الذي يعيننا واستخدامها لاجل معرفته ، فان هذا الشيء - النائب يسمى **بالنموذج** . وعملية صنع او اختيار النموذج ودراسته واستخدام المعطيات المستحصلة لاجل معرفة الشيء الاساسي تسمى بعملية **النمذجة** .

من المعروف ان القردة الراقية تشبه الانسان من نواح عديدة . وقد اكتشف العلماء منذ وقت طويل اوجه شبه في تركيب دم بعض القردة ودم الانسان . ومن خلال دراسة دم هذه القردة اكتشفوا صفات خاصة اطلقوا عليها مصطلح «العامل الريصي» («عامل ريزوس») . وبالاستناد الى تشابه تركيب الدم استخدموا النتيجة المستحصلة على دم الانسان فاكشفوا فيه صفات مماثلة . في هذه الحالة كان دم القردة نموذجا لدم الانسان .

وفي التقنية غالبا ما يسبق صنع النموذج ودراسته صنع الاصل ، مما يتيح تحاشي الكثير من الاخطاء والصعاب في تصميمه . فقبل ان يجرى تشييد محطة كهربائية عملاقة يجرى صنع نموذج تقني مصغر لها وتجرى عليه سلسلة من التجارب . وتراعى المعطيات المستحصلة في وقت لاحق عند تصميم بناء المحطة .

في الامثلة التي اوردناها تبرز اشياء مادية تماما بصفة نماذج . ولكن يستخدم في العلم المعاصر على نطاق واسع ايضا ما يسمى بالنماذج المثلّي . ويعزى اليها ، مثلا ، ما يسمى بالتجربة الذهنية . فقبل الشروع في تجربة معقدة جدا وباهظة الثمن يبدو العالم كما لو كان يصنع في مخيلته كل مجموعة الادوات اللازمة ويقوم او يمثل معها مختلف الافعال ، ويلجأ احيانا الى المخططات والرسوم كوسيلة مساعدة . وبعد ان يقوم بكل ذلك نجده اما يتخلى عن التجربة الفعلية (اذا

كانت التجربة الذهنية فاشلة) واما يسرّع في تنفيذها في الواقع التطبيقي .

وتعتبر النمذجة الرياضية نوعا من انواع النماذج والنمذجة . اذ تؤخذ بمثابة الشيء - النائب ليس العمليات والاشياء المادية ، بل منظومات من المعادلات الرياضية . وعن طريق تضمين هذه المعادلات مختلف المعطيات الرقمية المستحصلة من المراقبات والتجربة ، ومن خلال حلها ، يستطيع العلماء اعطاء تقدير صحيح بشأن المواصفات الكمية لمختلف العمليات والتنبؤ بالصعاب التي قد تنشأ في الممارسة . ويطرح الاستخدام الواسع للنماذج الرياضية في جميع ميادين العلم المعاصر ، ولا سيما في التقنية ونظرية الادارة مسألة دور الرياضيات في المعرفة العلمية .

٥١٤

اشاعة استخدام الرياضيات والعلوم المعاصرة . عوضا عن ان تقيس بالمسطرة مساحة حقل مثلث يكفي ان تقيس ضلعين من اضلاعه المتعامدة ، ثم تضرب الارقام التي حصلنا عليها بواسطة جدول الضرب ونقسمها على اثنين لنحصل على هذه المساحة خلال ثوان معدودات . وتقوم اهمية واستخدام الرياضيات في العلم والتقنية والنشاط العملي على اننا نستطيع بواسطة مختلف طرائق القياس ان نضفي على الاشياء المادية وصفاتها ارقاما معينة ، بعد ذلك نوظف هذه الارقام حسب قواعد رياضية معينة عوضا عن بذل مجهود جم على التعامل مع هذه الاشياء . وبامكاننا ان نستخدم الارقام المستحصلة في نتيجة ذلك مرة اخرى فيما يتعلق بالاشياء المادية والانتفاع منها في معرفة صفاتها وخصائصها الاخرى . ويتجلى في ذلك بوضوح الترابط الجدلي بين الكمية والكيفية (٤١١) . وفي حدود معينة تتيح الرياضيات تشخيص الخصائص الكيفية المتنوعة بلا نهاية للاشياء وصولا من خلالها الى الخصائص الكمية . وبما ان هذه الاخيرة يمكن ان توصف بواسطة القواعد الرياضية المعبر عنها بالمعادلات والصيغ الدقيقة

والبسيطة والواضحة نسبيا ، فان عملية معرفة الواقع الموضوعى تتبسط وتتسارع وتيسر .

فى الوقت الراهن اخذت الرياضيات تقترح الكثير من الفروع العلمية ، والعلماء اليوم يستخدمون تجريدات (٥٠٥) تتعد باطراد ولا يتسنى حصرها فى الصور الحسية . وفى هذه الحالة لا بد من صياغة القوانين والنظريات بواسطة المعادلات الرياضية المعقدة . ومنذ اواسط القرن العشرين اخذت الحاسبات تتطور تطورا جامحا وتتيح بواسطة برامج معدة سلفا انجاز حسابات بالغة التعقيد وحل مسائل اما يتعذر حلها على الانسان او يتطلب منه مجهودا كبيرا ، علما بانها تنجز ذلك بسرعة ودقة يعول عليها .

والرياضيات تقوم على اساس النظريات والقواعد المثبتة باحكام التى تعتبر ، حسب التعريف اللينينى (٥٠٧) ، حقائق موضوعية لا ترتفعن بارادة احد ، ولهذا تتيح الحصول على معارف معينة عن العالم المحيط بنا . ولكن مثلما لا يجوز فصل الكمية ووضعها نقيضا للكيفية ، كذلك لا يجوز فصل المناهج الرياضية للمعرفة عن المناهج المتنوعة كفيها للعلوم المختلفة . ان وحدة كل مناهج المعرفة العلمية المعاصرة هي وحدها التى تضمن مصداقيتها الموضوعية وتأثيرها المتعظم فى التقدم العلمى التقنى .

٥١٥

العلم والمجتمع . ان كل اشكال الوعى الاجتماعى - الاخلاق ، الوعى الفنى والفن ، الوعى السياسى والقانونى - تؤثر تأثيرا معيناً فى تطور المجتمع (٢٢٦-٢٣١) . الى جانب ذلك ، فى ظروف التقدم العلمى التقنى يتطلب حل مختلف المعضلات المتعلقة بنمو القوى المنتجة وحماية البيئة وتحسين الرعاية الصحية ورفع مستوى الرخاء المادى للمجتمع الاشتراكى الخ ، الاعتماد بالدرجة الاولى على منجزات العلم . لذا فمن الاهمية بمكان ان نفهم مكانة ودور العلم فى المجتمع المعاصر .

قبل ٣٠٠ سنة قدم الكاتب الانجليزى الساخر جوناثان سويفت صورة تهكمية جدا عن العلوم التى عاصرها . ففى

معرض حديثه عن رحلة غوليفر الى بلاد العجائب صور فريقا من العلماء الغربي الاطوار واصحاب المشاريع الخيالية الذين يحاولون الامساك بضوء الشمس بواسطة القشاء الاخضر كسى يتسنى بعدئذ استخدامه لاغراض التدفئة ، ويزاولون صنع الاقمشة من شبك العناكب ، واستخدام الالواح والاسلاك المعدنية فى تصميم ماكنة يمكن الاستعاضة بها عن المجهود الذهني . لقد تغير الموقف من العلم فى الوقت الراهن تغيرا جذريا ، وليس فقط لانه اكتشف بالفعل قانون تفاعل ضوء الشمس والنباتات الخضراء وتعلم صنع خيوط ادى وامتن آلاف المرات من شبك العنكبوت ، وصنع الحاسبات الالكترونية القادرة على تيسير المجهود الذهني ، بل بالدرجة الرئيسة لان التقدم العلمى التقنى (٣١١) المتسارع باطراد ابتدا بفضل اعتماد نتائج العلم فى الانتاج . وقد تحول العلم نفسه فى الوقت الراهن الى ميدان لانتاج المعارف على نطاق واسع .

واصبحت الابحاث العلمية احد انواع النشاط البشرى التى تتطلب اكبر قدر من الاموال والجهود . وبانفاق اموال طائلة على صنع المسرعات الجبارة للدقائق البسيطة والاجهزة والمعدات المختلفة ، وعلى اعداد العلماء ، يحق للمجتمع ان ينتظر من العلم نتائج تطبيقية كبيرة .

ولا يقتصر دور العلم فى المجتمع المعاصر على كونه يساعد على تطور التقنية والتقدم التقنى . فالمجتمع الاشتراكى يعتمد على المعارف التى تقدمها العلوم الاجتماعية - الاقتصاد ، التاريخ ، القانون ، الخ . - عند معالجة المسائل الاقتصادية الاجتماعية البالغة الاهمية . وتتطلب ادارة تنمية المجتمع معرفة عميقة للاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع ونظرية الاخلاق . بطبيعة الحال ، ان تسريع تنمية القوى المنتجة وبلوغ ارفع مستوى لانتاجية العمل يبقيان هما المهمة الابرز طوال فترة تطور المجتمع الاشتراكى وانتقاله الى الشيوعية . الى جانب ذلك ، ان هذه العملية لا يمكن ان تجرى دون ترقى الوعى الاجتماعى والفردى ، ودون التطور الشامل للثقافة . وهذا يقتضى كذلك اساسا علميا متينا يعتمد على الفهم المادى

للتطور الاجتماعى ونظرية الشيوعية العلمية . على هذا النحو يؤثر العلم المعاصر تأثيرا قويا فى تكوين مجمل الثقافة الروحية وفى ترقى الوعى الاجتماعى وتطور الفرد من جميع الجوانب . وينسحب هذا ليس فقط على العلوم الاجتماعية ، بل يشمل كذلك العلوم الطبيعية والتقنية ، وهذا ما يتجلى فيه دورها المتميز فى المجتمع الاشتراكى .

ويكتسب العلم فى الوقت الراهن طابعا معقدا وشموليا . اذ يتطلب حل المسائل التقنية والاقتصادية والادارية فى الوقت ذاته اجتذاب فرق علمية كبيرة تتألف من علماء من مختلف الاختصاصات . ولا يقتصر تكامل المعارف على توثيق الروابط بين العلوم المختلفة . فبفضل التطوير السريع للتعليم واتاحة فرص نيله امام الجميع فى المجتمع الاشتراكى تتسرب المعارف العلمية الى جميع اشكال الوعى الاجتماعى . فلاجل ان يرسم الفنان لوحة تصور معركة ما عظيمة ، كذلك الاديب الذى يكتب رواية عن تاريخ الحرب ، لا بد له من الرجوع الى علم التاريخ . ولأجل ان يحدد المؤرخ بمساعدة التحليل النظائرى عمر الآثار القديمة تحديدا دقيقا لا بد له من الرجوع الى الطرق الفيزيائية . وعندما نقوم بوضع تعليم عن السلوك الخلقى يجب علينا ان نستند الى منجزات علم النفس المعاصر وعلوم اخرى . ان العلوم الاجتماعية ، وفى مقدمتها العلوم الاقتصادية والتاريخ وعلم الاجتماع ، تعكس مباشرة الوجود الاجتماعى . فهى اذ تكتشف القوانين الموضوعية لتطور المجتمع انما توفر بذلك الاساس اللازم لمشاركة الجماهير بشكل واع فى العملية التاريخية . وهذه المشاركة بعد ذاتها لا يمكن ان تتم الا شريطة ان تمتلك اوساط الكادحين الواسعة ناصية اصول العلوم الاجتماعية واستخدامها فى الواقع التطبيقى . ولم يعد الوعى الاجتماعى فى ظروف المجتمع الاشتراكى يتكون بصورة عفوية ، مثلما هى الحال فى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية السالفة ، بل بات يتكون على اساس علمى راسخ . وتؤثر فيه تأثيرا فعالا خلال ذلك ليس العلوم الاجتماعية وحدها ، بل والعلوم الطبيعية التى تعكس الطبيعة ، والعلوم التقنية التى

تضع قواعد وقوانين صنع المعدات التقنية . والنتائج التي تحصل عليها هذه العلوم توسع تصوراتنا عن الكون ، عن ترابط ووحدة الطبيعة الحية والجمادة ، وتعمق معارفنا عن تفاعل الطبيعة والمجتمع . وهي تندرج في منظومة العقيدة وتساعد على وضع تعليل افضل للنظرة المادية الى مكانة الانسان في العالم ، واستيعاب مغزى نشاطه والغرض منه . على هذا النحو ترتبط العلوم الطبيعية والاجتماعية والتقنية ارتباطا وثيقا بشكل الوعي الاجتماعى الاخرى وتشارك في تطورها ورفقها . والعلم ، بصفتها اليوم اهم قوة منتجة ، يتفاعل في الوقت ذاته تفاعلا نشيطا مع باقى ميادين حياة المجتمع . لهذا يجب التعامل معه تعامللا جدليا . فهو يعتبر ، من جهة ، اسما شكل للمعرفة ولانعكاس الواقع الموضوعى ، ومن جهة اخرى ، نراه يندرج عبر التقدم العلمى التقنى في منظومة الانتاج المادى . ووحدة الاضداد هذه هي المصدر الجبار لتطوره .

تشكل الفلسفة الاساس المنهجى والعائدى (٠٠٣ ، ٠٠٤) للمعرفة العلمية . لهذا السبب يتطلب استيعاب اصول المعارف العلمية ، ناهيك عن المشاركة الفعالة في نشاط البحث العلمى استيعابا عميقا وابداعيا لفلسفة المادية الجدلية . ويرتهن ترقى العلم نفسه من نواح كثيرة بتطور مناهج البحث العلمى . لذا فان نظرية المعرفة فى المادية الجدلية ، اذ تبحث بحثا شاملا فى جدلية المعرفة العلمية ، انما تساعد على تطور منهجية هذه المعرفة .

ان ترابط الفلسفة ، ولا سيما نظرية المعرفة ، مع تطور العلم يؤكد ايضا مجمل تاريخ ترابط المعارف الفلسفية والعلمية . ففي البلدان والفترات التى تطور العلم فيها تطورا سريعا تطورت وترقت كذلك التعاليم الفلسفية عن المعرفة ومناهجها . وهذا امر طبيعى : فكلما كان تطور العلم جامعا ، ظهر فى طريقه المزيد من الصعاب والمفاجآت والمشاكل ، واضطر العلماء اكثر فاكثر الى اعمال الفكر فى جوهر المعرفة بحد ذاته ، وفى شروط ومعايير مصداقيته . وفى كيفية انماء

وتصويب المعارف العلمية . فى الوقت ذاته نرى ان الانحطاط العام للعلم والثقافة يرافقه ، عادة ، انخفاض فى مستوى الابحاث الفلسفية . لذا فان حالة الفكر الفلسفى ومستوى معالجة المعضلات المنهجية للمعرفة العلمية اشبه بالبارومتر الذى يبين لنا باى اتجاه وبأية وتيرة يجرى تطور العلوم الطبيعية والاجتماعية والتقنية .

الفصل السادس الانسان والمجتمع

٦٠١

معادئة عن جوهر الانسان ومغزى الحياة . سندشن هذا الفصل الختامى بمحادثة . وسيجريها هذه المرة قارىء استوعب كل المادة الفائتة وفيلسوف يتبنى مواقف المادية الجدلية .

القارىء (ق) : لقد جاء فى مطلع الكتاب ان الالمام بالفلسفة ، وبالدرجة الاولى الماركسية اللينينية ، امر ضرورى لاجل فهم جوهر الانسان ، ومكانته فى العالم الراهن ، ومغزى حياته والفرض منهسا ، ولجل ادراك فحوى اكثر معضلات العصر حدة وتهيابا .

الفيلسوف المادى الجدلى (ف) : هذا صحيح تماما ، لقد ناقشنا دائما هذه المسائل بالفعل . ففى الفصل الاول ، مثلا ، تناولنا المسألة الاساسية فى الفلسفة ، وهى مسألة علاقة الوعى بالمادة . وهذه هى ، من حيث الجوهر ، علاقة الانسان بالعالم ككل . وفى الفصل الثانى واصلنا المناقشة فتناولنا علاقة الوجود الاجتماعى بالوعى الاجتماعى ونشاط البشر الانتاجى المادى والروحى . وفى الفصل الثالث اوضحنا علاقة المجتمع البشرى بالطبيعة .

واخيرا ، بعد ان درسنا قوانين الجدلية واطلعنا على نظرية المعرفة فى المادية الجدلية ، نكون قد تهيأنا للنظر فى باقى المسائل المعلقة .

ق : فلننظر فيها الآن . ما هو جوهر الانسان ؟ وما هو

مغزى حياته ؟ لاي غرض يحيا الانسان ؟ ان من الصعب جدا العثور على اجابة عن هذه الاسئلة .

ف : ما الذى ، فى اعتقادك ، يعرقل حل هذه المسائل ؟
ق : فى العالم ، كما نعلم ، بضعة مليارات من البشر القاطنين فى بلدان مختلفة ، بشر من مختلف القوميات والاعراق ، من الرجال والنساء ، من الشباب والناشئين الى مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية . وهم على مستويات مختلفة من التعليم والتربية ولديهم طبايع واهداف مختلفة ، وهم يفهمون الحياة ومكانتهم فيها فهما متباينا . فهل يمكن ، والحالة هذه ، ان يدور الحديث بوجه عام عن جوهر واحد للانسان ؟ او عن هدف عام او عن مغزى الحياة المقبول لشخصين على الاقل ، ناهيك عن المجتمع ككل ؟

ف : ان سؤالك بحد ذاته يتطوى على امكانية ارتكاب خطأ . فهذه الفوارق ، فى اعتقادك ، من الكبر والاتساع بحيث تستبعد وجود اهداف عامة ومغزى عام للحياة بالنسبة الى الطبقات والفئات الاجتماعية . وانت تظن ان ليس هناك اى جوهر عام للانسان . وليس ثمة ما يجمع بين الناس . انه تطرف اشبه بتطرف الظن بان الناس جميعا متشابهون ، وبأنهم جزيئات اجتماعية عديمة الهوية . بيد ان هناك وحدة جدلية بين العام والخاص والفردى (٢١٢) . وفلسفتنا لا تسعى الى ان ترسم لكل فرد كل اهدافه الشخصية ، ولا تقرر سلفا كل فعل منفرد الخ . فالانسان والمجتمع فى وحدة جدلية ، لذا فالاجابة عن هذا السؤال لا يمكن ان نظفر بها الا بشرط اقرارنا باوجه الاختلاف والائتلاف بين البشر ، وبترايط المصالح الشخصية والاجتماعية والارتقاء المتبادل للنشاط الاجتماعى والشخصى . ولا يتسنى فهم ما هو جوهر الانسان وما هو مغزى حياته الا من خلال مثل هذا التناول ،

ق : فما هو هذا الجوهر ؟

ف : لقد شهد تاريخ الفلسفة بهذا الصدد الكثير من الاجوبة المختلفة . مثلاً ، كان فلاسفة اليونان القديمة يعتقدون بان جوهر الانسان يتمثل فى انه هو نفسه العالم

الاصغر اى عالم صغير حى متحرك وكأنه يكرر بشكل مضغوط العالم المحيط به ، اى العالم الاكبر . بيد ان تطور العلم لاحقا اظهر ان نشاط الانسان الحيوى يخضع لقوانين التطور الاجتماعى ، بينما يتطور العالم المحيط حسب قوانين الطبيعة . ودحضت الحياة فهم الاقدمين لجوهر الانسان . وكانت الفلسفة المسيحية فى القرون الوسطى ترى جوهر الانسان فى منشأه الالهى ، وفى كونه يحوز روحا . بيد ان الله خلق الروح مرة والى الابد ، بينما البشر متباينون تماما . فهم يتعادون ويتصارعون ويرتكبون اعمالا مختلفة جدا وحتى منافية لتعاليم الرب . كما ان نمط حياتهم واذواقهم وآراءهم وفهمهم للحياة بعد ذاته امور تتغير من عصر الى عصر . ولم يصمد الفهم المسيحى لجوهر الانسان هو الآخر لاختبار الزمن . فقد التقى الفلاسفة البرجوازيون ، رغم كل تنوع آرائهم ، فى كونهم يرون جوهر الانسان وهدفه الرئيس فى السيطرة على الطبيعة وعلى الآخرين .

ق (مقاطعا) : وما هو مغزى الحياة ، وما هو التجلى الاسمى للنزعة الانسانية ؟

ف : ان الاغلبية الساحقة من البشر هى الكادحون ، المستغلون فى ظروف المجتمع التناحرى . فهم لا يتقاضون الارباح ، ولا يجنون النفع من هذه السيطرة . علاوة على ذلك ، انها - كما نعلم - تحط من قيمة الانسان وتعيث خرابا فى الطبيعة . اذن ، فالسيطرة وجنى الارباح باى ثمن لا يمكن ان يكونا جوهرها ومغزى للحياة بالنسبة لاجلبية البشر ، انما يحددان فقط جوهر وهدف حفنة من المستغلين .

ق : اذن كيف تفهم الفلسفة الماركسية جوهر الانسان وهدف ومغزى حياته ؟

ف : ان الفلسفة الماركسية تنطلق من ان الانسان بالدرجة الاولى كائن اجتماعى . فقد ظهر وانعزل وانفصل من عالم الحيوان بفضل العمل . اما افعال الانسان واهدافه وآراؤه ونواياه فتحددها فى التحصيل الاخير العلاقات الاجتماعية التى يعيش فيها وفى مقدمتها العلاقات الانتاجية .

ق : اذا كان جوهر البشر فى عصر معنى تحدده العلاقات الاجتماعية ، افلا يجب ان يكون الناس جميعا ، فى المجتمع المعنى على الاقل ، متشابهين كالتوائم ؟ فلماذا ، اذن ، يختلف سلوك البشر واذواقهم وآراؤهم وطباعهم واهدافهم الحياتية ؟

ف : لا تنس ان نفس الجوهر قد يتجلى تجليات مختلفة ، لان ظروف تجليه مختلفة على الدوام . فجوهر كل اصناف الماس واحد ، وهو يتحدد بان الماس يتألف من ايونات الكربون المقيدة فى شبكات بلورية معينة ، ولكن ليس فى الطبيعة بلورات ماسية متشابهة تشابها مطلقا . فهى تختلف ، وان قليلا ، فى الحجم واللون والشفافية والشكل ووجود الشقوق وما الى ذلك . وهذه نتيجة لكونها قد نشأت فى ظروف مختلفة ، فى حين ان البشر وظروف حياتهم اعقد واكثر تنوعا بمليارات المرات . ان تجلى الجوهر البشرى هو الشخصية . وليس هناك شخصان لهما نفس الشخصية تماما .

ق : وما هى الشخصية ؟ وما الذى يحددها ؟
ف : انها تتوقف بالدرجة الاولى على جوهر الانسان ، اى على العلاقات الاجتماعية المتغيرة تاريخيا . ولهذا تختلف شخصية عصر معين تنتمى الى طبقة معينة اختلافا جوهريا عن شخصية عصر آخر وطبقة اخرى ، وما يؤثر فى تكوين الشخصية هو موقف الانسان من عمله ومن طبقته ، والتربية العائلية والمدرسية ، ومستوى التعليم ، وسعة الاطلاع ، ومدى تطور القابليات الطبيعية لهذا الانسان . ويؤثر فى الشخصية كذلك طبع الانسان وموقف الآخرين منه وتقديره لذاته وهلمجرا . لهذا تكون كل شخصية فى ظل وجود الجوهر العام متميزة وفريدة . وهذا ما تتجلى فيه جدلية العام والخاص والفردى .

ق : استنتج من ذلك ان فهم كل شخصية محددة يتطلب منا معرفة ليس جوهر الانسان ككائن تاريخى اجتماعى

فحسب ، بل كذلك تفاصيل حياة وخصائص تربيته وسيرته ، الخ .

ق : صحيح تماما .

ق : هنا يبرز سؤال جديد . ان العلاقات الاجتماعية ، وبالتالي جوهر الانسان ايضا ، تتغير من عصر الى عصر . علاوة على ذلك ، ان هذا الجوهر يتجلى فى مليارات الشخصيات المختلفة ، ولكل هذه الشخصيات اهداف مختلفة وموقفها من الحياة متباين . فهل يمكن والحالة هذه ان يدور الحديث حول مغزى حياة وهدف حياة واحد بالنسبة للبشرية او بالنسبة لعصرنا على الاقل ؟

ق : يمكن ، بالتأكيد . وهذا الهدف الاسمى هو بلوغ حرية كل فرد وحرية المجتمع ككل .

ق : وماذا ستقدم لنا هذه الحرية ؟

ق : انها ستقدم لنا فرصة حياة كاملة القيمة ، اى حياة ابداعية ، وفرصة لتحقيق الذات تحقيقا تاما .

ق : ولكن لماذا كل هذه الاهمية للابداع ، للحياة الابداعية ، وماذا يعنى تحقيق الذات ؟

ق : ان كل عملية تطور ، كما تعرف ، هى نشوء الجديد (٤٠١) . ففي الطبيعة تذهب ملايين او مئات آلاف السنين على تكوّن القارات او الجبال او الانهار . ويستغرق نشوء الانواع الجديدة من النباتات والحيوانات كذلك الوفا او مئات عديدة من السنين . بينما يقوم الانسان المعاصر بانشاء انهار وبحيرات صناعية ويغير طبيعة الارض خلال سنوات او اشهر . لقد تعلمنا خلال فترة قصيرة من الزمن اشتقاق انواع جديدة من الكائنات الحية ذات صفات معطاة سلفا . والابداع هو بالذات الصنع الخلاق والهادف لما هو جديد خدمة لمصالح الانسان ولاجل تلبية احتياجاته المادية والروحية . لقد كان البشر على الدوام يزاولون الابداع ، لكنه كان فى الغلب الاحيان عفويا . علاوة على ذلك ، كان الابداع فى المجتمعات الاستغلالية من نصيب قلة قليلة من الناس ، وليس دائما فى صالح البشر . اذ كان ملايين الناس يعملون بحكم الفاقة

وانصياعا لارادة غيرهم ، ولاجل اهداف لا يفهمونها . وكانت قدراتهم الفطرية غير متطورة او تطورت تطورا وحيدا الجانب . ولم يكن مستوى القوى المنتجة ونمط الحياة وطابع العلاقات الانتاجية تتيح للبشر تحقيق افكارهم ومؤهلاتهم وآمالهم ومثلهم خلال عملية العمل المادى وفى الحياة الاجتماعية . ولم تكن تتوفر لاجل ذلك بوجه عام ظروف موضوعية .

وتحقيق الذات هو عملية تحقيق الافكار الهندسية والتقنية والقواعد الخلقية والفنية ومثل النظام الاجتماعى العادل وتجسيدها فى اشياء مادية وقيم روحية ، وفى حياة الانسان نفسها . وهو - اى تحقيق الذات - يرتبط ارتباطا لا ينفصم بالابداع ، وبالابداع الخلاق تحديدا . وهذا الابداع لا يمكن ان يتم الا فى حالة وجود الحرية الحقيقية التى لا يمكن بلوعها الا فى نتيجة تطور البشرية الطويل والمعقد .

ق : ولكن اذا اصبح البشر احرارا وراح كل منهم يفهم الحياة على طريقته ويسعى لتحقيق اهدافه وما الى ذلك ، افلا يقود هذا الى صدامات لا نهاية لها بين البشر ؟ فقد يرغب شخص لاجل تحقيق ذاته فى تأليف موسيقى ، ويظل يعزفها على البيانو من الصباح الى المساء ، وشخص آخر سوف تزعجه هذه الموسيقى ، ذلك انه بحاجة الى هدوء تام لاجل ان يحل مسألة رياضية . ثم ماذا ستكسب البشرية ككل اذا راح كل فرد يزاوِل تحقيق الذات الابداعى ويتصرف بحرية دون مراعاة للآخرين ؟ كما ان فى المجتمع اعمالا شاقة ، غير ابداعية ، وغير مستحبة كثيرا .

ف : انت تخلط بين العسف والحرية الحقيقية . اذ لا يمكن ان يكون حرا من يسبب بتصرفاته ضررا للآخرين او للمجتمع . لاجل ان نفهم ماذا تكسب البشرية من العمل الابداعى لكل فرد منها ومن تحقيقه لذاته وماذا يكسب الفرد خلال ذلك ، لننظر بمزيد من التفصيل فى جميع هذه المسائل ، ولنبتدىء من تناول ما هى الحرية وما هى الضرورة .

الحرية والضرورة . كانت مسألة ما هي الحرية وهل بإمكان الانسان ان يكون حرا احدى المسائل الازلية في الفلسفة . وفيها تتجلى مسألتها الاساسية ، اي مسألة علاقة الانسان بالعالم المحيط به .

لا ينبغي الخلط بين مفهوم الحرية الفلسفى والتصور العادى عن الحرية . فالحرية بالنسبة للفرد العادى تعنى التصرف الارتجالى التعسفى وتلبية كل رغبة تحدوء . فهل هذه الحرية ممكنة ؟ لنفترض ان شخصا فى صحراء محرقة رغب فجأة فى ان يسبح فورا فى جدول بارد . هذه رغبة غير قابلة للتحقيق لان هذا الشخص لا يراعى الضرورة الموضوعية وظروف الواقع . ولنفترض ان شخصا آخر ساورته رغبة فى ان يطير كالطيور . انه لا يستطيع الافلات من الجاذبية الارضية مهما رفر ف يديه كما يرفرف الطير بجناحيه . وهنا ايضا تصطدم الضرورة الموضوعية برغبته . ولكن أيعنى هذا ان الانسان عبيد دائم للضرورة وانه لا يستطيع تجاوزها والتصرف وفقا لرغباته ؟

كان فلاسفة الماضى القديم يعتقدون ان الحرية غير متاحة الا للآلهة . اما الانسان فمجرد لعبة فى يد الآلهة . انه عبد لاهوائه وللضرورة الخارجية . وكانت هذه النظرة تعكس ذلك المستوى من التطور الاجتماعى ، حين كان الانسان ضعيفا واعزل فى الصراع مع قوى الطبيعة ومع الاستغلال الطبقي . وكان علماء اللاهوت والفلاسفة المسيحيون يعتقدون بان الانسان يمكن ان يكون حرا ، لكنهم كانوا يفهمون الحرية فهما ضيقا جدا . فالحرية ، فى رأيهم ، تتمثل فى امكانية اختيار احد طريقين : القيام بافعال ترضى الرب ، وجزاء ذلك دخول الجنة ، او القيام بافعال ترضى الشيطان ، وجزاء ذلك الذهاب الى الجحيم .

كان سبينوزا ، وهو مفكر مادى هولندى من القرن السابع عشر يعتقد ان الضرورة هي التى لها الغلبة فى الطبيعة . اما الانسان الحائز للعقل فباستطاعته معرفة هذه

الضرورة . وبفضل ذلك يغدو حرا . فالحرية ، عند سبينوزا ،
هى معرفة الضرورة . فهل هذا صحيح ؟ أتكفى معرفة الضرورة
الموضوعية لتجاوزها وانهاء التبعية لها ونيل الحرية ؟
ان الرغبات وحدها لا تكفى لان تظهر فى الصحراء القائظة
بركة مياه صالحة للسباحة . بل تقتضى الضرورة اجراء اعمال
رى معينة : شق اقنية وجداول ، ايجاد مصادر للمياه ، تعلم
صيانة وتوزيع المياه بشكل صحيح ، الخ . وهذا يتطلب -
بدوره - معرفة قوانين الطبيعة واختيار مشروع البناء
الصحيح واتخاذ قرار معل علميا . غير ان القرارات
والمشاريع وحدها لا تكفى . فالضرورة تتطلب القيام بعمل
عظيم وتحويل المشروع الذى وقع عليه الاختيار الى واقع .
آنئذ فقط يستطيع الانسان التحرر من وطأة القيد وتحقيق
رغبته .

والرغبة وحدها لا تكفى لان يطير الانسان فى الهواء .
ففى العالم يسرى مفعول قوانين موضوعية مختلفة وضرورات
عديدة مختلفة . فالى جانب قانون الجاذبية الارضية هناك ايضا
قوانين مقاومة الهواء للجسام المتحركة فيه . ونحن لا
نستطيع التحرر من اى من هذه القوانين ، ومن اى من هذه
الضرورات . لكننا اذا عرفنا الضرورات الموضوعية فسوف
نتمكن من تجاوز مفعول احداها بالاعتماد على اخرى غيرها .
وهذا بالذات ما يفعله مصمم الطائرات ، مستخدمين مقاومة
الهواء لتجاوز قوة الجاذبية الارضية . لكن معرفة الضرورة
وحدها لا تكفى هنا ايضا . فبالاعتماد على المعرفة يجب اتخاذ
قرار صائب واختيار انجح تصميم وصنع الطائرة فى واقع
الممارسة . آنئذ فقط يستطيع الانسان ان يطير فى الهواء
بحرية .

على هذا النحو نجد ان الفهم الماركسى للحرية لا يحصرها
فى معرفة الضرورة فحسب ، بل يربطها بنشاط البشر
التطبيقي . ان يكون المرء حرا معناه ان يستطيع معرفة
الضرورة الموضوعية ، وان يضع - بالاعتماد على هذه
المعرفة - اهدافا صحيحة ، وان يتخذ ويختار قرارات

معلقة ، وان يحول في الممارسة هذه القرارات الى واقع .
لهذا كان انجلس يؤكد ان الحرية تتمثل ليس في الاستقلال
المتخيل عن الضرورة الموضوعية ، بل في القدرة على اتخاذ
قرارات قائمة على الالمام بالامور .

والحرية بهذا المعنى متاحة للانسان ، ولكن الا بصفته
كائنا اجتماعيا . فمن غير الممكن ان يكون المرء حرا بمنأى
عن المجتمع . فالانسان المعزول تماما ، حتى اذا تمكن من
معرفة الضرورة الموضوعية ، لا يستطيع تنفيذ حتى اكثر
القرارات حكمة . لقد كتب لينين ، ردا على المفكرين
البرجوازيين الذين يعتقدون ان الانسان ملزم قبل كل شيء
بالتحرر من التزاماته امام المجتمع : «ان من غير الممكن ان
يعيش المرء في المجتمع وان يكون متحررا منه» * . اذن ،
فحرية كل فرد لا يمكن بلوغها الا في ظروف تاريخية معينة ،
وبالتحديد في الظروف التي يكون فيها المجتمع بأسره
متحررا . فما هي هذه الظروف ؟

في التشكيلات التناحرية تتسلط على الانسان قوتان
قسريتان قاهرتان ، اى نمطان من الضرورة الخارجية . فهو
مرهون ، اولا ، بالضرورة الطبيعية ، وثانيا ، بالضرورة
الاجتماعية . وتتجلى هذه الضرورة الاجتماعية في شرطية
الاستغلال التاريخية . فالمستغلون ليس بمقدورهم ان
يكونوا احرارا لانهم لا يملكون الامكانيات المادية والروحية
اللازمة لتلبية احتياجاتهم . اما المستغلون فبسبب حيازتهم
للثروات المادية والسلطة السياسية يتمتعون بمرتبة معينة
من الحرية . لكنها هي الاخرى مؤطرة جدا ، وفي المقام الاول
بأطر الملكية الخاصة . وبالفعل ، لاجل ان يكون المرء حرا ،
عليه ان يعرف الضرورة التاريخية وان يتخذ القرار الصحيح
ويجسده في واقع الحياة . بيد ان الضرورة التاريخية تفضى
في نهاية المطاف الى الغاء الملكية الخاصة ، وبالتالي تدخل في
تصادم مع مصالح الطبقات المسيطرة المرتكزة على هذه

* لينين ، المجلد ١٢ ، ص ١٠٤ .

الملكية . ولهذا لا تستطيع هذه الطبقات معرفة هذه الضرورة حتى النهاية ، وتضطر الى اتخاذ قرارات والقيام بافعال تناقض هذه الضرورة ، وبالتالي ليس فى مقدورها ان تتمتع بالحرية الحقيقية . على هذا النحو ، لا يمكن ان تكون هناك حرية حقيقية فى المجتمعات الاستغلالية ، ومن ضمنها المجتمع الرأسمالى . فالكادحون ليسوا متحررين من الاستغلال ومن غياب الظروف المادية والمعنوية اللازمة لتطور الفرد من جميع الجوانب . اما المستغلون فهم غير متحررين من القيود السياسية والقانونية التى اوجدوها هم انفسهم ، وهى القيود اللازمة لحماية وتعزيز الملكية الخاصة العائدة لهم . فالحرية ، اذن ، ظاهرة تاريخية . والمرء لا يمكن ان يكون حرا فى المعرفة وحدها ، فى الفكر والخيال فحسب . هذه ليست حرية حقيقية . انها ذاتية ، اى امكانية مجردة لحرية حقيقية . اما الحرية الحقيقية فلا يمكن ان تعم الا فى ظل ظروف موضوعية مناسبة . ويجرى توفير هذه الظروف عند الانتقال الى الشيوعية . وكل فترة البناء الاشتراكى عبارة عن عملية تنام مطرد لحرية كل فرد من افراد المجتمع ، وبالتالي لحرية المجتمع بأسره . « . . ان التطور الحر لكل فرد ، - كما نوه ماركس وانجلس ، - هو شرط التطور الحر للجميع » * .

ويتطلب تحقيق الحرية لكل فرد وللمجتمع ككل تنفيذ الشروط التالية البالغة الاهمية : قبل كل شئ اقامة قاعدة مادية تقنية جبارة . وهذا امر ممكن ، اذا اجتمعت فقط منجزات التقدم العلمى التقنى مع افضليات الاشتراكية . ويجب ان يرتفع تطور القوى المنتجة الى المستوى الذى يحرر الانسان بأقصى قدر من العمل الشاق والمضنى ، ومن التبعية للطبيعة . وهذا يوفر الظروف لنيل التعليم الشامل الكامل القيمة وازدهار كل مؤهلات الفرد ، الامر الذى يزيد بدوره زيادة ملموسة امكانيات المجتمع فى تلبية الاحتياجات المادية

* ماركس ، انجلس . المؤلفات ، المجلد ٤ ، ص ٤٤٧ .

والروحية لافراده كافة . الى جانب ذلك سوف تنفتح آفاق منقطعة النظير للمضى قدما بالتحويل والتطوير الابداعى لمجمل الحياة الاجتماعية .

ولا يقل اهمية عن ذلك تطور وعى الناس نفسه وفهمهم العميق للتناسب الصحيح بين المصالح الشخصية والاجتماعية ، وتكوين الاحتياجات المعقولة ، والضبط الذاتى ، والاحترام المتبادل والتقيد الصارم بقواعد الاخلاق والنظام العام . ومن دون هذا الشرط يتعذر بوجه عام تحقيق الحرية . فالحرية لا يمكن ان تكون الا اذا كان بمقدور كل فرد ان يحد بنفسه من افعاله ونواياه ، دون ارغام خارجى كى لا ينتهك حرية الآخرين . وما دام هذا المستوى من الوعى غير محقق ، فان وظيفة التحكم بالعلاقات الاجتماعية يجب ان يضطلع بها كالسابق ليس فقط المواطنون انفسهم ، بل ومختلف المنظمات والمؤسسات الاجتماعية . ومع نمو الوعى ، سوف يضطلع افراد المجتمع انفسهم اكثر فاكثر بهذه الوظائف . لهذا يعتبر التطوير الشامل للوعى اهم مهمة لبلوغ الحرية على صعيد المجتمع بأسره ولصالح كل فرد من افراده . وبما ان كلا هذين الشرطين لا يمكن ان يطبق الا فى فترة الانتقال الى الشيوعية ، فقد كان لدى رواد الماركسية اللينينية كل المسوغات لاعتباره انتقالا من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية .

اذن ، فبلوغ الحرية - بالمعنى الذى تفهمه به الماركسية اللينينية - هو الهدف التاريخى للبشرية ، ذلك ان الانسان الحر الذى يعيش فى مجتمع حر هو وحده القادر فى الواقع على ان يكشف كشافا عمليا عن كل طاقاته الابداعية لما فيه خيره وخير الآخرين . وعندما يجرى توظيف هذه الطاقات الابداعية لا لاجل خوض الحروب ، ولا لاجل تحقيق اهداف مغرضة ، بل فى سبيل التطوير اللامحدود لمؤهلات الفرد وترقية مستوى الحياة البشرية ، آنئذ فقط يحل ملكوت الحرية . لكنها لا تنشأ على الضد من الضرورة الموضوعية ، بل بفضلها ، بفضل تخطى التناقض بين الحرية والضرورة ،

الذى اوجده تطوّر التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية
التناحرية .

٦٠٣

دور الفرد والجمهير الشعبية فى تطور وحياة المجتمع . كان
مؤد لجو الطبقات المستغلة يؤكّدون على الدوام ان الحرية
والابداع لا يمكن ان يكونا متاحين الا لنخبة قليلة من
البشر . اما اغلبية الناس التى يطلق عليها بازدراء نعت
الرعاع ، فليست قادرة الا على الانصياع ، وعلى ان تجسد
بعملها الاجبارى افكار الشخصيات الفذة ، صانعة التاريخ
والثقافة . على هذا النحو ترتبط مسألة الحرية والابداع
ارتباطا وثيقا بمسألة دور الفرد والجمهير الشعبية فى
العملية التاريخية .

وبالفعل ، هل يمكن وصف العملية التاريخية بعملية
تنامي الحرية البشرية اذا كانت هذه الحرية غير متاحة الا
لبعض الافراد ؟ وهل يمكن القول بأن الانتقال المنطقى
والمشروع من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية يعنى ان
ملكوت الحرية هذا لن يتيح فرصة الكشف عن المؤهلات
الابداعية الا لافراد معدودين ، بينما تبقى اوسع الجماهير
الشعبية خلفية لهؤلاء الافراد ، ومجرد منفذ لارادتهم
ونواياهم ؟ لقد أكد رواد الماركسية اللينينية ، ردا على هذه
الاسئلة ، ان المجتمع الشيوعى هو ملكوت الحرية الحقيقى
لاجل الجميع ، وان التطور التاريخى يجب ان يفضى الى
استعادة حرية الجماهير الشعبية الواسعة التى هى الصانع
الحقيقى للتاريخ . ان مفهوم «الشعب» او «الجماهير الشعبية»
يحد ذاته يختلف باختلاف التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .
ان الشعب فى المجتمعات التناحرية هو ليس كل سكان
البلد المعنى او الدولة المعنية ، بل هو فقط الجزء الاكبر من
السكان . وهو بالدرجة الاولى **الجماهير الكادحة** التى تصنع
كل القيم المادية والثقافة المادية للمجتمع . ويتحدد دور
الشعب فى العملية التاريخية بكونه يشكل القوة المنتجة
الرئيسية ، وبهذا المعنى هو **الصانع الحقيقى للتاريخ** . بيد

ان نشاط الجماهير الشعبية لا يقتصر على الانتاج المادى وحده . فالكادحون يصنعون ايضا اساس الثقافة الروحية ، اى اساس نتاجات الفنون الشعبية ونماذج الابداع الانشائى العمارى الشعبى ، ويطورون اللغات القومية ، وهم صانعو وحمله القيم الروحية البالغة الاهمية والموقف المخلص من العمل والروح الوطنية والوعى الذاتى القومى وهلمجرا .

الى جانب ذلك ، يختلف دور الجماهير الشعبية ومستوى فاعليتها الابداعية باختلاف العصور التاريخية . فعندما نطالع الكتب التى تبحث فى تاريخ المجتمع ونزور المعارض الفنية ونستمع للمؤلفات الموسيقية العظيمة تواجهنا باستمرار أسماء شخصيات لامعة من رجال الدولة والقادة والفنانين والموسيقيين . اما أسماء الملايين من الكادحين البسطاء فتبقى مجهولة . وعلى مثل هذه الوقائع بالذات يستند المؤدلجون البرجوازيون حين يدعون ان التاريخ تصنعه الشخصيات الفذة ، اما الشعب فليس سوى مادة خاملة لصنع التاريخ . الا ان القضية فى واقع الحال ليست كذلك . فقد كان بين ملايين الكادحين البسطاء الذين ظلوا مجهولين عدد لا يستهان به من الموهوبين والمتفوقين فى الذكاء والمؤهلات ، الذين لم تنل قدراتهم التطور والتوظيف المطلوب لان المجتمع التناحرى لم يكن بحاجة الى مؤهلاتهم من جهة ، ولم يفسح لهم فى المجال كى يتطوروا ، بل كان يعتمد الى خنق «المواهب الفائضة» ، من جهة اخرى . ولكن لماذا كانت الحال على هذه الصورة ؟ أفلم تكن الطبقات المسيطرة تكسب وتنتفع من تطور مؤهلات الكادحين كافة ؟ يتضح ان تطور المؤهلات هذا ليس فقط فائضا عن اللزوم فى المجتمعات الطبقيّة التناحرية ، بل - والاهم من ذلك كثيرا - انه يتنافى مع طرائق الانتاج الاستغلالية ، ذلك أن النشاط الاجتماعى للجماهير الكادحة وابداعها يعملان على تصعيد الروح الثورية والوعى الذاتى ومقاومة الاستغلال . لهذا السبب بالذات تعرقل الطبقات المسيطرة تطور المؤهلات الابداعية حقا للجماهير الشعبية الواسعة . لهذا لم يحفظ لنا

تاريخ التشكيلات التناحرية سوى اسماء قلة قليلة من
الشخصيات الفذة .

ان الكادحين يصنعون الجديد على الدوام ، وبهذا القدر
او ذاك ، حتى اذا كانوا مشغولين بعملهم الاجبارى المنهك
الرتيب . غير ان نشاطهم مقيد بمستوى تطور القوى
المنتجة وبشكل العلاقات الانتاجية السائد . وحتى فى ظروف
التطور السريع نسبيا للانتاج الصناعى فى ظل الرأسمالية
يصبح العمال مجرد توابع للتقنية . ولا تحظى روح الابتكار
لديهم ولا يحظى نشاطهم الرامى الى ترشيد الانتاج ومؤهلاتهم
التنظيمية ومبادراتهم الابداعية بالدعم الا حين يعود ذلك
بارباح اضافية . لذا تغدو ظروف الوجود الاجتماعى نفسه فى
ظل المجتمع الاستغلالى كابحا لمبادرات وابداع الجماهير
الشعبية .

ولكن فى لحظات التاريخ الانعطافية العادة ، ومع اشتداد
التناقضات التناحرية ، وفى فترات الثورات الاجتماعيه
يتنامى نهوا حادا نشاط الجماهير الشعبية السياسى الواعى
(٤٢١) . وفى كل مرة يفضى هذا الى نمو كفى فى النشاط
الاجتماعى والسياسى . وهذا ما يؤكد تاريخ الحركة الثورية
والوطنية التحررية فى بلدان العالم كافة . اذ تبرز من بين
اوساط الشعب نفسه شخصيات فذة من رجال السياسة
والقادة المفكرين ومنظمى الانتاج الخ . وعلى هذا النحو
نخلص الى استنتاج مفاده ان هناك علاقات موضوعية معينة
بين الجماهير الشعبية والشخصيات المنفردة فى العملية
التاريخية .

ان المادية التاريخية لا تنكر دور الفرد فى التاريخ
والحياة الاجتماعية . فعلى الضد من المثاليين الذاتيين الذين
يدعون ان الشخصيات الفذة ، بحكم موهبتها ومؤهلاتها
الفائقة ، تحدد مصائر الشعوب ، وتوجه حسب اهوائها تطور
الثقافة ، بينما الجماهير ليست سوى منفذ لافكار هذه
الشخصيات ، ترى الفلسفة الماركسية اللينينية ان بمقدور
الفرد ان يؤثر تأثيرا ملحوظا فى مجرى الاحداث الاجتماعية

فى ظل ظروف موضوعية محددة تماما . فما هى هذه الظروف ؟
ان بمقدور هذا القائد او ذاك ان يؤثر فى سير الاحداث
التاريخية ، اذا كان يعكس بأصح واعمق صورة مصالح طبقة
او فئة اجتماعية معينة ، ويجيد تنظيم نضال الجماهير من اجل
اهداف معينة ، واذا كان يعتمد على دعم قوى اجتماعية معينة ،
ناهيك عن ان يعتمد على دعم الشعب بأسره . وبامكان هذا
الفرد ان يترك أثرا ملحوظا فى تطور المجتمع اذا كان يعكس
فى نشاطه وفى نواتج ابداعه بأعمق صورة احتياجات عصره
ويقترح طرقا لحل المضكلات المختصرة . وبامكاننا الان ان
نقدر بمزيد من الدقة دور الفرد فى العملية التاريخية .
وبمقدور هذه الشخصية الاجتماعية البارزة او تلك ان تعتبر
تقدمية ، اذا كانت تعبر عن مصالح طبقات وقوى المجتمع
التقدمية ، وتكرس حياتها لتحقيق المثل الاجتماعية التقدمية .
وتحدد تقدمية الفرد التاريخية الواقعية بمدى عمله على تنفيذ
المهام الاجتماعية التاريخية الماثلة امام الشعب المعنى او
الدولة المعنية ، ذلك التنفيذ الذى يرتهن به تطور المجتمع
باطراد . والتقدمى هو من يمهّد لحرية الانسان ، ولبلوغ
اسمى درجات العدالة الاجتماعية ، ولتحسين الوسط
المعيشى ، ولتحقيق مثل الانسانية وتطوير الديمقراطية وبلوغ
الحقيقة . وبامكان مثل هذه الشخصيات ان تؤثر تأثيرا
ملحوظا ، بل وكبيرا جدا فى بعض الاحيان فى العملية
التاريخية . بيد ان التقسيم الصارم والوحيد المدلول لجميع
الشخصيات التاريخية الى تقدمية ورجعية من شأنه ان يكون
تقسما ساذجا وبدائيا جدا . فالبشر جميعا ، ومن جملتهم
زعماء المجتمع ، معقدون ومتعددو المدايل ، ولا يندر ان
يغيروا مواقفهم وآراءهم ، ويتصرفون تصرفات متباينة فى
مختلف المواقف التاريخية . وهنا ايضا يعتبر النشاط
الاجتماعى الحى معيارا للحقيقة واساسا للتقويم الصحيح .

٦٠٤

الفرد والجماهير فى المجتمع الاشتراكي . يجرى نشوء
الاشتراكية فى صراع شاق وطويل غالبا . بيد ان المجتمع

الجديد ، حين ينشأ ويترسخ ، يفتح فرصا جديدة تماما امام تطور الفرد . والعامل الحاسم للتطور الاجتماعى يبقى فى ظل الاشتراكية ايضا هو الجماهير الشعبية . فبفضل ابداعها الثورى بالذات يجرى توفير اشكال جديدة للحياة وبنية اجتماعية جديدة ، وثقافة وعلاقات جديدة بين البشر . وفى مسعى الى تصوير الاشتراكية بمظهر مشين ، يردد خصومها باصرار ان التوجه نحو تطوير ابداع الجماهير الثورى بشتى السبل يجعل المجتمع الجديد مجتمعا جماعيا لا مكان فيه للشخصيات اللامعة ولتطور الصفات الفردية . ولئن كانت القوة الحاسمة فى الانتاج وفى الحياة الاجتماعية السياسية وفى التحويلات الاجتماعية كافة هى الجماهير ، واذا كانت الاحزاب الشيوعية والعمالية هى القوة القائدة ، فان الفرد ، كما يزعمون ، يلعب فى مثل هذا المجتمع دورا لا يزيد بتاتا عن دور برغى صغير فى النشاط الحيوى لمصنع كبير . لذا فان التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة لا تعد الشخصيات اللامعة والمتفردة ، فى رأيهم ، بشىء . بيد ان هذه الطروحات مجانية للصواب تماما من الناحيتين النظرية والتطبيقية .

ان الجماهير الشعبية ، أى جماهير الكادحين الواسعة ، هى القوة الحاسمة فى التاريخ بأكمله ، وفى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية كافة . رغم ذلك يختلف دورها ووظائفها وبنيتها ، وكذلك علاقاتها مع الفرد فى التشكيلات التناحرية اختلافا نوعيا عما هى عليه فى ظل الاشتراكية . ويختل هنا النموذجان التاليان :

يتلخص النموذج الاول فى ان الشخصية اللامعة الاصلية او المجموعة التى تضم شخصيات كهذه تشكل نخبة متميزة ، قوة من المختارين الذين يقودون سواهم من الناس ، أى الجمهور ، ويفرضون عليه تصورات ثقافية واذواقا وقوالب حياة ومساطر سلوك ، ويقتادونه على الطريق الذى اختاروه هم انفسهم له نحو اهداف رسموها هم انفسهم كالراعى الذى يقود قطيعا من النعاج . ويتمثل النموذج الآخر فى ان الجماعة البشرية نفسها ، أى الجمهور نفسه ، يتألف من افراد

لامعين ، مستقلين ، ذوى فكر ابتكارى وعلى نصيب كبير من الثقافة . وكل فرد منهم يشارك تبعا لقابلياته وميوله فى وضع الاهداف الاجتماعية السياسية وصنع القيم الثقافية وتكوين نمط الحياة واصول السلوك .

فى الحالة الاولى نرى حشدا من الافراد المتجانسين ، المتسمين بسمات القاسم الوسطى والعديمى الهوية الذين يمكن الاستعاضة عن بعضهم ببعض ، وبالتالي ليست لهم قيمة اجتماعية . وفى الحالة الثانية يطالعنا نسق من البشر اللامعين ، المتطورين من جميع الجوانب ، والتائقين الى اقصى قدر من تحقيق الذات ، مع مراعاة المصالح العامة وقواعد الاخلاق والعدالة الاجتماعية (٦٠١) . وهذا النموذج الثانى هو الذى يعتبر نموذجا لعلاقات الجماهير والفرد فى ظروف الاشتراكية .

وهذا لا يعنى ان هذا النموذج الثانى سوف يسرى مفعوله فورا فى المجتمع الاشتراكى ، حالما ينشأ ويترسخ ، وان كل فرد يغدو بصورة تلقائية شخصية لامعة ، شجاعة ، مبدعة ، حرة الفكر ومتطورة من جميع الجوانب . فالامور فى الحياة الواقعية اكثر تعقدا بكثير . اذ يدخل الناس فى الاشتراكية حاملين معهم خصائصهم الفردية ومصالحهم الفتوية وقوالب سلوكهم التى ورثوها من الماضى ، وهم يواصلون لفترة طويلة اخرى من الزمن ، بحكم القصور الذاتى الاجتماعى ، تقل آرائهم وعاداتهم ونمط حياتهم وسلوكهم للاجيال الصاعدة ، وذلك عن طريق تربيته على ما تربوا هم انفسهم عليه . لذا فليس بالامر البسيط والهين تنشئة وتنمية الانسان الجديد ، وخلق الشخصية الجديدة حقا ، وليس الفرد الواحد فحسب ، بل وجمهور الافراد الاحرار ، المبدعين ، الواعين ، الذين يحترم بعضهم بعضا ، كما يحترمون قواعد الحياة الاجتماعية . انه امر يتطلب جهودا غير قليلة ، ويجرى فى خضم الصراع مع من يعيق التقدم عن وعى او عن غير وعى ، ويعرقل تكون الموقف الحياتى الفعال لكل فرد على سبيل المثال ، ادى الركون الى السكينة وقصر النظر والتزمت

والبيروقراطية لدى جزء من قيادة المجتمع السوفييتي منذ
اواسط السبعينات الى تباطؤ وتائر التنمية الاقتصادية
الاجتماعية في الاتحاد السوفييتي والى التخلف في العلم . على
هذا النحو تنشأ في المجتمع الاشتراكي ، بحكم جملة من
الاسباب ، صعابه وتناقضاته الجدلية (٤٠٧) التي يتطلب
تخطيها عزيمة واصراراً كبيرين . لذا فكل من ينتقد الاوضاع
غير المرضية ويكشف عن النواقص ويسعى الى تغيير الوضع
القائم وتنشيط وتطويع كل انواع النشاط الاجتماعي
والسياسي والروحي يثير لدى المتزمتين موقفاً معادياً . ولهذا
السبب ايضاً يجرى تكون النشاط الفعال للفرد التائق الى
تحقيق مثل الاشتراكية ، هو الآخر ، في صراع لا يحدث
بدونه ولا يمكن ان يحدث تقدم . ولن يكون المجتمع حراً
ومزدهراً الا اذا اصبح فيه كل فرد حراً وبات يتمتع بحريته
لما فيه خير المجتمع ، وبالتالي لما فيه خير الفرد نفسه .
لذا فالقرار بالدور المتعاطف للجماهير الشعبية الواسعة
في ظل الاشتراكية ليس فقط لا يلغى ، بل - على العكس -
يفترض ويتطلب توفير الظروف والضمانات اللازمة لتنمية كل
مؤهلات الفرد ومواصفاته الشخصية الى اقصى درجة . وكلما
ازداد في المجتمع عدد الافراد اللامعين الموهوبين المتحلين
بنكران الذات والاخلاق الرفيعة ، عاد هذا بالمزيد من النفع
على المجتمع نفسه .

٦٠٥

الديمقراطية الاشتراكية والتربية الشيوعية . يقتضى بلوغ
مثال الاشتراكية الاسمى تحقيق ارفع مستوى من العدالة في
توزيع الخيرات المادية والثقافية والتقييد التام بالقانون
والنظام العام وتطبيق حقوق الانسان كافة . وفي ظروف
المجتمع الاشتراكي تغدو السياسة (٢٢٦) والتربية من أهم
وأبرز الادوات التي يتم بواسطتها بلوغ هذه الاهداف . غير
ان الادوات لا تمارس فعلها تلقائياً . فالانسان يحتل مركز
النشاط السياسي والتربوي . لكن ألم يكن الانسان على
الدوام وفي كل المجتمعات يزاول النشاط السياسي وتربية

الآخرين ، وخاصة الاجيال الصاعدة ؟ فما الذى يجرى فى ظل الاشتراكية من جديد فى هذا الصدد ؟
لقد كانت المبادرة السياسية ، شأنها شأن الوظيفة التربوية الرئيسية ، للطبقات المسيطرة فى المجتمعات التنافسية ، أى لممثليها كالكلية والمؤدلين ورجال الدولة والبرلمان . وكان هؤلاء هم ذات هذا النشاط وقوته الفاعلة ، اما الجماهير الشعبية فقد كانت موضوعا سلبيا ، أى «حقلا» - ان جاز القول - يحتره ويبدوه ممثلو النخبة المسيطرة كيفما يشاؤون .

تتمثل السمة المميزة للاشتراكية فى ان اوسع اوساط الكادحين فى ظلها هى فى نفس الوقت ذات وموضوع التربية والنشاط السياسى . فهى التى تدير شؤون المجتمع وتضع قواعد واصول السلوك الاجتماعى . واداة هذا النظام الجديد للاشياء هو الديمقراطية الاشتراكية .

ان «الديمقراطية» تعنى فى اصلها اليونانى القديم سلطة الشعب . وتطلق صفة الديمقراطية عادة على طريقة تنظيم السلطة عندما تقوم الجماهير الشعبية الواسعة بانتخاب الشخصيات السياسية التى تتزعم الدولة وتصدر القوانين . فقد كان البالغون من افراد المجتمع الاحرار فى المدن الصغيرة التى كانت قائمة فى بلاد الاغريق القديمة يشاركون فى انتخابات مختلف ذوى المناصب والمسؤولين والحكام الذين كانوا يشرفون على تنفيذ القوانين ويطبقون القضاء ويضطلعون بنشاط الدولة اليومى وشؤونها الدفاعية ، ويديرون الشؤون الدولية . وكانت القوانين فى هذه الدول - المدن القديمة تسن هى الاخرى عن طريق الاقتراع العام ، ولكن ينبغى ان نأخذ بعين الاعتبار ان الديمقراطية هناك كانت ترتدى طابعا طبقيا محدودا ، ذلك ان المشاركة فيها كانت محظورة على العبيد المحرومين من حقوق الانتخاب او الترشيح .

وفى الدول المعاصرة تطبق الديمقراطية عبر نظام النواب الذين يجرى انتخابهم حسب قوانين معينة ويوليهم الناخبون

خلال الفترات بين الانتخابات العامة حق النيابة عنهم فى
مزاولة التشريع والرقابة على السلطة التنفيذية ومناقشة كل
القضايا التى تهم المجتمع . على سبيل المثال ، هناك الآن
ديمقراطيات برجوازية معاصرة . لكن هذه الديمقراطيات فى
الواقع تمنح شكليا فقط حقوقا متكافئة لجميع المواطنين
ونصيبا - يدعى انه متكافى* - من المشاركة فى مزاولة
السلطة . فالمساواة الشكلية امام القانون ، والحقوق
والواجبات المتكافئة لافراد المجتمع يشطبها فى الواقع
التفاوت الاقتصادى ووجود الاغنياء ، والفقراء . وتتركز وسائل
الاعلام الجماهيرى والدعاية الانتخابية والتحكم بالرأى العام فى
يد من يحوز وسائل مادية ومالية جبارة .

ولا تتوفر لأول مرة الا فى ظل الاشتراكية الظروف
اللازمة للمساواة الحقيقية ، لا القانونية الشكلية فحسب ، بل
والاقتصادية الاجتماعية لافراد المجتمع كافة ، وهذا لا يعنى
ان اقامة سلطة الشعب الحقيقية تجرى فى كل البلدان
الاشتراكية بسهولة ويسر ، دون صعاب ودون انحرافات ،
وبلا حوادث انتهاك للعدالة الاجتماعية . بيد ان قوة ومزايا
المجتمع الاشتراكى تتلخص فى كونه قادرا على ان يدرك
ادراكا تقديريا الاخطاء والانحرافات عن مثل الاشتراكية ، وعلى
تخطيها واجتثاثها . وعملية التخطي هذه لا يمكن ان تجرى
دون صراع بين انصار التقدم والمتزمتين ، بين
البيروقراطيين والمدافعين عن الديمقراطية . ولكن فى خضم
هذا الصراع بالذات تنشأ القناعات السياسية الحقيقية
ويتوطد الوعى السياسى الديمقراطى .

ان نائب هيئات السلطة العليا والمحلية فى المجتمع
الاشتراكى ملزم حسب القوانين والدستور بالمثول للمساءلة
امام الناخبين . واذا لم ينفذ ارادة الناخبين ، ولم يدافع عن
مصالحهم دفاعا مقبولا ، ولم يزد عن القرارات الديمقراطية ،
ولم يناضل فى سبيل العدالة الاجتماعية ، فبامكان الناخبين
ان يسحبوا الثقة منه وأن ينتخبوا نائبا آخر . وفى سياق
الحملة الانتخابية تستطيع مختلف المنظمات الاجتماعية وفرق

العاملين قرشيح شخصيات مختلفة وذات آراء مختلفة ففى مسألة كيف ينبغى الدفاع عمن مصالح الشعب وحل ابرز المعضلات الاجتماعية المختمرة والملحة .

وتستخدم الديمقراطية فى المجتمع الاشتراكى على نطاق واسع فى عملية ادارة الاقتصاد الوطنى وتوزيع الخيرات المادية وتنظيم نشاط فرق العاملين فى المؤسسات الصناعية والزراعية والتعاونيات ودوائر التصميم والبحث العلمى . فبامكان كل عضو من اعضاء فريق العاملين ، اذا كانت تتوفر لديه المعارف والخبرة اللازمة ، واذا كان يتمتع باحترام رفاقه وكانت لديه ميول شخصية مناسبة ، ان ينتخب لاشغال منصب قيادى . اما فى المجتمع الراسمالى فان رئاسة المؤسسات والاتحادات والشركات فوق القومية لا ينتخبها من يعمل فى هذه المؤسسات ، بل يقتصر انتخابها على اصحاب المؤسسات وحملة الاسهم . وعلى الضد من ذلك تعتبر الديمقراطية فى المجتمع الاشتراكى ديمقراطية تامة ، اذ ليس فيها تمييز لاسباب عرقية او قومية او دينية او اسباب تتعلق بالملكية او مستوى التعيين او الجنس .

لقد نوه الفيلسوف الفرنسى غيلفيتسى الذى عاش فى القرن الثامن عشر بان الانسان يربى منذ بدء حياته لا بالكلام ولا بملاحظات معلميه وتوجيهات ذويه ، بقدر ما يربيه الواقع ذاته ومجمل ظروف الحياة والبنية الاجتماعية التى يعيش فيها والنشاط الذى يشارك فيه . ولا ينبغى الظن ان الناس فى المجتمع الاشتراكى مجردون من الاهواء والميول ومشاعر النفور والاعجاب وسمات الطبع الفردية الساطعة . على العكس ، انهم يتسمون بكل هذه الصفات بأوفى قدر . ان العلنية الواسعة عند مناقشة كل القضايا التى تهم كل مواطن واهتمامه بمصير فريق العاملين الذى ينتمى اليه ومساهمته الفعالة على جميع مستويات النظام الاقتصادى والحكومى لاتخاذ القرارات وتنفيذها تتيح الفرصة لتجلى كل هذه السمات التى تسم الفرد تجليا تاما . وعلى كل فرد فى ظروف الديمقراطية الاشتراكية حين يحقق ذاته ان يراعى فى الوقت

نفسه مراعاة تامة مصالح الآخرين وخصائصهم واهدافهم الشخصية . على هذا النحو تتوفر فى ظل الاشتراكية امكانيات منقطعة النظير لتنشئة الشعور بالروح الجماعية ولتكون السمات الفردية الساطعة وتفتح مؤهلات كل فرد على السواء . ولاول مرة فى التاريخ تتطابق اهداف ومصالح المجتمع تطابقا تاما وكاملا مع اهداف ومصالح الفرد .

٦٠٦

تسريع التقدم الاقتصادى الاجتماعى . البيريسترويكا والعامل البشرى . يشكل التقدم الاقتصادى الاجتماعى والروحى (٤٢٢) سمة ملازمة للمجتمع . لكنه يجرى فى مختلف العصور ومختلف التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية (٢١٣، ٢١٧-٢٢٠) جريانا متفاوتا ، وبسرعة متباينة ، ولا يندر ان تتخلله فترات مديدة من الركود وحتى التقهقر . ويمكن لفترات الركود هذه ان تحدث ايضا فى تطور المجتمع الاشتراكى . ففى الاتحاد السوفييتى ، وبصرف النظر عن الوتائر السريعة للتنمية الاقتصادية الاجتماعية طوال العقود العديدة التى اعقبت الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧ ، ادى التخلي عن المناهج الاقتصادية فى الادارة ، والمركزية المفرطة ، والتخلي عن مبادئ الديمقراطية الاشتراكية ، واعتماد الطرائق الفردية الى اشتداد نزعات الركود .

كل هذا فرض فى اواسط الثمانينات الاقرار بضرورة اعادة تركيب الاقتصاد والحياة الاجتماعية والسياسية بشكل جدى . وتمس عملية اعادة التركيب (البيريسترويكا) هذه كل ميادين الحياة الاجتماعية ، وكل المؤسسات الاجتماعية والمنظمات السياسية . وهى تتطلب القضاء على البيروقراطية والفساد وانتهاكات القانون وحقوق الانسان ، وعلى النزعة الذاتية فى القيادة السياسية . وتشمل البيريسترويكا ايضا الحزب الشيوعى الذى تبنى طريق اشاعة الديمقراطية الداخلية وجعل النشاط السياسى الفعلى مساهرا تماما للمبادئ النظرية وايدىولوجيا التجديد . ويراد من تطبيق هذه البيريسترويكا التى تتضمن استقلالية اقتصادية كبيرة

لفرق العاملين فى المؤسسات وتوسيع رقعة النشاط. الاقتصادى التعاونى والفردى ان توفر الممهدات اللازمة لتسريع التقدم العلمى والتقنى والاجتماعى ، وتسريع كسب اشكال النشاط الاجتماعى والاقتصادى والروحى الثقافى . ويرتبط التوجه نحو تسريع التنمية الاقتصادية الاجتماعية ايضا بأعادة النظر الفلسفية فى فهم العامل البشرى ودوره . من غير الصحيح ان نفهم العامل البشرى فهما مبسطا ، باعتباره مجموع الاسباب التى تنشط فاعلية الناس الانتاجية والاجتماعية . فالانسان لا يعمل ولا يشارك فقط فى الحياة السياسية ، بل ويكون اسيرة ويستجمل ويطالب ويعاشر اصداقاه ويزاول هذه او تلك من الاعمال غير الانتاجية فى اوقات فراغه ، ويربى اطفاله ويتسلل ويحلم وهلمجرا . اما اذا حرم من المسرات والهموم اليومية واثقلت عليه الاجراءات البيروقراطية واستنفدت قواه العصبية الاجهاد التقنية المختلفة ، فلا يمكن ان يكون مواطنا كامل القيمة ورب اسيرة وصانع مصيره وعضوا كامل الحقوق فى هذه او تلك من فرق العاملين . واذا لم يجز توفير الظروف الملائمة لمزاولة كل انواع النشاط الحيوى البشرى الطبيعى ، فقد يتحول العامل البشرى من آلية للتقدم الى كابح لهذه الآلية ، فتضعف جراء ذلك فاعلية الناس وينخفض نشاطهم الاجتماعى والانتاجى والسياسى والشخصانى . وتتمثل أهمية الادراك الفلسفى لدور العامل البشرى فى تطور المجتمع تمثلا واضحا فى فهم تناقضاته وفى ضرورة حفز جوانبه الايجابية حفزا واعيا وهادفا وخفض جوانبه السلبية الى الحد الأدنى ، وهى الجوانب التى تظهر عندما لا تجرى مراعاة هذه او تلك من امور واقع الحياة البشرية وواقع مصالح البشر واحتياجاتهم . فى الوقت ذاته ، توجد فى الحياة الاجتماعية ذاتها نزعات مختلفة وغالبا ما تكون متناقضة . لهذا يحدث حتى فى المجتمع الذى تبنى طريق الاشتراكية تباين معين فى الملكية وفوارق فى نمط حياة مختلف اوساط السكان والفئات الاثنية والمهنية . وهناك ايضا توجهات خلقية روحية مختلفة

لا تتطابق دائما مع مثل ومبادئ العدالة والانسانية والديمقراطية . وثمة فرص للاجرام والفساد والبيروقراطية وبعض مظاهر اللامرعية والخمول الاجتماعى وما الى ذلك . لذا فالسعى الى تنشيط العامل البشرى يعنى ، بالدرجة الاولى ، الحرص على جعل الناس يدركون حقيقة ان اجثاث كل هذه الظواهر السلبية لا يمكن ان يتم باجراءات القسر ورقابة الدولة فحسب ، أو بالتأثير من الجهات العليا فقط . ان التحويل الحقيقى للحياة وتطبيق البيروسترويكما الجذرية فيها ليسا سوى نتيجة الجهود والمساعى الدائمة للفرد والمجموع .

٦٠٧

الطريق الى الحضارة الجديدة . يفتح تسريع التقدم الاقتصادى الاجتماعى بصفته سُنَّة موضوعية للاشتراكية الفعلية آفاقا جديدة لتطور وارتقاء الحضارة الشيوعية . فما هى الحضارة ؟ نحن كثيرا ما نتحدث عن المجتمع المتحضر والبشر المتحضرين والسلوك الحضارى وهلمجرا . ويعتبر مفهوم الحضارة مقولة من أهم وأبرز مقولات المادية التاريخية تميز السمات الجوهرية والنزعات والخصائص البنيوية من تطور المجتمع . فما هى هذه السمات والخصائص والنزعات ؟ ان مقولة «التشكيلية الاقتصادية الاجتماعية» (٢١٣)

تصف المجتمع من حيث العامل الذى يحدد تطوره . وهى ترينا ان بنية المجتمع واكتماله الكيفى والقوانين الموضوعية لتطوره التاريخى ، وكذلك توالى وتعاقب هذه الاكتمالات ترتعن بطريقة انتاج الخيرات المادية . بيد ان المادية التاريخية لم تحصر قط ولا تحصر كل اشكال وانواع النشاط الاجتماعى ، وكذلك مضمون الثقافة الروحية فى الانتاج المادى وحده . فكلما كان المجتمع اكثر تطورا ، وكلما كان مستوى تطوره كتشكيلية ارقى وأرفع ، اكتسب الفن والاخلاق والعلم والفلسفة والقانون مزيدا من الاهمية فى حياته ، وازدادت اشكال السلوك الاجتماعى تعقيدا ، واصبحت انواع الروابط والاتصال والاختلاط بين البشر اكثر ثراء وتنوعا . وكل هذه الجوانب من الحياة الاجتماعية ، التى

تشمل عناصر المجتمع المادية والروحية على السواء ، باعتبارها «جسما اجتماعيا» ومنظومة دينامية متميزة (١٠٦) ، هي التي تنعكس في مفهوم الحضارة .

ظهر هذا المفهوم لأول مرة في الادب الفلسفي البرجوازي في القرن الثامن عشر . واستخدم رواد التنوير الفرنسيون ، ومن ثم المفكرون البرجوازيون في بريطانيا والمانيا وروسيا مفهوم الحضارة لوصف حياة وثقافة المجتمعات المتطورة ، العالية الثقافة نسبيا ، والتي تتمتع بنظام معين للدولة والقانون . وكانوا يضعون المجتمع المتحضر نقيضا للمجتمع غير المتحضر ، أى الهمجي ، الوحشي ، البدائي . لهذا كانت مختلف مفاهيم الحضارة تستخدم في احيان غير نادرة ففى تبرير «الرسالة الحضارية» المتميزة للبلدان الرأسمالية المتطورة تجاه البلدان والشعوب المتخلفة ، وتتخذ فى واقع الحال كتعليل لسياسة الاحتلال الاستعمارية التى تنتهجها الدول البرجوازية . اما حقيقة ان البلدان والشعوب المتخلفة فى تطورهما كانت فى احيان غير نادرة تحوز ثقافة وحضارة عريقة متفردة خاصة بها ، فغالبا ما كانت تسقط من الحساب ، مما أدى الى خراب الكثير من آثار الثقافة النفيسة والحاق ضرر لا يعوض بالتقاليد الثقافية القومية .

كان الفيلسوف ومؤرخ الثقافة الالماني الرجعى شبنغلر (١٨٨٠-١٩٣٦) يعتبر الحضارة مرحلة تأزم استثنائية فى تطور كل ثقافة تاريخية مغلقة . وتتسم هذه المرحلة ، فى رأيه ، بتطور التقنية ، وباكتظاظ المدن الكبيرة بعدد عملاق من البشر ، وبانحطاط الاخلاق والنظام العام ، وبضياع الاهتمام بالقيم الثقافية ، وبتدهور الفنون السخ . وكان المؤرخ الانجليزى توينبى (١٨٨٩-١٩٧٥) لا يفهم الحضارة الا كطريقة ، كوسيلة يجرى بواسطتها فرز وتسجيل ودراسة جوانب معينة من كل ثقافة متميزة قائمة . وكما نرى ، فان مفهوم «الحضارة» كان ولا يزال يودى دورا ملحوظا فى تحليل الظواهر الاجتماعية المعقدة . بيد ان الفهم العلمى حقا لهذه المقولة لم تقدمه سوى الفلسفة الماركسية اللينينية .

الحضارة هي مرتبة معينة في تطور الحياة الاجتماعية تتسم بتقسيم متميز للعمل وبما يقوم فوقه من عمليات اجتماعية ، وكذلك بأشكال مختلفة من تفاعل البشر . وفي المجتمع الاشتراكي الذي لا توجد فيه الا الطبقات والفئات الاجتماعية المتألفة تسم الحضارة مستوى تطور الثقافة والعلاقات الاجتماعية ، وكذلك مستوى تطور النشاط الانتاجي الاجتماعي ، في تفاعلها العضوي الجدلي . وتتطلب الحضارة الجديدة مجتمعا ذا ثقافة روحية ومادية عالية التطور ، تسوده اصول وقواعد الاخلاق الشيوعية ، مجتمعا يتمثل مبداه الخلقى ومبدأ سلوكه ونشاطه في التعاضد والتآخي والموقف الابداعي ازاء الفرد والتقيد الواعي بالنظام العام وارتفاع مستوى ضوابط العمل والانتاج والتنفيذ . والحضارة الجديدة لا تنشأ فورا بشكل جاهز ، انما تتكون في خضم الصراع مع ترسبات الرأسمالية في الوعي والمعيشة ، ومع قواعد السلوك والافعال المنافية للثقافة والاخلاق ومبادئ التنظيم الاجتماعي الاشتراكية . والسمة المميزة للحضارة الشيوعية الجديدة هي السعي الى تخطي التخلف الثقافي والاقتصادي لبعض الشعوب والقوميات ، وتوفير ظروف متكافئة لتطور جميع البلدان والشعوب التي سلكت طريق بناء الاشتراكية والشيوعية . ويتنافى التحضر الشيوعي الجديد مع ما يسمى بـ«الرسالة الحضارية» التي كان مؤد لجو البرجوازية يعتبرونها امتيازا لقلّة قليلة فقط من الدول الرأسمالية العالية التطور . وهذا هو ما يجعل الحضارة الشيوعية الجديدة على هذا القدر من الجاذبية في انظار الملايين من البشر ، وما يجعل النضال من اجل صيانتها وتطويرها هدفا لنشاطهم الاجتماعي والشخصي . ويتطلب استمرار نمو وتطور الحضارة الجديدة فهما واضحا وعلميا لآفاقها واهدافها القريبة والبعيدة .

٦٠٨

النضال من اجل السلام ومصائر البشرية . يعتبر النضال من اجل تقادى الحرب النووية وفي سبيل تعزيز وصيانة السلام

احدى ابرز وأهم قضايا العصر العرتبطة بمستقبل وجود الانسان وامكانية هذا الوجود بحد ذاتها .

لقد كان ثمة وجود للحروب ، كشكل معين من اشكال العنف ، منذ عقود سحيقة من الزمن . ومع نشوء الطبقات والدول اصبحت الحرب شكلا متميزا للعنف السياسى . فالحرب امتداد للسياسة بوسائل اخرى . والحرب امتداد لسياسة هذه الطبقة او تلك فى كل مجتمع طبقى - ففى المجتمع العبودى والاقطاعى والرأسمالى - ، وكانت هناك حروب تشكل امتدادا لسياسة الطبقات المضطهدة ، وأخرى تشكل امتدادا لسياسة الطبقات المضطهدة . على هذا النحو ، هناك حروب عادلة وأخرى جائرة ، احتلالية ودفاعية ، حروب فى صالح الطبقات المسيطرة وحروب تحررية ثورية فى صالح الكادحين .

وكانت اغلبية الحروب التى وقعت فى المجتمعات الاستغلالية حروبا جائرة ، احتلالية ، لصوصية . وكانت تعود بالنفع على الطبقة المسيطرة وتسبب للكادحين ويلات ومصائب جمة . وكانت الحروب فى المجتمع العبودى احسد المصادر الاساسية لتوريد العبيد . يقول الفيلسوف اليونانى القديم هيراقليطس : «أن الحرب أم وملكة كل ما فى الوجود . . جعلت بعض ابنائها عبيدا وبعضهم الآخر احرارا» * .

وبالرغم من ان المسيحية قد ادانت الحرب بالاقوال ، اقترنت كل فترة القرون الوسطى المسيحية بحروب نهب متواصلة وحملات صليبية وحروب اقطاعية داخلية وما الى ذلك . ولكن الحروب فى عصر الرأسمالية اصبحت اشدّها ضراوة واكثرها اراقة للدماء . ففى الحروب والحملات الكثيرة الرامية الى احتلال المستعمرات واستعباد الشعوب الاخرى تجلت بوضوح خاص الصفة الانسانية للمجتمع الرأسمالى الذى يتمثل هدفه الرئيس فى جنى الارباح وزيادة الملكية

* ماديّو بلاد الاغريق القديمة . موسكو ، ١٩٥٥ ، ص ٤٦ .

الخاصة بأى ثمن . فالاعتياش على حساب الآخرين والاثراء وتوطيد ملكية وسلطة الطبقات المسيطرة هـى المضمون الرئيس للحروب الجائرة . وعلى العكس ، كانت الحروب العادلة تنشأ فى سياق الثورات الاجتماعية وفى اثناء الانتفاضات الشعبية .

وبما أن الحروب ترتبط بهلاك البشر وتدمير القيم المادية والروحية ، فقد كانت مسألة امكانية التخلص منها على الدوام احدى أهم وأبرز المسائل العقائدية الفلسفية . فمنذ العهود القديمة ، ولاسيما فى العصر الجديد ، كان الكثير من المفكرين البارزين ، كانسانى عصر النهضة ورواد التنوير الفرنسيين (روسو ، مونتيسكيو ، كوندورسه) ، وكانط وآخرين ينددون تنديدا شديدا بالحروب ، ويطرحون مشاريع سلام دائم ويدعون الى اتفاق الاموال لا على التسلح ، بل على تطوير المجتمع سلميا . بيد ان كل هذه النوايا الحميدة كانت مجردة ، ولم تراع حقيقة ان المجتمع القائم على الملكية الخاصة بما يلزمه من تناقضات تناحرية عميقة (٤٠٦) يتمخض عن الحروب بحكم الضرورة الموضوعية .

وأشتدت مسألة تفادى الحروب فى فترة الامبريالية ، حين يجعل تطور التقنية الحروب اكثر دموية ودمارا . فقد اودت الحربان العالميتان الاولى (١٩١٤-١٩١٨) والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) اللتان اضرمت نارهما الدول الامبريالية العدوانية بحياة عشرات الملايين من البشر ، وأدتا الى خراب مئات المدن وآلاف المراكز السكانية ، وإلى فناء القوى المنتجة والكثير من قيم الثقافة . وتتجذر الحروب الاحتلالية العدوانية فى طبيعة الامبريالية ذاتها . الى جانب ذلك ، تتمخض أزمة الرأسمالية العالمية ، والانتقال الى المجتمع الاشتراكى الجديد الذى يشكل مضمون العصر الراهن ، وانهيار نظام الامبريالية الاستعمارية عن جملة كاملة من الحروب الاهلية والوطنية التحررية العادلة . ومن الامثلة على هذه الحروب الحرب الاهلية فى روسيا وحرب الشعب

الفيتنامى الوطنية التحررية وحرب الشعب السوفييتى الوطنية العظمى (١٩٤١-١٩٤٥) .

واذ تقر الماركسية اللينينية بوجود اسباب اقتصادية واجتماعية موضوعية للحروب فى المجتمع الطبقي وفى ظروف اشتداد التناقضات الاجتماعية التى تتناهش البشرية المعاصرة ، فهى ترى ان ليس هناك حتمية قدرية للحرب العالمية . وتدلل جدلية الحريية والضرورة (٦٠٢) على ان الانسان قادر على فهم القوانين الموضوعية فهما صحيحا ، وعلى اتخاذ وتطبيق القرار الصحيح بالاستناد الى هذه القوانين . وتندرج هذه الثقة فى اساس النضال المنتظم والعنيد الذى تخوضه الاحزاب الشيوعية والعمالية وبلدان الاسرة الاشتراكية وسائر قوى البشر الطبيعية التقدمية من اجل تفادى الحرب النووية العالمية .

ان الحروب كافة تؤدى الى هلاك البشر . وفى بعض الحالات لا يكون هناك اطلاقا ما يبرر هذه الضحايا ، وفى حالات اخرى - كما فى حالة الحروب الثورية والتحررية - تقدم هذه التضحيات قربانا لحرية واستقلال وسعادة الاكثرية من اعضاء المجتمع . بيد ان الحرب النووية العالمية تطرح امام البشرية لا مجرد مسألة التضحيات المبررة او غير المبررة ، بل مسألة فناء كل الاحياء على الارض ، ومن ضمنها الانسان نفسه .

على هذا النحو يغدو تفادى الكارثة النووية معضلة يتوقف على حلها مصير البشرية نفسه ووجود المجتمع وامكانية استمرار التقدم التاريخي . لهذا تكتسب هذه المعضلة أهمية عقائدية ، فلسفية ، لها الاولوية .

ومع ظهور المجتمع الاشتراكي واسرة البلدان الاشتراكية تظهر لأول مرة فى التاريخ امكانية تفادى الحروب العالمية ، فمن اين تنشأ هذه الامكانية ؟ القضية هى ان مبدأ حب السلام متأصل فى المجتمع الاشتراكي وفى طبيعة الاشتراكية ذاتها . فالمجتمع الذى ليس فيه طبقات تناحرية وملكية خاصة لا مصلحة له فى خوض الحروب . وحتى اذا اضطر الى خوض

حروب دفاعية عادلة ، فهو يفعل ذلك فقط كرد على الاعمال العدوانية للدول الامبريالية . فالاشتراكية فى جوهرها ذاتة معنية بالسلام كشرط اساس للتطوير السريع للانتاج المادى والثقافة الروحية لما فيه خير المجتمع بأسره . علاوة على ذلك ، ان الاسرة الاشتراكية العالمية ليست فقط معنية بصيانة السلام ، بل وتحوز ما يكفى من القدرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية للتصدى للنوايا العدوانية التى تبنتها الامبريالية العالمية . وليست هذه القوة سوى ضمانة مهمة لصيانة السلام وتوطيده .

ان وثائق الحزب الشيوعى السوفييتى تعلن احكاما بالغة الاهمية عن النضال من اجل السلام وتفادى الحرب النووية والاستثمار العالمى للفضاء الكونى ، وعن التعايش السلمى بين الدول ذات الانظمة الاقتصادية الاجتماعية المختلفة . ويدافع الحزب الشيوعى والدولة السوفييتية عن برنامج بناء واسع يتضمن تدابير ترمى الى وقف سباق التسلح ونزع السلاح وضمان سلام وأمن الشعوب . ويتطلب هذا البرنامج تلاحما وثيقا بين القوى التقدمية المحبة للسلام فى جميع بلدان ومناطق العالم على اساس الادراك الشامل والعميق لتلك الآثار الخطرة على البشر التى يمكن ان تقضى اليها الحرب الصاروخية النووية . ان أهم وأبرز استنتاج فلسفى فى الظروف الراهنة هو الادراك الواضح لحقيقة ان مصالح صيانة السلام ، وبالتالى صيانة البشرية ، تبدو فى مواجهة الخطر النووى العالمى وكأنها تتقدم لتشغل المقام الاول ، بينما تتراجع المصالح الفتوية الى المقام الثانى . لذا فالقوى المناضلة من اجل السلام تعبر عن اعمق المصالح البشرية العامة .

٦٠٩

المستقبل المنتظر . ان الفلسفة الماركسية اللينينية هى بالدرجة الاولى فلسفة الفعل . وليس عبثا ان يؤكد ماركس ولينين فى معرض الحديث عن مهمتها الرئيسية ان المادية الجدلية ، بخلاف سائر المنظومات الفلسفية السالفة ، لا تقتصر

على تفسير العالم ، بل تعين الطريق المفضى الى تغييره وتعلل ضرورة هذا التغيير . ولأجل ممارسة الفعل لابد من حيازة القدرة على برمجة النشاط ، ولأجل برمجته لابد من امتلاك القدرة على التنبؤ بالمستقبل وتصوره . لهذا السبب بالذات كان البشر على الدوام ، بصفاتهم كائنات عاقلة وهادفة النشاط ، يحاولون تمزيق حجب الضباب والاطلال على المستقبل . بيد ان الحياة نادرا ما كانت تنصاع حتى لاشجع الرؤى والتنبؤات . فلماذا يا ترى ؟

تعتبر المستقبلية من احدث اتجاهات الفكر الاجتماعى البرجوازي المعاصر وأكثرها شيوعا . ويحاول المستقبليون البرجوازيون ، بالاعتماد على ما يدعون انه مناهج علمية ، رسم لوحات متنوعة لمستقبل البشرية البعيد والقريب .

تصور احدى هذه اللوحات بشر القرن الحادى والعشرين بهيئة حشد عملاق من المراكز الصناعية الضخمة . قآلاف المؤسسات المجهزة كليا بالروبوتات تجعل مجهود الانسان المتوسط فائضا عن اللزوم ، فيغدو مليارات البشر أناسا فائضين عن الحاجة من سكان الارض . وسيتولى العباقره ادارة شؤون البشر ، ويظهر تنظيم خاص للسلطة هو حكم العباقره . وسيقضى على المليارات من البشر المستنزفين ، الكالحين ، العديمى الهوية بالانقراض ، وستنشأ الحاجة الى صناعة تسليات عملاقة لملء اوقات فراغهم . ولن يكون هؤلاء الفاقدون للاهتمام بالحياة وللارادة فى الكفاح ومزاولة النشاط سوى عبارة عن عبء ثقيل على النخبة الحاكمة . وليس لدى هؤلاء البشر أيما آفاق سوى الانقراض التدريجى .

وتصور اللوحة الاخرى للمستقبل عملية تبدو وكأنها مضادة للاولى . فالمدن العملاقة تخلو تدريجيا من السكان ، اذ سيحاول البشر العودة الى الطبيعة ، الى المستوطنات الصغيرة . وعن طريق استعمال التقنية العصرية ، ومنها الكمبيوترات الصغرى سيقومون بانشاء مؤسسات صغيرة ومتوسطة . وسينشأ الكثير من المؤسسات والطوائف المستقلة ، المعزولة ، المتنافسة فيما بينها . وسيحاول البشر

على اساس صناعى جديد احياء «العصر الذهبى» لورشات حرفى العصور الوسطى التى ستنتج سلعا عصرية . وفى هذه الظروف فقط ، كما يدعى واضعو سيناريوهات المستقبل هذه ، يتسنى حتى ولو ادنى قدر من صيانة شخصية الانسان وصفته الفردية . وبعكس ذلك سيفقد الناس هويتهم فقدانا تاما ويتحولون الى كائنات «وحيدة البعد» ، الى توابع بسيطة للمؤسسات الصناعية العملاقة والشركات فوق القومية . فأنشطار المجتمع الى طوائف متفرقة سيكون ثمن صيانة حتى ولو الشخصية البائسة .

وثمة لوحة اشد قتامة يرسمها اصحاب تلك السيناريوهات التى تقول بحتمية الكارثة النووية وانقراض البشر جراء عواقبها المدمرة . فالبشر المرضى والمشوهون اما لن يتسنى لهم تشغيل المعدات التقنية العصرية وتأمين حاجتهم الى الغذاء والسكن ، واما سيتحولون الى عبيد للروبوتات «الخالدة» والمتقنة والمعصومة من الخطر .

لن نخوض فى تفاصيل كل هذه السيناريوهات للمستقبل ، بل نكتفى بالاشارة الى خاصيتها الرئيسية : انها تنبئ جميعا من فكرة خلود الرأسمالية . ويجرى تحويل الاحساس القائم بحتمية هلاكها الى تخمينات متشائمة بنفس القدر من القتامة . فالمستقبليون البرجوازيون على استعداد للقبول بفكرة هلاك البشرية وانتصار ملكوت الروبوتات وسيطرة الحضارات الخيالية الوافدة من اعماق الكون وما الى ذلك ، حسبهم الا يقرأوا بانتصار الاشتراكية والشيوعية .

ان فكرة انتصار المجتمع الاشتراكي والنظام الاجتماعى الجديد العادل لم تنشأ أمس . فقبل ظهور مؤلفات ماركس وانجلس بوقت طويل كانت هناك الاشتراكية الطوباوية (٢٣٣) . وقد رسم اكثر ممثليها موهبة لوحات ساطعة عن المستقبل الاشتراكي وافعموها بأعجب التفاصيل . فقد وصفوا وصفا مفصلا ملابس ومعيشة سكان هذا المجتمع ، ووضعوا فى مؤلفاتهم تصاميم مفصلة لمساكنهم وجدول نشاطهم اليومى ، ودرساتهم وقوانين الطوائف الاشتراكية المقبلة ،

وحددوا سلفا كيف ستعقد عقود القران وكيف سيربى الاطفال .
وكان ممثلو هذه الاشتراكية الطوباوية الحاملة يؤمنون بأنها
ستنشأ لا في نتيجة صراع الكادحين الجماهيري الثوري ، بل
في نتيجة نشاط المفكرين الافذاذ التنويري . ولا داعي
للتنويه بأن احلامهم هذه ظلت مجرد احلام ولم تتجسد في
واقع الحياة ، لان الاشتراكية والشيوعية يمكن ان يشيدا
في النضال الضاري والعنيد ، وبجهود اوسع الجماهير الشعبية
التي تقودها احزاب طليعية تركز على نظرية الشيوعية العلمية
وليس على الاشتراكية الطوباوية .

ان الاساس النظري والمنهجي لنظرية الاشتراكية العلمية
هو بالضبط الفلسفة المادية الجدلية . فبعد اكتشاف القوانين
الاكثر عمومية لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر ، واثبات ان
الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي ، وان التحويل الثوري ،
بصفته اعظم قفزة تاريخية من ملكوت الضرورة الى ملكوت
الحرية ، يجب ان يبتدىء بالذات من تحويل الوجود الاجتماعي
نفسه ، عللت المادية الجدلية الضرورة الموضوعية للانتقال
الى التشكيكة الشيوعية .

وباثبات الحتمية التاريخية للشيوعية ، لا تقترح الفلسفة
الماركسية اللينينية ايما لوحات طوباوية للمستقبل . وهي لا
تفرض على المستقبل ايما تفاصيل حياتية تقوم على التصورات
والانجازات الراهنة . ولئن راعينا وتائر التقدم العلمي التقني
المتنامية باطراد فسوف نجد ان من غير الممكن اصلا التنبؤ
بمثل هذه التفاصيل . عوضا عن ذلك ، تقوم الفلسفة
الماركسية عن طريق تعميم تجربة التطور التاريخي والحركة
الثورية العالمية ، وبموثوقية علمية ، بتبيان المراحل الاساسية
لانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، ومن طور الشيوعية
الاول ، أي المجتمع الاشتراكي ، الى طورها الثاني الاسمي ،
أي الشيوعية التامة . ويمكن ان يجرى هذا الانتقال بأشكال
مختلفة مع مراعاة الخصائص الملموسة لكل بلد ، واصطفا
القوى الطبقيّة والوضع الدولي والوقت الذي تبتدىء فيه العملية
الثورية (٢١٤) . ولكن مهما كان تنوع الاشكال ، يبقى مضمون

هذه العملية كما هو عليه . وهو ينطوى على مراحل بناء المجتمع الاشتراكي وتطوره الشامل وصولا الى الشيوعية .
ومع تراكم خبرة البناء الشيوعي تغتنى التصورات العلمية عن الطور الاسمي للمجتمع الجديد وتتحدد بشكل ملموس .
أما محاولات استباق الزمن واعتماد المبادئ الشيوعية ، دون مراعاة مستوى نضوج المجتمع ماديا وروحيا ، فمحكوم عليها بالفشل ، كما تبين التجربة ، ويمكن ان تترتب عليها عواقب ، سواء اقتصادية أو سياسية الطابع .

كيف ومتى سيسلك كل شعب وكل بلد طريق التحولات الاشتراكية والشيوعية ، وبأى توال ستطبق هذه التحولات -
تلكم اسئلة يجب ان يجيب عنها التاريخ . أما الفلسفة الماركسية اللينينية فتكتفى بالبرهنة على ان مثل هذه التحولات لا مفر منها . ولهذا فهي تحلل - دون تنبؤ بتفاصيل المستقبل -
الضرورة التاريخية لحلول المجتمع الشيوعي ، مؤكدة ان الطريق اليه ليس معبدا وسهلا ، لكنه منطقي ومشروع . وهذا هو ما يحدد اسهام الفلسفة الماركسية اللينينية فى تكوين العقيدة العلمية ، ويجعلها أهم وأبرز اداة لتنشئة الوعي الشيوعي وتكوين الموقف الحياتي الفعال لدى الانسان الجديد .
على هذا النحو ، عند الحديث عن المستقبل وازاحة الحجب التي تخفيه لا ترسم الفلسفة الماركسية اللينينية تفاصيل ودقائق خيالية ، لكنها تشير الى القوانين الاساسية ومراحل الطريق الذي يجب ان يفضى الى الشيوعية .

حديث اخير مع القارى*

القارى* الذى يشرع فى مطالعة هذا القسم الختامى ،
الاخير من الكتاب يكون قد اطلع على مضمونه . فما الذى يمكن
قوله الآن عن الفلسفة العلمية المعاصرة ؟ وكيف يمكن الاجابة
عن سؤال : ما الغرض منها ؟ واى نفع يجنيه من اطلع على
معضلاتها الاساسية ومنهجها ومضمونها ؟

يقال ان ثمة معبدا يونانيا قديما فى مدينة ديلفى ، حيث
تنبأت الكاهنة بثونيسا بالمستقبل ، كان يحمل على واجهته
عبارة «ايها الانسان ، اعرف نفسك» . ويدل تاريخ الفكر
البشرى وتاريخ البشرية الطويل عموما على ان هذا المطلب
ليس بالمهمة الهينة . فقد شيد الناس وهدموا مدنا ودولا
باكملها ، وحولوا الاراضى الجرداء الى جنان غناء ، وجعلوا
المراعى الجميلة والغابات العظيمة صحارى قافرة . وانجز
البشر نتاجات فنية باهرة وروائع ادبية عظيمة ، لكنهم هم
انفسهم دمروا اعظم آثار فن العمارة واحرقوا المكتبات وطاردوا
وقتلوا احيانا كبار الفلاسفة وعلماء الفلك والفنانين والشعراء
ورجال السياسة . كان الناس يتحاربون ويتصالحون ، يصنعون
الشر والخير ، يناضلون من اجل العدالة وينكرون حتى امكانية
تحقيقها . لقد وهبوا الابطال الى العالم ، لكنهم هم انفسهم
قدموا غلاة المجرمين ايضا . فما هو هذا الانسان يا ترى ؟
وكيف السبيل الى معرفته ؟ وهل هذه المعرفة ممكنة اصلا ،
وفيم تتمثل قيمتها ؟

ان العالم المحيط بنا الذى تدرسه العلوم الطبيعية معقد

ورائع . ونحن نعلم الآن كيف تبدو بنية الذرات والدقائق البسيطة . ونعرف الكثير أيضا عن الكون المرئى الذى يبلغ قطره زهاء ٢٥ مليار سنة ضوئية . لقد ارتاد الانسان الفضاء الكونى وصنع الكمبيوترات التى تقوم بعشرات مليارات العمليات فى الثانية ، والقادرة على حل مسائل لم تكن حتى وقت قريب متاحة الا للانسان ، بل وحتى بعض المسائل التى كان من غير الممكن حلها بوجه عام من دون حاسبات الكترونية . ولكن كل افعال الانسان وكل تصرفاته متناقضة جدا وغير متجانسة ، ومتنوعة وغالبا ما يخالف بعضها بعضا . ليس من اليسير بتاتا معرفة الانسان والمجتمع الانسانى ، ناهيك عن التنبؤ بمستقبل البشرية . فمعرفة العالم المحيط بحد ذاتها لا تكتسب المغزى والاهمية الا اذا تسنى لنا ان نجيب عن سؤال : لماذا نحن بحاجة الى هذه المعرفة ، وما الذى تقدمه للبشر ؟ ان أيا من العلوم التخصصية لا تعطى ولا يمكن ان تعطى مثل هذا الجواب . فى الوقت ذاته نحن نعرف الآن ان الانسان هو الذى يقوم بمعرفة العالم ولاجل تلبية احتياجاته . اذن ، فالعالم لا يمكن معرفته دون ان نفهم ما هى هذه الاحتياجات ، وما هو مغزى الوجود البشرى . وبالعكس ، لا يجوز فهم الانسان دون ان نفهم العالم ، ذلك ان الانسان هو جزء منه ، هو اكليل التطور الطويل والمعقد . هكذا يتضح ان مسألتى معرفة العالم بمعزل عن الانسان ، ومعرفة الانسان الواقف فى مواجهة العالم وبمعزل عنه تستعصيان تماما على الحل اذا اخذ كل منهما بمفرده . ولا يتيح لنا الاقتراب من الجواب الصحيح الا تخطى التناقضات الخارجية لهاتين المسألتين وتبيان وحدتهما الداخلية العميقة . ولن يتسنى لنا ان نفهم ما هو مغزى الوجود البشرى وما هى رسالة الانسان ، الا اذا عثرنا على المنهج الحقيقى لمناقشة مسألة مكانة الانسان فى العالم وجوهر العلاقة بين الانسان والواقع الخارجى . والمادية الجدلية هى التى تقدم هذا المنهج . وهو يبين لنا ان الانسان يسير على طريق وعر هو طريق الاخطاء والاكتشافات والكفاح الدؤوب والبحث المضنى

عن الحقيقة صوب اهدافه المنشودة . اى الحرية والعدالة والابداع اللامحدود والازدهار المتناسق لمؤهلاته وقابلياته . وتعلمنا كل الاديان السماوية ان عملية الابداع العظمى - اى خلق العالم - حكر على الرب . بيد ان الانسان يستطيع ترسيخ نظام اجتماعى عادل ومعقول وانسانى لن يكون فيه اناس مهانون ومظلومون ، مستغلون ومسلوبو الحقوق ، مطاردون ومطاردون ، حكام مستبدون ورعايا خائعون . ان بإمكان مثل هذا المجتمع ان يتعايش مع الطبيعة بانسجام تام ، عوضا عن السيطرة عليها ، وبإمكان كل فرد ان يتمتع بهباتها دون ان يلحق ضررا بالآخرين .

الى مثل هذا المثال الاجتماعى الاسمى ، الى المجتمع الذى كل شىء فيه من صنع الانسان ولخير الانسان نفسه ، كان يسعى خيرة مفكرى الماضى . ولكن ما الذى أعاقهم عن تحقيق احلامهم ؟ ان جميع مصلحي البشرية و«مُحسنيها» العاثرى الحظ كانوا يرون سبب ذلك فى تحجر البشر وتزمتهم وجهلهم وميولهم المعيبة وانجرارهم الى الخطيئة . ولكن مهما جرى فضح هذه النواقص ، ومهما كان التشبث بأفضل جوانب الطبع البشرى حماسيا ومتوقدا ، لم تتغير الاوضاع على مدى قرون طويلة ، وظلت العدالة والحرية بعيدتى المنال . وظلت دعوة بثونيسا الى معرفة الانسان ، او بعبارة اخرى ، الى معرفة جوهر المجتمع بمنأى عن التحقق .

ولم يجر لأول مرة الا بظهور الفلسفة الماركسية اللينينية الثورية اثبات وتوكيد معطيات العلم لكون جوهر المسألة يكمن فى تغيير المجتمع وبنيته الاقتصادية الاجتماعية . فعندما وضع انصار العقيدة الماركسية الفهم المادى للتاريخ وشكلوا تنظيما سياسيا ثوريا قادرا على تزعم نضال قوى المجتمع التقدمية من اجل تحويله اجتماعيا ، اظهروا ان فهم الانسان يعنى تناوله كتعبير وتجلى مكثف للعلاقات الاجتماعية المحددة تاريخيا . فوعى الانسان يرتدى طابعا اجتماعيا . وتغيير الوعى الاجتماعى يتطلب تغيير الوجود الاجتماعى بشكل ثورى . ولاجل ان تتنحى الاهواء الدنيئة وحب التسلط والجشع والارادة

التخريبية وغيرها من الجوانب السلبية للسلوك البشرى ليحل محلها الابداع الانسانى وحب المعرفة والشعور الانسانى والاخلاق الرفيعة ، لابد قبل كل شىء من تغيير الواقع الاجتماعى ذاته ، والعلاقات الاجتماعية ذاتها ، وتوفير ظروف انسانية حقا للانسان .

ان تحقيق هذه الاهداف ليس بالامر الهين . اذ كانت ولا تزال وستبقى تعترض طريقه صعاب جمة ، وقد ارتكب على هذا الطريق وسيرتكب قدر لا يستهان به من الاخطاء ، ذلك ان البشرية لا تحوز بعد الخبرة فى مثل هذه التحويلات الاجتماعية الشاملة والواسعة النطاق . ولكن التحوط الى اقصى درجة لشتى الصعاب الموضوعية وتقليل الاخطاء والهفوات المحتملة الى ادنى درجة يتطلبان من قوى المجتمع الطبيعية الاسترشاد فى نشاطها بالعقيدة العلمية الطبيعية التى ينبغى على اساسها تكوين وتطوير التفكير الجديد . وهذا بالذات هو ما يملى ضرورة دراسة اصول الفلسفة ، والفلسفة الماركسية اللينينية بالذات ، كونها تركز فى صلبها منجزات العلم المعاصر والتجربة التاريخية وممارسة البناء الاشتراكى . ولا يمكن الا بواسطتها معرفة مغزى وجوهر الوجود البشرى واهداف المجتمع وآفاقه التاريخية .

محتويات

٣	طريقة الافادة من هذا الكتاب
٦	مدخل . ما هي الفلسفة ؟
٦	الفلسفة . لمن ولاى غرض
٢١	المسالة الاساسية للفلسفة وموضوعها ومنهجها
٤٠	نشوء وتطور الفلسفة
٥٨	الفصل الاول . المادة والوعى
٥٨	المادة ولوحة العالم
٧٩	الحركة والزمان والمكان
٩٥	الانعكاس كصفة عامة للمادة
١٠٩	وعى الانسان
١٢٣	الفصل الثانى . الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى
١٢٣	الفهم المادى للمجتمع وتاريخه
١٥٥	التعليم الخاص بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية
١٨٠	وظائف واشكال الوعى الاجتماعى
٢١٢	الفصل الثالث . الطبيعة والمجتمع
٢١٣	بصدد ترابط الطبيعة والمجتمع
٢٢٢	البيئة ، البيولوجى والاجتماعى فى تطور المجتمع
٢٤٠	الطبيعة والمجتمع فى عصر التقدم العلمى التكنى
٢٥٢	الفصل الرابع . القوانين الاساسية للجدلية
٢٥٢	مصادر التطور
٢٧٥	اشكال التطور
٢٩٨	اتجاه التطور
٣١٤	الفصل الخامس . نظرية المعرفة
٣١٤	جدلية عملية المعرفة
٣٤٠	اشكال ومناهج المعرفة العلمية
٣٦١	الفصل السادس . الانسان والمجتمع
٣٩٥	حديث اخير مع القارى

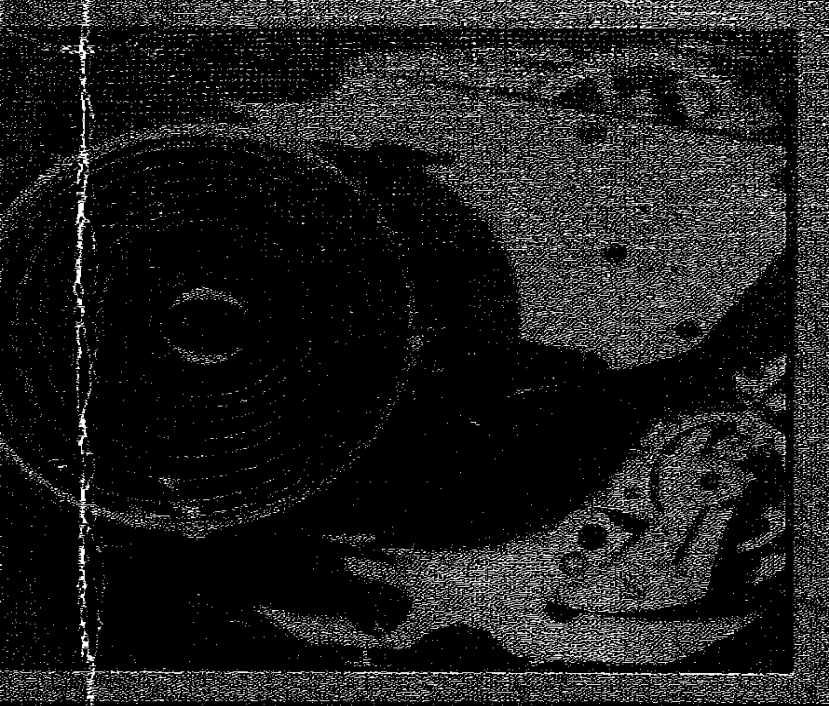
الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ،
وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها من
رغباتكم .

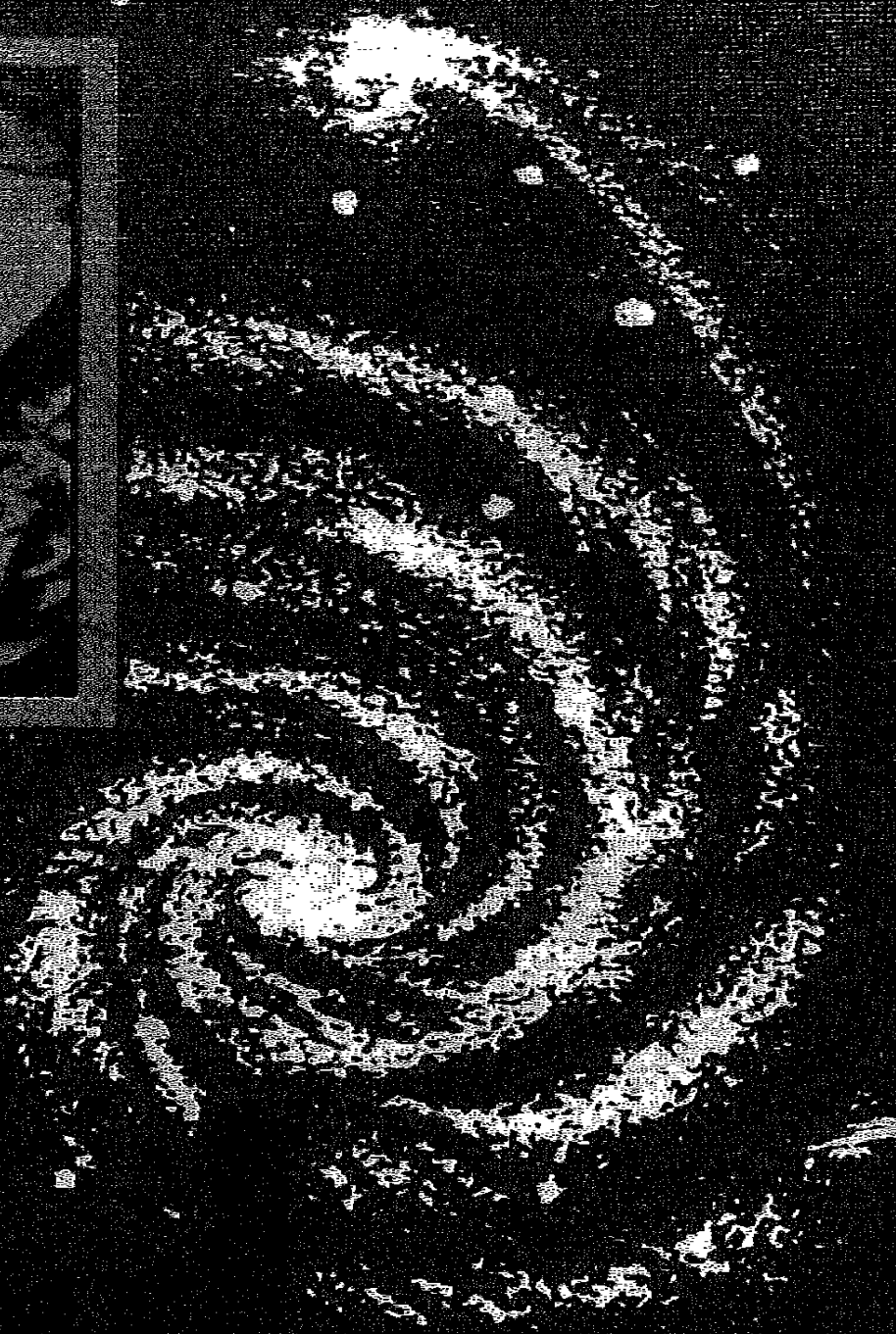
العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧

موسكو — الاتحاد السوفييتي

دار التقدم



مكتبة الطالب



To: www.al-mostafa.com